التفسير المأمون

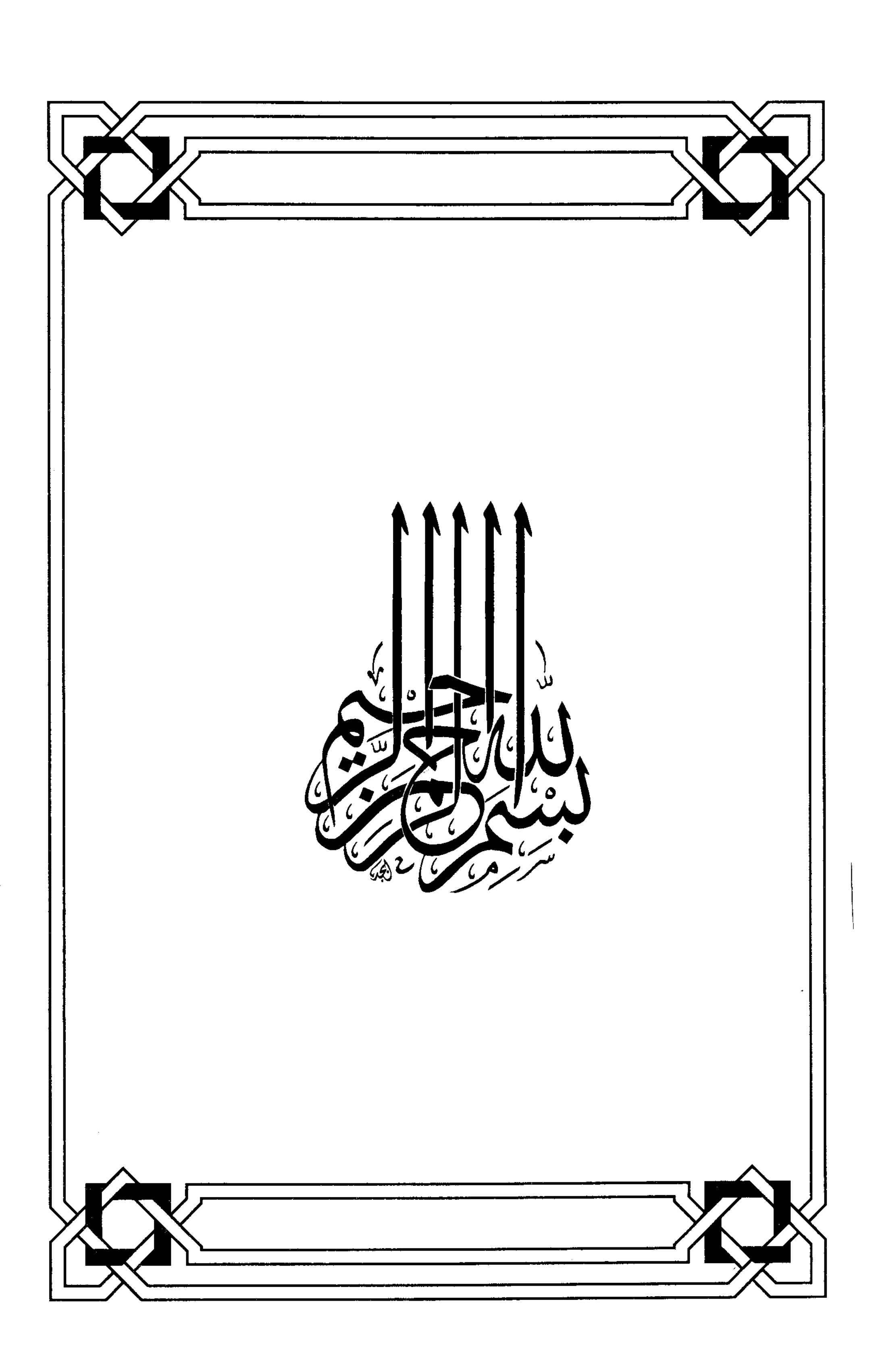
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء الرابع

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ المأمُونُ

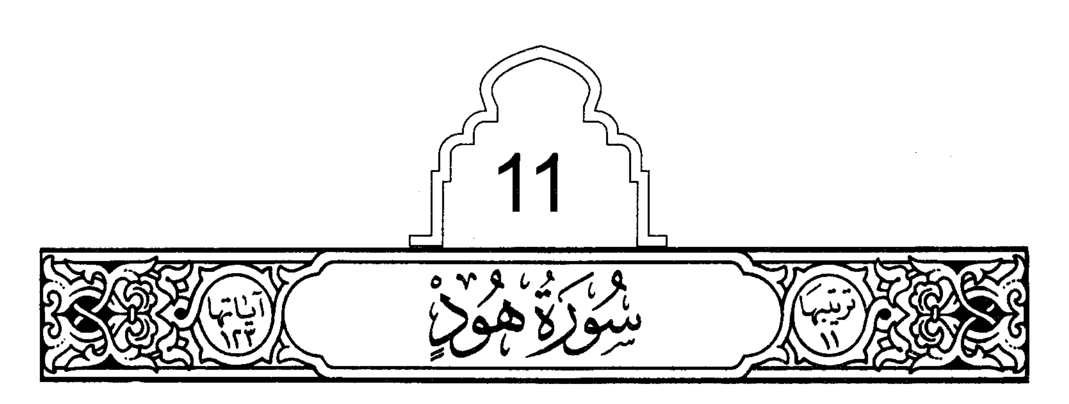
عَلَى مَنْهَجِ التَّنْزِيلِ وَالصَّحِيحِ المَسْنُونِ

الطبعة الأولى
1428 هـ ـ 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقـم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16/ 7/ 2006 م
دمشق ـ سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (123)

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد ذكر هذه السورة في السنة الصحيحة في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: [شَيَّبَتْني هودٌ ، والواقعةُ ، والمُرْسلاتُ ، وعمَّ يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرَتْ][1] .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [شيبتني هود وأخواتها][2] .

الحديث الثالث: أخرج ابن مردويه عن أبي بكر مرفوعاً: [شيبتني هود وأخواتها قبلَ المشيب][3] .

الحديث الرابع: أخرج ابن مردويه ، والخطيب في «تاريخ بغداد» ـ بسند حسن ـ عن عمران بن الحصين مرفوعاً: [شَيَّبَتْني هود وأخواتها من المفصَّل][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3528) ـ أبواب تفسير القرآن ، سورة الواقعة ، وانظر صحيح سنن الترمذي ، حديث رقم ـ (2627)ـ. وأخرجه البزار (1/ 170) «البحر الزخار» ، وأخرجه الحاكم (2/ 344 ـ 476) ، وصححه ووافقه الذهبي.

(2) حديث صحيح. رواه الطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر مرفوعاً به. قال الهيثمي (7/ 37): «ورجاله رجال الصحيح».

(3) انظر: «الفوائد» (1/ 28) ـ لأبي بكر الشافعي ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (955).

(4) إسناده حسن. انظر تاريخ بغداد (3/ 145) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3616).

موضوع السورة

قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وسنن الله في الأمم

ـ تألق هود عليه السلام في إظهار منهج الولاء والبراء ـ

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله تعالىٰ على القرآن العظيم ، فقد أحكم منهاجه ونظمت آياته في نظام رصين.

2 ـ غاية منهج البناء والإحكام في هذا الكتاب الكريم إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، ورسوله ﷺ بالمتابعة والتأسي والتكريم.

3 ـ أَثَـرُ الاستغفار ببسط الله العيش والاستمتاع في العمر ، وأما الإعراض فأثره بتعاسة الدنيا قبل شقاء الآخرة.

4 ـ استخفاء المشركين ببَاطلهم ومكرهم والله مطلع على سرائرهم ، وما من دابة إلا أمرها ورزقها ومنتهىٰ سيرها قد علمه الله ، ثم المرجع إليه ، وسيحيق بالمشركين ما كانوا به يستهزئون.

5 ـ تناقض سلوك الإنسان بين الشدة والرخاء ، ولا ينجو من ذلك إلا أهل الإيمان والصبر على السراء والضراء.

6 ـ تثبيت الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أمام تكذيب المشركين ، وتحدّيهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مستعينين بمن شاؤوا ليظهر الله عجزهم ، فإن كتابه تعالىٰ عزيز.

7 ـ تحذير الله تعالىٰ عباده من الرياء ، فإن الرياء من أبواب الشرك.

8 ـ إخبار الله تعالىٰ عن خزي الكفار والمنافقين في مشهد الحشر يوم القيامة.

9 ـ إخبار الله تعالىٰ عن حال السعداء بعد ذكر حال الأشقياء ، وتشبيه الفرق بين الحالين كحال الأعمىٰ والبصير ، والأصم والسميع.

10 ـ استعراض الله تعالىٰ أخبار الرسل مع أقوامهم: فأول الرسل نوح ﷺ دعا قومه لإفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، وحذرهم من عذاب يوم أليم ، فقابلوه بالتكذيب والاستهزاء ، والاستخفاف بالأتباع ، واستعجال العذاب.

11 ـ أمْرُ الله تعالىٰ نوحاً عليه الصلاة والسلام بصناعة الفلك أمام سخرية الكافرين ، الذين سيحيق بهم الهلاك المبين .

12 ـ نزول أمر الله في قوم نوح ، ونجاة نوح ﷺ ومن معه في السفينة ، ومصير ابنه مع الكافرين الهالكين ، وقيل بعداً للقوم الظالمين .

13 ـ مناجاة نوح ربه لنجاة ولده ، وتحذير الله له في سؤاله ما ليس له به علم .

14 ـ إخبار الله تعالىٰ نبيّه محمداً ﷺ أن هذه القصة من أخبار الغيب يقصها عليه الوحي لتكون عوناً له على الصبر والثبات .

15 ـ خبر هود ﷺ مع قومه عاد يدعوهم لإفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، ويحذرهم نقمة الله وحلول العذاب الأليم ، ويدعوهم لاستغفاره تعالىٰ فإن لوازم الاستغفار وفرة الرزق والخير والقوة والتمكين .

16 ـ مجادلة قوم هود نبيّهم بالباطل ، وإعلانهم الكفر بما جاء به ، ومقابلة هود ﷺ لهم بإعلانه البراءة من شركهم وتحديهم بكيدهم ، ثم نزول نقمة الله بهم ونجاة المؤمنين .

17 ـ خبر صالح ﷺ مع ثمود ، يدعوهم لإفراده تعالىٰ بالتعظيم ، وشكره على نعمه واستغفاره فهو الغفور الرحيم ، ومقابلتهم له بالشك والاتهام ، فأراهم ناقة الله آية فَعَقروها ، وحاق بهم العذاب والخراب .

18 ـ ذكر قصة لوط عليه السلام ، ومجيء الرسل إبراهيم ﷺ بالبشرىٰ ، وتعجب امرأته وبشارة الله لها ، ومجادلة إبراهيم لردّ العذاب عن قوم لوط : إنه حليم أواه منيب ، ونزول أمر الله باستئصال القوم المجرمين .

19 ـ خبر شعيب ﷺ مع قومه ، فقد دعاهم لإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم ، وترك التلاعب بالمكيال والموازين ، فكذبوه فأخذهم الله بالصيحة والعذاب فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

20 ـ خبر موسىٰ ﷺ مع فرعون ، وغرق الطاغية ولعنه وجنده إلى يوم الدين .

21 ـ الاعتبار بالآثار الباقية من تلك القرىٰ المُدَمَّرة : فمنها ما هو قائم بنيانه ، بائد أهله ، ومنها ما هو خراب دارس لا أثَرَ له ولمن كان يسكنه .

22 ـ الناس يوم القيامة فريقان: فريق في دار السعادة وهم أهل السعادة. وفريق في دار الشقاوة وهم أهل الشقاوة.

23 ـ تسلية الله نبيّه ببلوغ الكتاب أجله ، ثم العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين. وأمْرُهُ تعالىٰ له وللمؤمنين بالاستقامة على المنهج وعدم الركون للظالمين.

24 ـ توجيه الأمة لمنهاج النجاة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقلة المؤمنة هي الغالبة بإذن الله.

25 ـ المشيئة لله ، والغيب لله ، والمرجع إليه ، والتوكل عليه ، وما الله بغافل عما تعملون.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 4. **قوله تعالىٰ:** ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف ، قد أحكم منهاجه ونظمت آياته نظاماً رصيناً منسجماً مع منهاج مقاصد هذا الدين العظيم ، فلا يقع فيه نقص ولا خلل بل هو محكم البناء ، ثم فصلت فيه أحكام الحلال والحرام ، وما يترتب علىٰ ذلك من الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، فهو من عند الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه ، الخبير بشؤون خلقه وما يصلحهم. إنَّ غاية منهج البناء والإحكام والتفصيل في هذا الكتاب العظيم هو إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، ورسول الله ﷺ على ذلك نذير وبشير. استغفروا ربكم ـ أيها الناس ـ وتوبوا إليه ، يقابلكم ربكم ببسط في العيش واستمتاع في العمر ، وإلا فالإعراض يقابله بعذاب يوم كبير ، يوم ترجعون إلى الله العلي القدير.

فقوله: ﴿الٓر﴾ ـ كسابقه في أوائل السور التي ابتدأها الله بحروف الهجاء. ومفاده التحدي والإعجاز ـ أي: إن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف التي تتخاطبون بها معشر العرب ، وهو يتحداكم أن تأتوا بمثله أو بسورة نحوه.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ـ فيه قولان متكاملان:

1 ـ قال الحسن: (﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ، قال: أحكمت بالأمر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب). أو قال: (أحكمت في الأمر والنهي ، وفصلت بالوعيد).

2 ـ قال قتادة: (أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فَبَيَّنَ حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته). وقال مجاهد: (﴿فُصِّلَتْ﴾، قال: فُسِّرت).

قال ابن كثير: (﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، أي: هي محكمة في لفظها، مُفَصَّلَةٌ في معناها، فهو كامل صورة ومعنىٰ).

وقال ابن جرير: (معناه: أحكم الله آياته من الدَّخل والخَلَل والباطل، ثم فَصَّلها بالأمر والنهي. وأما قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن معناه: ﴿حَكِيمٍ﴾، بتدبير الأشياء وتقديرها، ﴿خَبِيرٍ﴾، بما تؤول إليه عواقبُها). وعن قتادة: (﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، يقول: من عند حكيم خبير).

قلت: والإحكام يشمل إحكام الآيات من الدَّخل والخلل والباطل، وإحكام منهج بيان هذه الآيات لمقاصد الشريعة، ثم فصلت قواعد الحلال والحرام، وأمور الثواب والعقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي: إن هذا القرآن الذي أحكم منهاجه وفصلت آياته قد نزل لعبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالتعظيم. قال النسفي: (﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ﴾ أي لئلا تعبدوا، أو أن مفسرة). والتقدير: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله. قال القاسمي: (وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كلام على لسان الرسول، أي إنني أنذركم، من الحكيم الخبير، عقابَ الشرك وتبعته، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته).

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾. أَمْرٌ من الله تعالىٰ بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها فيما يُستقبل، فإنكم إذا فعلتم ذلك قابلكم ربكم سبحانه ببسط العيش وَزينتِه، والاستمتاع في العمر بطاعة الله، وما يؤدي إليها من العمل الصالح. قال قتادة: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو الموت). قال ابن جرير: (فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا، ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضىٰ فيه عليكم الموت).

وعن مجاهد: (﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، قال: ما احتسب به من ماله أو عمل بيده أو رجله أو كلمة، أو ما تطوَّع به من أمره كله).

أي يثيب كل من تفضل بعمل صالح مِنْ مَالِهِ أو قوته أو جهده على غيره، وهو يحتسب ذلك عند الله تعالىٰ، فإن الله سبحانه قد وعد أهل الفضل بجزيل الثواب.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المفهوم أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي مسعودٍ عقبةَ بن عَمْرو الأنصاري البَدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من دَلَّ على خَيْرٍ فله مِثْلُ أجْرِ فاعِلِه][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَـةٌ][2].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان من حديث سعد بن أبي وقاص، قال له النبي ﷺ: [وإنك لن تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبتغي بها وَجْهَ الله إلا أُجِرْتَ عَليها حتىٰ ما تجعلُ في في امرأتك]. وقال له: [إنك لن تُخَلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجةً ورِفعةً][3].

ويروي ابنِ جرير بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾، قال: (من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات. وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشارَه).

وقوله: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ ـ تهديد ووعيد لمن أدبر وأعرض عن طاعة الله وتعظيم حرماته، بأن العذاب ينتظره لا محالة يوم الحساب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1893) ـ كتاب الإمارة. باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (10/ 374)، ورواه مسلم من رواية حذيفة (1005).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 132)، ومسلم (1628) ـ والفظ الأخير له ـ كتاب الوصية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. تأكيد ليوم الحساب والرجوع إلى الله سبحانه والوقوف بين يديه لنيل الثواب والعقاب، فهو القدير على الإحياء والإماتة والبعث من القبور ونشر صحف الأعمال وتفريق الخلق إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

5 ـ 8. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالىٰ عن سلوك المشركين وهم يستخفون بباطلهم والله مطلع على سرائرهم. إنه ما من دابة إلا ورزقها من عند الله، وقد علم منتهىٰ سيرها ومأواها قبل خلقها. هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليختبركم ـ أيها الناس ـ أيكم أفضل عملاً، والكافرون منكرون للبعث مستهزئون بقدوم العذاب وهو واقع بهم لا محالة، وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

فقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ ـ قال البخاري: (﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: شك وامتراءٌ في الحق. ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾: من الله إن استطاعوا).

فكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله، وظناً أن الله يخفىٰ عليه ما تضمره صدورهم إذا فعلوا ذلك. والآية لها أكثر من تأويل عند المفسرين:

التأويل الأول: هو ما سبق ذكره. قال ابن عباس: (يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة، ويظهرون خلافه).

قال القرطبي: (﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ أخبر عن معاداة المشركين

للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفىٰ على الله أحوالهم. ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين).

التأويل الثاني: قال مجاهد: (﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ شكاً وامتراءً). وقال الحسن: (يثنونها على ما فيها من الكفر). وهو وجه من التأويل ذكره البخاري.

التأويل الثالث: قيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثـنَيْنا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية.

التأويل الرابع: قيل: إن قوماً من المسلمين كانوا يتنسّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فَبَيَّن الله تعالىٰ أن التنسُّكَ ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قول وعمل. وقد صح إسناد هذا إلى حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن محمد بن عباد بن جعفر: أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ قال: سألته عنها فقال: [أُناسٌ كانوا يستخفون أنْ يَتَخَلَّوا فَيُفْضُوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نِساءهم فَيُفْضُوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ـ كذلك ـ عنه أن ابن عباس قرأ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ تَثْنَوْني صُدُورَهُمْ ﴾ ، قلت: يا أبا العَبَّاس ، ما تَثْنَوني صدورُهم؟ قال: [كان الرَّجُلُ يجامع امرأته فيستحي أو يَتَخَلَّىٰ فيستَحي ، فنزلت: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن سفيان: [حدّثنا عَمْروٌ قال: قرأ ابنُ عَبّاس: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ . وقال غيره عن ابن عباس: ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ : يغطون رؤوسهم][3].

والخلاصة: يحتمل البيان الإلـٰهي لهذه الآية المعاني السابقة من التأويل ، وهو من إعجاز هذا الوحي العظيم ، الذي يضم جوامع الكلم ويشع بنوره وهديه إلى آفاق شتىٰ من خلاف التنوع لا التضاد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4681) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ، آية (5).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4682) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ، آية (5).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4683) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ، باب: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قال ابن عباس: (﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: يُغَطُّون رؤوسهم) ـ أخرجه البخاري.

التأويل الثاني: قال قتادة: (﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ قال: أخفىٰ ما يكون الإنسان إذا أسَرَّ في نفسه شيئاً وتَغَطّىٰ بثوبه، فذلك أخفىٰ ما يكون، والله يطلع على ما في نفوسهم والله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون).

وبنحوه ذكر عكرمة عن ابن عباس قال: (الشك في الله، وعمل السيئات، فيستغشي ثيابه، ويستكنّ من الله، والله يراه، ويعلم ما يسرون وما يعلنون). وقال: (﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، يقول: يكتمون ما في قلوبهم، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، يعلم ما عملوا بالليل والنهار).

التأويل الثالث: قال ابن أبي مليكة: سمعت ابن عباس يقرأ: «ألا إنهم تَثْنَوني صدورهم»، قال: (كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم، كراهة أن يُفْضُوا بفروجهم إلى السماء) ـ وبنحوه روىٰ البخاري.

التأويل الرابع: عن مجاهد والحسن: (أي إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالىٰ أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامِهم في ظلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم من النيات والضمائر والسرائر) ـ ذكره ابن كثير، وهو يشبه التأويل الثاني.

قلت: والبيان الإلـٰهي يحتمل آفاق هذه المعاني كلها، وهو من إعجاز هذا الوحي العظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ أنه متكفِّل بأرزاق خلقه من جميع أصناف الدواب في الأرض، إنْسيها وجِنِّيها، بَحريها وبَرِّيها، صغيرها وكبيرها. وأنه تعالىٰ يعلم منتهىٰ سيرها ومأواها قبل خلقها وبعد إخراجها من أصلاب ذكورها وأرحام إناثها، وكل ذلك مكتوب عنده سبحانه في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: (﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، قال: كل دابة). وقال الضحاك: (يعني كل دابة ، والناس منهم).

وقال مجاهد: (﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، قال: ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتىٰ تموت جوعاً ، ولكن ما كان من رزق فمن الله).

ومن أقوال أهل التأويل في المستقر والمستودع:

1 ـ عن ابن عباس: (﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ ، حيث تأوي ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ ، حيث تموت).

2 ـ وعن مجاهد: (﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ ، في الرحم ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ ، في الصلب ، مثل التي في «الأنعام»).

3 ـ وعن إبراهيم ، عن عبد الله: (المستقر: الرحم ، والمستودع: المكان الذي تموت فيه).

4 ـ وقال الربيع بن أنس: (مستقرها: أيام حياتها ، ومستودعها: حيث تموت ، ومن حيث تُبْعث).

قال ابن جرير: (ويعني بقوله: ﴿ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ، مبين عدد كل دابة ، ومبلغ أرزاقها ، وقدر قرارها في مستقرها ، ومدّة لبثها في مستودعها. كل ذلك في كتاب عند الله مثبت مكتوب ، ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ، يبين لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويوجدها. وهذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه الذين كانوا يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، أنه قد علم الأشياء كلها وأثبتها في كتاب عنده قبل أن يخلقها ويوجدها).

وفي التنزيل: 1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: 38].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: 59].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال

رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه كما يدركه الموت][2] .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح أن النبي ﷺ قال لابن عمه ابن عباس: [يا غلام ، إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يَحْفَظْكَ ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام ورفعت الصحف][3] .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ عن بدء الخلق ، إذ خلق سبحانه السماوات والأرض وما فيهن في هذه الأيام الستة ، وكان عرشه على الماء. قال ابن عباس: (إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه). وغاية الخلق هي عبادة الله تعالىٰ ، والاختبار يكون على ذلك: أيكم أحسن له طاعة وشكراً.

وفي التنزيل: 1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾[ص: 27].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: 56].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 51). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1841) ـ باب: كتب المقادير قبل الخلق.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (7/ 90) ، (7/ 246) من حديث جابر بن عبد الله. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (952).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2648) ـ أبواب صفة القيامة ـ وانظر صحيح سنن الترمذي (2043) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 115 ـ 116].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 9 ـ 13].

وفي السنة الصحيحة آفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أبي هريرة قال: [أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يومَ الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه من حديث عِمرانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قال: [دخلت على النبي ﷺ وعَقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تميم فقال: اقبلوا البشرىٰ يا بني تميم، قالوا: قد بَشَّرْتَنا فأعْطِنا، مَرَّتين، ثم دخل عليه ناسٌ من اليمن فقال: اقبلوا البُشْرىٰ يا أهل اليمن أن لمْ يقبَلْها بنو تميم، قالوا: قبلنا يا رسول الله، قالوا: جِئْنَا نَسْأَلُكَ عن هذا الأمر، قال: كان الله ولم يكُنْ شيءٌ غيرُهُ، وكان عرشُهُ على الماء، وكتب في الذكر كُلَّ شيءٍ، وخلقَ السماوات والأرض][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك، وقال: يدُ الله ملأىٰ لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ. وقال: أرأيتم ما أنفقَ مُنْذُ خَلَقَ السماء والأرضَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789) ـ كتاب صفات المنافقين ـ، وأبو يعلى في مسنده (288/ 1)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 275 ـ 276)، ورواه أحمد وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3191) ـ كتاب بدء الخلق ـ، وكذلك (4365)، (4386)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 431)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6142)، وغيرهم.

فإنه لم يَغِضْ ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزانُ يخفضُ ويرفع][1] .

الحديث الرابع: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][2] .

وقوله: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن قلت لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياء من بعد مماتكم! فتلوت عليهم بذلك تنزيلي ووحيي ، ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول ، إلا سحر مبينٌ لسامعه عن حقيقته أنه سحر) .

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ . قال ابن عباس: (﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ : إلى أجل محدود)[3] . وقال مجاهد: (إلى حين) . وقال ابن جريج: (﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ يقول: أمسكنا عنهم العذاب. ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ، قال: للتكذيب به ، أو إنه ليس بشيء) .

وأصل الأمة الجماعة من الناس تجتمع على مذهب و دين ، ثم تستعمل في معان كثيرة ، منها السنون المعدودة والحين. قال ابن جرير: (وإنما قيل للسنين «المعدودة» والحين ، في هذا الموضع ونحوه: ﴿ أُمَّةٍ ﴾ ، لأن فيها تكون الأمة) .

وقوله: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . أي: ألا يوم يأتيهم العذاب ، فينزل بهؤلاء الشاكين المكذبين ، فهنالك ليس يصرفه عنهم صارف ، ولا ينجيهم منه منقذ ، بل يحل بهم فيهلكهم وليس له دافع ، ويحيط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

قال مجاهد: (﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، قال: ما جاءت به أنبياؤهم من الحق) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4684) ـ كتاب التفسير ، باب قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ، ورواه مسلم في صحيحه (993) ـ كتاب الزكاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 290) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم (109) .

(3) وفي رواية عنه ـ يقول: (إلى أجل معلوم) ـ ذكره ابن جرير في التفسير (18014) .

9 ـ 11. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن سلوك فاسد يصيب الإنسان، فهو ما أسرعه إلى اليأس عند نزع النعمة منه، وما أسرعه إلى العجب والغرور عند نزول النعمة به بعد الضراء التي مسته، وما يسلم من هذا الخلق الذميم، إلا أهل الصبر والعمل الصالح الذين غفر الله لهم وأعدّ لهم الأجر الكريم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.
قال ابن جريج: (يا ابن آدم، إذا كانت بك نعمة من الله من السعة والأمن والعافية، فكفور لما بك منها. وإذا نزعت منك نبتغي قَدْعك[1] وعقلك، فيؤوس من روح الله قنوط من رحمته. كذلك المرء المنافق والكافر).

وهذه الآية في ذكر بعض الصفات الذميمة التي تعتري الإنسان ـ إلا من رفعه الله بالتقوىٰ ـ فإنه إن فقد نعمة عاشها طويلاً أصابه اليأس والقنوط مِمّا يستقبل من الخير، ونسي الماضي الذاخر بالفضل والنعم والعطاء، وربما أساء الظن بالله تعالىٰ.

قال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾، يقول: يظل قَنِطاً من رحمة الله، آيساً من الخير. هو كفور لمن أنعم عليه، قليل الشكر لربّه المتفضّل عليه بما كان وَهَبَ له من نعمته).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. هو كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 1 ـ 3].

---

(1) القدع: الكف والمنع.

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 19 ـ 22].

قال ابن جريج: (﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ ، غِرّة بالله وجراءة عليه ، ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ ﴾ ، والله لا يحب الفرحين ، ﴿ فَخُورٌ ﴾ ، بعدما أعطي ، وهو لا يشكر الله. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ عند البلاء ، ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، عند النعمة ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ، لذنوبهم ، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ، قال: الجنة).

قال ابن كثير: (وهكذا إن أصابته نعمةٌ بعد نِقمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ ، أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوءٌ ، ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ ، أي: فَرِحٌ بما في يده ، بَطِرٌ فخورٌ على غيره. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ، أي: في الشدائد والمكاره ، ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: في الرَّخاء والعافية ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ، أي: بما يصيبهم من الضرَّاء ، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ، بما أسلفوه في زمن الرخاء).

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر آفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمر المؤمن ، إنّ أمره كُلَّهُ له خيرٌ ، وليسَ ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَّاء شكَرَ ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صَبَر ، فكان خيراً له][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والدارمي في السنن ، بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][2].

الحديث الثالث: أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه بسند رجاله ثقات ، عن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2999) ـ كتاب الزهد ـ. باب المؤمن أمره كله خير. وأخرجه أحمد في المسند (4/ 332) ، وابن حبان في صحيحه ـ (2896) ـ ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (2/ 318) ، وأحمد (6/ 16) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (147).

أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لايقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له][1].

وفي لفظ: [عجبت للمؤمن إن الله تعالىٰ لم يقضِ له قضاءً إلا كان خيراً له].

الحديث الرابع: أخرج البيهقي والطيالسي بسند صحيح عن سعد مرفوعاً: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتىٰ في اللقمة يرفعها إلى فيه][2].

الحديث الخامس: أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ مصيبة تُصيبُ المسلمَ إلا كَفَّرَ الله بها عنه حتىٰ الشوكةُ يشاكُها][3].

الحديث السادس: أخرج الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ما يُصيبُ المُسلمَ مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذىً، ولا غَمٍّ ـ حتى الشوكة يُشاكها ـ إلا كفَّر الله بها من خطاياه][4].

12 ـ 14. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: خِطَابٌ من الله تعالىٰ ذكره لنبيه ﷺ: فلعلك ـ يا محمد ـ تارك بلاغ

---

(1) رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24)، وأبو يعلىٰ (200/ 2)، وانظر المرجع السابق ـ الصحيحة (148) ـ وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3880).

(2) حديث صحيح. وهو يشهد لما قبله. أخرجه الطيالسي (211)، ورواه البيهقي. انظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (3881)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (147).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5640) ـ كتاب المرضىٰ ـ باب ما جاء في كفارة المرض.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5641) ـ (5642)، ومسلم (2573)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 335)، والترمذي في الجامع (966)، وأخرجه ابن حبان (2905)، والبغوي (1421)، والبيهقي (3/ 373)، وغيرهم.

بعض ما يوحىٰ إليك وضائق صدرك ببعض هذا الوحي الذي أمرت بتبليغه مخافة أن يقولوا: أين المال أو الكنز الذي أنزل معه أو الملك الذي جاء مصدقاً له من الله بأنه رسول ، فاعلم أنه إنما أنت نذير لقومك والله القيم على الأمور والتدبير. أم يقولون لك ـ يا محمد ـ افتريت هذا القرآن! فقل: الله يتحداكم بأن تأتوا بعشر سور مثله مستعينين بمن شئتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن أخفقوا وعجزوا فاعلموا ـ أيها المؤمنون ـ وازدادوا إيماناً أن هذا القرآن منزل من الله بعلمه ، وهو الإله الواحد لا شريك له فهل أنتم حقاً مسلمون.

فقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ﴾.

قال مجاهد: (قال الله لنبيه: فلعلك تارك بعض ما يوحىٰ إليك أن تفعل فيه ما أمرت ، وتدعو إليه كما أرسلت. قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ، لا نرىٰ معه مالاً! أين المال؟ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ ينذر معه! ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ، فبلغ ما أمرت).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: والله القيم بكل شيء ، وبيده تدبيره ، فانفذ لما أمرتك به ، ولا تمنعك مسألتهم إياك الآيات من تبليغهم وحيي ، والنفوذ لأمري).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال ابن جريج: (﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ ، قد قالوه ، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ ، وادعوا شهداءكم ، قال: يشهدون أنها مثله).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزَّلٌ من عند الله ، متضمِّنٌ عِلمَهُ وأمرَه ونَهْيَه ، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾).

وعن مجاهد: (﴿هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال: لأصحاب محمد ﷺ).

15 ـ 17. **قوله تعالىٰ:** ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذير الله تعالىٰ عباده من الرياء. فإنه من كان يريد بعمل الآخرة الدنيا يعجل الله له ثوابه فيها وليس له في الآخرة من نصيب. أفمن كان على صفاء الفطرة، ونور الوحي: القرآن، والتوراة من قبله، كمن يكفر بهذا القرآن من مشركي مكة ومن سيجيء على منهاجهم، ممن هم إلىٰ النار مصيرهم. فاثبت ـ يا محمد ـ فإن هذا القرآن حق، ووعد الله ووعيده حق، ولكن أكثر الناس غافلون غير مصدقين.

فقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ الآية.

قال مجاهد: (من عمل عملاً مما أمَرَ الله به، من صلاة أو صدقة، لا يريد بها وجه الله، أعطاه الله في الدنيا ثوابَ ذلك مثلَ ما أنفق، فذلك قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، في الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، أجر ما عملوا فيها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾، الآية).

وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، الآية، وهي ما يعطيهم الله من الدنيا بحسناتهم، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً. يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أوصلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا لالتماس الدنيا، يقول الله: أوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعملُ التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين).

وهذه الآية حرب على الرياء وأهله لو كانوا يفقهون، وحرب على النفاق وأهله لو كانوا يعلمون، فإنه لا ينفع من العمل إلا ما التمس به وجه الله تعالىٰ.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: 88 ـ 89].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: 20].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: 18 ـ 21].

ومن كنوز السنة الصحيحة في معنىٰ هاتين الآيتين أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، أنه حَدَّثَ عن رسول الله ﷺ: [إن الكافِرَ إذا عَمِلَ حَسنَةً أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يَدَّخِرُ له حسناتِهِ في الآخرة ويُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا على طاعته][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يعطىٰ بها (وفي رواية: يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن حبان عن الوليد بن أبي الوليد أبي عثمان المديني أن عُقْبَةَ بنَ مسلم حدَّثه، أن شُفَيّاً الأصبحي حدثه: [أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناسُ، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوت منه، حتىٰ قعدتُ بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحقّ وبحقّ، لمّا حَدَّثتني حدِيثاً سمعته من رسول الله ﷺ وعَقِلْتَهُ وعَلِمْتَه، فقال أبو هريرة: أفعلُ، لأُحَدِّثَنَكَ حديثاً حَدَّثنيه رسول الله ﷺ عَقِلْتُهُ وعلمتُهُ، ثم نشغَ أبو هريرة نشغة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2808) (57) ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 135) من حديث أنس بن مالك ـ وهو رواية للحديث السابق، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 125)، وغيرهما.

فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال: لأحدِّثَنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيرُه ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نشغةً أخرىٰ ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، فقال: أفعلُ ، لأحدِّثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نشغةً شديدة ، ثم مال خارّاً على وجهه ، فأسندته طويلاً ، ثم أفاق ، فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

إن الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يومُ القيامة ، ينزِلُ إلى العباد ، ليقضي بينهم ، وكُلُّ أمة جاثية ، فأول من يُدعىٰ به رجلٌ جمع القرآن ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقول الله عز وجل للقارئ: ألم أُعلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلىٰ يا ربِّ ، قال: فما عملتَ فيما عَلِمتَ؟ قال: كنت أقومُ به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله عز وجل له: كَذَبْتَ ، وتقول له الملائكة: كذَبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالىٰ: بل أردت أن يقال فلان قارئ ، وقد قيل ذلك.

ويؤتىٰ بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل: ألم أُوسِع عليك حتىٰ لم أَدَعْكَ تحتاجُ إلى أحدٍ؟ قال: بلىٰ يا ربِّ ، قال: فماذا عَمِلتَ فيما آتيتُك؟ قال: كنتُ أَصِلُ الرحمَ وأتصدقُ. فيقول الله له: كَذَبْتَ ، وتقول الملائكة: كَذَبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالىٰ ، بل أردتَ أن يقال: فلانٌ جوادٌ ، وقد قيل ذلك.

ويؤتىٰ بالذي قُتِلَ في سبيل الله ، فيقول الله له: فيماذا قُتِلتَ؟ فيقول: أي ربِّ! أَمَرْتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتىٰ قُتِلتُ ، فيقول الله له: كذَبْتَ ، وتقول الملائكة: كذبْتَ ، ويقول الله: بل أردْتَ أن يقالَ: فلانٌ جريءٌ ، فقد قيل ذلك.

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثةُ أولُ خلق الله تُسْعر بهم النار يومَ القيامة.

قال الوليدُ أبو عثمان المديني: وأخبرني عُقبة أن شُفَيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيّافاً لمعاوية قال: فدخل عليه رجلٌ فأخبره بهذا عن أبي هريرة. فقال معاوية: قد فُعِلَ بهؤلاء هذا ، فكيف بمنْ بَقِيَ مِنَ الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاء شديداً ، حتىٰ ظَننّا أنه هالك ، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشَرٍّ. ثم أفاق معاوية ، ومسح عن وجهه ، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾] [1].

وقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾.

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالىٰ التي فطر عليها عبادَه، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: 30]).

قلت: فالفطرة نور، والوحي نور، والمؤمن في نور على نور: نور الوحي على نور الفطرة.

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حِمار، عن رسول الله ﷺ قال: [يقول الله تعالىٰ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً] [2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالىٰ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ (وفي رواية: يوم عرفة) فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذّر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: 172 ـ 173]] [3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(1) حديث صحيح. أصله في صحيح مسلم (1905) ـ كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ورواه النسائي والترمذي وحسنه، وابن حبان وابن خزيمة. انظر صحيح الترغيب (1/ 20) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ـ كتاب الجنة ونعيمها. وأخرجه أحمد (4/ 162)، والطبراني في «الكبير» (17/ 987) ـ ومعنىٰ اجتالتهم: ذهبوا بهم وحرفوهم وجالوا معهم في الباطل.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (1/ 272)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11191)، والحاكم، وغيرهم.

[كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسَانه ، كما تُولد البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تُحِسَّون فيها من جَدْعاء][1] . ـ زاد عبد الرزاق في رواية : [ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾] .

قلت : وهذه الفطرة هي نتيجة من نتائج ذلك الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام ، وأشهد الخلق أمام أبيهم أنه لا حجة لهم أن يشركوا بالله شيئاً وحذرهم من أمرين : 1 ـ أن يدّعوا الغفلة . 2 ـ أن يدّعوا التقليد .

الحديث الرابـع : أخرج الطبراني بسند صحيح عن الأسود بن سريع مرفوعاً : [كل مولود يولد على الفطرة ـ وفي لفظ : على هذه الملة ـ ، حتىٰ يُعْرِبَ عنْهُ لسانُه ، فأبواه يهوِّدانه ، أو يُنَصِّرَانه ، أو يمجِّسانه][2] .

وعن ابن عباس : (﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ : إنه جبريل عليه السلام) . وقال قتادة : (هو محمد ﷺ) ـ والمعنىٰ متكامل ، فجبريل مبلغ عن الله إلى محمد ﷺ الذي هو مبلغ لجميع الأمة .

وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ ﴾ .

قال النسفي : (﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾ ومن قبل القرآن ﴿ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهو التوراة ، أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسىٰ عليه السلام ﴿ إِمَامًا ﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ـ وهما حالان[3] ـ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ أي : من كان على بينة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ ﴾ بالقرآن) .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ ﴾ .

قال قتادة : (﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ ﴾ ، قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر) . وعن سعيد بن جبير : (﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ ، قال : من الملل كلها) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1358) ، (1359) ، ومسلم (2658) ، وأبو داود (4714) ، والترمذي (2138) ، وأحمد (2/ 375) ، والبغوي (84) ، وابن حبان (129) ، (130) ، (133) ، وعبد الرزاق (20087) ، وأخرجه الطيالسي (2359) و(2433) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (3/ 345) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (826) ، والبيهقي في السنن (9/ 77 ـ 78) ، وإسناده صحيح .

(3) أي «إماماً» ، و«رحمة» في محل نصب حال .

أي: ومن يكفر بهذا القرآن من أهل مكة والمتحزبين من المشركين على رسول الله ﷺ، وكذلك ممن جاء بعدهم من ملل الباطل فقد وعدهم الله جميعاً نار جهنم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نَفْسُ محمد بيده! لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نَصْراني، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار][1].

قال ابن جرير: (﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، يقول: فلا تك في شك منه، من أن موعدَ من كفر بالقرآن من الأحزاب النارُ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند الله).

وقوله: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة.

1 ـ قال القرطبي: (﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي القول الحق الكائن، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المُكَلَّفين).

2 ـ قال ابن جرير: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، يا محمد، الحقُّ من ربك لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بأن ذلك كذلك) ـ واختاره ابن كثير.

3 ـ وقال النسفي: (﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أو من الموعد ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾).

قلت: وكلها أقوال يكمِّلُ بعضها بعضاً، فالقرآن حق، والوعد والوعيد حق، وأمر الله وخطابه لرسوله حق، ولكن أكثر الناس عن ذلك غافلون غير مصدقين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (153) ـ كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، وأخرجه الطبراني (18093) من حديث أبي موسىٰ وإسناده على شرط مسلم.

والخلاصة: الفطرة مع الوحي هديتان من الله تعالىٰ للعباد ، فمن أصَرَّ بعد ذلك على اتباع الأهواء والشبهات والشهوات فقد اختار البقاء في الظلمة بعدما جاءه النور.

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضل][1].

18 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن الكفار والمنافقين الذي يفترون على الله الكذب أنهم يُحضرون يوم القيامة وتشهد عليهم الرسل بما كذبوا على ربهم لتحيق بهم لعنة الله. أولئك الذين يقعدون في طريق المؤمنين فيصدون عن سبيل الهدى والرشاد ، ويحبون نشر الفواحش والفساد ، وهم بلقاء ربهم كافرون. أولئك لم يكونوا ليفلتوا من عذاب الله ، بل يضاعف لهم العذاب ولا نصير يدفع عنهم ، فما كانوا يألفون سماع الحق والقرآن ولا يبصرون سبيل الهداية. أولئك الذين ربحوا الخسارة في الدنيا والآخرة وحاق بهم ما كانوا يكذبون ويفترون.

فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. قال ابن جريج: (الكافر والمنافق). وقال أبو جعفر: (يقول تعالىٰ ذكره: وأي الناس أشد تعذيباً اختلق على الله كذباً فكذب عليه).

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. قال ابن جريج: (فيسألهم عن أعمالهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في مسنده (2/ 176)، (2/ 197)، وابن حبان في صحيحه (1812)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾. قال الضحاك: (يعني الأنبياء والرسل، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ [النحل: 89]. قال: وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾، يقولون: يا رَبَّنا أتيناهم بالحق فكذبوا، فنحن نشهد عليهم أنهم كذبوا عليك، يا رَبَّنا).

وقال قتادة: (والأشهاد: الملائكة، يشهدون على بني آدم بأعمالهم).

والخلاصة: فإن في الآية بياناً لحال المفترين على الله الكذب وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء، وسائر البشر والجان.

وقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: ألا إن غضب الله وسخطه على المعتدين الذين تجرؤوا على الحق بالكذب والافتراء.

وفي الصحيحين عن صَفْوانَ بنِ مُحْرِزٍ المازِنِيِّ قال: [بينما أنا أمشي مع ابن عمرَ رضي الله عنهما آخذٌ بيده، إذ عَرَضَ رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النَّجْوىٰ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يُدْني المؤمنَ فَيَضَعُ عليه كنَفَهُ ويَسْتُرُهُ فيقول: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْباً كذا؟ فيقول: نَعَمْ أيْ رَبِّ، حتىٰ قَرَّرَهُ بذنوبه ورأىٰ في نفسِهِ أنه هَلَكَ، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفِرُها لك اليوم، فيُعْطىٰ كتابَ حَسَناتِهِ، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهادُ: ﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ألا لعنة الله على الظالمين الذين يفتنون الناس عن الدين الحق خوفاً على مناصبهم ومصالحهم وأهوائهم، ويلتمسون بدلاً منه زيغاً وميلاً وانحرافاً عن الاستقامة، وهم بالبعث بعد الممات وبالنشور والحساب والقصاص والميزان جاحدون.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

قال النسفي: (أي ما كانوا بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، ﴿وَمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2441) ـ كتاب المظالم ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وأخرجه مسلم (2768)، وأخرجه أحمد (2/ 74)، (2/ 105)، وأخرجه ابن ماجة (183)، وابن حبان (7355).

﴿كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد).

وفي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 42].

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][1].

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ﴾. قال القرطبي: (أي على قدر كفرهم ومعاصيهم).

قلت: بل هو بسبب كفرهم أولاً، وصدهم الناس عن الدين الحق ثانياً، يُضَعِّفُ الله لهم بذلك العذاب.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25].

وفي السنة المطهرة:

أخرج الإمام الترمذي في جامعه، والإمام أحمد في مسنده، بسند حسن عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصارة أهل النار، طينةِ الخبال][2].

وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

أي: إنهم كانوا لا يستطيعون سماع الحق سماع منتفع باحث عن الصواب، ولم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير، وأخرجه مسلم (2583)، وأخرجه الترمذي (3110)، وابن ماجة (4018)، والطبري (18559)، والبيهقي في السنن (6/ 94).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج مشكاة المصابيح (5112)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

يكونوا يبصرونه إبصار صادق في النظر إلى سبيل الهداية والرشاد ، بل شغلهم الكفر والفجور والشهوات وصد الناس عن سبيل الله ، ظناً منهم أن ذلك يحفظ مصالحهم ودنياهم الفانية ، فَعَطّلَ لديهم فائدة السمع والبصر.

قلت: وهذه الآية نص في مفهوم الاستطاعة الموافقة للعمل. فإن الاستطاعة كما وردت في الكتاب والسنة نوعان:

النوع الأول: الاستطاعة قبل العمل ـ وتعني سلامة الجوارح والآلات وأعضاء البدن ـ بمعنىٰ: حضور القدرة الجسدية والإرادة العقلية ، وهي استطاعة مخلوقة مع الإنسان وليس ابتداء عند العمل ، لأن العقل لا يكون عقلاً مالم يكن مريداً مميزاً ، والقوي لا يقال عنه قوي مالم يكن معروفاً بالقوة وأسبابها ، وإلا فغياب العقل سبب لرفع التكليف.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: 4].

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال: [صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب][1].

النوع الثاني: الاستطاعة الموافقة للعملـ وهي خلق القدرة على ذلك العمل ـ وتأتي بمعنىٰ التوفيق.

كما قال جل ثناؤه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 100 ـ 101].

وكقوله في آية هود: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقىٰ من كان يسجد

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري وأبو داود وغيرهما. انظر صحيح سنن أبي داود (878).

في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً][(1)] .

فلا يوفقهم الله للسجود إليه أحوج ما يحتاجون إلى قبوله وعونه لهم على السجود لوجهه ، إذ كانوا من المبطلين المنافقين المرائين في سجودهم في الدنيا فحرمهم من ذلك بحكمته في الآخرة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ .

أي : أولئك القوم الذين خسروا سعادة أنفسهم وراحتها ، واشتروا بريائهم ونفاقهم وصدهم عن سبيل الله شقاوتها وعذابها وآلامها ، وغاب عنهم شفاعة آلهتهم المزعومة ، ومن ضحك عليهم من الطواغيت ولم يجدوا ما وعدوهم إلا كذباً .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ .

أي : حقاً ولا محالة أن هؤلاء يوم القيامة هم أصحاب الخسران المبين ، وأهل التجارة الفاشلة الخاسرة ، إذ ضيّعوا الآخرة بدنيا وشهوات فانية .

قال ابن كثير : (يخبر تعالىٰ عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شُرب الرحيق المختوم ، بسَموم وحَميم ، وظِلٍّ من يحموم ، وعن الحور العين بطعام مِنْ غِسْلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قُربِ الرحمن ورؤيته بغضَب الديّان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) .

23 ـ 24 . قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالىٰ عن حال السعداء ، بعد ذكر حال الأشقياء ، فأهل الإيمان والعمل الصالح الذين تواضعوا لأمر ربهم هم سكان الجنة هم فيها خالدون . إن مثل الفريقين كمثل الأعمىٰ والبصير ، والأصم والسميع ، هل يستويان مثلاً؟! لا يستويان ، فهلاّ انتفعتم بضرب الله هذا المثل! .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4919) ـ كتاب التفسير . سورة «القلم» ـ آية (42) .

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ . أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والتواضع والتخشّع والخوف والإنابة إلى الله تعالىٰ. ومن أقوال أهل التأويل:

1 ـ عن ابن عباس: (﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ ـ قال: «الإخبات»، الإنابة). أو قال: (يقول: خافوا). وقال قتادة: (يقول: وأنابوا إلى ربهم).

2 ـ وعن مجاهد: (﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ ، قال: اطمأنوا).

3 ـ وقال قتادة: (الإخبات: التخشُّعُ والتواضع).

قلت: وكلها معان يحتملها البيان الإلهي، وإن كان أبرز معاني الإخبات في كلام العرب الخشوع.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم سكان الجنة الذين لا يخرجون عنها، ولا يموتون فيها، ولكنهم فيها لابِثُون إلى غير نهاية).

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسوا أبداً][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [أهل الجنة جُرْدٌ، مُرْدٌ، كُحْلٌ، لا يفنىٰ شبابهم، ولا تبلىٰ ثيابهم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث جابر مرفوعاً: [يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 148) من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2140) ـ كتاب التفسير ـ الأعراف، آية (43).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2675) ـ أبواب صفة الجنة ـ وانظر صحيح سنن الترمذي (2062).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 147)، وانظر تفصيل ذلك النعيم والخلود في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان. (2/ 769 ـ 802).

وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال مجاهد: (الفريقان: الكافران والمؤمنان. فأما الأعمىٰ والأصم فالكافران، وأما البصير والسميع، فهما المؤمنان).

2 ـ وقال ابن جريج، قال ابن عباس: (الأعمىٰ والأصم: الكافر. والبصير والسميع: المؤمن).

3 ـ وقال قتادة: (هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن. فأما الكافر فصم عن الحق فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره. وأما المؤمن، فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فوعاه وحفظه وعمل به).

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾. أي: تشبيهاً، و﴿مَثَلًا﴾ منصوب على التمييز، والمعنىٰ: كما لا يستوي عندكم الأعمىٰ والبصير، والأصم والسميع، فكذلك لا يستوي عند الله المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، والمسلم والفاسق.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. قال النسفي: (فتنتفعون بضرب المثل).

25 ـ 27. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾.

في هذه الآيات: شَرَعَ الله تعالىٰ في إخباره عن إرساله الرسل إلى أهل الأرض، وأولهم نوح عليه الصلاة والسلام، بعثه الله نذيراً إلى قومه يحذرهم مغبة الشرك والكبر والغرور الذي كانوا عليه، ويدعوهم لإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، ويحذرهم عذاب يوم أليم، فما كان من الملأ الكافر من قومه إلا الاستهزاء، والاستخفاف بالأتباع، واتهام المؤمنين بالكذب ليحيق بالمستكبرين العذاب.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

إخبار عن إرساله تعالىٰ نبيّه نوحاً ﷺ إلى قومه الذين امتلأت الأرض يومئذ من شركهم وشرورهم، فكان نوح أول الرسل إلى أهل الأرض، ظاهر النذارة لقومه من

عذاب الله وغضبه إن أصروا على شركهم وعبدوا غير الله الواحد الأحد.

وقد صَبَرَ نوح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على تمرد قومه وغرورهم واستهزائهم، وهو يدعوهم القرون الطويلة، إذ مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ويؤكد لهم التمسك بـ «لا إله إلا الله» وأن يعيشوا لأجلها ويموتوا عليها، حتىٰ كان ذلك آخر ما وصىٰ به ابنه عند الموت.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، والبيهقي في الأسماء، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إن نبيّ الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوَفاةُ قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ «لا إله إلا الله» فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكِبْر.

قيل: يا رسول الله! هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس][1].

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾. أي: إن أصررتم على طريق الكبر والشرك والبغي في الأرض بغير الحق فإنه ينتظركم العذاب الأليم الشاق الموجع يوم الحساب.

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. قال ابن كثير: (والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، أي: لستَ بمَلَك ولكنّك بشرٌ، فكيف أوحِيَ إليك من دُوننا؟ ثم ما نراك اتَّبَعَك إلا أَراذلنا كالباعة والحاكَة وأشباههم، ولم يتبعك الأشرافُ ولا الرؤساء منّا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظر، بل بمجرّد ما دعوتهم أجابوك فاتّبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، أي: في أول باديءِ الرأي).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 169 ـ 170)، (2/ 225)، والبيهقي في «الأسماء» (79)، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (548)، وانظر السلسلة الصحيحة (134).

وقوله: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾.

قال القاسمي: (﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ ﴾ خطاب لنوح وأتباعه ﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي تقدّم يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة، لأن الفضل محصورعندهم بالغنىٰ والمال. ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه).

28 ـ 31. **قوله تعالىٰ**: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله تعالىٰ جواب نوح ﷺ إلى قومه: أرأيتم أيها القوم إن كنت على يقين برحمة الله المهداة إليّ وهي النبوة التي خفيت عليكم، ولم تقدروا حقها بل قابلتموها بالسخرية والتكذيب، فكيف لي أن أجبركم عليها وأنتم لها كارهون. يا قوم إني لا أبتغي من دعوتي لكم مالاً بل أجري على الله ولا يمكنني طرد المؤمنين الصادقين، وإنما أنتم قوم تجهلون. ثم يا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون. إني لا أملك خزائن السماوات ولا أعلم الغيب ولست بملك ولا أتجرأ القول على الله أن هؤلاء الذين تزدرون لن ينالوا من الله خيراً، فالله أعلم بأنفسهم، فإني إن تجرأت على ذلك كنت من الظالمين.

فقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾. قال ابن جريج: (قال نوح: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾، قال: قد عرفتها، وعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾، الإسلام والهدىٰ والإيمان والحكم والنبوة).

وقوله: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾. قال قتادة: (أما والله لو استطاع نبيُّ الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه).

وغاية المعنىٰ: يجيبُ نوح ﷺ قومه: أرأيتم إن كنت على يقين من أمري، في رسالتي ونبوتي الصادقة، وهي الرحمة العظيمة المهداة من الله لي ولكم، ثم خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولم تعرفوا قدْرها، بل قابلتم تلك النعمة والهداية الكبيرة بالتكذيب والاستهزاء والعناد، فكيف لي أن أغصبكم عليها وأنتم لها كارهون.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾. قال ابن جرير: (قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له، مالاً أجراً على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبُ عرض من أعراض الدنيا، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فإنه هو الذي يجازيني ويثيبني عليه).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾. قال ابن جريج: (قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضىٰ أن نكون نحن وهم في الأمر سواء. فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، فيسألهم عن أعمالهم).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾. قال القرطبي: (في استرذالكم لهم، وسؤالكم طردهم).

قلت: ويبدو أن هذه سنة في الملأ الكافر على مر الدهور والأزمان، فهم يرون إيمانهم مع الضعفاء انتقاصاً لشأنهم وما اعتادوه من أحوال الظلم والكبر واستضعاف الناس، فكان الوحي النازل يقرعهم دوماً للتخلي عن هذه الأبهة الكاذبة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: 28].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52].

وقد جاءت السنة الصحيحة كذلك بتحذير النبي ﷺ من الاستجابة لهذا المطلب الساقط من الملأ الكافر ، وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن سعد قال: [فيَّ نزلت: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ ـ قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تدني هؤلاء][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة في السنن ، وابن جرير في التفسير بسند صحيح عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن جرير بسنده من طريق ابن مسعود قال: [مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا: يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك ، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: ويا قوم من يمنعني من بأس الله وانتقامه لأوليائه إن طردتهم أفلا تتعظون!

وقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾. قال ابن

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2413) ، وسنن ابن ماجة (4128) ، ومستدرك الحاكم (3/ 319) ، ورواه النسائي في «التفسير» (183) ، وأخرجه أبو يعلىٰ (826) ، والطبري (13266) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (4128) ـ باب مجالسة الفقراء ، ومستدرك الحاكم (3/ 319) ، وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (11163) ، ورواه أبو يعلىٰ (826).

(3) انظر تفسير الطبري ، سورة الأنعام ، آية (52 ـ 53) ، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 243).

جريج: (قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، التي لا يفنيها شيء، فأكون إنما أدعوكم لتتبعوني عليها، لأعطيكمْ منها، ولا أقول: إني ملك نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم، ولا أعلم الغيب، ولا أقول اتبعوني على علم الغيب).

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت هذا الذي تقدم ذكره).

32 ـ 35. قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: استعجال قوم نوح العذاب والوعيد، وردّ نوح ﷺ أمر ذلك إلى الله، ومواجهته قومه أنكم لستم بمعجزين. وأن نصحي لكم لا ينفعكم إن كان الله قضىٰ في سابق علمه إضلالكم لفساد قلوبكم وهو العليم الحكيم. أم يقول هؤلاء أو قومك يا محمد: افتراه، فأخبرهم أن جزاء افترائي سيحيق بي، كما سيحيق بكم نكال إجرامكم.

فقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾. قال مجاهد: (ماريتنا).

وقوله: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾. قال ابن جريج: (تكذيباً بالعذاب، وأنه باطل).

وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ـ يعني قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ومحاجّتنا، فإن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول لله فأت بالعذاب واستعجل الوعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾. يعني: إن الذي بيده

العذاب وموعده ووقته هو الله سبحانه الذي خلقكم وخلق كل شيء ولا تعجزونه ولا يعجزه شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: أيُّ شيء يُجْدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونُصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودمارَكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي: هو مالك أَزِمَّةِ الأمور، والمتصرِّفُ الحاكمُ العادلُ الذي لا يجورُ، له الخلقُ وله الأمرُ، وهو المبدئُ المعيدُ، مالكُ الدنيا والآخرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

قال ابن عباس: (هو من محاورة نوح لقومه). وقيل: بل هو كلام معترِضٌ وسط القصة والحديث عن مشركي قريش إذ زعموا أن محمداً ـ ﷺ ـ افترىٰ هذا القرآن. واختار ابن جرير الثاني فقال: (أيقول، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك: افترىٰ محمد هذا القرآن؟ وهذا الخبر عن نوح؟ قل لهم: إن افتريته فتخرصته واختلقته ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾، يقول: فعليَّ إثمي في افترائي ما افتريت على ربي، دونكم، لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي، ولا أؤاخذ بذنبكم، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، يقول: وأنا بريء مما تذنبون وتأثمون بربكم، من افترائكم عليه). واختار القرطبي أنه من محاورة نوح لقومه، ثم قال القرطبي: (وهو أظهر، لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، فالخطاب منهم ولهم ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ أي اختلقته وافتعلته، يعني الوحي والرسالة، ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي عقاب إجرامي، وإن كنت محقاً فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي).

قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويلين معاً، وهو من إعجاز هذا القرآن العظيم، وجوامع كلمه وخطابه الجامع، فيجوز أن يكون الوصف لحوار نوح مع قومه، أو لاعتراض المشركين على نبينا محمد ﷺ، فإن الشرك ملة واحدة عبر العصور والأزمان.

36 ـ 39. قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالىٰ إلى نوح أنه قد انتهىٰ كل شيء بينك وبين قومك فلن يؤمن إلا من قد آمن ، فانهض لصناعة الفلك برعاية ربك ولا تسأل عن الذين ظلموا فإنهم مغرقون. ويستجيب نوح لربه ويصنع الفلك ، وكلما مرّ ملأ من قومه سخروا من فعله فيواجههم نوح بصلابة وقوة أنّ السخرية سترتد بالوبال عليكم ، وبالعذاب المقيم الذي يخزيكم.

فقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ . أي: أوحىٰ الله تعالىٰ إلى نوح ، أن المؤمنين هم من قد آمن معك من قومك ، ولا طمع بغيرهم ، وقد أظل المجرمين أمر الله وحق عليهم القول.

وقوله: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ . قال مجاهد: (لا تحزن). وقال قتادة: (لا تأس ، ولا تحزن).

وقد كان نوح ﷺ دعا على قومه لما عاجزوه واستعجلوا نقمة الله وعذابه لينزل بهم فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26].

وفي التنزيل أيضاً: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: 10].

فهنالك أوحىٰ الله إليه: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

قال مجاهد: (﴿ ٱلْفُلْكَ ﴾ ، السفينة). وعن ابن عباس: (﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ، وذلك أنه لم يعلم كيف صنعةُ الفلك ، فأوحىٰ الله إليه أن يصنعها على مثل جُؤْجُؤ الطائر). وعن مجاهد: (﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ ، قال: كما نأمرك). وعن قتادة: (﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ، قال: بعين الله ووحيه). وقال ابن كثير: (﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، أي: بمرأىٰ منا). وعن ابن جريج: (﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى ﴾ ، قال: يقول: ولا تراجعني. قال: تقدَّم أن لا يشفع لهم عنده).

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (ويصنع نوح السفينة، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾، يقول: هزئوا من نوح، ويقولون له: أتحوّلت نجاراً بعد النبوة، وتعمل السفينة في البر؟ فيقول لهم نوح: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ إن تهزؤوا منا اليوم، فإنا نهزأ منكم في الآخرة، كما تهزؤون منا في الدنيا).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: فسوف تعلمون معشر المستهزئين إذا جاء أمر الله مَن الهالك، وَمَنْ ينزل به عذاب يهينه ويُذِلّه، ثم مَنْ ينزل به في الآخرة عذاب لا خلاص منه ولا نجاة ولا مخرج من ألمه.

40 ـ 44. **قوله تعالىٰ:** ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: نُزولُ أمر الله في قوم نوح، فيأمر الله تعالىٰ نبيّه نوحاً ﷺ أن يحمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات زوجين، وكذلك أهل بيته وأرحامه وقرابته ـ إلا من سبق القول أنه لن يؤمن ـ، ويحمل كذلك مَنْ آمن معه من قومه وهم نزر قليل. فيركب نوح ﷺ والمؤمنون ويقول: بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم. وأثناء سير السفينة على وجه الماء الآخذ في الارتفاع يبصر نوح ابنه يام ـ وكان كافراً انعزل عن أبيه وعن السفينة ـ فيدعوه للركوب وَأَخْذِ سبيل النجاة كيلا يكون مع

الهالكين. فيأبىٰ ويفضل الانحياز إلى الجبل للتحصن فيه من أمواج الماء، فيخبره نوح أنه لا نجاة اليوم إلا في هذه السفينة، ويمضي أمر الله ليكون ابن نوح مع المغرقين. ثم يأمر الله تعالىٰ الأرض بتشرب الماء والسماء بالإقلاع عن المطر، وقضي الأمر بإهلاك قوم نوح، وأرست السفينة على جبل الجودي، وقيل سحقاً لقوم نوح الذين غضب الله عليهم وكانوا من الظالمين.

فقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ ـ وذلك حين حلول وعيد الله بالطوفان، وإغراق الكفارمن الأنام.

قال ابن عباس: (التنّور: وجه الأرض). والتقدير: انبجس الماء من وجه الأرض. قال ابن كثير: (أي: صارت الأرض عيوناً تفور، حتىٰ فار المار من التنانير التي هي مكانُ النار، صارت تفورُ ماءً. وهذا قول جمهور السَّلف وعلماءِ الخلف).

وفي التنزيل: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: 11 ـ 14].

وقوله: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾، قال: ذكر وأنثىٰ من كل صنف). وقال الضحاك: (يعني بالزوجين اثنين، ذكر وأنثىٰ). وقال ابن جرير: (يعني بالأهل: ولده ونساءه وأزواجه ـ إلا من قلت فيهم: إني مهلكه). أي: فلما جاء ميعاد إهلاك القوم الكافرين، أمر الله نوحاً ﷺ أن يحمل معه في السفينة من صنوف المخلوقات ذات الأزواج، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين، ذكراً وأنثىٰ، وكذلك أهل بيته وأرحامه وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله وكفر برسوله نوح ﷺ، فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده، وكذلك امرأة نوح، التي كانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾. أي: واحمل معك كذلك في السفينة مَنْ آمَنَ مِنْ قَومِكَ. وقوله: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. أي: نزر يسير ممن صدّقه وتابعه من أهله وقومه.

وقوله: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾. أي: كما قال مجاهد: (حين يركبون ويجرون ويرسون). أو قال: (قال: بسم الله حين يجرون وحين يرسون).

والتقدير: أي باسم الله يكون جَرْيُها علىٰ وجه الماء، وباسم الله يكون منتهىٰ سيرها، وهو رُسُوُّها.

وقرأ عامة قراء الكوفة: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ بفتح الميم من ﴿ مَجْر۪ىٰهَا ﴾

وضمها من ﴿وَمُرْسَـٰهَآ﴾. في حين قرأ عامة قراء المدينة والبصرة: «بسم الله مُجْراها ومُرْساها» كلاهما بضم الميم. وقرأ أبو رَجَاء العَطَاردي: «بسم الله مُجْرِيها وَمُرْسِيها» بضم الميم فيهما، ويصيرهما نعتاً لله.

قلت: وذكر الله عند بداية الإقلاع على الدابة وفي السفر وكذلك التسمية عند ابتداء الأمور مشروع في الكتاب والسنة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 28 ـ 29].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 12 ـ 14].

ومن السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: [أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبَّر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: اللهمَّ، إني أسألك في سَفَري هذا البرّ والتقوىٰ، ومن العمل ما ترضىٰ. اللهم هوِّن علينا السفر واطْوِ لنا البعيد. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم اصحَبنا في سَفَرنا، واخلُفنا في أهلنا]. وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون»[1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي لاسٍ ـ محمد بن الأسود بن خلفٍ ـ الخزاعي قال: [حملنا رسول الله ﷺ على إبلٍ من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسولَ الله، ما نرىٰ أن تحملنا هذه! فقال ﷺ: ما من بعير إلا في ذرْوَتِه شيطانٌ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم، ثم امتهِنُوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1342)، وأبو داود (2599)، والنسائي في «اليوم والليلة» (548).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 221)، والطبراني (22/ 334)، وللحديث شواهد.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والدارمي وابن حبان بسند حسن من حديث أسامة بن زيد عن محمد بن حَمْزَة: أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [على ظهر كُلِّ بعير شيطانٌ، فإذا ركبتموها فسمّوا الله عز وجل، ثم لا تُقَصِّروا عن حاجاتكم][1].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال القرطبي: (أي لأهل السفينة).

وذكر المغفرة والرحمة هنا مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين. وفي التنزيل نحو هذا كثير:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49 ـ 50].

وفي مسند البزار بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنْتُهُ يوم أجمع عبادي][2].

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾. قال ابن كثير: (أي: السفينة سائرةٌ بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّقَ جميع الأرض، حتىٰ طَفَت على رؤوس الجبال).

وقال النسفي: (يريد موج الطوفان، وهو جمع موجة كتمر وتمرة، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها).

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ونادىٰ نوح ابنه يام، وهو كما رُوي الابن الرابع، وكان كافراً، فانعزل عن أبيه وعن السفينة، فدعاه أبوه نوح ﷺ ليؤمن ويركب وينجو مع الناجين ولا يكون مع الهالكين فأبىٰ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 494)، والدارمي (2/ 285)، وابن حبان (1703) بسند حسن.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98)، وأخرجه البزار (انظر الهيثمي في «المجمع» 10/ 308)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (742).

وقوله: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾.

قال ابن جرير: (قال ابن نوح، لما دعاه نوح إلى أن يركب معه السفينة، خوفاً عليه من الغرق: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ يقول: سأصير إلى الجبل أتحصّن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني. وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾، يقول: لا مانع من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك، إلا من رَحمَنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم).

ومضت السفينة تسير على وجه الماء تحمل الأمن والطمأنينة لساكنيها، وتخفي وراءها الدمار والهلاك للطغاة والعتاة والمجرمين، كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11 ـ 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 13 ـ 15].

وقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أي: كتب الله الغرق على ابن نوح الضال، فدخل في جملة الغرقىٰ الهالكين.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ﴾.

أي: قال الله للأرض ـ بعد نزول نقمته بأهل الكفر وغرقهم ـ يا أرض تَشرَّبي ماءك، ويا سماء أقلعي عن المطر وأمسكي، فذهبت الأرض بالماء الذي كان عليها ونَشِفَتْه، وقضي الأمر بإهلاك قوم نوح، وأرست السفينة على جبل الجودي ـ الذي هو بناحية الموصل أو الجزيرة ـ فيما ذكر.

وعن مجاهد: (﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، قال: نقص، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، قال: هلاك قوم نوح).

وقال ابن جريج: (﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، نَشِفَتْهُ الأرض).

وعن ابن عباس: (﴿وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، يقول: أمسكي، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، يقول: ذهب الماء).

وعن مجاهد: (﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، قال: الجودي جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله، فلم يغرق، وأرسيت سفينة نوح عليه).

وعن الضحاك يقول: (﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ، هو جبل بالموصل) ـ والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: سحقاً لقوم نوح الذين حاق بهم غضب الله فنزل بهم عذابه.

45 ـ 48. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: مناجاة نوح ربه لنجاة ولده، وجواب الله له أنه ليس من أهله، ووعظه له أن لا يسأل ما ليس له به علم، واستغفار نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذلك. ثم أَمْرُ الله نوحاً الهبوط بسلام عليه وعلى من معه، وعلى كل من تبعه على الحق، وأما من خالف منهاجه دخل في متاع قليل ينتهي بعذاب أليم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ونادىٰ نوح ربه فقال: ربِّ إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾، الذي لا خلف له، ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ بالحق، فاحكم لي بأن تفي لي بما وعدتني، من أن تنجّي لي أهلي، وترجع إليَّ ابني).

وقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾. قال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، الذين وعدتك أن أنجيهم معك). وقال:

(هو ابنه ، غير أنه خالفه في العمل والنية) .

وهو يرد بذلك على من زعم أنه ليس ابنه على الحقيقة ، بل ولد على فراشه ، أو ولد زنية. قال سعيد بن جبير : (قال الله، وهو الصادق : وهو ابنه، ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾) .

وكان قد جاءه رجل فسأله : أرأيتك ابن نوح ابنه؟ فَسَبَّح طويلاً ، ثم قال : (لا إله إلا الله ، يحدِّث الله محمداً : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ وتقول: ليس منه؟ ولكن خالفه في العمل ، فليس منه من لم يؤمن) .

وقال الضحاك : (﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، يقول: ليس من أهل ولايتك ، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك ، ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ، يقول: كان عمله في شرك) .

وهناك من قرأها : «إنه عَمِلَ غيرَ صالح» ـ وروي ذلك عن ابن عباس[1] . والجمهور على قراءتها : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ـ وتأويل ذلك كما ذكر مجاهد قال: (سؤالك إياي ، عمل غير صالح) . ولذلك قال بعدها : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ـ وفيه أكثر من تأويل :

1 ـ أي فلا تسألن ماليس لك به علم بجوازمسألته ـ ذكره النسفي .

2 ـ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين أي الآثمين ـ ذكره القرطبي .

3 ـ أي فلا تسألن عما قد طويتُ علمه عنك من أسباب أفعالي وقد أخبرتك سبب إهلاك ابنك ـ ذكره ابن جرير .

قلت : وكل ما سبق يدل على آفاق مفهوم الآية ويزيد في توضيح معانيها .

قال القاسمي : (﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي مالم تعلم) .

وقال ابن العربي : (وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ . فيه ذكر إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إلى الله من زلته في مسألته .

---

(1) قلت : بل ثبت ذلك عن النبي ﷺ. فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أم سلمة : [أن النبي ﷺ كان يقرؤها : «إنه عَمِلَ غيرَ صالح»]. صحيح سنن الترمذي (2336 / 1) .

قال ابن جرير: (أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم، مما قد استأثرت بعلمه، وطويتَ علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياي ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا).

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إخبارٌ من الله تعالىٰ عن قيله لنوح ﷺ حين أرست السفينة واستوت على جبل الجودي: أن سلام عليك وعلى من معك من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريتك إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب القرظي: (دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة).

وعن ابن زيد قال: (هبطوا والله عنهم راض، هبطوا بسلام من الله. كانوا أهل رحمة من أهل ذلك الدهر، ثم أخرج منهم نسلاً بعد ذلك، أمماً، منهم من رحم، ومنهم من عذب. وقرأ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، وذلك إنما افترقت الأمم من تلك العصابة التي خرجت من ذلك الماء وسلمت).

وعن الضحاك: (يقول في قوله: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾، الآية، يقول: بَركات عليك وعلى أمم ممن معك لم يولدوا، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، يعني: متاع الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة).

وقال الحسن: (فأنجىٰ الله نوحاً والذين آمنوا، وهلك المتمتعون! حتىٰ ذكر الأنبياء، كل ذلك يقول: أنجاه الله وهلك المتمتعون).

49. قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآية: إخبار الله تعالىٰ نبيّه محمداً ﷺ أن هذه القصة من أخبار الغيب يقصها عليه بالوحي، وما كان له ولقومه العلم بدقائقها قبل هذا، فاصبر ـ يا محمد ـ كما صبر نوح والرسل قبلك فالنصر والعاقبة للمتقين.

قال النسفي : (أي ـ أخبار ـ تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوقت ، أو من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذىٰ قومك كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : 51] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات : 171 ـ 172] .

أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمي في «مسند الفردوس» ، بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً : [النصر مع الصَّبر ، والفَرَجُ مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْر يُسْراً ، وإن مع العُسْر يُسْراً][(1)] .

50 ـ 52 . **قوله تعالىٰ :** ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالىٰ عن إنذار هود ﷺ قومه ليفردوا الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم ، قبل حلول نقمة الله بهم ونزول العذاب الأليم . قال يا قوم لا أبتغي ببلاغي ودعوتي لكم مالاً بل أجري على الله الذي فطرني وأرسلني إليكم أفلا تعقلون . ويا قوم الزموا استغفار ربكم ، فإنه من فضله ونعمه يزيدكم ، فيرسل عليكم المطر والرزق ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تستكبروا عن طاعته وتسلكوا سبيل المجرمين .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) من حديث أنس بن مالك ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382) .

فقوله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾. أي: وأرسلنا كذلك إلى قوم عاد أخاهم هوداً.

قال القرطبي: (وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم).

وقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾. أي: أفردوا الله تعالىٰ بالدعاء والتعظيم ولا تصرفوا العبادة لغيره، فهو الله الواحد الأحد المستحق للعبادة.

وقوله: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ما أنتم، في إشراككم معه الآلهة والأوثان، إلا أهل فرية مكذبون، تختلقون الباطل، لأنه لا إله سواه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يُصْلِحُكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

بيان لما أرشدهم به هود ﷺ من الإنابة والاستغفار والتوبة إلى الله وما يعقب ذلك من إرسال الله تعالىٰ السماء بالمطر والخير، وزيادة الشوكة والقوة والمال، وتوضيح لمغبة الإعراض عن دين الله وعن اتباع رسوله. قال مجاهد: (﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾، قال: شدة إلىٰ شدتكم).

قال النسفي: (إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة، وقيل أراد بالقوة المال. ثم قال: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ و لا تعرضوا عني وعما أدعو إليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على إجرامكم وآثامكم).

وفي التنزيل ـ قول نوح ﷺ ـ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ نوح: [10 ـ 12].

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ مِّدْرَارًا ﴾، يقول: يتبع بعضها بعضاً).

وعن ابن زيد: (﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾، قال: يدر ذلك عليهم قطراً ومطراً).

53 ـ 56. **قوله تعالىٰ:** ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾.

في هذه الآيات: مجادلة قوم هُودٍ نبيّهم بالباطل، وإعلانهم كفرهم بما جاء به، وأنّ الذي هو عليه سوء مما اعتراه بعض آلهتهم. ومقابلة هود ﷺ لهم بإعلانه البراءة من شركهم، وتحديهم بأن يكيدوا له كما يشاؤون فهو متوكل على الله ربهم ورب كل دابة وكل شيء، وهو سبحانه له الصراط المستقيم والدين القويم.

فقوله: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ ـ هو جواب قوم هود له، قالوا: ما أتيتنا بحجة ولا برهان على دعواك فيما تأمرنا من توحيد الله والإقرار بنبوتك.

وقوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾. أي: وما نحن بتاركي آلهتنا من أجلك أو لقولك، وما نحن بمقرين لك الرسالة أو النبوة.

وقوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال مجاهد: (أصابتك الأوثان بجنون)، أو قال: (سَبَبْتَ آلهتنا وعِبْتَها، فَأَجَنَّتْـكَ).

2 ـ وعن قتادة قال: (ما يحملك على ذمّ آلهتنا إلا أنه أصابك منها سوء).

3 ـ وقال الضحاك: (يقولون: نخشىٰ أن يصيبك من آلهتنا سوء، ولا نحب أن تعتريك، يقولون: يصيبك منها سوء).

4 ـ وقال ابن زيد: (يقولون: اختلَط عقلك فأصابك هذا، مما صنعت بك آلهتنا).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ـ بيان لمنهج المفاصلة عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي هذا البيان فوائد عظيمة:

أولاً ـ أشهد هود صلوات الله وسلامه عليه الله على براءته من دينهم ، وأن الله هو وليه وناصره.

ثانياً ـ أشهدهم مخالفة رأيهم وتوجههم ودينهم وما يعبدون.

ثالثاً ـ أَكَّدَ اعتزازه بالله بالاستهانة بما هم عليه ، وبما هم عاكفون على تعظيمه ، وبأنهم لو اجتمعوا على شفاء غيظهم منه ، وعاجلوه ولم يمهلوه ، لم ينالوا منه إلا ما كتب الله له.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

قال القرطبي: (﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ـ أي: رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره. ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي نفس تدب على الأرض. ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ـ أي يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ، أي فلا تصلون إلى ضري).

والناصية قُصاص الشعر في مقدم الرأس ، وكان العرب إذا أسروا أسيراً فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه ، جزّوا ناصيته ، ليعتدوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة.

قال ابن جريج: (إنما خص الناصية ، لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع ، فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء).

وعن الفراء: (﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ قال: مالكها ، والقادر عليها). وقال القتبي: (قاهرها ، لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته). وقال الضحاك: (يحييها ثم يميتها) ـ وكلها أقوال متقاربة.

وعن مجاهد: (﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ، قال: الحق).

57 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ

وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: إعلان هود ﷺ إقامته الحجة على قومه ، وأن تماديهم بالغَيِّ مآله إلى الهلاك ، وقد يستبدلهم الله ولا يضرونه شيئاً فالله على كل شيء حفيظ . ولما نزل العذاب نجّىٰ الله هوداً والذين آمنوا وأهلك الطغاة والعتاة والمجرمين ، وأتبعهم لعنة إلى يوم الدين ، ويوم القيامة هم من المبعدين المقبوحين الهالكين .

فقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ . أي يقول هود ﷺ لقومه : فإن أعرضتم عن الحق وتَنَكَّرْتُم لهذا الوحي فقد أقمت عليكم الحجة فيما يجب عليكم من إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم والعبادة .

وقوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

أي : والله تعالىٰ هو الذي يهلككم ولا تعجزونه ، ويستخلف قوماً بعدكم خيراً منكم يقومون بمقتضىٰ التوحيد وإخلاص العبادة له سبحانه ، ثم إنه لا يضره هلاككم كما لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً : [قال الله تعالىٰ : يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني][1] .

قال ابن جرير : (﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ، يقول : إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم . يقول : هو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

أي : وحين جاء ميقات عذاب قوم هود بإرسال الريح العقيم لتستأصلهم عن آخرهم ، نجّى الله تعالىٰ نبيَّهُ هوداً والمؤمنين معه بفضل منه وبكرمه ورحمته . قال النسفي : (﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي بفضل منا لا بعملهم ، أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم . ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ . قال : وتكرار «نجينا» للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17) من حديث أبي ذر ، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160) ، وهو جزء من حديث طويل .

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا يُدْخِلُ أحداً منكم عَمَلُهُ الجنة، ولا يُجيرُهُ من النار، ولا أنا، إلا برحمة من الله][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قال ابن كثير: (﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، كفروا بها، وعصوا رسل الله، وذلك أنَّ من كَفَرَ بنبيٍّ فقد كَفَرَ بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهودٍ، فَنُزِّلَ كفرُهم منزلة من كفر بجميع الرسل).

وقال القاسمي: (﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي أطاعوا في الشرك ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ لا يستدل بدليل، ولا يقبله من غيره. يريد رؤساءهم وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أي: أتبع قوم هود في هذه الدنيا غضباً من الله، ولعنة عليهم من عباده المؤمنين كلما ذكروا. قال السُّدي: (ما بُعِثَ نبيٌّ بعد عاد إلا لُعِنُوا على لسانه).

ثم إنهم تنالهم يوم القيامة لعنة أخرىٰ بعد تلك اللعنة التي سلفت لهم في الدنيا، وينادىٰ على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ـ أي أبعدهم الله من الخير.

61 ـ 63. قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقص تعالىٰ خبر ثمود مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، إذ دعاهم إلى إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، وشكره على ما أعطاهم واستغفاره فهو الغفور الرحيم. فما كان منهم إلا أن أظهروا الشك والاتهام وأعلنوا لآلهتهم الولاء،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2817) ـ كتاب صفات المنافقين ـ، وانظر الحديث (2818) بعده.

والتمسك بما كان يعبد الآباء. فأجابهم صالح عليه الصلاة والسلام بتمسكه بيقين النبوة، وخوفه من معصية رب البرية، فلا أحد يستطيع دفع عذاب الله وسخطه مهما أوتي من القوة.

فقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: وكذلك أرسلنا صالحاً إلى ثمود أن أفردوا الله تعالىٰ بالدعاء والتعظيم، وأخلصوا له العبادة والألوهة، فإنه لا إلـه إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. يقول: هو ابتدأ خلقكم من تراب الأرض، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ثم جعلكم عُمّاراً فيها، فأسكنكم إياها أيام حياتكم، لتعمروها وتستغلونها في مصالحكم.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، وأبو داود في السنن، بسند صحيح، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ خَلَقَ آدمَ من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلك، والسَّهل والحَزْنُ، والخبيثُ والطيبُ، وبين ذلك][1].

وعن مجاهد: (﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، قال: أعمركم فيها).

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

أي: فاستغفروا ربكم لسالف ذنوبكم، ثم توبوا إليه فاتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم، وأحسنوا التوجه والعمل فيما تستقبلونه، إنَّ ربي قريب من المخلصين له، التائبين الحريصين على مرضاته، مجيب لدعائهم ومفرج لكروبهم.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

وفي جامع الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 406)، وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح. وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (327، 385)، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 104). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1630).

ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة][1] .

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ .

ذِكْرُ إجابة ثمود لنبيهم صالح عليه الصلاة والسلام: أَنْ كُنّا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل أن يصدر عنك ما قلت ، وكنا نرجوك في عقلك ونفتخر برأيك قبل أن تقول في الألوهية غير ما ألفناه. قال النسفي: (﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ للسيادة والمشاورة في الأمور ، أو كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه).

وقال القاسمي: (﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي من الأوثان ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الريبة ، وهي قلق النفس ، وانتفاء الطمأنينة).

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: إن كنت على برهان وبيان من الله قد علمته وأيقنته ، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ، يقول: وآتاني منه النبوة والحكمة والإسلام ، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ، يقول: فمن الذي يدفع عني عقابه إذا عاقبني إن أنا عصيته).

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ . قال مجاهد: (ما تزدادون أنتم إلا خساراً).

وقال الفراء: (أي تضليل وإبعاد من الخير). قال القرطبي: (والتخسير لهم لا له ﷺ ، كأنه قال: غير تخسير لكم لا لي. وقيل: المعنىٰ ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم ، عن ابن عباس).

قلت: والسياق يدل على حديثه ﷺ عن نفسه ، أي: لو تركت دعوتكم إلى الحق وإفراد الله سبحانه بالعبادة والتعظيم ، وعصيت ربي بمجاراة أهوائكم ، لما نفعتموني ولما زدتموني إلا خسارة بتعريضي لسخط الله .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3789) بسند صحيح. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2805).

64 ـ 68. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إجابة صالح ـ ﷺ ـ قومه عندما سألوه آية كحجة وبرهان على صدق دعوته ونبوته، فأعلمهم أن تلك الناقة آية لهم، رِزْقُها على الله، وإنما حذرهم من قتلها أو مسّها بسوء لئلا ينزل بهم عذاب من الله غير بعيد، فما كان منهم إلا أن عقروها وتجرؤوا على التحدي فأخبرهم: أن استمتعوا في دار الدنيا بحياتكم ثلاثة أيام، وعد من الله غير مخلوف. ولما جاء ميقات هلاكهم نجّىٰ الله صالحاً والمؤمنين برحمته وهو القوي العزيز. وأنزل بأسه بالقوم الظالمين فأخذتهم الصيحة فأصبحوا هلكىٰ في ديارهم خامدين. كأن لم يغنوا بالأمس ألا إن ثمود عتوا عن أمر ربهم فأبعدهم ربهم من رحمته وأنزل بهم أليم عذابه.

وعن قتادة: (﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾، قال: بقية آجالهم). وعنه قال: (﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾، قال: نجاه الله برحمة منه، ونجاه من خزي يومئذ).

وقال النسفي: (﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ ﴾ منازلهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين).

وعن ابن عباس: (﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾، قال: كأن لم يعيشوا فيها).

وقال ابن جرير: (﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ﴾، يقول: ألا إن ثمود كفروا بآيات ربهم فجحدوها، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾، يقول: ألا أبعد الله ثمود! لنزول العذاب بهم).

وقد سبق تفصيل هذه القصة في سورة الأعراف بما يغني عن إعادته هنا ولله الحمد والمنة.

69 ـ 73. **قوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ قصة لوط عليه السلام، وكانت قرىٰ لوط بنواحي الشام، وإبراهيم عليه السلام ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان يحسن قِرىٰ من ينزل عنده، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافاً. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، قاله ابن عباس، وقال الضحاك: كانوا تسعة. وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه، فأقبلوا ببشرىٰ الولد أو بإهلاك قوم لوط، فجاءهم إبراهيم بعجل مشوي يناسب حسن الضيافة، فلما رآهم لا يأكلون خافهم فأخبروه مُطمئِنين، أنهم ملائكة رب العالمين، أرسلهم سبحانه لإهلاك قوم مجرمين. فضحكت سارة لسماع بشرىٰ إهلاك القوم المفسدين، فزادوها بشارة بإسحاق ثم يعقوب هدية رب العالمين. فتعجبت من الإنجاب وهي عجوز وبعلها شيخ كبير، فأعلموها أن ذلك أمر الله الحميد المجيد.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾. أي: جاءت الملائكة إبراهيم خليل الله تبشره بإسحاق، وقيل بهلاك قوم لوط. وفي التنزيل مما يشهد للأول: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

وقوله: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ ـ أي: عليكم. والتقدير: فسلموا عليه سلاماً فرد عليهم بقوله سلام، بمعنىٰ: عليكم السلام، أو بمعنىٰ: سلام منكم، أو أمركم سلام.

قال علماء البيان: (هذا أحسنُ ما حَيَّوه به، لأن الرفع يدلُّ على الثبوت والدوام) ـ ذكره الحافظ ابن كثير.

وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. أي: انصرف مسرعاً لإحضار الضيافة والقيام بآداب الاستقبال، فأتاهم بعجل مشوي على الحجارة المحماة.

قال ابن عباس (﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، يقول: نضيج). وقال مجاهد: (﴿بِعِجْلٍ﴾، حَسِيل البقر، و«الحنيذ»، المشوي النضيج). وقال: (﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، نضيج، سُخِّنَ، أنضج بالحجارة). وقال السدي: (ذبحه ثم شواه في الرَّضف) ـ وهي الحجارة المحماة. وفي لغة العرب: حنذت الشاة أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجَها فهي حنيذ.

وفي الآيات من آداب الضيافة:

1 ـ ردّه السلام بسلام أحسن منه. فالرفع يدل على الثبوت والدوام ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

2 ـ انسحب بسرعة للقيام بحسن الضيافة ـ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ـ أي ما أبطأ مجيئه، و«ما» نافية.

3 ـ قرّب إليهم الطعام، فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول، فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم، لأنهم خرجوا عن العادة وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه، فإن العرب إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً. وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

4 ـ من حسن الضيافة مسارقة الضيف النظر للتأكد من أنه يأكل، وذلك بين الفينة والفينة بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر.

وفي التنزيل: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: 26 ـ 27].

وقد حفلت السنة الصحيحة كذلك بذكر فضائل وآداب الضيافة، في أحاديث من جوامع كلم النبوة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي شُرَيح الخزاعي قال: [سَمِعَ أُذُنايَ وَوَعاهُ قلبي النبي ﷺ يقول: «الضيافة ثلاثةُ أيام، جائزتُـهُ»، قيل: وما جائِزتُـهُ؟

قال: يوم وليلة ، قال: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو لِيَسْكُت][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: [الضيافة ثلاثة أيام ، فما سوىٰ ذلك فهو صدقة][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي شُرَيْح الخزاعي ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر ، فَلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ. وجائزتُهُ يومٌ وليلةٌ. ولا يحِلُّ له أن يَثْوِيَ عند صاحِبِهِ حتىٰ يُحْرِجَهُ. الضيافة ثلاثة أيام. وما أنفق عليه بعد ثلاثة أيام ، فهو صدقة][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر ، أنه قال: قلنا: يا رسول الله ، إنك تبعثنا فننزل بقوم فما يقروننا ، فما ترىٰ؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: [إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقّ الضيف الذي ينبغي لهم][4].

قال أبو داود: (وهذه حجة للرجل يأخذ الشيء إذا كان له حقاً).

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن المقدام أبي كريمة قال: قال رسول الله ﷺ: [ليلةُ الضيف واجبة. فإن أصبح بفنائه ، فهو دَيْنٌ عليه. فإن شاء اقتضىٰ ، وإن شاء ترك][5].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

قال قتادة: (وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف ، فلم يطعم من طعامهم ، ظنوا أنه لم يجئ بخير ، وأنه يحدث نفسه بِشَرّ). ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾: أي تنكّرهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6476) ـ كتاب الرقاق ـ باب حفظ اللسان. وانظر (6478).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3749) ـ كتاب الأطعمة ـ باب ما جاء في الضيافة ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3189) ـ وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3675) ، كتاب الأدب ، باب حق الضيف ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (2964) ـ وأصله في الصحيحين كما مضىٰ نحوه.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود وابن ماجة وغيرهما. انظر صحيح سنن أبي داود (3191) ، وصحيح سنن ابن ماجة (2965).

(5) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3677) ، وأبو داود (3750) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3190) من حديث المقدام أبي كريمة رضي الله عنه مرفوعاً.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. قال ابن جرير: (قالت الملائكة، لما رأت ما بإبراهيم من الخوف منهم: لا تخف منا وكن آمنا، فإنا ملائكة ربّك، ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

إِخْبَارٌ عن سارة امرأة إبراهيم عليهما السلام إذ كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم عليه السلام. أو قيل: كانت قائمة تخدمُ الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل. فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط لشدة فسادهم وغِلظ فجورهم في البلاد، فَبُشِّرت بالولد بعد الإياس: إسحاق ومن ورائه يعقوب.

وهناك أقوال عند المفسرين غير مناسبة نحو: (ضحكت: حاضت) أو ضحكت لروع إبراهيم. وإنما يفيد من تلك الأقوال:

1 ـ يروي ابن جرير بسنده عن السدي قال: (بعث الله الملائكة لتهلك قوم لوط، أقبلت تمشي في صورة رجال شباب، حتىٰ نزلوا على إبراهيم فتضيَّفوه. فلما رآهم إبراهيم أجلّهم فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فذبحه ثم شواه في الرَّضف، فهو «الحنيذ» حين شواه. وأتاهم فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم. فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس»، في قراءة ابن مسعود. فلما قرّبه إليهم قال: ألا تأكلون؟ قالوا: يا إبراهيم، إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن. قال: فإن لهذا ثمناً! قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره. فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُقَّ لهذا أن يتخذه ربه خليلاً! فلما رأىٰ أيديهم لا تصل إليه ـ يقول: لا يأكلون ـ فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، إنّا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا!).

2 ـ وعن قتادة أنه قال: (ضحكت تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما أتاهم من العذاب). ـ واختاره ابن جرير.

3 ـ وعن وهب بن منبه يقول: (قالوا: لا تخف إنا نبشرك بغلام حليم مبارك! وبشّر به امرأته سارة، فضحكت وعجبت: كيف يكون لي ولد وأنا عجوز، وهو شيخ كبير؟ فقالوا: أتعجبين من أمر الله، فإنه قادر على ما يشاء! فقد وهبه الله لكم، فأبشروا به).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

هذا قولها عند التعجب من إمكانية الولادة وقد أسنّت وزوجها في الشيخوخة ، وقد حكىٰ الله فعلها أثناء تعجبها في آية الذاريات : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ـ على عادة النساء عند تعجبهن في أقوالهن وأفعالهن .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمْرِ الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير . ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ ، أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله ، محمودٌ ممجَّدٌ في صِفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلامَ عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيمَ ، وبارك على محمد وعلى آل محمدٍ ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد»[(1)]) .

74 ـ 76 . قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦ ﴾ .

في هذه الآيات : محاولة إبراهيم ﷺ بعد زوال الخوف عنه وحصول البشرىٰ له ردّ العذاب عن قوم لوط ، بمجادلة الملائكة فيهم إنه حليم أواه منيب ، وإجابة الملائكة له بقطع الجدال في شأنهم ، فقد نزل أمر الله فيهم ، فهم قادمون لا محالة على عذاب يستأصلهم .

وعن مجاهد : (﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ ، قال : الفَرَق) . وقال قتادة : (ذهب عنه الخوف) . والمقصود : لما ذهب عن إبراهيم ما أوجسه في نفسه من الخوف من ضيوفه حين رأىٰ أيديهم لا تصل إلى طعامه ، وأمن أن يكون قُصِدَ في نفسه وأهله بسوء .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6357) ، ومسلم (406) ، وأحمد (4/ 241) ، وأهل السنن من حديث كعب بن عجرة . وأخرجه الدارمي (1316) ، وأخرجه الطيالسي (1061) .

وقوله: ﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾. قال قتادة: (حين أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وأنهم ليسوا إياه يريدون). وقال ابن إسحاق: (﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بإسحاق).

وقوله: ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾. قال مجاهد: (يخاصمنا).

وعن ابن إسحاق قال: (جادل عن قوم لوط ليرد عنهم العذاب).

وعن السدي فيها: (قال: ما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط. فجادلهم في قوم لوط، قال: أرأيتم إن كان فيها مئة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يُحطّ حتىٰ بلغ عشرة من المسلمين، فقالوا: لا نعذبهم، إن كان فيهم عشرة من المسلمين. ثم قالوا: «يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين»، هو لوط وأهل بيته) ـ والله تعالىٰ أعلم[1].

والخلاصة: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أخذ يحاول ردّ العذاب عن قوم لوط، ولكن أمر الله قد مضىٰ في الانتقام منهم مقابل جرائمهم وبغيهم وعتوهم في الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾. قال مجاهد: (﴿ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾: القانت الرَّجّاع). وقال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إن إبراهيم لبطيء الغضب، متذلل لربه، خاشع له، منقاد لأمره، ﴿ مُّنِيبٌ ﴾، رجّاع إلىٰ طاعته). قلت: وهذه صفات مدح وثناء على إبراهيم ـ عليه السلام ـ تتلوها الأجيال المتعاقبة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

أي: يا إبراهيم دع عنك هذا الجدال في مصير قوم لوط، فإنه قد نزل فيهم قضاء الله الذي لا رادّ له، وإنهم يمضون قريباً نحو عذاب غير مدفوع.

قال النسفي: (﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه وحكمه). وقال القرطبي: (﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ ﴾ أي نازل بهم ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع).

77 ـ 79. قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ

(1) هناك أخبار في ذلك نحو ما مضىٰ نقلها المفسرون من كتب بني إسرائيل والله أعلم بها.

﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾.

في هذه الآيات: وصول الملائكة ـ رسل الله ـ إلى لوط عليه الصلاة والسلام، وهم في أجمل صورة على شكل شبان حسان، فتوقّع لوط ﷺ بقدومهم إليه الابتلاء، وقد علم القوم بمجيئهم، فهرعوا إليهم لأجل شهواتهم وبغيهم، فناشدهم لوط ﷺ احترام الأضياف، واتخاذ النساء للنكاح، فركبوا أهواءهم مصرين على حمل لوط تسليمهم لهم.

فقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ ـ وذلك بعد انطلاقهم من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإخبارهم بحلول هلاك قوم لوط هذه الليلة، فجاؤوا لوطاً في أرضه أو منزله على صورة شبان حسان في أجمل صورة، ابتلاء من الله.

وقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾. قال ابن عباس: (ساء ظناً بقومه، وضاق ذرعاً بأضيافه).

وعن قتادة، عن حذيفة، أنه قال: (لما جاءت الرسل لوطاً أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم،: لا تهلكوهم حتىٰ يشهد لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا مُتَضيّفوك الليلة. فانطلق بهم، فلما مشىٰ ساعة التفت، وقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناساً أخبث منهم! قال: فمضىٰ معهم. ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم. فلما بصرت بهم عجوز السَّوْء امرأته، انطلقت فأنذرتهم).

وقوله: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ ـ أي شديد البلاء. قال ابن عباس: (أي: يوم شديد). وقال ابن إسحاق: (خرجت الرسل، فيما يزعم أهل التوراة، من عند إبراهيم إلى لوط بالمؤتفكة، فلما جاءت الرسل لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وذلك من تخوف قومه عليهم أن يفضحوه في ضيفه، فقال: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾).

وقوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾. قال مجاهد: (يهرولون، وهو الإسراع في المشي). وقال الضحاك: (يسعون إليه). وعن قتادة: (﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ قال: يسرعون إليه).

وقال سفيان بن عيينة: (كأنهم يدفعون).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وجاء لوطاً قومه يستحثون، يُرْعَدُون مع سرعة المشي، مما بهم من طلب الفاحشة).

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. قال ابن جريج: (يأتون الرجال).

أي: ومن قبل مجيئهم إلى لوط لتحسس أخبار ضيوفه، كانوا على شأنهم القبيح من إتيان الرجال في أدبارهم.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة). وبنحوه ذكر أهل التأويل:

1 ـ قال مجاهد: (لم يكُنَّ بناتِه، ولكن كُنَّ من أُمَّتِهِ، وكل نَبِيٍّ أبو أُمَّتِه).

2 ـ وقال ابن جريج: (أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً).

3 ـ وقال سعيد بن جبير: (يعني نساءهم، هن بناته، وهو أبٌ لهم). أو قال: (هو نبيّهم، وقال في بعض القراءة: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم﴾ [الأحزاب: 6]).

4 ـ وعن الربيع: (﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، يعني التزويج). قال قتادة: (أمرهم أن يتزوجوا النساء. وأراد نبي الله ﷺ أن يقيَ أضيافه ببناته).

5 ـ وعن السدي: (﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، قالوا: أولم ننهك أن تضيف العالمين؟ قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، إن كنتم فاعلين، أليس منكم رجل رشيد).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165 ـ 166].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 70 ـ 72].

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

أي: خافوا الله وعظموه واقبلوا ما شرع لكم من النكاح والتزويج والاقتصار على

نسائكم ، ولا تفضحوني في سيئاتكم أمام ضيوفي ، أليس منكم رجل راشد ينهىٰ أصحابه عن فواحشهم ورذيلتهم!

قال ابن جرير: (﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ ، يقول: ولا تذلوني ، بأن تركبوا مني في ضيفي ما يكرهون أن تركبوه منهم).

وعن ابن إسحاق: (﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ، أي: رجل يعرف الحق وينهىٰ عن المنكر).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ .

أي: لا رغبة لنا في النساء ـ يا لوط ـ ولا نشتهيهن ، بل نرغب في الرجال ، وأنت تعلم ذلك.

قال ابن إسحاق: (أي: إن بغيتنا لغير ذلك). وعن السدي: (﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنا نريد الرجال).

قال ابن كثير: (﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ ، أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهنَّ ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ ، أي: ليس لنا عَرَضٌ إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأيُّ حاجةٍ في تكرار القول علينا في ذلك؟!).

80 ـ 83. قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: تمني لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين حاصره قومه يريدون اصطياد أضيافه لفاحشتهم المنعة والنصرة والقوة ، فأخبرته الملائكة حين رأوا ما نزل به من الكرب أنهم رسل الله جاؤوا لإهلاك قومه ، وأمروه بالخروج بأهله ـ سوى زوجته ـ ببقية من الليل وأن يتبع أدبارهم ولا يلتفت أحد منهم لما قد يُسمع من هلاك القوم ، فإن عذابهم قد دنا مع صبح تلك الليلة. فلما جاء أمر العذاب ونزول الهلاك بهم جعل الله

عالي قريتهم سافلها وأرسل عليهم حجارة متتابعة معلمة تسحقهم ، وما هذا العذاب من الظالمين ببعيد.

فقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال السدي: (قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، يقول: إلى جند شديد ، لقاتلتكم). وقال قتادة: (العشيرة).

2 ـ وعن الحسن: (﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، قال: إلى ركن من الناس). قال ابن جريج: (بلغنا أنه لم يبعث نبيٌّ بعد لوط إلا في ثَرْوةٍ من قومه ، حتىٰ النبي ﷺ).

3 ـ وعن ابن إسحاق قال: (﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، أي: عشيرة تمنعني ، أو شيعة تنصرني ، لحلت بينكم وبين هذا).

والخلاصة: لقد تمنىٰ لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ حاصره قومه يريدون السوء والفاحشة بأضيافه ، أن يكون في منعة من عشيرة أو نصرة من أعوان يدفعون عنه هؤلاء القوم الفاسدين الأشرار.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: [يَغْفر الله للوط إنْ كان ليأوي إلى ركنٍ شديد][1]. زاد أحمد: (إذ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾).

وفي لفظ: [يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد].

ورواه أحمد والطبري بلفظ: [رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله ، عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبيّ إلا في ثَرْوَةٍ من قومه].

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾. قال ابن جرير: (قالت الملائكة للوط ، لما قال لوط لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، ورأوا ما لقي من الكرب بسببهم منهم: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ ، أرسلنا لإهلاكهم ، وإنهم لن يصلوا إليك وإلي ضيفك بمكروه ، فهوّن عليك الأمر).

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. أي: فاخرج أنت وأهلك ببقية من الليل من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3375) ، (3372) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 322) ، والطبري في «التفسير» (18397) ، (18398) ، وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (330) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6206).

بين أظهرهم ، وأمروه أن يتّبعَ أدبارهم ، أي : يكون ساقةً لأهله . وهناك قراءتان مشهورتان : قرأ عامة قراء الكوفة والبصرة ﴿ فَأَسْرِ ﴾ ، في حين قرأها عامة قراء مكة والمدينة «فاسْر» بغير همز ، وسرىٰ فلان وأسرى في كلام العرب إذا سار بليل ، ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي من آخر الليل ، أو بظلمة من الليل أو بساعة من الليل . قال ابن عباس : (بطائفة من الليل) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : إذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تَهُولنّكم تلك الأصوات المزعجة ، ولكن استمروا ذاهبين) .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ ـ فيه قراءتان :

1 ـ قراءة قراء الحجاز والكوفة وبعض قراء البصرة ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ، أي فأسر بأهلك إلا امرأتك ، فَأُمِرَ أن يُسري بأهله سوىٰ زوجته أُمِرَ بتخليفها مع قومها .

2 ـ وأما القراءة الثانية «إلا امرأتُك» ـ فهي قراءة بعض البصريين . والتقدير : لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، فنهىٰ لوط من معه من الالتفات سوىٰ زوجته أخرجها معه وإنها التفتت فهلكت لذلك .

وكلاهما قراءتان مشهورتان ، وإن كان النصب أشهر القراءتين ، وأنه أمر لوط ﷺ بتخليف زوجته مع قومها ، والله تعالىٰ أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ . أي : إنه واقع بها العذاب الذي هو واقع بقومها .

وقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : إنما ينزل بهم من صبح ليلتك هذه ، فامض لما تؤمر) .

قال القرطبي : (لما قالت الملائكة : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت : 31] قال لوط : الآن الآن . استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ، فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . قال : ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ .

أي : وحين جاء أمر العذاب ونزول الهلاك بهم جعل الله عالي قريتهم سافلها وأرسل عليهم حجارة مُسْتَحْجرة قوية شديدة متتابعة .

قال مجاهد: (قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ ، بالفارسية ، أوّلها حَجَر ، وآخرها طين).

وقال ابن عباس: (هو بالفارسية سنك ، وجل ، «سنك» ، هو الحجر ، و«جل» ، هو الطين. يقول: أرسلنا عليهم حجارة من طين).

وقال البخاري: (سِجّيل: الشديد الكبير ، سِجّيل وسجّينٌ ، اللام والنون أختان).

وعن قتادة: (﴿مَّنضُودٍ﴾ ، يقول: مصفوفة). وقال الربيع بن أنس: (﴿مَّنضُودٍ﴾: نضد بعضه على بعض) ، وقيل: يتبع بعضه بعضاً عليهم. وعن أبي بكر الهذلي بن عبد الله قال: (أما قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ ، فإنها في السماء منضودة معدَّة ، وهي من عُدَّة الله التي أَعَدَّ للظلمة).

وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾. قال مجاهد: (معلمة). أي معلمة مختومة ، قيل: عليها أسماء أصحابها ، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه.

والخلاصة كما ذكر المفسرون: أن جبريل عليه السلام احتمل القرية بجناحه ، ثم صَعِد بها ، حتىٰ إن أهل السماء ليسمعون نابحة كلابها ، وأصوات دجاجها ، ثم كفأها على وجهها ، فصار أعلاها أسفلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة ، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات.

وفي التنزيل: ﴿جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. قال مجاهد: (يُرْهِب بها من يشاء).

قال ابن كثير: (أي: وما هذه النقمة ممن تشبّه بهم في ظلمهم ببعيد عنه).

قلت: وقد جاء التهديد في السنة الصحيحة والوعيد الشديد على من قلد قوم لوط في فعلتهم ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن ابن عباس مرفوعاً: [من وجدتموه يعمل عملَ قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط. قال: [ارجُموا الأعلىٰ والأسْفَل. ارجُموهما جميعاً][2].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 300) ، وأبو داود في السنن (4462) ، وابن ماجة (2561) ، والحاكم (4/ 255) ، وإسناده حسن.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (2562) ـ كتاب الحدود ـ باب من عمِلَ عمَل قوم لوط.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أخوفَ ما أخاف على أمتي عَمَلُ قوم لوطٍ][1].

وقد ذهب الإمام الشافعي وجماعة من أهل العلم أن اللائط يقتل سواء كان مُحصناً أو غير محصن. واختار أبو حنيفة أن يلقىٰ من شاهق ويُتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، والله تعالىٰ أعلم.

84 ـ 86. **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله قصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه ، فقد دعاهم لإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم ، ونبذ التلاعب بالمكيال والموازين ، وحذرهم عذاب يوم محيط. ثم أكَّد الأمر لهم بالوفاء في المكيال والميزان بالقسط وإعطاء الناس حقوقهم دون بخس أو ظلم ، واجتناب سبيل المفسدين. فإن ما يبقىٰ من الربح الحلال خير لهم من الغش والمكر والخداع إن كانوا حقاً مؤمنين ، فإنه لم يُكَلَّف هو بمراقبتهم بل الله هو الرقيب على أعمالهم.

فقوله: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: وكذلك أرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيباً أن أطيعوا الله وأفردوه بالتعظيم ، وتذللوا له بالعبادة ولا تصرفوها إلى غيره ، فهو إلهكم الواحد الأحد.

قال ابن جرير: (﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ، يقول: مالكم من معبود سواه يستحق عليكم العبادة غيره).

وقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. أي: لا تبخسوا الناس أثناء بيعكم في

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (2077) ـ كتاب الحدود ـ الباب السابق.

مكيالكم وميزانكم ، بل أوفوهم حقهم ولا تتبعوا سبيل الغواية والغش والخداع .

وفي آية الأعراف : ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، والطبراني في «الصغير والكبير» بسند حسن عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : [من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار][1] .

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ . قال الحسن: (الغنىٰ ورُخْص السعر) .

وقال قتادة: (يعني خير الدنيا وزينتها) .

قال ابن كثير: (﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ ، أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبُوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارمَ الله) .

وقوله: ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ . أي: محيط بإهلاكه وعذابه .

قال النسفي: (والمراد عذاب الاستئصال في الدنيا أو عذاب الآخرة) .

وقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ .

أي: أوفوا الناس كيلهم وميزانهم بالعدل ـ يقول شعيب لقومه ـ وأدّوا إليهم تمام حقوقهم بغير بخس ولا نقص ولا تلاعب ولا احتكار .

قال قتادة: (﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ، يقول: لا تظلموا الناس أشياءهم) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . قال الضحاك: (يقول: ولا تسعوا في الأرض مفسدين ، يعني: نقصان الكيل والميزان) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

أي: ما يبقىٰ لكم من الربح الحلال بعد إتمام الكيل والميزان ووفاء الناس حقوقهم خير لكم من الغش والمكر والمال الحرام ، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده ، وحلاله وحرامه ، وما أنا إلا نذير لكم ولم يوكل إليّ أمر مراقبتكم أثناء مكيلكم

(1) حديث حسن. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1107) ، والطبراني في «المعجم الصغير» (ص 153) ، و«المعجم الكبير» (3/ 69/ 1) ، وأبو نعيم في «الحلية» (4/ 188) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1058) .

ووزنكم وبيعكم وتعاملكم ، فراقبوا الله تعالىٰ الذي ينظر إلى معاملاتكم ويعلم سركم ونجواكم.

وعن مجاهد: (﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، قال: طاعة الله خير لكم). وقال قتادة: (حظكم من ربكم خير لكم). وقال ابن عباس: (﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: رزق الله). وقال ابن زيد: (الهلاك في العذاب ، والبقية في الرحمة).

وفي التنزيل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بإسناد حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتىٰ تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][1].

87 ـ 90. **قوله تعالىٰ:** ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

في هذه الآيات: مقابلة قوم شعيب لرسولهم بالاستهزاء والتهكم: هل صلاتك تأمرك بتركنا عبادة الأوثان؟ وترك التطفيف واللعب بالمكيال والميزان؟ وهي أموالنا نفعل فيها ما نشاء! ألست أنت الحليم الرشيد! فأجابهم شعيب مستنكراً سوء موقفهم: ما ظنكم ـ أيها القوم ـ لو كنت على بصيرة وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه ، ولست

(1) حديث حسن. انظر تخريج مشكاة المصابيح (15) ، وتخريج «فقه السيرة» (96) ـ الألباني. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2081).

ممن يخالف سره علنه ، إن أريد إلا إصلاح أحوالكم لما يرضي ربكم ، عليه توكلت وإليه أنيب. ويا قوم لا يحملنكم عداوتي على الإصرار على الكفر وظلم الناس أشياءهم ، وإنما عليكم الاتعاظ بمن هلك من الأقوام قبلكم ، فسارعوا إلى استغفار ربكم والتوبة إليه إن ربي رحيم تواب ودود.

فقوله : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ . أي : أجابوه مستهزئين على سبيل التهكم. ﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾ ـ قال الأعمش : (قراءتك). وفي لفظ : (قرآنك). وكان شعيب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما ذكر كثير الصلاة.

قال القرطبي : (فلما أمرهم ونهاهم عيَّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة ، واستهزؤوا به). أي : هل صلاتك وقراءتك تأمرنا بترك عبادة الأصنام والأوثان!! قال الحسن : (إي والله ، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم).

وإنما أمرهم بتوحيد الله عز وجل ، والتزام طاعته واجتناب نواهيه ، ومن أخص ذلك ما هم عليه من الغش والتطفيف و اللعب بالمكيال والميزان.

وقوله : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ . قال الثوري : (يعنون الزكاة).

وقال ابن كثير : (﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ ، فنترك التَّطفيف على قولك ، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد).

وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

قال ابن جريج : (يستهزئون). وقال ابن زيد : (المستهزئون ، يستهزئون : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾).

قال ابن جرير : (فإنهم أعداء الله ، قالوا ذلك له استهزاءً به ، وإنما سَفَّهوه وجَهَّلوه بهذا الكلام).

وقوله : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ . أي : ما ظنكم لو كنت على بصيرة وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من إفراد الله تعالىٰ بالعبادة ، وحفظ الأموال وترك الغش والخداع.

وقوله : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ـ فيه قولان متكاملان :

1 ـ الرزق الحسن هو الرزق الحلال الطيب.

2 ـ الرزق الحسن كناية عن النبوة.

وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

قال الثوري: (أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالفُ أنا في السر فأفعله خفية عنكم).

وقال قتادة: (يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركَبه).

وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

قال النسفي: (ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ظرف، أي مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً).

وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. أي: وما بلوغي مرامي في إصابة الحق في نصحكم ودعوتكم إلا بعون الله وتوفيقه.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾. أي: اعتمدت في أمري كله.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. قال مجاهد: (أرجع).

وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾. أي: لا يحملنكم عداوتي وكراهيتي وما أنا عليه من الدين الحق على الإصرار على كفركم وما فيه سوء عاقبتكم من بخس الناس في المكيال والميزان وعدم الوفاء.

قال قتادة: (﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾، يقول: لا يحملنكم فراقي).

وقال ابن جريج: (﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾، قال: عداوتي وبغضائي وفراقي).

وقوله: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾. أي: من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾، من العذاب ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾. قال قتادة: (إنما كانوا حديثاً منهم قريباً، يعني قوم نوح وعاد وثمود وصالح). أو قال: (إنما كانوا حديثي عهد قريب، بعد نوح وثمود).

والمقصود أحد معنيين يكمل بعضهما بعضاً:

1 ـ وما قومُ لوط ـ أيها القوم الذين ائتفكت بهم الأرض ـ ببعيد هلاكهم منكم.

2 ـ وما دارُ قوم لوط منكم ببعيد.

أفلا تتعظون بمهالك هؤلاء الأقوام فَيَحْمِلكم ذلك على أخذ العبرة والحذر أن يصيبكم بشقاقي مثل الذي أصابهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

أي: سارعوا بالمغفرة لنيل عفو الله ورضوانه، والتزموا منهج التوبة لتستقبلوا عظيم رحمته وإحسانه. ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ ـ قال النسفي: (يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين. ﴿ وَدُودٌ ﴾ يحب أهل الوفاء من الصالحين). وقال ابن جرير: (يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه، أن يعذبه بعد التوبة، ﴿ وَدُودٌ ﴾، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبه).

قلت: والودود فعول بمعنىٰ مفعول، من الوُدِّ، فالله تعالىٰ مودود أي: محبوب في قلوب أوليائه، أو هو فعول بمعنىٰ: فاعل، أي: أن الله تعالىٰ يودُّ عباده الصالحين، بمعنىٰ: يرضىٰ عنهم[1].

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج: 14].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: 96].

وفي صحيح سنن الترمذي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إذا أحب الله عبداً نادىٰ جبريل: إني قد أحببتُ فلاناً فأحِبَّهُ، فينادي في السماء، ثم تُنْزل له المحبة في الأرض، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾][2].

91 ـ 95. قوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ

(1) انظر جامع الأصول (4/ 179)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 396) لتفصيل ذلك.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (3384) ـ كتاب التفسير ـ سورة مريم، آية (96). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2528).

اَعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

في هذه الآيات: استمرار استهزاء قوم شعيب برسولهم واستضعافه بل وتهديده. ومفاصلة شعيب لهم محذراً لهم عذاب الله ونقمته دون جدوىٰ منهم. ونزول أمر الله بعذابهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. ونجاةُ شعيب بإذن الله ومن معه من المؤمنين.

فقوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

إِخْبَارٌ عن إجابة قوم شعيب لشعيب: قالوا يا شعيب ما نعلم حقيقة كثير مما تخبرنا به ومما تقوله، ولا نفهم صحة ما تتكلم به، وهو إنكار منهم وعناد بلا ريب. لأنه كما قال سفيان: (وكان يقال له: «خطيب الأنبياء»)[1].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾. قال النسفي: (لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكرهاً).

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾. قال ابن زيد: (قالوا: لولا أن نتقي قومك ورهطك لرجمناك). قال ابن جرير: (﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ يعنون: لسببناك. وقال بعضهم: معناه: لقتلناك). والرجم أيضاً اللعن، ومنه: الشيطان الرجيم، أي الملعون المطرود عن الخير.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾. قال القرطبي: (أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع).

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾. أي: أَبَلَغَ رهطي في قلوبكم أن يكون أعز عليكم وأجلّ من ربكم ومليككم سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾. أي: وجعلتم أمره تعالىٰ خلف ظهوركم، فلا تأتمرون بأمره، ولا تجتنبون ما نهاكم عنه، ولا تعظِّمونَهُ حق تعظيمه؟.

---

(1) قلت: لكن لا يصح في تلك التسمية دليل من السنة، ولا عن أحد من الصحابة.

قال ابن عباس: (وذلك أن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله ، وصغر شأن الله عندهم ، عزّ ربّنا وجَلّ).

وقال قتادة: (لم تراقبوه في شيء ، إنما تراقبون قومي ، ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ، لا تخافونه ، يقول: عززتم قومكم ، وأظهرتم بربكم). أو قال: (واغتررتم بربكم). وقال سفيان: (استخففتم بأمره).

وفي لغة العرب: «نبذ فلان حاجة فلان وراءه ظهره» ، إذا تركها ولم يلتفت إليه. والظهريّ منسوب إلى الظهر.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن ربي محيط علمه بعملكم فلا يخفىٰ عليه منه شيء ، وهو مجازيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً).

وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾. أي: اعملوا على تمكنكم ومنازلكم ووسعكم وطريقتكم فإني عامل على تمكني ووسعي وطريقتي. قال ابن كثير: (﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ، أي: على طريقتكم. وهذا تهديد ووعيد شديد ، ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ ، على طريقتي ومنهجي).

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

أي: سوف تعلمون من يأتيه عذاب يهلكه ويذله ويهينه ، ومن هو المفسد من المصلح ، ومن هو كاذب منا فيذوق وبال أمره ، وانتظروا العاقبة وما أقول لكم فإني معكم مترقب منتظر. قال القرطبي: (﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة ، فإني منتظر النصر والرحمة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: ولما حان ميعاد عذاب قوم شعيب نجّى الله تعالىٰ شعيباً والمؤمنين الذين ناصروه وتابعوه وآمنوا معه برحمته سبحانه ، وانتقم من القوم الذين ظلموا فأخمدهم بصيحة جعلتهم في ديارهم هامدين لا حَرَاكَ بهم.

قال ابن كثير: (وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذابُ يوم الظُّلَّة ، وهم أمةٌ واحدة ، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقَمُ كلها ، وإنما

ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: 88] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرُجِفَت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيِّهم منها ، وهاهنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسبَ ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً).

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾. أي: كأنهم لم يعيشوا في تلك المساكن والديار قبل ذلك. قال ابن عباس: (﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ ، يقول: كأن لم يعيشوا فيها).

وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. أي: ألا أبعد الله مدين بانتقامه منهم ، كما أبعد قبلهم ثمود بحلول سخطه بهم.

قال القاسمي: (شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم).

96 ـ 99. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

في هذه الآيات: خَبَرُ إرسال الله تعالىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه ، واستكبارهم عن اتباع الحق إلى أمر فرعون المتجبر العنيد. إنه سيقدم قومه يوم القيامة إلى نار الجحيم ، وسيتبعهم الله إضافة إلى عذاب الدنيا لعنة ، ثم تنالهم لعنة أخرىٰ يوم القيامة ، فبئس ما هم فيه من تتابع اللعن عليهم والخزي والشقاء.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ عن إرساله موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحججه الدامغة ، وبراهينه وأدلته القاطعة ، إلى الطاغية فرعون ـ ملك ديار مصر على أمة القبط ـ ومن معه في الحكم من الملأ الباغي. قال ابن جرير: (﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ ، يعني: إلى أشراف جنده وتبّاعه).

وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

أي آثروا المضي خلف مسلك فرعون ومنهجه في البغي والظلم والضلال، وإن أمر فرعون كله جهل وعناد، وكفر وفساد، وما فيه حكمة أو علم أو هدىٰ ورشاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

أي يقود قومه يوم القيامة فيمضي بهم إلى النار، وبئس الورد وبئس المصير.

قال قتادة: (﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يقول: يقود قومه. قال: فرعون، يقدم قومه يوم القيامة، يمضي بين أيديهم، حتىٰ يهجم بهم على النار).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يقول: أضلَّهم فأوردهم النار. قال: ﴿ٱلْوِرْدُ﴾ الدُّخول).

وعن الضحاك يقول في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: (كان ابن عباس يقول: ﴿ٱلْوِرْدُ﴾ في القرآن أربعة أوراد: في «هود» قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، وفي «مريم»: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وورد في «الأنبياء»: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، وورد في «مريم» أيضاً: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾. كان ابن عباس يقول: كل هذا الدخول. والله ليردنَّ جهنم كل برٍّ وفاجر: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 72]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

أي: وأتبعهم الله تعالىٰ ـ إضافة للعذاب الذي أهلكهم به في الدنيا بالغرق ـ لعنة، ويوم القيامة تنالهم لعنة أخرىٰ، فبئس ما هم فيه من تتابع الطرد والشقاء.

قال مجاهد: (﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، اللعنة في إثر اللعنة). قال: (زيدوا بلعنته لعنة أخرىٰ، فتلك لعنتان).

وعن ابن عباس: (﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، قال: لعنة الدنيا والآخرة).

وعن قتادة قال: (ترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة).

وفي لغة العرب: الرِّفد: العطاء والصلة، ورفَدَه أعطاه وأعانه، والمقصود: ترادف إحدىٰ اللعنتين الأخرىٰ، من الله تعالىٰ على فرعون وملئه، في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: 41 ـ 42].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

100 ـ 102. قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إعْلامٌ من الله تعالىٰ لنبيّه محمد ﷺ: أنَّ هذه القصص التي ذكرت لك في هذه السورة هي من أخبار القرىٰ التي دكّها الله بكفر أهلها وطغيانهم وفسادهم وتعظيمهم الشهوات فوق أمر الله ودينه الحق. فمن هذه القرىٰ ما هو قائم بنيانه بائد أهله هالك، ومنها ما هو قائم بنيانه عامر، ومنها ما هو خراب دارسٌ لا أثرَ له ولمن كان يسكنه. وما ظلمهم الله، ولا أغنت عنهم آلهتهم حين نزل بهم بأس الله، إن بأس الله بالمجرمين شديد.

فقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بـ «القائم» قُرىٰ عامرة، و«الحصيد» قرىٰ خامدة).

وقال قتادة: (﴿قَائِمٌ﴾ على عروشها، و﴿وَحَصِيدٌ﴾ مستأصلة). أو قال: (﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾، يرَىٰ مكانه، ﴿وَحَصِيدٌ﴾، لا يرىٰ له أثر). وقال ابن زيد: (منها قائم يرىٰ أثره، وحصيد بادَ لا يرىٰ أثره). وقال الأخفش: (حصيد أي محصود).

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

قال ابن زيد: (اعتذر ـ يعني ربنا جل ثناؤه ـ إلى خلقه فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾، مما ذكرنا لك من عذاب من عذبنا من الأمم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾).

قال النسفي: (﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا) ـ أي من الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

أي: لم تنفعهم أصنامهم ولا أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً حين نزل بهم أمر الله بالإهلاك والدمار، فلا هم نفعوهم بِرَدٍّ بأْسِ الله عنهم، ولا هم أنقذوهم مما حلَّ بهم من التدمير والتشريد والهلاك.

وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: (غير تخسير).

يقال في لغة العرب: تبَّ فلان إذا خسر، وتبّبَهُ غيره إذا أوقعه في الخسران.

قال القرطبي: (والتَّباب الهلاك والخسران، وفيه إضمار، أي ما زادتهم عبادة الأصنام، فحذف المضاف، أي كانت عبادتهم إياهم قد خسَّرتهم ثواب الآخرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

إِخْبَارٌ من الله سبحانه عما جاءت به العادة في إهلاك من بغىٰ من الأمم وظلم، وكفر بالله وأجرم، إن عقوبته سبحانه لأهل الشرك والبغي موجعة غليظة مؤلمة.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفلِته. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

103 ـ 108. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3109)، وابن ماجة (4018)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5175)، وكذلك البيهقي (6/ 94).

يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ .

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالىٰ أن في تلك القصص عبرة لمن خاف عذاب الله يوم القيامة ، إنه يوم يجتمع فيه الخلق جميعهم ، وتشهده الملائكة ، وقد سبق توقيته في قضاء الله ، إنه يوم لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله ، ويقسم الناس إلى فريقين: أهل الشقاوة وأهل السعادة. فأهل الشقاوة يصارون إلى منازلهم في نار جهنم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، فهو الفعال لما يريد. وأهل السعادة يصارون إلى مراتبهم ومساكنهم في الجنة خالدين فيها ، تكرمة الله لهم في عطاء غير مقطوع ، ونعيم لا حدود له.

فقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ . أي: إن في إهلاك تلك القرىٰ الظالم أهلها لعبرة وعظة لمن أراد النجاة من عذاب الله في الآخرة ، فينزجر عن الخوض في ظلمات المعاصي والكفر والآثام ، ويعلم أن الله سينصر المؤمنين في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

قال ابن زيد: (﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ، إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة ، كما وفينا للأنبياء: أنّا ننصرهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 13 ـ 14].

أخرج الخطيب في «التاريخ» والديلمي ، وأبو نعيم في «الحلية» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصرُ مع الصَّبْرِ ، والفَرَجُ مع الكرب ، وإن مع العُسْر يُسْراً][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، ولبعضه شواهد في المسند (1/ 307) ، ومستدرك الحاكم (3/ 541 ـ 542) ، و«الحلية» (1/ 314).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

قال مجاهد: (يوم القيامة). وقال الضحاك: (ذلك يوم القيامة، يجتمع فيه الخلق كلهم، ويشهده أهل السماء وأهل الأرض). وفي التنزيل: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47].

قال ابن كثير: (أي: يومٌ عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتُحشَر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: 40]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

أي: ما نؤخر عنكم مجيء يوم القيامة إلا ليقضي الله ما قضاه من الخلق، وما كتب لهم من الأعمار والأرزاق والأعمال والآجال، فإذا تكامل قضاء الله وقدره في إيجاد ما كتب إيجاده، وسبقت به كلمته وحق قوله، أقام الله الساعة.

والحق أن من مات فقد قامت قيامته، وبدأ معايشة ما قدّم من العمل. فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رجال من الأعراب جُفاةً يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متىٰ الساعة، فكان يَنْظُر إلى أصغرهم فيقول: إن يَعِشْ هذا لا يُدْرِكْهُ الهرَمُ حتىٰ تقوم عليكم ساعتكم. يعني موْتَهم][1].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

أي: لا يستطيع يوم مجيء ذلك اليوم أحد أن ينطق إلا بإذن الله تعالىٰ.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38].

وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك ـ في الشفاعة ـ عن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الرقاق. انظر مختصر صحيح البخاري (2025). والمقصود بقوله: «لا يدركه الهرم» أي لا يبلغ الشيخوخة ونهاية العمر. أي فسّر ساعتهم بموتهم وانقراض عصرهم، لأن من مات فقد قامت قيامته.

قال: [ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوىٰ الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ][1].

وقوله: «لا تكلم» الأصل لا تتكلم، وحذفت إحدىٰ التاءين للتخفيف.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. أي: من أهل الموقف بين يدي الله يوم القيامة شقي معذب وسعيد منعم، والشقي من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد من كتبت عليه السعادة، والكتابة في ذلك عند الله كتابة علم لا كتابة قهر أو جبر.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 ـ 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5 ـ 10].

ومن كنوزر السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلاّ أن تُخبرنَا يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنىٰ: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم، فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعملُ إنْ كان هذا أمراً قد فُرِغَ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختمُ له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل، ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرىٰ فقال: فريق في السعير][2].

---

(1) هو بعض حديث أخرجه البخاري (7510)، ومسلم (193) ح (326)، وابن ماجة (4312)، وأحمد (3/ 116)، (3/ 244)، (3/ 247 ـ 248) ـ في الشفاعة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 167)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11473)، والترمذي (2141).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي، وكان من أصحاب النبي ﷺ، مرفوعاً: [إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل: يا رسول الله فعلىٰ ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر][1].

الحديث الثالث: أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات»، والآجري في «الشريعة» بسند صحيح عن هشام بن حكيم: [أن رجلاً أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أنبتدئ الأعمال أم قد قُضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالىٰ أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار][2].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبي الله، فعلىٰ ما نعمل؟ على أي شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فُرِغَ منه، وجرت به الأقلام، يا عمرُ ولكنْ كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: صوت شديد، وصوت ضعيف).

وقال أبو العالية: (الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر).

قال ابن كثير: (أي تنفُّسُهم زفيرٌ، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك).

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ـ أي ماكثين فيها أبداً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 186) من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي، وأخرجه الحاكم (1/ 31)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (48).

(2) حديث صحيح. أخرجه الآجري (ص 172)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 326). وانظر معناه في صحيح مسلم (8/ 48 ـ 49)، ومختصر صحيح مسلم (1844) ـ كتاب القدر. باب: في القدر والشقاوة والسعادة من حديث علي (رضي الله عنه). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 804) لتفصيل روايات ابن أبي عاصم في السنة، وكذلك البيهقي والآجري وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (3111) من حديث عمر. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2486) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود (105).

قال ابن زيد: (ما دامت الأرض أرضاً والسماءُ سماءً).

قال ابن جرير: (وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوامَ السماوات والأرض، بمعنىٰ: أنه دائم أبداً. وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمير، وما لألأت العُفْرُ بِأذنابها، يعنون بذلك كله: ﴿أبداً﴾. فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، والمعنىٰ في ذلك: خالدين فيها أبداً).

قلت: وهذا التفسير يخالف القران الكريم الذي أثبت عدم بقاء هذه السماوات والأرض يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48]، فهناك سماوات تعقب هذه السماوات وكذلك أرض تعقب هذه الأرض، وتلك التي أرادها الله بالخلود والبقاء والدوام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ـ له أكثر من تأويل عند المفسرين:

الأول: قيل معناه إلا مدة مكثهم في النار. وذلك في أهل التوحيد. فعن قتادة قال: (الله أعلم بثُنَياه. وذكر لنا أن ناساً يصيبهم سَفْعٌ من النار بذنوب أصابوها، ثم يدخلهم الجنة). وقال الضحاك بن مزاحم: (يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة، فهم الذين استثنىٰ لهم).

وعن خالد بن معدان: (في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أنهما في أهل التوحيد).

الثاني: قيل الاستثناء لأهل التوحيد إلا أن يتجاوز الله عنهم فلا يدخلهم النار، فوجهوا الاستثناء إلى أنه من قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ لا من الخلود. قال أبو مجلز: (هو جزاؤه، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه).

الثالث: قيل الاستثناء مدة مقامهم في الموقف. ذكره بعض المفسِّرين.

الرابع: قيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف. فلم يغيبوا عن الجنة أو النار إلا بقدر إقامتهم في البرزخ والمحشر. ذكره الطبري.

الخامس: قيل: خالدين في الجنة أو النار دوامَ السماء والأرض إلا مدة تعميرهم في الدنيا. ذكره أهل اللغة.

السادس: قيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، وهذا متشابه قد وصل بمحكم: «عطاء غير مجذوذ».

السابع: قيل: هو لإعلامهم بأنهم مع خلودهم ففي مشيئة الله ، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ . ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ . ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ ـ ذكره ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية .

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ . أي: يفعل ما يشاء ولا مانع لمضي أمره .

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ .

بشارة عظيمة لدوام الخلود والسَّعادة لأهل الجنة في عطاء من الله لهم غير مقطوع عنهم . وأما الاستثناء ـ قلت: الخلاصة فيه ـ إن منهج التفسير عند الراسخين يتضمن ردّ المتشابه إلى المحكم ، فقوله تعالىٰ: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم ، مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ ، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ ، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ مما يدل أن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء للوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة .

وعن الضحاك ومجاهد: (﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، قال: غير مقطوع) .

وقال ابن زيد: (غير منزوعٍ منهم) . وقال أبو العالية: (﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أما هذه فقد أمضاها ، يقول: عطاء غيرَ منقطع) .

وقد جاءت السنة الصحيحة بمفهوم استمرار النعيم في الجنة ودوام الخلود في روضاتها وملذاتها في عطاء غير مقطوع:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بالموت كهيئة كَبْشٍ أملحَ فينادي منادٍ: يا أهل الجنة ، فيشرئِبُّون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموتُ ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي: يا أهل النار ، فيشرئِبُّون وينظرونَ فيقول: هل تَعْرِفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموتُ ، وكلهم قد رآه ، فَيُذْبَحُ ، ثم يقولُ: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موتَ ، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت][1] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4730) ـ كتاب التفسير ـ ، وانظر مختصر صحيح البخاري حديث (2032) للفظ الآخر ، كتاب الرقاق ، وأخرجه مسلم (2849) ، والترمذي (3156) .

وفي لفظ من حديث ابن عمر: [ثم يذبَحُ ، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا مَوْتَ ، ويا أهل النار لا موتَ ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مُنادٍ: إنّ لكم أن تَصِحّوا فلا تَسْقَموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشِبُّوا فلا تَهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تبأسوا أبداً][1] .

الحديث الثالث: روىٰ مسلم وغيره من أهل السنن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُل الجنة يَنْعَمُ لا يَبْأسُ ، لا تَبْلىٰ ثيابُهُ ولا يفنىٰ شبابُه][2] .

109 ـ 111 . قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ .

في هذه الآيات: إِثْباتُ الله لنبيّه فساد منهاج قومه في عبادتهم وأنهم سيجدون تمام جزائهم عند ربهم. وَتَسْلِيَةٌ له بذكر اختلاف الناس على رسولهم موسىٰ ﷺ من قبل ، وأنه لولا قضاء الله ببلوغ الكتاب أجله لعاجل المكذبين بالإهلاك. وإنما الفصل التام يوم يجمع الله الأولين والآخرين ، فيقضي بينهم بحكمه وهو العليم الخبير.

فقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ .

خِطَابٌ من الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: فلا تك ـ يا محمد ـ في شك مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الأوثان والآلهة والأصنام والطواغيت أنه ضلال وجهل وباطل وشرك بالله عز وجل. وهم بذلك إنما يقتفون منهاج آبائهم في فساد عبادتهم ولا يصدرون عن أمر الله عز وجل ووحيه ونور شرعه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب في دوام نعيم أهل الجنة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2836) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ الباب السابق. والحديث رواه أحمد (2/ 369) ، والدارمي (2/ 332) ، وبنحوه الترمذي وصححه ابن حبان.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾. أي: سيجدون عند الله تمام جزائهم دون نقصان.

قال ابن عباس: (﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾، قال: ما وُعِدوا فيه من خير أو شر). وقال ابن زيد: (نصيبهم من العذاب).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾. قال ابن كثير: (ذكر تعالىٰ أنه آتىٰ موسىٰ الكتاب فاختلف الناس فيه، فَمِنْ مُؤْمِنٍ به وَمِنْ كافرٍ به، فَلَكَ بمن سَلَفَ من الأنبياء قبلك يا محمد أسوةٌ، فلا يغيظنّكَ تكذيبُهم لك، ولا يهيدَنَّكَ ذلك).

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ ـ فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضىٰ الله بينهم. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولولا كلمة سبقت، يا محمد، من ربك بأنه لا يعجّل على خلقه بالعذاب، ولكن يتأنّىٰ حتىٰ يبلغ الكتاب أجله ـ لقضي بين المكذب منهم به والمصدق، بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجائه المصدق به).

التأويل الثاني: لولا قضاء الله ألا يعذب أحداً إلا بعد قيام حجته البالغة عليه ـ حجة الوحي والرسل، لأنزل بالمكذبين بأسه.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: 129 ـ 130].

قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾. أي: وإن الكافرين لفي شك من الوحي والنبوة شديد.

قال النسفي: (﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من القرآن أو من العذاب ﴿ مُرِيبٍ ﴾).

وقال ابن جرير: (وإن المكذبين به منهم، لفي شك من حقيقته أنه من عند الله، ﴿ مُرِيبٍ ﴾، يقول: يريبهم، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟ ولكنهم فيه ممترون).

ثم أخبر تعالىٰ أنه سيجمع الأولين والآخرين من جميع الأمم ليقفوا بين يديه لنيل الثواب ونكال العقاب حسب أعمالهم.

وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قال ابن كثير: (أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، وفي هذه الآية قراءاتٌ كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 32]).

112 ـ 115. قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله نبيّه والمؤمنين بالاستقامة على المنهج الحق وعدم الركون إلى الطغاة، فإن ذلك سبيل إلى النار والهلاك. وأمْرُهُ كذلك له بإقامة الصلاة في الغداة والعشي وفي ساعاتٍ من الليل، فإن الحسنات يذهبن السيئات. وأمره كذلك له بالصبر على أذىٰ المشركين حتىٰ يأتي نصر الله، والله لا يضيع أجر المحسنين.

فقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾. أي: على الدين الحق. قال سفيان: (استقم على القرآن). وقوله: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾. قال القرطبي: (أي استقم أنت وهم، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومَنْ بعده ممن اتبعه من أمته). قال ابن عباس: (ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه). ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له لقد أسرع إليك الشيب! فقال: [شيبتني هود وأخواتها][1].

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك! قال: [قل آمنت بالله ثم استقم][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3528)، والحاكم (2/ 344)، والطبراني. قال الهيثمي (7/ 37): ورجاله رجال الصحيح. وقد مضىٰ برواياته المختلفة مفصلاً في أول هذه السورة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (38)، والطيالسي (1231)، والترمذي (2410)، وابن ماجة (3972)، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 413)، وابن حبان في صحيحه (942) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ قال ابن زيد: (الطغيان: خلاف الله ، وركوب معصيته). والطغيان مجاوزة الحد. وقيل: أي لا تتجبروا على أحد. قال ابن جرير: (يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . أي: إنه تعالىٰ بصير بأعمال عباده ، لا يغفل عن شيء ، ولا يغيب عن علمه شيء ، قد أحاط بكل شيء علماً ، فلا يخفىٰ عليه شيء.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ .

آية عظيمة من آيات المفاصلة ، ونهي الله تعالىٰ عباده المؤمنين الميل إلى أعدائه المشركين أو مداهنتهم أو الرضىٰ بأعمالهم.

ومن أقوال أهل التأويل في هذه الآية:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، يعني: الركون إلى الشرك).

2 ـ وقال أبو العالية: (يقول: لا ترضوا أعمالهم). وقال: (يقول: الركون: الرضىٰ).

3 ـ وعن ابن جريج: (﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، قال: قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا).

4 ـ وعن قتادة قال: (يقول: لا تلحقوا بالشرك ، وهو الذي خرجتم منه).

5 ـ وقال ابن زيد: (الركون: الإدهان. وقرأ: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: 9]. قال: تركن إليهم ، ولا تنكر عليهم الذي قالوا ، وقد قالوا العظيم من كفرهم بالله وكتابه ورسله).

وقوله: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

أي: فتمسكم النار بركونكم لأهل البغي والشرك والظلم ، ثم ليس بكم من دون الله من ناصر ينصركم أو ولي يدفع عنكم عذابه ، بل يتخلىٰ الله تعالىٰ عن نصركم ويسلط عليكم عدوكم ولا منجىٰ لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ .

خِطَابٌ من الله تعالىٰ لنبيّه محمد ﷺ: أن أقم الصلاة في الغداة والعشي وفي ساعات

من الليل ، فإن الإنابة إلى طاعة الله والعمل بما يرضيه ، ودعاءه سبحانه يذهب آثام معصية الله ويكفر الذنوب، وهذه الوصايا: من اجتناب الركون إلى الطغاة أو مداهنتهم، ثم تعظيم الله وحده بالصلاة والدعاء والاستغفار من أعظم الذكرىٰ للذاكرين.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن مسعود: [أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً ، فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ . فقال الرجل: يا رسول الله: ألي هذه؟ قال: لجميع أمتي كلهم][1].

ورواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير ـ واللفظ له ـ عن ابن مسعود قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إني وجدتُ امرأةً في بُستان ، ففعلت بها كُلَّ شيء ، غير أني لم أجامِعْها ، قَبَلْتُها ولزِمتُها ، ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ما شئتَ. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً ، فذهب الرجل ، فقال عمر: لقد سترَ الله عليه ، لو سترَ على نفسه! فأتبعه رسول الله بصرَه ثم قال: رُدُّوه عليَّ. فردُّوه عليه ، فقرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ . فقال معاذ ـ وفي رواية عُمر ـ: يا رسول الله ، أله وحده ، أم للناس كافة؟ فقال: بل للناس كافة][2].

وله تفصيل آخر عند الترمذي في السنن في حديثين صحيحين:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وابن ماجة عن عبد الله قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصىٰ المدينة ، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا ، فاقضِ فيَّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله ، لو سترت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ، فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه ، فتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ . فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة][3].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي اليسر قال: [أتتني امرأة تبتاع

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (526) (4687) ، ومسلم (2763) ، والترمذي (3114) ، والنسائي في «التفسير» (267) ، وأخرجه ابن ماجة (4254) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2763) ح (42) ، وأخرجه أبو داود (4468) ، والترمذي (3112) ، والطيالسي (285) ، وأحمد (4250) ، (4290) ، (3653) ، والطبري (18688) (18682) ، وابن حبان (1728) ، (1730).

(3) حسن صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3326) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ، آية (105).

تمراً ، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه. فدخلت معي في البيت ، فأهويت إليها فقبلتها. فأتيت أبا بكر ، فذكرت ذلك له ، فقال: استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر. فأتيت عمر فذكرت ذلك له. فقال: استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر. فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له. فقال له: أَخْلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا ، حتىٰ تمنىٰ أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتىٰ ظن أنه من أهل النار. قال: وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتىٰ أوحي إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾. قال أبو اليسر: فأتيته ، فقرأها عليَّ رسول الله ﷺ ، فقال أصحابه: يا رسول الله ، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامَّة][1].

وفي تفسير ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ـ أقوال عند أهل التأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (يعني الصبح والمغرب). وكذلك قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

2 ـ قال الضحاك وقتادة: (هي الصبح والعصر).

3 ـ وقال مجاهد: (هي الصبح في أول النهار ، والظهر والعصر من آخره).

ورجَّح ابن جرير أن الطرفين الصبح والمغرب. قلت: أما الطرف الأول فالصبح وهو باتفاق المفسرين ، وتبقىٰ الفسحة في فهم مدلول الطرف الآخر ، ولا شك أنه يدل مع مفهوم قوله تعالىٰ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ على الصلوات الخمس في كل يوم.
وفي تفسير: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ـ أقوال عند أهل التأويل:

1 ـ قال مجاهد: (﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ، قال: الساعات من الليل ، صلاة العتمة).

2 ـ وعن الحسن: (﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ، قال: العشاء). وقال ابن عباس: (يقول: صلاة العتمة).

3 ـ وعن سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: (كان ابن عباس يعجبه التأخير بالعشاء ، ويقرأ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾).

4 ـ عن الحسن قال: (هما زُلفتان من الليل ، صلاة المغرب ، وصلاة العشاء).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3331) ـ أبواب تفسير القرآن ـ سورة هود ، آية (105) ـ وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2489) ـ وأبو اليسر هو كعب بن عمرو.

5 ـ وقال الأخفش: (يعني صلاة الليل ولم يعين).

قال القرطبي: (﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أي في زُلَفٍ من الليل، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض، ومنه سميت المزْدَلِفَة، لأنها منزل بعد عَرَفَة بقرب مكة).

قلت: وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ بعد الأمر بإقام الصلاة آناء الليل وأطراف النهار فيه دلالة كبيرة على عظيم أثر الصلاة في غسل خطايا المؤمن، ويبدأ ذلك من الوضوء والتطهر له، وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: [أرأيتم لو أنَّ نَهْراً بباب أحدِكم يغتسل فيه كلَّ يوم خَمْساً، ما تقول ذلك يُبْقي مِنْ دَرَنِه؟ قالوا: لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِه شيئاً، قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يَمْحُو الله به الخطايا][1].

وفي لفظ: [وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بِهِنَّ الذنوبَ والخَطايا].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: [الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتُنِبَت الكبائر][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأهل السنن عن علي بن أبي طالب، قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حَدَّثني عنه أحدٌ استحلفتهُ، فإذا حلفَ لي صَدَّقته، وحدثني أبو بكر ـ وصَدَق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [ما من مُسْلِم يُذْنِبُ ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين، إلا غُفِرَ له][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (528) ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ. باب: الصلوات الخمس كفارة. وأخرجه مسلم (667)، والترمذي (2868)، وأحمد (2/ 379)، والنسائي (1/ 230 ـ 231)، والدارمي (1/ 268)، وأخرجه ابن حبان (1726).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (233)، والترمذي في الجامع (214)، وأحمد في المسند (2/ 229)، وابن ماجة في السنن (1086).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد رقم (2)، (47)، (48)، (56)، وابن ماجة (1395)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (415)، وأخرجه الحميدي (4)، وابن أبي شيبة (2/ 387).

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ كان يقول: [إن كُلَّ صلاةٍ تَحُطُّ ما بين يَدَيْها من خطيئة][1].

الحديث الخامس: أخرج النسائي وابن خزيمة بسند صحيح عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من توضأ فأسبغَ الوضوءَ ، ثم مشىٰ إلى صلاة مكتوبة ، فصلاها مع الإمام غُفِرَ له ذنبُه][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال القاسمي: (﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ اي على مشاق ما أُمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] ، ولا مانع من شموله للكل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس).

قلت: وهذا الأمر بالصبر على محن الدعوة وآلام الطريق وإن كان موجّهاً للنبي ﷺ إمام الأمة في الصبر والجهاد ، فإنه خطاب لكل القادة المسلمين والعلماء العاملين من بعده إلى يوم الدين.

أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمي في «الفردوس» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبْر ، والفَرَجُ مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][3].

116 ـ 117. قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (5/ 413) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (4/ 126) ، رقم (3879) ، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (2140).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي (2/ 112) ، وانظر صحيح مسلم (226) نحوه ، وصحيح البخاري (159) ، (164) ، وسنن أبي داود (106) ، وسنن الدارمي (697) ، وسنن ابن ماجة (285) ، ورواه ابن خزيمة من حديث عثمان رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، وله شاهد في مسند أحمد (1/ 307) من طريق ابن عباس ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إِثْباتُ الله تعالىٰ نجاة القلة المؤمنة التي كانت تنهىٰ عن الفساد في الأرض فيما مضىٰ ، ليكون ذلك توجيهاً لهذه الأمة لحمل الأمانة بصدق ، فإن الظالمين في متاع قليل ينتهي باستئصالهم. وتقريرٌ من الله تعالىٰ أنه لا يهلك قرية إلا وأهلها ظالمون.

فقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

أي: فهلاّ كان من تلك الأمم الماضية التي دكَّها الله بسبب عتوها وبغيها وكفرها فئة مؤمنة تنهىٰ عن الفساد في الأرض وتأمر بالمعروف! إنه كان قلة من أهل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن الشرور والمنكرات في كل قوم مما مضىٰ ، وأولئك هم الذين نجاهم الله برحمته من العذاب الذي نزل بقومهم.

قال ابن زيد: (﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: فإذا هم الذين نجوا حين نزل عذاب الله). وقال ابن جريج: (يستقلّهم الله من كل قوم).

وهذا توجيه قوي لهذه الأمة أن تحمل الأمانة بقوة ولا تتهاون مع انتشار المنكر والآثام ، لئلا ينزل بها ما نزل بالأمم قبلها حين فشت فيها الموبقات والمعاصي والفواحش.

قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في آفاق هذا المعنىٰ ، منها:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن قيس ، قال: [قال أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه: يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: 105] ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يُعُمَّهم الله بعقاب». وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي ، ثم

يقدرون على أن يُغَيِّروا ، ثم لا يغيِّروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»](1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أنّ رسول الله ﷺ قام خطيباً ، فكان فيما قال: ألا ، لا يَمْنَعَنَّ رجُلاً ، هيبةُ الناسِ ، أنْ يقولَ بحقٍّ ، إذا علمه». قال: فبكىٰ أبو سعيد ، وقال: قد والله! رأينا أشياء ، فهبنا](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي: أن النبي ﷺ قال: [لَنْ يهلكَ الناس حتىٰ يَعْذِروا ، أو يُعْذِروا ، مِنْ أنفسهم](3).

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾.

قال مجاهد: (في ملكهم وتجبّرهم ، وتركوا الحق). وقال ابن عباس: (﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ، قال: ما أُنظروا فيه). وقال قتادة: (من دنياهم).

قال ابن جرير: (إن الله أخبر تعالىٰ ذكره: أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت ، فكفروا بالله ، اتبعوا ما أنظروا فيه من لذّات الدنيا ، فاستكبروا وكفروا بالله ، واتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا ، فاستكبروا عن أمر الله ، وتجبّروا وصدوا عن سبيله. ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ ، يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أخبر تعالىٰ أنه لم يهلك قريةً إلا وهي ظالمة ، ولم يأت قرية مصلحةً بأسُه وعذابُه قط حتىٰ يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: 101] ، وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: 46]).

118 ـ 123. قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4338) ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3644). ورواه ابن ماجة في السنن (4005) ـ كتاب الفتن ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4007) ـ كتاب الفتن ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3237).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4347) ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3653).

ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: خِطَابُ الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ أنه ـ جلّت عظمته ـ قادر على جعل الناس كلهم على دين واحد ، وإنما اقتضت حكمته تقسيم الهداية والإيمان ، واختلاف القلوب والأحوال ، فأهل الحق هم الناجون من الاختلاف ، وأهل الباطل واقعون في الشقاق ومتاهات الأهواء ، وقد قضىٰ ـ جَلَّت حكمته ـ امتلاء جهنم من كفرة الجن والإنس. إن هذه القصص التي قصها الله عليك ـ يا محمد ـ من أخبار الرسل مع أقوامهم إنما هي لتثبيت فؤادك لمواجهة شرك قومك وعنادهم ، وليصبر معك المؤمنون على جهاد أعدائهم ، والعاقبة للمتقين. فالله وحده له غيب السماوات والأرض ومرجع جميع الأمور ، فأفرده ـ يا محمد ـ بالعبادة والتوكل ، فما ربك بغافل عَمَّا تعملون.

فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال قتادة: (يقول: لجعلهم مسلمين كلهم).

والمقصود: أن الله تبارك وتعالىٰ قادر أن يجعل الناس كلهم على دين واحد ، من كفر أو إيمان. كما في التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. قال مجاهد: (أهل الباطل ، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ، قال: أهل الحق).

أو قال: (﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ، قال: أهل الحق وأهل الباطل ، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ، قال: أهل الحق).

وقال الحسن: (الناس كلهم مختلفون على أديان شتىٰ ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلف). وقال عكرمة: (لا يزالون مختلفين في الهوىٰ).

وقال قتادة: (﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ، فأهل رحمة الله أهل جماعة ، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم. وأهل معصيته أهل فرقة ، وإن اجتمعت دورهم

وأبدانهم). وعن الأعمش: (﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ، قال: من جعله على الإسلام).

وقيل: لا يزالون مختلفين في الرزق ، سخّر بعضهم لبعض.

قلت: والمعنىٰ الأول هو الذي يدل عليه السياق ، فالحديث ليس عن الرزق ، وإنما عن الهداية والإيمان ، فالمتمسكون بهدي الرسل هم القوم المرحومون الناجون من الاختلاف ، والبقية في شقاق وضلال ، واتباع للأهواء.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود والترمذي وابن ماجة في السنن ، والحاكم من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن اليهود افترقت على إحدىٰ وسبعين فرقة ، وإنَّ النصارىٰ افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كُلُّها في النار إلا فرقة واحدة. قالوا: ومن هُمْ يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي][1].

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ـ أي لهذا الاختبار ، في صدق الإيمان أو اتباع سبيل الكفار ، فريق إلى الجنة وفريق إلى النار.

ومن أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 ـ قال الحسن: (﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، قال: للاختلاف). قال: (خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه). وقال: (أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم).

2 ـ قال ابن عباس: (﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، قال: خلقهم فريقين ، فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يرحم يختلف، وذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 105]).

وبنحوه قال الإمام مالك: (خلقهم ليكونوا فريقين: فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 332) ، وأبو داود (4596) ، والترمذي (2640) ، وابن ماجة (3991) ، وأبو يعلىٰ (5910) ، (5978) ، (6117) ، وابن حبان (6247) ، (6731) ، والحاكم (1/ 128) من حديث أبي هريرة ، وله شواهد كثيرة ، وورد من طرق يشُدُّ بعضُها بعضاً كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير (3842).

3 ـ قال مجاهد: (﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ، قال: للرحمة خلقهم). وقال عكرمة: (أهل الحق ومن اتبعه ، لرحمته).

قلت: والراجح القول الأول والثاني ، فإن الله تبارك وتعالىٰ امتحن عباده بالإيمان واتباع المرسلين ، فآمن من آمن ، وكفر من كفر ، فجعلهم في الآخرة فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

أي كان ما قضىٰ سبحانه من الامتحان وصدور الجن والإنس فريقين ، فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير ، وتم قضاء الله وقدره بملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ، جزاء وفاقاً للذين كانوا لا يرجون حساباً ، وأسعد المؤمنين بروضات في جنات النعيم ، لقاء صبرهم على الإيمان والدين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: 71].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [لا تزال جهنم يلقىٰ فيها وتقول: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ حتىٰ يضع فيها ربُّ العزة قدمه (وفي رواية: حتىٰ يضع رب العزة عليها قدمه) فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول: قَطْ قَطْ ، وعزَّتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل ، حتىٰ ينشئ الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم في فضول الجنة][(1)].

قال البغوي في شرح السنة (15/ 257): (والقدم والرجلان ، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما ، من صفات الله سبحانه وتعالىٰ ، المنزه عن التكييف والتشبيه ، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة ، كاليد ، والإصبع ، والعين ، والمجيء ، والإتيان ، فالإيمان بها فرض ، والامتناع عن الخوض فيها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (6661) ـ كتاب الأيمان والنذور ـ وكذلك (4848) ـ كتاب التفسير ـ ورواه مسلم في الصحيح (2848) من حديث أنس.

واجب ، فالمهتدي من سلك فيها سبيل التسليم ، والخائض فيها زائغ ، والمنكر معطل ، والمكيّف مشبه ، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سبحان ربنا رب العزة عما يصفون) .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : [اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالي لا يدخُلني إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقَطُهم ، وقالت النار : أوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبِّرين . فقال الله ـ عزَّ وجل ـ للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابي ، أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما مِلؤها][1] .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال : أيْ ربِّ! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حفَّها بالمكاره ، ثم قال : يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب ، ثم نظر إليها ، ثم جاء فقال : أي رب! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، فلما خلق الله النار ، قال : يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفّها بالشهوات ، ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب ، فنظر إليها فقال : أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقىٰ أحد إلا دخلها][2] .

وقوله : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ .

أي : إن هذه الأخبار عن أمم الأقدمين وتكذيبهم رسلهم وكيف دارت الأيام وكانت العاقبة والغلبة للمؤمنين هي مما يقص الله عليك ـ يا محمد ـ ليثبت به فؤادك عما تلقىٰ من تكذيب قومك وعنادهم .

وقوله : ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ . قال ابن عباس : (في هذه السورة) . وقال قتادة : (في هذه الدنيا) .

وقول ابن عباس أصح وأنسب للسياق . قال ابن كثير : (والصحيح : في هذه السورة

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4849) ، (4850) ، ومسلم (2846) ح (35) ، (36) ، وأخرجه الترمذي (2561) ، وأخرجه أحمد (2/ 314 ، 279 ، 507) من طرق ، عن أبي هريرة .

(2) حديث صحيح . رواه أحمد بسند صحيح من حديث أبي هريرة . انظر تخريج مشكاة المصابيح (5696) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5086) .

المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قَصَصٌ حق ، ونبأ صِدْقٌ ، وموعظة يرتدعُ بها الكافرون ، وذكرىٰ يتذكر بها المؤمنون) ـ وهو قوله : ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ ـ تهديد من الله للكفار على لسان نبيّهم ـ أي قل لهم يا محمد : امضوا على منهجكم وعلى طريقتكم لتروا مصيركم نهاية المطاف ، فإنا ماضون على سنتنا ومنهاج ربنا وكلنا أمل أن النصر والعاقبة لنا .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ . أي : ترقبوا ما وعدكم الله فإنا مترقبون ما وعدنا .

قال ابن جريج : (يقول : انتظروا مواعيدَ الشيطان إياكم على ما يزيّنُ لكم ، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾) .

وفي التنزيل : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام : 135] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ أنه علام الغيوب ، والمستقبل بين يديه ، ومآل كل أمر إليه ، فله الخلق والأمر والكبرياء وحده لا شريك له ، وقد أمر عباده بعبادته وحده والتوكل عليه والإنابة إليه ، ثم إنه تعالىٰ لا يخفىٰ عليه مكر المجرمين وأحوال الطغاة والمسرفين .

وعن ابن جريج : (﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ قال : فيقضي بينهم بحكمه بالعدل) .

قال ابن جرير : (﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ ، يقول : فاعبد ربك ، يا محمد ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ، يقول : وفوِّض أمرك إليه ، وثق به وبكفايته ، فإنه كافي من توكّل عليه) .

ثم روىٰ عن عبد الله بن رباح ، عن كعب ، قال : (خاتمة «التوراة» خاتمة هود) .

تم تفسير سورة هود
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ هود وأخواتها ، شيَّبَت نبيّنا ﷺ من كثرة أهوالها .

2 ـ توحيد الله واستغفاره والإنابة إليه جزاؤه المتاع الحسن في الدنيا والسعادة الدائمة في الآخرة .

3 ـ العبرة بأحسن العمل لا بكثرة العمل ، فجزاء الأول قد يكون أضعاف أضعاف جزاء الثاني .

4 ـ السماع بمحمد ودينه بلاغ يلزم سامعه باتباعه ، فما بعد الحق إلا الضلال .

5 ـ الضعفاء غالباً هم أتباع الحق ، والكبراء هم مخالفوه .

6 ـ عناد قوم نوح دفعهم لاستعجال نقمة الله عليهم ، فأغرقهم الله بطوفان عمّ أرجاء الأرض ، وتَتَابُع هلاك الأمم بعد ذلك ونجاة الرسل ومن معهم من المؤمنين .

7 ـ نساء الأنبياء معصومات من الزنىٰ ، وابن نوح ابنه من صلبه .

8 ـ الكفار يعبدون الصم البكم العمي ، ويذرون عبادة الرب السميع البصير .

9 ـ إن أخذ الله تعالىٰ للأمم الكافرة لأخذ أليم شديد .

10 ـ المؤمنون هم السعداء الخالدون في الجنة أبداً .

11 ـ العمل لا يكون مستقيماً إلا إذا كان مطابقاً لأمر الله .

12 ـ الصلوات كفارات ، والحسنات يذهبن السيئات .

13 ـ ما كان الخلاف رحمة ، بل المرحومون الذين لا يختلفون .

14 ـ الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والخلاف شر .

15 ـ نصر الله لرسوله وحزبه وعد وبشرىٰ في الدارين .



وهي سورة مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: (إلا أربع آيات منها). وعدد آياتها (111).

أخرج الحاكم في مستدركه، وابن حبان في صحيحه، عن سعد بن أبي وقاص قال: [أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا! فأنزل الله: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ـ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ ـ الآية. فتلاها رسول الله ﷺ زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا! فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ الآية][1].

موضوع السورة

قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

ـ منهاج الشباب المؤمنين، في التقوىٰ والعفاف والصبر والتمكين ـ.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله لكتابه الكريم، فهو القرآن العربي المبين، فيه أحسن القصص لقوم يعقلون.

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (2/ 345)، والواحدي (544) من حديث سعد، وابن راهويه كما في «المطالب العالية»، وأخرجه ابن جرير، وابن حبان، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة يوسف، آية (3).

2 ـ ابتداء قصة يوسف ـ عليه السلام ـ برؤيا رآها فقصّها على أبيه ، فيها بشائر العز والتمكين.

3 ـ اصطفاء الله تعالىٰ يوسف ﷺ وتعليمه تأويل الأحاديث ، واختصاصه كآبائه بالنبوة.

4 ـ في خبر يوسف مع إخوته الكثير من الفوائد والعبر. ذِكْرُ تخطيط الإخوة لقتل يوسف أو إلقائه في البئر يلتقطه بعض المسافرين.

5 ـ توطئة إخوة يوسف لأبيهم لإرسال يوسف معهم ، وخشية الوالد على ولده الضياع أو الذئب ، وتأكيد الإخوة الحرص عليه ، وَوَحْيُ الله ليوسف وهم لا يشعرون.

6 ـ رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون ، وقصة القميص والدم الكذب عليه.

7 ـ ورود بعض السيارة إلى البئر ، وأخذهم يوسف ، وشراء الوزير له بمصر ، وتمكين الله يوسف وإعطاؤه العلم والحكمة والله يجزي المحسنين.

8 ـ محاولة امرأة العزيز إغراء يوسف ، واستحياء يوسف من الله العلي العظيم.

9 ـ مسابقة امرأة العزيز يوسف إلى الباب وتمزيقها قميصه ، وشهادة الشاهد من أهلها ، وبراءة يوسف من كيدهن إن كيدهن عظيم.

10 ـ إشاعة الخبر بمصر ، وتكلم بعض نساء الأمراء والكبراء يَعِبْنَ على امرأة الوزير ما صدر منها ، ومقابلة ذلك من امرأة العزيز بمائدة المكر ، وتهديدها يوسف بالسجن ، ولجوء يوسف ـ عليه السلام ـ إلى الله.

11 ـ دخول يوسف السجن ، وقصة يوسف مع ساقي الملك وخبازه.

12 ـ دعوة يوسف صاحبيه لإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم ، وتأويله الرؤيا لهما بما أوتيه من توفيق الله الحكيم.

13 ـ وصية يوسف ـ عليه السلام ـ الذي ظن خروجه ذكر مظلمته عند سيده ، فأنساه الشيطان فكان المكث في السجن بضع سنين.

14 ـ خبر الرؤيا التي رآها الملك ، وتذكّر الذي نجا يوسف لتأويلها بعد مضي السنين ، وتأويل يوسف لرؤيا الملك بتوفيق الله العزيز الحكيم.

15 ـ طلب الملك إحضار يوسف عند سماعه روائع التأويل ، واعتذار يوسف حتىٰ تظهر براءته ، واعتراف امرأة العزيز ، وإقرار النسوة ليوسف بالبراءة.

16 ـ استخلاص الملك يوسف لنفسه وتمكين الله يوسف في الأرض .

17 ـ مجيء إخوة يوسف أيام القحط ، ومعرفة يوسف بهم ، وطلبه إحضار أخيهم ، وإعادته بضاعتهم في رحالهم .

18 ـ رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم ومفاوضته لإرسال أخيهم معهم .

19 ـ نصيحة يعقوب لبنيه الدخول من عدة أبواب خشية العين عليهم .

20 ـ دخول إخوة يوسف علىٰ يوسف ـ عليه السلام ـ واختلاء يوسف بأخيه ، واحتياله عليهم بقصة صواع الملك لإبقاء أخيه عنده .

21 ـ تصريح إخوة يوسف تجاه الموقف باللمز بيوسف وتشبيه بنيامين به في صنيعه ، وطعن يوسف بمقولتهم في نفسه ، واستعطافهم له لإطلاق أخيهم ، وإصرار يوسف على مقام العدل .

22 ـ فَقْدُ إخوة يوسف الأمل بإطلاق أخيهم ، ورجوعهم عدا كبيرهم الذي أَصَرَّ على وصول سماح والده قبل رجوعه .

23 ـ تلقّي يعقوب الخبر بالتشكيك برواية أولاده ، وتذكر يوسف مع شدة الحزن ، وعودة إخوة يوسف إلى مصر راجين عفوه حتىٰ كشفت لهم الحقيقة ، وإعطاء يوسف القميص لإخوته ليلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً بإذن الله .

24 ـ شعور يعقوب عليه السلام بريح يوسف ، وتصديق الشعور بإلقاء البشير القميص على وجهه وعودته بصيراً ، واعتراف الأبناء بخطئهم واستغفار الوالد لهم ، ثم قدوم الموكب إلى يوسف وتفاصيل الاستقبال المهيب .

25 ـ التجاء يوسف إلى ربه بالدعاء ، بعد تمام نعمته تعالىٰ عليه .

26 ـ إخبار الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بهذا القصص من الغيب تثبيتاً له عما يلقاه من أذىٰ قومه والعاقبة للمتقين .

27 ـ أكثر الناس لا يفيدون من آيات الله ، بل يعيشون مستكبرين مشركين .

28 ـ التأكيد على لزوم منهاج النبوة في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذىٰ .

29 ـ التأكيد على النصر والتمكين للرسل وأتباعهم في نهاية طريق الجهاد والصبر .

30 ـ الاعتبار بقصص القرآن ، ففيها عبرة لأولي الألباب ، وتأكيد على ثوابت المنهج ، وهدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالىٰ:** ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

في هذه الآيات: انْتِصارٌ من الله تعالىٰ لهذا الكتاب المبين، فهو القرآن العربي المعجز لقوم يعقلون، وفيه يقصّ الله سبحانه خير القصص على نبيه ﷺ ـ ما كان يعلمها ـ لتكون له عوناً في سبيل دعوته، ومجاهدة قومه، وليصبر والعاقبة للصابرين.

فقوله: ﴿الٓر﴾ ـ هو شأن ما سبقه من الحروف المقطعة التي وردت أوائل بعض السور. وخلاصة القول فيها: هذا القرآن من جنس هذه الأحرف العربية التي تتكلمون وتتخاطبون بها، ولكنه يتألق بإعجازه ليعلو كل كلام للبشر، ولا يرقىٰ كلام أحد له بحال من الأحوال.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

تَأْكيدٌ لما سبق ذكره من آفاق معاني تلك الحروف، وانْتِصارٌ لهذا الكتاب العزيز المبين، فهو القرآن الواضح الجلي الذي يُفصح عن معاني الخلق ومغزىٰ الحياة وخبر الماضي والحاضر والمستقبل، في إعجاز في البيان لا يُسْبَقُ ولا يُجارىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (وذلك لأن لغة العرب أفصَحُ اللغات وأبينُها وأوسعُها، وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أُنزِلَ أشرفُ الكُتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل، بسِفارة أشرَف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتُدئَ إنزالُه في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمُلَ من كلِّ الوجوه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

أي: نحن يا محمد نوحي إليك فنخبرك عن سيرة الأمم الماضية، وأخبار الأقوام السالفة مع رسلها، وإن كنت من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك لا تعلمه ولا تدري عن تفصيل ذلك.

فعن قتادة: (﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾، من الكتب الماضية، وأمور الله السالفة في الأمم).

أخرج ابن جرير والحاكم بسند صحيح من حديث سعد قال: [أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو قصصت علينا، فنزل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾][(1)].

قلت: وهذه الآية الكريمة هي في مدح القرآن الكريم، وأنه أصل العلوم والمعارف والأخبار الصحيحة، وفي ذلك إشارة إلى أن أي فكر لا يتأصل من هذا القرآن فهو فكر قاصر، وأي فلسفة كذلك مرفوضة، وأي قصص وحديث لا يوافق هذا القرآن فهو مرفوض، فمن القرآن الحكم وإليه المرجع مع صحيح السنة.

وفي تأصيل هذا المنهج أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله: [أن عمر أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترىٰ أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارىٰ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسىٰ حياً ما وسعه إلا اتباعي][(2)].

قلت: والتهوك كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير رؤية، والمتهوك الذي يقع في كل أمر.

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والبيهقي بسند حسن لشواهده، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: [جاء عمر إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبري (12/ 150)، والواحدي (544)، والحاكم (2/ 345) وصححه ووافقه الذهبي، وله شواهد أخرىٰ عند ابن جرير، وقد مضىٰ بتمامه.

(2) حديث حسن. انظر مسند أحمد (3/ 470 ـ 471)، وتخريج أحاديث «زاد المعاد» (3/ 232).

لي يهودي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترىٰ ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً. قال: فَسُرِّيَ عن النبي ﷺ وقال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسىٰ عليه السلام ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين][(1)].

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً][(2)].

4 ـ 6. قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾.

في هذه الآيات: ابتِدَاءُ قصة يوسف عليه الصلاة والسلام برؤيا رآها فقصها على أبيه ، فيها بشائر العِزِّ له والقوة والتمكين ، فحذَّره والده يعقوب ـ عليه السلام ـ مِنْ قَصِّها على إخوته لئلا يكيدوا له ، فإن الشيطان للإنسان عدو مبين. إنّ ربك يصطفيك ـ يا يوسف ـ ويعلمك تأويل الأحاديث والأحلام ويختصك بالنبوة ، كما اختص آباءك إبراهيم وإسحاق ، إنه تعالىٰ عليم حكيم.

---

(1) حسن لطرقه. أخرجه أحمد (4/ 266) ، والطبراني كما في «المجمع» (1/ 173 ـ 174) ح (806). وورد من حديث جابر أخرجه البزار (124) ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (5202) ، و(5203) ، وأخرجه أبو يعلىٰ وغيرهم من طرق يقوي بعضها بعضاً.

(2) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (12/ 165) ، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74) من طريق أخرىٰ عن أبي خالد الأحمر به. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 338): قلت: (وهذا سند صحيح على شرط مسلم) ، وأورده فيها برقم (713).

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (كانت الرؤيا فيهم وحياً). وقال قتادة: (رأىٰ أبويه وإخوته سجوداً له). وقال: (الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه). وعن ابن جريج: (قوله: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾، إخوته، ﴿ وَٱلشَّمْسَ ﴾، أمه، ﴿ وَٱلْقَمَرَ ﴾، أبوه).

فالآية إخبار من الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ عن قصة أخيه يوسف عليه الصلاة والسلام مع أبيه يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، وما كان من رؤيته لأحد عشر كوكباً ـ والذين كانوا إخوته ـ أحد عشر رجلاً ـ والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه، فوقع تفسير هذه الرؤيا بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، والله تعالىٰ أعلم. وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه، كما قال تعالىٰ في آخر هذه السورة: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: 100].

وقد جاءت السنة الصحيحة بوفير الثناء وأعطره على يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، في ذرية عطرة اختصَّها الله تعالىٰ بالنبوة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم، يوسف بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألُك. قال: فأكرمُ الناس يوسف نبي الله، ابنُ نبي الله، ابن نبي الله، ابنِ خليل الله. قالوا: ليسَ عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخيارُكم في الجاهلية خيارُكم في الإسلام إذا فقِهُوا](2).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3390)، (4688) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (2/ 96)، والبغوي في «شرح السنة» (3547).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3353)، (3374)، (3383)، وأخرجه مسلم (2378)، (2526)، وأخرجه أحمد (2/ 257)، وابن حبان (92)، (636)، وغيرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن جرير: (قال يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾، هذه، ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، فيحسدوك، ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾، يقول: فيبغوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، يقول: إن الشيطان لآدم وبنيه عدوٌّ، قد أبان لهم عداوته وأظهرها. يقول: فاحذر الشيطان أن يغريَ إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك).

وعن السدي قال: (نزل يعقوب الشأم، فكان همُّهُ يوسف وأخاه، فحسده إخوته لما رأوا حبَّ أبيه له. ورأىٰ يوسف في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين، فحدث أباه بها، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾، الآية).

قلت: وهذا النظر العميق من يعقوب عليه الصلاة والسلام يدل على سعة علم النبوة بطبيعة الناس، وكيف ينبغي التعامل معهم، وقد جاء ذلك في السنة الصحيحة، في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [العين حق، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسلوا][1].

الحديث الثاني: يروي الطبراني بسند صحيح لشواهده، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: قال النبي ﷺ: [الرؤيا الصالحةُ من الله، والحُلْمُ من الشيطان، فمَنْ رأىٰ شيئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفِثْ عن شِمالِه ثلاثاً

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2118)، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي.

(2) صحيح لطرقه. أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، وأبو نعيم في «الحلية» (5/ 215)، (6/ 96)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 291/ 1)، وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (182/ 1)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1453).

وليتَعَوَّذ من الشيطان ، فإنها لا تضرُّه ، وإنّ الشيطان لا يتراءىٰ بي][1] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث أبي رزين العقيلي ، عن النبي ﷺ قال: [الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَّر ، فإذا عُبِّرتْ وَقَعَتْ][2] .

قال ابن كثير ـ وقد أورد هذا الحديث ـ: (ومن هذا يؤخَذ الأمر بكتمان النعمة حتىٰ توجَد وتظهر).

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند حسن عن الزبير بن العوام ، أن النبي ﷺ قال: [دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسدُ ، والبغضاء هي الحالقة ، وفي رواية: (الحسد والبغضاء ، والبُغْضة هي الحالقة) ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا ، أفلا أنبئكم بما يُثَبِّتُ ذاكُمْ لكم! أفشوا السلام بينكم][3] .

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ .

قال عكرمة: (﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ، يصطفيك). وقال قتادة: (فاجتباه واصطفاه وعلّمه من عَبْر الأحاديث ، وهو ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾).

وقال مجاهد: (﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ، قال: عبارة الرؤيا).

قلت: لقد أكرم الله يوسف وبعض إخوته الأنبياء بفهم تأويل الأحلام ، من خلال وحي الله تعالىٰ لهم ، وأما سائر البشر من العلماء والصالحين فلا يصحّ ادعاء أحد منهم بتفسير الأحلام بدقة حدوثها في المستقبل ، اللهم إلا الرؤيا الصالحة ودلالتها على المبشرات ، والرؤيا المزعجة التي قد تكون من حديث النفس أو الشيطان ، وعلى هذا المنهاج جاءت السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6995) ـ كتاب التعبير ـ وأخرجه مسلم ، (2261) ح (1) ، (3) ، (4) ، وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (899) ، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 303) ، والدارمي (2/ 124).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 10) ، وأبو داود (5020) ، والترمذي (2278) ، وابن ماجة (3914) من حديث أبي رزين العقيلي ، وإسناده حسن.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2038) ، أبواب صفة القيامة.

قال: [الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعين جزءاً من النبوة][1].

ورواه من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: [رؤيا المؤمن جزءٌ من ستةٍ وأربعين جُزءاً من النبوة].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: [الرؤيا الصادقة من الله، والحُلْمُ من الشيطان][2].

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا رأىٰ أحدُكُم رُؤيا يُحِبُّها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليُحَدِّثْ بها، وإذا رأىٰ غير ذلك مِمَّا يَكْرَه فإنَّما هي من الشيطان، فليستعِذْ من شَرِّها ولا يَذْكُرْها لأحد فإنها لا تَضُرُّه][3].

وله شاهد أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (1/ 287 ـ 288) بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأىٰ أحدكم الرؤيا تعجبه فليذكرها، وليفسرها، وإذا رأىٰ أحدكم الرؤيا تسوءه، فلا يذكرها، ولا يفسرها].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، وابن أبي شيبة في «المصنف» بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [الرؤيا ثلاث، فالبشرىٰ من الله، وحديث النفس، وتخويف من الشيطان، فإذا رأىٰ أحدكم رؤيا تعجبه فليقصها إن شاء، وإذا رأىٰ شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم يصلي][4].

الحديث الرابع: أخرج البخاري في «التاريخ»، وابن ماجة في السنن، بإسناد صحيح، عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: [الرؤيا ثلاث، منها أهاويلُ من الشيطان، لِيُحْزِنَ بها ابنَ آدم، ومنها ما يَهُمُّ به الرجل في يقظته فيراه في منامِه، ومنها جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة][5].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6983) ـ كتاب التعبير ـ باب رؤيا الصالحين، وانظر الحديث (6987) ـ باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6984) ـ كتاب التعبير ـ باب الرؤيا من الله.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6985) ـ كتاب التعبير ـ باب الرؤيا من الله.

(4) رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (2/ 395)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 193/ 2)، وعنه ابن ماجة (2/ 449). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1341).

(5) أخرجه البخاري في «التاريخ» (4/ 2/ 348)، وابن ماجة (2/ 450)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 193/ 2)، وابن حبان (1794)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1870)، وقال الألباني: «وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: يتم الله تعالى نعمته على يوسف ﷺ بالرسالة والاجتباء وتعليمه تأويل الأحاديث والأحلام، كما أتمها على أهل دين يعقوب وملته من ذريته الصالحين، ومن قبلهم باتخاذ إبراهيم خليلاً من بين المرسلين، وإسحاق نبياً من المخلصين، أخلصه واختصه مع أبيه إبراهيم وابنه يعقوب بذكرىٰ الدار الآخرة، إن ربك عليم بمواضع الفضل وأهل الاختصاص والاجتباء من عباده، حكيم في تقديره وتدبيره وتشريعه.

وفي التنزيل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: 45 ـ 47].

7 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ أن في قصة يوسف مع إخوته الكثير من الفوائد والدروس والعبر، فهم قابلوا حبّ أبيهم لأخيهم بالمكر والبغي والحسد، فكان التخطيط منهم لقتله أو إلقائه في بئر على الطريق يلتقطه بعض المسافرين، ثم اختاروا بعد التشاور آخر الأمرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: (إنما قصَّ الله تبارك وتعالىٰ على محمد خبر يوسف، وبَغْيَ إخوته عليه، وحسدهم إياه، حين ذكر رؤياه، لما رأىٰ رسول الله ﷺ من بغي قومه وحسده حين أكرمه الله عز وجل بنبوته، ليأتسي به).

والخلاصة: إن في قصة يوسف مع إخوته من العبر والدروس الكثيرة ، لمن أراد الفائدة في البحث واستنباط المواعظ من تلك الأخبار .

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

قال السدي : (﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ : يعنون بنيامين . قالوا : وكانوا عشرة) . وقال ابن زيد : (﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ : العصبة ، الجماعة) . وقيل : العصبة العشرة فصاعداً . والمراد : أنهم حلفوا فيما يظنون أن يوسف وبنيامين ـ وكان شقيقه لأمه ـ أحب إلى أبيهما منهم وهم جماعة .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ . قال ابن جرير : (يعنون : إنّ أبانا يعقوب لفي خطأ من فعله ، في إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة) . وقال النسفي : (غلط في تدبير أمر الدنيا ، ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ .

قال ابن كثير : (يقولون : هذا الذي يُزاحِمكم في مَحبّة أبيكم لكم أعدِموه من وجه أبيكم ليخلوَ لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه ، أو تُلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتَخْتَلُوا أنتم بأبيكم ، وتكونوا من بعد إعدامِه قوماً صالحين . فأضمروا التوبة قبل الذنب) .

قال السدي : (﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ : تتوبون مما صنعتم ، أو : من صنيعكم) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ .

قيل : قائل ذلك «روبيل» ، ابن خالة يوسف . قال ابن إسحاق : (ذكر لي ، والله أعلم ، أن الذي قال ذلك منهم «روبيل» ، الأكبر من بني يعقوب ، وكان أقصدهم فيه رأياً) .

وقال قتادة : (ذكر لنا أنه روبيل ، كان أكبر القوم ، وهو ابن خالة يوسف ، فنهاهم

عن قتله). وقال مجاهد: (هو شمعون) ، والله تعالىٰ أعلم. و﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ما غاب وأظلم من قعر البئر.

والخلاصة: إنه أشار عليهم بعدم قتل يوسف وإنما بإلقائه في قعر البئر ، حيث يغيب خبره ، يأخذه بعض المارة من المسافرين ، إن كنتم عازمين على التخلص منه. ولا شك أن الله تعالىٰ هو الذي صرفهم عن قتله لِما أراد له من النبوة والتمكين في بلاد مصر والحكم بها ، وإحقاق بعض الآيات العظيمة في حياة خلقه. ولا شك أنهم أقدموا على عمل عظيم الإثم ، من قطيعة الرحم وعقوق الوالد ، والقسوة على الطفل الصغير ووالده العجوز إذ حرموه من محبوبه الصغير واستغلوا ضعفه وشيخوخته ، وحرموا الطفل من حنان والده وقربه ورعايته.

وقد جاءت السنة الصحيحة بالترهيب من مثل هذه الأفعال ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ قال: [ما من ذنب أجدرُ أن يُعَجَّلَ لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له ، من البغي وقطيعة الرحم][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجة والترمذي بإسناد حسن ، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: [ثلاثة دعوات مستجابات لهن ، لا شك فيهن: دعوةُ المظلوم ، ودعوةُ المسافر ، ودعوةُ الوالدين على ولدهما][2]. وفي لفظ: [ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي أيوب ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ فَرَّقَ بين والدةٍ وولدِها ، فرَّق الله بينه وبين أَحِبَّتِهِ يوم القيامة][3].

قال الترمذي: (والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: كرهوا التفريق بين السَّبي بين الوالدة وولدها ، وبين الولد والوالد ، وبين الإخوة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (29) ، باب عقوبةُ عقوق الوالدين. انظر: «صحيح الأدب المفرد» (23) ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1536) ، والترمذي (2/ 256) ، وابن ماجة (3862) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1629) ـ باب في التفريق بين السَّبي ـ انظر صحيح الترمذي (1271) ، ورواه أحمد والحاكم وغيرهم. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6288).

11 ـ 15. **قوله تعالىٰ:** ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: توطئة إخوة يوسف لأبيهم بعدما بيّتوا أمرهم في إرساله معهم يتنزه ويلعب وهم له حافظون. وتردُّدِ والدهم أول الأمر خشية الذئب أو الضياع على ولده الغلام وهم عنه غافلون. وتأكيد الإخوة لأبيهم حرصهم على أخيهم وهم عصبة وإلاَّ فهم خاسرون. وَوَحْيُ الله تعالىٰ إلى يوسف حين علم مكرهم أنه تعالىٰ سيجعل له من ذلك الضيق مَخرجاً، ونَصْراً وفرجاً، وهم لا يشعرون.

فقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾.

هو قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ بعد تواطئهم على أخذ يوسف وطرحه في البئر، فوطؤوا لوالدهم بهذه المقدمة ليصلوا إلى مرادهم وقد امتلأت قلوبهم بالحسد على يوسف لحب أبيه له. قال ابن جرير: (﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾، نَحُوطُهُ ونكلؤه).

وقوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾. قال ابن عباس: (يسعىٰ وينشط). أو قال: (يلهو وينشط ويسعىٰ). وقال الضحاك: (يتلهّىٰ ويلعب).

وقراءة أبي عمرو: ﴿نرتَعْ ونلعب﴾، وقراءة أهل الكوفة ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وهي الأشهر.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ـ أي: نحفظه ونحوطه من أجلك فلا يناله سوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾.

إِخْبارٌ من الله تعالىٰ عن مشاعر يعقوب عليه السلام تجاه ما سأله أبناؤه من إرساله يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء، فإنه وجد أن ذلك يشق عليه لفرط محبته ليوسف

وما يتوسم فيه من المستقبل المزهر الذي يحتاج إلى رعاية قريبة ، وكأنه يقرأ شمائل النبوة وهو يبصر في يوسف كمال الخَلْق والخُلق ، صلوات الله وسلامه عليهما وعلى المرسلين أجمعين.

قال ابن كثير : (﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ، يقول : وأخشى أن تَشتغِلوا عنه بِرَمْيِكُم وَرَعيَّتِكم فيأتيه ذئبٌ فيأكله ، وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فَمِه هذه الكلمة ، وجعلوها عُذْرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ ، يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحنُ جماعةٌ ، إنا إذن لهالِكون عاجِزون).

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال القاسمي : (﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ أي بعد مراجعة أبيهم في شأنه ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا).

وقال القرطبي : (﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوّته في ذلك الوقت).

قال مجاهد : (أوحىٰ إلى يوسف وهو في الجُبّ أنْ سينبئهم بما صنعوا ، وهم لا يشعرون بذلك الوحي). وقال قتادة : (﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه).

وقال ابن عباس : (ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك).

والخلاصة: لقد أوحىٰ الله إلى يوسف أثناء ذلك الضيق والمفاجأة بمكر إخوته به لِيُطَيِّبَ خاطره ، ويثبت قلبه ، وينزل اليسر على العسر ، بأن الله جاعل له من هذا الضيق مَخرجاً ، ومن ذلك المكر نَصْراً وفَرجاً ، وأنه سبحانه سيرفعه عليهم ويُعلي مقامه ومنزلته وسيخبرهم يوماً بما فعلوا وبما صَدَرَ منهم.

16 ـ 18. **قوله تعالى**: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا

صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون. وقد ركّبوا رواية كاذبة في شأن فقدان يوسف بأن أكله الذئب وهم يلعبون. وجاؤوا بدم كذب على قميصه فأيقن الأب بمكرهم فاحتسب وصبر مستعيناً بالله على ما يصفون.

فقوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ ـ أي أقبلوا إلى أبيهم في ظلمة يبكون، ويظهرون الندم والأسف على فقدهم يوسف عليه الصلاة والسلام في حيلة كاذبة.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾.

قال النسفي: (﴿نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العدو أو في الرمي). وقال ابن جرير: (ننتضل، من السباق).

وقال ابن كثير: (﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي نترامى).

وقال القاسمي: (﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ليحفظه). ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ أي كما حذرتَ).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾. قال السدي: (﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: بمصدق لنا).

وفيه تلطّف منهم في محاولتهم تثبيت ما زعموا. أي نحن نعلم أنك لن تصدقنا على هذه الحالة ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت غير واثق بما نقول، ونحن في موضع اتهام عندك في هذه القصة.

وقوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ ـ إذ غمسوا قميصه بدم معز كانوا ذبحوه.

قال مجاهد: (كان ذلك الدم كاذباً، لم يكن دمَ يوسف). وقال ابن عباس: (﴿بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ بدم سخلة).

فلطخوا ثوب يوسف بدمها ليوهموا بذلك أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب. ولكنه فاتهم أن يخرقوه لتكتمل الرواية، فلم يرج صنيعهم على أبيهم يعقوب عليه السلام، وشعر في نفسه بمؤامرتهم وتمالئهم عليه فقال:

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ـ قال ابن عباس: (لما أتي يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال: كذبتم، لو أكله السبع لخرق قميصه).

وعن قتادة: (﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ قال: يقول: بل زيَّنَت لكم أنفسكم أمراً).

وقال مجاهد: (﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾: ليس فيه جزع) ـ أي صبر لا شكوى فيه. أي: سأصبر صبراً جميلاً على هذا المصاب والمكر الذي اتفقتم عليه حتى يفرِّجه الله ويكشفه بلطفه ورحمته.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ـ أي: وأستعين بالله تعالى على ما بيَّنتم من الخديعة وعلى ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من جوامع الكلم في مفهوم الصبر والصبر الجميل:

الحديث الأول: أخرج البخاري من حديث عائشة ـ في قصة الإفك ـ قالت: [والله ما أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذْ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾](1).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه).

الحديث الثاني: أخرجه البيهقي بسند صحيح من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه](2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح على شرط مسلم، عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! وممَ تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن، إن أمره

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2661) ـ كتاب الشهادات، وأخرجه مسلم في الصحيح (2770)، في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي، ونحوه الطيالسي (211) بإسناد صحيح، وله شاهد في مسند أحمد (6/ 16) وسنن الدارمي (2/ 318)، وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم (8/ 227).

كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][1] .

وله شاهد رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له][2] .

19 ـ 22 . قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: وُرُودُ بعض المارة يسقون من البئر ، فاستبشروا بوجود غلام ، واتفقوا على إخفاء ذلك عن أصحابهم بأنهم اشتروه من أهل الماء لئلا يشركوهم فيه ، ثم باعوه بثمن زهيد ليستفيدوا من ثمنه قبل تدخل غيرهم . وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها وأوصىٰ به امرأته ، وقد أراد الله بذلك تمكين يوسف في الأرض ، ثم آتاه الله العلم والحكمة ـ حين بلغ أشده ـ والله يجزي المحسنين .

قال قتادة: (﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ يقال: أرسلوا رسولهم ، فلما أدلىٰ دلوه تشبث بها الغلام). أو قال: (فتشبث الغلام بالدلو ، فلما خرج قال: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ . قال: تباشروا به حين أخرجوه ، ـ أو قال: بشرهم واردهم حين وجد يوسف ـ قال: وهي بئر بأرض بيت المقدس معلومٌ مكانها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 16) ، والدارمي (2/ 318) ، وبنحوه روىٰ مسلم المرفوع في صحيحه (8/ 227) ، وهو رواية لأحمد (4/ 332) (6/ 15) ، وسنده صحيح على شرط مسلم.

(2) حديث صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24) ، وأبو يعلىٰ (200/ 2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (148).

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ قال مجاهد: (﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، قال: صاحب الدلو ومن معه، قالوا لأصحابهم: إنما استبضعناه، خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا بثمنه).

2 ـ قال السدي: (لما اشتراه الرجلان، فَرَقاً من الرفقة أن يقولوا: اشتريناه، فيسألونهم الشركة، فقالا: إن سألونا: ما هذا؟ قلنا: بضاعة استبضعناه أهل الماء. فذلك قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، بينهم).

3 ـ قال مجاهد: (أسره التجار بعضهم من بعض).

4 ـ قال قتادة: (﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، قال: أسروا بيعه).

5 ـ قال مجاهد: (﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، قال: قالوا لأهل الماء: إنما هو بضاعة).

6 ـ قال ابن عباس: (﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، فكتم يوسف شأنه مخافة أن تقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادىٰ أصحابه قال: يا بشرىٰ! هذا غلامٌ يباع! فباعه إخوته).

قلت: والراجح ما ذكره شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية حيث قال: (وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب، قولُ من قال: وأَسَرَّ وارد القوم المدلي دلوَه ومن معه من أصحابه، من رفقته السيارة، أمر يوسف أنهم اشتروه، خيفةً منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضعها معنا أهل الماء).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: يعلم ما يفعله إخوةُ يوسف وَمُشتروه، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودَفعه، ولكن له حكمةٌ وقدرٌ سابقٌ، فترَكَ ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]. وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ﷺ وإعلامٌ له بأني عالمٌ بأذىٰ قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكن سأملي لهم، ثم أجعلُ لك العاقبة والحُكم عليهم، كما جعلتُ ليوسف الحكمَ والعاقبة على إخوته).

وقوله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ ـ أي: باع السيارة يوسف بثمن قليل.

ومن أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 ـ قال ابن عباس: (فباعه إخوته بثمن بخس). قال الضحاك: (البخس: الحرام).

2 ـ وعن مجاهد قال: (إخوة يوسف أحد عشر رجلاً ، باعوه حين أخرجه المدلي بدلوه).

3 ـ قال قتادة: (﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ ، وهم السيارة الذين باعوه). وقال: (البخس: الظلم). وقال عكرمة: (البخس: القليل).

قلت: والراجح في الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ ﴿ وَشَرَوْهُ﴾ أنه يعود على السيارة ، وهم أولئك القوم المسافرون أثناء مسيرهم ، فهم الذين باعوا يوسف بثمن زهيد دراهم قليلة ليستفيدوا من ثمنه قبل غيرهم أن يشركهم ، وبعيد أن يكون الضمير يعود على إخوة يوسف لأنهم اقترحوا إلقاءه في البئر: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ، ولم يكونوا يبحثون عن تجارة ببيع يوسف وإنما أرادوا التخلص منه ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ـ قال الضحاك: (وذلك أنهم لم يعلموا نُبُوَّتَهُ ومنزلته عند الله عز وجل).

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ـ قال ابن جريج: (منزلته). أي: هو قول الذي اشترىٰ يوسف من بائعه بمصر ، قال لامرأته: أكرمي منزلته. وعن قتادة: (﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ، منزلته ، وهي امرأة العزيز). قال ابن جرير: (يقول: أكرمي موضع مقامه ، وذلك حين يثوي ويُقيم فيه).

وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير بها. قال السدي: (انطُلق بيوسف إلى مصر ، فاشتراه العزيز ملك مصر ، فانطلق به إلى بيته فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾).

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول عز وجل: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله ، وأخرجناه من الجبّ بعدَ أن ألقي فيه ، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ، كذلك مكّنا له في الأرض ، فجعلناه على خزائنها).

وقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ـ قال مجاهد: (عبارة الرؤيا) ، وقال السدي: (تعبير الرؤيا).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ ـ قال سعيد بن جبير: (أي: فعال لما يشاء).

فهو سبحانه قائمٌ على أمر نبيّه يوسف ﷺ ، يسوسه ويدبّره ويحوطه ، ويهيِّئ له ما ينبغي لمقام النبوة.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ـ أي: لا يدرون حكمة الله في تقديره ، وتلطفه في أوليائه ، ومكره بأعدائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: ولما بلغ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ منتهىٰ شدته وريعان شبابه وغاية قوته ، أعطيناه الفهم والحكمة والعلم ، وكذلك سنة الله تعالىٰ في مجازاة المحسنين ، فإن من حفظ شبابه وجوارحه وقلبه عن معصية الله ، حفظه الله وأكرمه وعلمه ورعاه.

قال ابن كثير: (﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ ، أي: يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ ، أي: استكمل عقلهُ وتمَّ خلقُه ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام ، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، أي: إنه كان محسناً في عَمَلِهِ ، عاملاً بطاعةِ ربه تعالىٰ).

23 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: محاولة امرأة العزيز ـ التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها بإكرامه ، إلا أنها أحبته حبّاً شديداً لشدة جماله وحسنه وبهائه ـ فحاولته عن نفسه ، وتجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها فأبىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ واعتصم بالله ليحميه من الوقوع والزلل ، ومن خيانة سيده في أهله ، إنه لا يفلح الظالمون. ولقد أرادت مراودة يوسف وإغراءه بكل طريقة وما زالت به حتىٰ خطر في نفسه ما يخطر مما زَيَّنَت له ، إلا أنه تذكَّر عظمة الله سبحانه فاستحيا منه فعصمه الله ، إنه من عباد الله المخلصين.

فعن السدي: (﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ، قال: أحبته).

قال ابن إسحاق: (ولما بلغ أشدَّه، راودته التي هو في بيتها عن نفسه، امرأة العزيز).

وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: وغلقت المرأة أبواب البيوت عليها وعلى يوسف، لما أرادت منه وراودته عليه، باباً بعد باب).

وقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ـ أي: هَلُمَّ لك، وادن، وتقرب، تدعوه للوقوع بها. ومن أقوال أهل التأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿هَيْتَ لَكَ﴾، تقول: هلمّ لك). وقال السدي: (هلم لك، وهي بالقبطية).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال: لغة عربية، تدعوه بها). أو قال: (لغة بالعربية، تدعوه بها إلى نفسها). وقال ابن زيد: (﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، قال: هلمّ لك، إليّ).

3 ـ وقال أبو عبيد: كان الكسائي يحكيها، يعني: هيت لك. قال: (وقال: وهي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز، معناها: تعال).

4 ـ وعن قتادة قال: كان عكرمة يقول: (تهيأت لك). فأصلها عند بعضهم: «وقالت هِئْتُ لك» ـ أي: تهيأت لك. وفي قراءة أهل المدينة ﴿هِيْتَ لكَ﴾، وبعض المكيين: ﴿هَيْتُ لكَ﴾، وبعض البصريين ﴿هَيْتِ لكَ﴾. وأرجح القراءات المشهورة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

قلت: وكل ما سبق يفيد في مفهوم دعوة امرأة العزيز يوسف عليه السلام إلى نفسها للوقوع بها، وقد تهيأت له وتجمّلت على أحسن حال.

وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ـ أي: هو ردّ يوسف عليه الصلاة والسلام إذ دعته المرأة إلى الفاحشة فأجاب بقوله: معاذ الله، أي: أعتصم بالله وأستجير به ليحميني من الوقوع والزلل.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ـ أي يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي قد أحسن منزلتي وأكرم إقامتي وائتمنني في بيته فلا أخونه في أهله.

قال مجاهد: (﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾، قال: سيدي، يعني زوج المرأة).

قال ابن إسحاق: (﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ، أمنني على بيته وأهله). وقال السدي: (﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ، فلا أخونه في أهله).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ـ قال ابن إسحاق: (قال: هذا الذي تدعوني إليه ظلم ، ولا يفلح من عمل به).

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

أي: ولقد أرادت مراودة يوسف وبذلت لذلك من محاولاتها بإغرائه بزينتها وجمالها ليدنو منها ، وما زالت به حتىٰ خطرَ في نفسه من خطرات ما زَيَّنَت له ، وأوشك أن يجيبها إلى ما دعته إليه ، إلا أنه تَذَكَّرَ عظمة الله سبحانه فاستحيا منه فعصمه ربه عز وجل.

وهَمَّ بالشيء ـ في كلام العرب ـ أراده. وكذلك الهَمُّ بالشيء: حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يُواقع. قلت: ومن هنا فإن قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ ينزل على المعنىٰ الأول: أرادت وحاولت. وقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ـ ينصرف إلى المعنىٰ الثاني: هَمُّ خَطَراتٍ وحديث النفس والاقتراب من الوقوع. وهذا التفسير ينسجم مع عصمة النبوة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ له حَسَنَةٌ ، ومَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فعمِلَها كُتِبَتْ له عَشْرٌ إلى سبع مئة ضِعْفٍ ، ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يَعْمَلْها ، لَمْ تُكْتَبْ ، وإن عَمِلَها كُتِبَتْ][1].

وفي لفظ: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إذا هَمَّ عَبْدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها سيئة ، وإذا هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها فاكتبوها حسنة ، فإن عَمِلها فاكتبوها عَشْراً].

وهناك أقوال غريبة بعيدة ذكرها المفسرون في تفسير هذه الآية:

قيل: همَّ بضربها. وقيل: تمنّاها زوجة. وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ، أي: فلم يَهُمَّ بها. وهذا وجه بعيد لغة ، وهو أبعد مما قيل قبله. وأبعد من ذلك كله ما روي أنها استلقت له وجلس بين رجليها أو حَلَّ ثيابه ، إلى غير ذلك ، مما لا يليق بمقام النبوة. وكان أولىٰ بالمفسرين ألا يُسَطِّروا مثل هذه التفاسير ـ المستنكرة المأخوذة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (129) ـ كتاب الإيمان. باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همَّ بسيئة لم تكتب. واللفظ الآخر برقم (128) ، ورواه أحمد (2/ 315) ، وابن حبان (379) ، وغيرهم.

من الإسرائيليات ـ في تفاسيرهم ، فإن عصمة الأنبياء وحياءهم ورفيع درجاتهم يعارضه من كل وجه ، ويبقىٰ ما ذكرناه في تفسير «الهَمِّ» بنوعيه ، من امرأة العزيز وما قابله من يوسف عليه الصلاة والسلام ، فعصمه الله بحيائه وصدق خوفه من ربه عز وجل.

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ـ أي: لولا أن أراه الله تعالىٰ من آياته ما زجره عما كان همَّ به ، وذكّره بعظمة ربه تعالىٰ فاستحيا منه. لقد رأى يوسف عليه السلام الإيمان ، فاستحيا من الله تعالى فَلَزِمَ مقام الإحسان.

وأما ما رُوي عن مجاهد والحسن والضحاك وغيرهم أنه رأىٰ صورة أبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ عاضاً على إصبعه بفمه ، وفي رواية: فضرب في صدر يوسف ، أو ما رُوي عن ابن عباس: أنه رأىٰ خيال سيده ، يعني الملك ، إلى غير ذلك ، من التصاوير والخيالات فإنه لا تقوم بها حجة.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

أي: أريناه برهاناً صرفه إلى الخوف من الله وتعظيم أمره فوق شهوات الدنيا ، لِنَقِيَهُ الوقوع في السوء والفحشاء ، فإنه من عبادنا المطهَّرين المُجْتَبين الأخيار الصالحين.

25 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: مُسَابَقَةُ امرأة العزيز يوسف إلى الباب وتمزيقها قميصه أثناء هروبه منها ، وظهور سيدها لدىٰ الباب ، فأظهرت الكذب باتهامها يوسف بإرادته السُّوء محرضة عليه زوجها بالسجن أو العذاب الأليم. فكذبها يوسف وشهد شاهد من أهلها إن كان تمزيق القميص من قُبُلٍ فهي صادقة وإلا كانت من الكاذبين. فلما رأىٰ زوجها قميصه قد مُزق من خلفه علم أنه من كيدهن إن كيدهن عظيم. فأمره ألا يحدث بذلك

وأمر زوجته أن تستغفر ما صدر منها فإنها كانت من الخاطئين.

فعن قتادة: (﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾، قال: استبق هو والمرأة الباب، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾). وقال ابن إسحاق: (لما رأىٰ برهان ربه، انكشف عنها هارباً، واتبعته فأخذت قميصه من دبر، فشقّته عليه).

وعن مجاهد: (﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾، قال: سيدها زوجها، ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾، قال: عند الباب).

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسفُ هاربٌ، والمرأة تطلبُه ليرجع إلى البيت، فلحِقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّته قدّاً فظيعاً، يقال: إنه سَقَطَ عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سَيِّدها ـ وهو زوجها ـ عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها مُتنَصِّلَة وقاذِفَةً يوسفَ بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، أي: فاحشة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾، أي: يُحْبَسَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: يُضربُ ضرباً شديداً موجعاً).

وقوله: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ ـ قال النسفي: (ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها). أي: لما قذفته امرأة العزيز، وأوقعته في الشبهة باتهامه، وعرضته للسجن والعذاب، انتصر للحق ودافع عن نفسه.

وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ـ الصواب[1] أنه كان مستشاراً للعَزيز.

قال أبو جعفر النحاس: (والأشبه بالمعنىٰ ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة).

وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: (قال: أشهد إن كان قميصه قُدّ من قُبل لقد صدقت وهو من الكاذبين. وذلك أن الرجل إنما يريد المرأة مقبلاً، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وذلك أن الرجل لا يأتي المرأة من دبر).

---

(1) قيل: طفل في المهد تكلم، وقيل: ابن عمها أو ابن خالها، وقيل: الشاهد: قَدُّ القميص، وقيل: خلق من خلق الله تعالىٰ ليس بإنسي ولا جني، وهذا يرده قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وقيل غير ذلك.

وخلاصة المعنىٰ: شهد الحكم من أهلها ، إن كان قميص يوسف قد شُقَّ من قُدّامه فهو بذلك إنما أرادها عن نفسها فأبت ودفعته في صدره فقَدَّت قميصه من مقدمته فيصح عند ذلك قولها. وأما إن كان الشق من خلف القميص فهو يعني أنها لما أرادته لنفسها وهرب منها واتبعته طالبة له فأمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها ، فقدّت بذلك قميصه من ورائه وهو بذلك بريء ولا يصح قولها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فلما تحقق زوجُها صدقَ يوسف وكَذِبها فيما قذفته ورمته به ، ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لَطَختِ عِرْضَ هذا الشاب به من جُملة كيدِكُنَّ ، ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾). والكيد: المكر والحيلَة.

قال القرطبي: (وإنما قال ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لعظم فتنتهنّ واحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ).

وقوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

أي: يأمر زوجُها يوسفَ عليه السلام ـ حين تبين له حقيقة ما حصل أن يكتم ما وقع ولا يذكره لأحد ، ويأمر امرأته أن تستغفر مما صدر منها بحق هذا الشاب البريء فإنها هي التي أذنبت وأخطأت.

قال ابن زيد: (﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ ﴾ ، قال: لا تذكره ، واستغفري أنت زوجك ، يقول: سليه أن لا يعاقبك على ذنبك الذي أذنبت ، وأن يصفح عنه فيستره عليك).

قال ابن كثير: (يقول لامرأته وقد كان ليِّنَ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها ، لأنها رأت ما لا صَبْرَ لها عنه ، فقال لها: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ ﴾ ، أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قَذْفِه بما هو بريءٌ منه ، استغفري من هذا الذي وقع منك ، ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾).

30 ـ 34. قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ

أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: إشاعَةُ خبر يوسف وامرأة العزيز في المدينة ، وهي مصر ، فتكلم بعض نساء الأمراء والكبراء يَعِبْنَ على امرأة الوزير ما صدر منها ، حيث أقدمت على دعوة غلامها إلى نفسها الذي ملأ قلبها عشقه وبلغ حبه شَغَاف قلبها. ومقابلةُ ذلك من امرأة العزيز بموقف من المكر لتبرير موقفها ، ثم توعُّدُها يوسف إن خالف أمرها بالسجن والتضييق والإهانة. وَلُجُوءُ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الله عز وجل بصرف كيدهن عنه ، وأن السجن أحب إليه من طلبهن ، فاستجاب الله تعالىٰ له إنه هو السميع العليم.

فقوله: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ـ قال ابن كثير: (مثل نساء الأمراء والكبراء يُنْكرن على امرأة العزيز ـ وهو الوزير ـ وَيَعِبْنَ ذلك عليها). قلت: والعزيز لغة من العزة ، والمراد هنا الوزير. قال ابن إسحاق: (وشاع الحديث في القرية ، وتحدث النساء بأمره وأمرها ، وقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ، أي عبدها).

وقوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ـ شغاف القلب غلافه وحجابه ، والمقصود دخل حبه فتغلغل تحت غلاف القلب. قال السدي: (والشغاف جلدة على القلب يقال لها «لسان القلب». يقول: دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب). وقال عكرمة: (﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ : دخل حبه تحت الشَّغاف). وقال مجاهد: (دخل حبه في شغافِها). وعن ابن عباس قال: (يقول: عَلَّقها حبّاً). أو قال: (غلبها). وقال الحسن: (قد بطنها حبّاً). وقال قتادة: (استبطنها حبها إياه). وقال الضحاك: (يقول: هلكت عليه حباً).

وقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ـ أي: في صنيعها هذا وما أقدمت عليه من مراودة فتاها عن نفسه وتعلق قلبها به.

وقوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ ـ قال السدي: (يقول: بقولهن). وقال قتادة: (أي بحديثهن).

وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ـ أي: أرسلت إلى النسوة اللاتي مَكَرْنَ بها

بإشاعة خبرها مع فتاها لتريهن يوسف. قال ابن إسحاق: (وكان يوصف لهن بُحسنه وجماله، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾).

قال ابن عباس: (﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾، قال: مجلساً). وقال سعيد: (طعاماً وشراباً ومتكأً). قال ابن جرير: (أعدّت لهن، ﴿مُتَّكَأً﴾، يعني: مجلساً للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد). قيل: وفي الطعام ما يقطع بالسكاكين مِن أُتْرُجٍّ ونحوه، وهو قوله: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾. قال ابن كثير: (وكان هذا مكيدةً منها، ومقابلة لهنَّ في احتيالهن على رؤيته).

وقوله: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ـ حيث كانت قد خَبَّأَتْه في مكان آخر، فخرج عليهن يوسف.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ـ قال مجاهد: (أعظمنه) ـ أي: أجللنه وعظّمنه لشدة حسنه. وقال ابن زيد: (فخرج، فلما رأينه أعظمنه وبُهِتن) ـ أي: من شدة بهائه وجماله ـ عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ـ أي: جَعَلْنَ يقطعن أيديهنَّ من روعة جمال يوسف، وهُنَّ يحسبن أنهن يقطعن الأترُجّ. قال مجاهد: (﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، حَزّاً حزّاً بالسكين). والمقصود: أنهن حَزَزْنَ أيديهن من حيث لا يشعرن من دهشة ما رأين. قال ابن زيد: (جعلن يحززن أيديهن بالسكين، ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الترنج، قد ذهبت عقولهنّ مما رأين!).

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ حديث الإسراء ـ قال رسول الله ﷺ: [فأتيت على يوسف فَسَلّمتُ فقال: مَرْحَباً بك من أخٍ ونبي. وفي لفظ: ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أُعطي شطرَ الحسن، فرحّب بي ودعا لي بخير][1].

وقوله: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ـ وهي قراءة أهل الكوفة، وأما بعض البصريين فأثبتوا الياء: ﴿حاشَىٰ لله﴾ والمراد التنزيه. قال مجاهد: (﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قال: معاذ الله).

وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ـ قال ابن زيد: (ما هكذا تكون البشر). لأنهن لم يعهدن

(1) حديث صحيح. هو بعض حديث الإسراء أخرجه البخاري (3207) (3887)، ومسلم (164)، وأخرجه النسائي (1/ 217)، وأحمد (4/ 208)، (4/ 210)، وأخرجه ابن حبان (48).

الحُسْنَ في البَشَرِ على هذه الصورة الرائعة المدهشة التي تأخذ بالعقول والألباب.

وقوله: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ـ قال قتادة: (قلن: ملك من الملائكة).

وقوله: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ـ قال ابن كثير: (تقول هذا مُعتذِرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يُحَبَّ لجماله وكماله).

ثم أقرّت لهن بأنها قد راودته عن نفسه، وكان منها ما تحدّثن به في شأنها معه.

وهو قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ـ قال ابن عباس: (فامتنع).

وقوله: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه من حاجتي إليه، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾، تقول: لَيُحْبَسَنَّ، وليكوناً من أهل الصغار والذلة بالحبس والسجن، ولأهينَنَّه).

فهناك لجأ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ربه عز وجل ليحميه من كيدهن، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

قال ابن إسحاق: (قال يوسف، وأضاف إلى ربه، واستغاثه على ما نزل به، ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾، أي: السجن أحبّ إلي من أن آتي ما تكره). وقال السدي: (من الزنا). وقال ابن زيد: (﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾: قال: إلا يكن منك أنت العون والمنعة، لا يكن مني ولا عندي).

قال القرطبي: (﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط، أي: أَمِلْ إليهن). وقال النسفي: (والصبوة الميل إلى الهوىٰ، ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها).

عن ابن إسحاق: (﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، أي: جاهلاً، إذا ركبت معصيتك).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قال ابن كثير: (وذلك أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ عصمه الله عِصمةً عظيمة، وحماه فامتنع منها أشدَّ الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقاماتِ الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سَيِّدَتُه، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غايةِ الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السِّجنَ على ذلك، خوفاً من الله ورجاءَ ثوابه).

قلت: وفي هذه القصة ما يشدّ عزيمة الشباب الذين أسرفوا على أنفسهم في اتباع الهوىٰ والشهوات، وغاصوا في متاهاتها، وعلقوا في حبائلها، أنهم لو صدقوا الله الدعاء بالنجاة من تبعاتها وشباكها، وعزموا على التماس حياة الطهارة والعفاف، لأعانهم ربهم سبحانه على ترك تلك المآثم والمحرمات. وقد مررت بشباب انغمسوا في تلك المحرمات حتىٰ صارت تلحقهم، فَذَكَّرْتُهُم بصدق يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ التجأ إلى ربه ليخلصه من مكرهن، فَصَدَقَهُ سبحانه الإجابة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء يوسف ودعاء عباده جميعاً ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصدق نياتهم وإخلاصهم لربهم وبجميع أحوالهم.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [سبعةٌ يُظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه، إمامٌ عادلٌ، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجُلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ بالمسجد، إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه. ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجلٌ تَصَدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلمَ شِمالُهُ ما أنفقت يمينُه، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناه، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذات مَنْصِبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله][1].

35 ـ 38. قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآيات: ظُهُورُ المصلحة للقوم بسجن يوسف إخفاء للحقيقة، ودرءاً

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (660)، ومسلم (1031) ح (91)، والترمذي بعد الحديث (2391)، والنسائي (8/ 222 ـ 223)، وأحمد (2/ 439)، وابن خزيمة (358)، وابن حبان (4486) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للفضيحة. وقصة يوسف مع ساقي الملك وخبازه في السجن في تأويل رؤياهم. وإعلانُ يوسف اجتنابه ملة الكفر واتباعه منهاج النبوة.

فعن ابن إسحاق: (﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ، ببراءته مما اتهم به ، من شق قميصه من دبر ، ﴿ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾).

وعن قتادة: (﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ، قال: ﴿ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ، حزُّهُنَّ أيديهن ، وقدُّ القميص). وذكر السّدي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقِّه ويبرأ عرضُه فيفضَحَها.

والخلاصة: لقد ظهر لهم أن المصلحة سجنه إلى مدة ، رغم ما ظهر من عِفَّته وأدلة صدقه ونزاهته وبراءته ، لضبط ما شاع بين الناس في حق امرأة العزيز ، ليوهموا بذلك على الناس الأمر. قال ابن كثير: (ولهذا لما طلبه الملكُ الكبيرُ في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتىٰ تتبَيَّنَ براءتُه مما نُسِبَ إليه من الخيانة ، فلما تقرّر ذلك خَرَجَ وهو نَقِيُّ العِرْض ، صلوات الله عليه وسلامه).

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ ـ قال قتادة: (كان أحدهما ساقِيَ الملك ، والآخر خبّازَه). وقال السدي: (وكان سبب حَبْسِ الملك إياهما أنه توهَّمَ أنهما تمالآ على سَمِّه في طعامه وشرابه).

وقوله: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

إنهما رَأَيَا مناماً ، فرأىٰ الساقي أنه يعصر عِنَباً ، ورأىٰ الخبّاز أنه اختبز خبزاً فحمله على رأسه فجاء الطير فأكل منه. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿إني أراني أعصر عِنَباً﴾. وقال الضحاك: (﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ ، يعني عِنَباً ، قال: وأهل عُمَان يُسَمُّون العِنَبَ خمراً). وقال عكرمة: (قال له: إني رأيتُ فيما يرىٰ النائمُ أني غَرَسْتُ حَبَلَةً من عِنَبٍ فنبتت ، فخرج فيه عناقيد ، فعصرتُهُنَّ ثم سَقَيْتُهُنَّ المَلِك. قال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرجُ فتسقيَه خَمْراً. وقال الآخر: وهو الخبّازُ: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾). قال الضحاك: (﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: كان يوسع للرجل في مجلسه ، ويتعاهد المرضىٰ).

وكان يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد عُرِف في السجن بكرمه وجوده وصدق حديثه ، وحُسْن سمته ، وكثرة عبادته ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ،

وعيادة مرضاهم وحسن الخلق والمعاملة ، مما دفع الرجلان لاستشارته في رؤياهم والتماس الخير على يديه .

وقوله : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

قال ابن عباس : (إنما عُلِّمَ فَعَلِمَ). وقال السدي : (قال يوسف لهما : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ ، في النوم ، ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ ، في اليقظة).

وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ ـ قال ابن جرير : (يقول : هذا الذي أذكر أني أعلمه من تعبير الرؤيا ، مما علمني ربي فعلمته).

وذلك أني اجتنبت ملة قوم كفروا بالله واليوم الآخر. قال النسفي : (وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم). وهو قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (يقول: هجرتُ طريقَ الكفر والشرك ، وسلكتُ طريقَ هؤلاء المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهكذا يكونُ حالُ من سَلَكَ طريق الهدىٰ ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرضَ عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ويُعَلِّمه ما لم يكن يَعْلَمُه ، ويجعَلُه إماماً يقتدىٰ به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد).

وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

قال النسفي : (وهي الملة الحنيفية. وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحىٰ إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله).

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ـ هذه صفة آل النبوة واتباع الرسل ، الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإفراده تعالىٰ بالدعاء والعبادة والتعظيم .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال القرطبي : (قيل : ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إذ جعلنا أنبياء ، ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان).

39 ـ 41. **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾.

في هذه الآيات: نَصيحةُ يوسف في السجن لصاحبيه إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، ونبذ الشرك وسبل الشيطان الرجيم، وتأويله الرؤيا لهما بما أوتيه من توفيق الله الحكيم.

فعن ابن إسحاق قال: (ثم دعاهما إلى الله وإلى الإسلام، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: خيرٌ أن تعبدوا إلهاً واحداً، أو آلهة متفرقة لا تغني عنكم شيئاً).

فاستفاد يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ من إقبال الرجلين عليه إلى دعوتهما إلى عبادة الله وحده، وإفراده بالكبرياء والتعظيم، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعكف عليها القوم، فإن الله هو الواحد القهار الذي قهر كل شيء، وذلّ له كل شيء.

وقوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾.

قال القاسمي: (يعني أنكم سميتم، ما لا يستحق الإلهية، آلهة، ثم طفقتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: حجة تدل على صحتها).

وقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾.

قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية: (أُسِّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ ـ أي: هذا الذي دعوتكما إليه من البراءة من الطواغيت والأوثان، وإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، هوالدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو منهج الصدق في الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ـ أي: فهم يشركون بالله ويحسبون أنهم مهتدون.

وفي التنزيل: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

قال القاسمي: (﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ أي: يخرج من السجن، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ أي: فيقتل ويعلق على خشبة، فتأكل الطير من لحم رأسه. ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ أي: قطع وتم ما تستفتيان فيه. يعني: مآله، وهو نجاة أحدهما، وهلاك الآخر. والتعبير عنه بـ ﴿ ٱلۡأَمۡرُ ﴾، وعن طلب تأويله بـ «الاستفتاء» تهويلاً لأمره، وتفخيماً لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم، المبهمة الجواب).

42. قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

في هذه الآية: وصية يوسُف ـ عليه السلام ـ الذي ظن خروجه من الرجلين ذكر مظلمته عند سيده، فأنساه الشيطان فلبث في السجن بضع سنين.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: قال يوسف للذي علم أنه ناج من صاحبيه اللذين استعبراه الرؤيا: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾، يقول: اذكرني عند سيدك، وأخبره بمظلمتي، وأني محبوس بغير جُرْم).

فأنسىٰ الشيطان ذلك الموصىٰ أن يذكِّر مولاه الملك بأمر يوسف، وكان ذلك مكيدة من الشيطان لئلا يخرج يوسف من السجن، وكان الأوْلىٰ أن يطلب يوسف عليه الصلاة والسلام الفرج خالصاً من الله تعالىٰ ـ كما أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ ـ.

فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: [عجبتُ لصَبْرِ أخي يوسف وكرَمِه، والله يَغْفِرُ له حيثُ أرسلَ إليه لِيُستَفْتَىٰ في الرؤيا، ولو كُنْتُ أنا لم أفعلْ حتىٰ أخرجَ. وَعَجِبْتُ لصبره وكرمه والله يغفِرُ لهُ أُتِيَ لِيخرُجَ فلم يخرُجْ حتىٰ أخبرهم بعذْرِهِ، ولو

كنت أنا لبادرت الباب ، ولولا الكلمةُ لما لبثَ في السِّجْنِ حيث يبتغي الفرجَ من عند غير الله عز وجل][1] .

وله شاهد في مسند الإمام أحمد ، بسند حسن لطرقه ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لو لبثْتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ ثم جاء الداعي لأجبتُه ، إذ جاءه الرسول فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ، ورحمةُ الله على لوط إنْ كان ليأوي إلى ركن شديد ، إذْ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، وما بعث الله من بعده من نبي إلا في ثروة من قومه][2] .

وعن مجاهد قال: (فلبث في السجن بضع سنين ، عقوبةً لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾).

وعن قتادة قال: (البضع ما بين الثلاث إلى التسع). وقال: (لبث يوسف في السجن سبع سنين) ـ والله تعالىٰ أعلم ـ.

43 ـ 49. قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ

(1) حديث صحيح لشواهده. أخرجه الطبراني (11640) ، وانظر مسند الإمام أحمد (2/ 232) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1945) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3879).

(2) أخرجه أحمد (2/ 232) ، وانظر تفسير ابن جرير (12/ 139) ، وسنن الترمذي (4/ 129) ، وصحيح ابن حبان (1747) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1867).

لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: خَبَرُ الرؤيا التي رآها الملك وسعىٰ في تأويلها فَقُوبِلَ باعتذار من حوله عن المعرفة بتأويل الأحلام. وَتَذَكُّرُ الذي نجا من الرجلين علم يوسف بتأويل الأحلام فلجأ إليه بعدما نسيه عبر الأيام. وتأويل يوسف لرؤيا الملك بتوفيق الله له تأويلاً صدقته الأحداث والأزمان.

قال ابن إسحاق: (ثم إن الملك الريان بن الوليد رأىٰ رؤياه التي رأىٰ فهالته، وعرف أنها رؤيا واقعة، ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله: ﴿بِعَالِمِينَ﴾).

وعن السدي قال: (إن الله أرىٰ الملك في منامه رؤيا هالته، فرأىٰ سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فجمع السحرة والكهنة والحُزاة فَقَصَّها عليهم، فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾).

وهذه الرؤيا هي مما قدّر الله تعالىٰ أن يراها ملك مصر لتكون سبباً لخروج يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن عزيزاً مُكرّماً، فجمع لتأويل رؤياه الكهنة والسحرة والحزاة وكبراء دولته ليفهموا أبعادها فاعتذروا بقولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ـ أي: إنها أخلاط، من الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها، وَمِنْ ثَمَّ فهي رؤيا كاذبة لا حقيقة لها. قال ابن عباس: (﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، كاذبة). أو قال: (يقول مشتبهة). وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: وما نحن بما تؤول إليه الأحلام الكاذبة بعالمين).

وعند ذلك تذكَّر الذي نجا من القتل من صاحبي السجن، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف من ذكر أمْرِه للملك، فتذكر بعد مدة فقال أنا أخبركم بتأويل هذا المنام فابعثون إلي يوسف الصديق إلى السِّجن. وهو قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.

وعن ابن عباس: (﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، قال بعد حين) ـ أي: تذكر ما كان نسي من أمر يوسف وما وصّاه به، بعد مدة، فذكره بعد حين ـ أو قال: (بعد سنين). وعن

عكرمة قال: (أي: بعد حقبة من الدهر). وعن مجاهد: (أنه قرأ: ﴿وادّكر بعد أَمَهٍ﴾) ـ والأَمَهُ: النسيان.

قال ابن عباس: (لم يكن السجن في المدينة، فانطلق الساقي إلى يوسف فقال: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾، الآيات).

وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال قتادة: (أما السمان فسنون منها مخصبة، وأما السبع العجاف، فسنون مجدبة لا تنبت شيئاً). والعجاف جمع عَجْفاء، وهي المهازيل.

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، أما الخضر فهي السنون المخاصيب، وأما اليابسات فهن الجُدُوب المحول. وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يقول: أي: أرجع إلى الناس فأخبرهم. يقول: ليعلموا تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا).

فعند ذلك أفاض يوسف عليه الصلاة والسلام مما علّمه الله تعالىٰ من تعبير الرؤيا من غير تعنيف لذلك الفتىٰ الذي نسيَ ما وصّاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك[1]، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تزرعون هذه السبع السنين كعادتكم، وفيها يأتيكم الخِصْبُ والمطر. قال ابن كثير: (ففَسَّر البقر بالسنين، لأنها تثير الأرض التي تُسْتَغَل منها الثمرات والزروع، وهُنَّ السنبلات الخضر. ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخِصْبَ فاخزِنُوه في سنبله، ليكون أبقىٰ له وأبعدَ عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدارَ الذي تأكُلونه، وليَكُنْ قليلاً قليلاً لا تُسْرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهنَّ السبع السنين المُحْل التي تعقب هَذه السبع مُتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكُلن السمان، لأن سِني الجَدْب يُؤْكَلُ فيها ما جمعوه في سِني الخِصْب، وهُنَّ السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهنَّ لا يُنْبِتْنَ شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء).

(1) وإن كان الأولىٰ عدم إخبارهم بذلك العلم عن تفسير الرؤيا حتىٰ يرفعوا عنه الظلم ليخرج، كما سيأتي من حديث النبي ﷺ.

وهو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.
قال قتادة: (﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾: مما تدخرون). وقال ابن عباس: (تخزنون) أو قال: (تحزرون).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

أي: بشّرهم بعد ذلك القحط والجدب بعام مطر وغيث ونماء، تُغِلّ فيه البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسُكّر ونحوه.

قال قتادة: (﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، قال: فيه يغاثون بالمطر). وعن ابن عباس: (﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، قال: الأعناب والدُّهْن). وقال أيضاً: (﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، السمسم دهناً، والعنب خمراً، والزيتون زيتاً). أو قال: (يصيبهم غيث، فيعصرون فيه العنب، ويعصرون فيه الزيت، ويعصرون من كل الثمرات). وقال أيضاً: (﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، قال: فيه يحلبون). فدخل في ذلك أيضاً حلْب اللّبن. وهناك قراءة لأهل الكوفة: ﴿وفيه تَعْصِرون﴾.

50 ـ 53. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الآيات: طَلَبُ الملك إحضار يوسف عند سماعه روائع التأويل، واعتِذارُ يوسف عن الخروج حتىٰ تُظهر براءته، ودعوة الملك النسوة وامرأة العزيز لإظهار الحقيقة، واعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف وزلل نفسها الأمارة بالسوء، والله غفور رحيم.

قال ابن إسحاق: (فخرج نبو[1] من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك ، حتىٰ أتىٰ الملك فأخبره بما قال ، فلما أخبره بما في نفسه كمثل النهار ، وعرف أن الذي قال كائن كما قال ، قال: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾).

وقال السدي: (لما أتىٰ الملك رسوله فأخبره ، قال: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ ، فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك ، أبىٰ يوسف الخروج معه ، وقال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، الآية. قال السدي: قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلمَ الملك بشأنه ، ما زالت في نفس العزيز منه حاجَةٌ! يقول: هذا الذي راود امرأته).

وعن قتادة: (قوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ، أراد نبيُّ الله عليه السلام أن لا يخرج حتىٰ يكون له العذر). وقال ابن جريج: (أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن).

قلت: ولكن نبينا محمداً ﷺ أخبرنا أن الأَوْلىٰ في مثل هذه الأحوال الخروج من الضيق ومن تحت القيود والظلم ، فإن الضيق والسجن قد يسيء إلى دين العبد ويفتنه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ فإن الطغاة قد لا ينفع معهم بسط القضايا للاعتذار ، فإن الظلم دَيْدَنهم ، ومن ثمَّ فإن المسارعة إلى الخروج هو السنة.

فقد أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس مرفوعاً: [عجبتُ لِصَبْر أخي يوسف وكرمه ، والله يَغْفر له حيث أرسلَ إليه لِيُستَفْتىٰ في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أَفْعَل حتىٰ أخرج. وعَجِبْتُ لصبره وكرمه والله يَغْفِرُ لهُ أُتِيَ ليخرجَ فلم يخرجْ حتىٰ أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب][2].

وله شاهد من حديث الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لو لَبِثْتُ في السجن ما لبث يوسفُ ثم جاء الداعي لأجَبْتُهُ ، إذ جاءه الرسولَ فقال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾][3].

(1) هو اسم الرجل الذي نجا فيما ذكر ، واسم الآخر مجلث ـ الذي قُتل ـ وهما صاحبا السجن.

(2) صحيح لشواهده. أخرجه الطبراني (11640) ، وانظر مسند أحمد (2/ 232) ، وقد مضىٰ بتمامه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 232) ، وابن جرير في «التفسير» (12/ 139) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1867). وكذلك أخرج الإمام أحمد اللفظ الآخر (2/ 389) ، رقم (9037) ، وانظر تعليق أحمد شاكر: المسند رقم (8535).

وفي لفظ: [لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ـ قال النسفي: (أي: إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازيهن عليه).

وقوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: فلما رجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف دعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم قال لهن ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ هل وجدتن منه ميلاً إليكن؟

وقوله: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

أي: أجابت النسوة الملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، وما عهدنا عليه من سوء.

وقوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ـ من الحَصِّ: استئصال الشيء.

أي: فعند ذلك قالت امرأة العزيز الآن ظهر الحق وتبين. قال ابن عباس: (﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، قال: تبيَّن). وقال ابن إسحاق: (قالت راعيل امرأة إطفير العزيز: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الآن برز الحق وتبيّن، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فيما كان قال يوسف ممّا ادّعت عليه).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

هو من كلام امرأة العزيز ـ وقيل من كلام يوسف[1]، أي: رددت الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيابه ـ والأول أليق بالسياق، وأنسب لتتابع أحداث القصة. فالمعنىٰ: قالت امرأة العزيز: إني أعترف أني أنا الذي راودته عن نفسه وزللت، ليعلم زوجي أني لم أخنه بارتكاب المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلمَ أني بريئة ولم يقع ما كان يُتوقع.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ـ قال القرطبي: (معناه أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم).

---

(1) واختاره ابن جرير وابن أبي حاتم، وقيل أراد: ليعلم الله أني لم أخنه، لأن المعصية خيانة. وما رجحناه أنه من كلام امرأة العزيز أشهر وأنسب بسياق القصة، واختاره ابن كثير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

هو قول امرأة العزيز[1]: أي وما أبرئ نفسي من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها في عموم الأحوال أو في هذه الحادثة، فإن النفس لأمارة بالسوء في كل وقت. قال النسفي: (يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة، أو هو استثناء منقطع، أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، وقيل هو من كلام امرأة العزيز ـ أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة، فإني قد خنته حين قَرّفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن ـ تريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ـ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ـ ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾: استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت).

54 ـ 57. قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استِخْلاصُ الملك يوسف لنفسه وتقريبه، واختيار يوسف عليه الصلاة والسلام العمل على خزائن الأرض لحفظه وعلمه، وكذلك كان تمكين الله ليوسف في الأرض والله لا يضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير وأحسن للمؤمنين المتقين.

فقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ﴾ ـ يعني ملك مصر ـ وذكر ابن إسحاق أنه الوليد بن الريان.

وقوله: ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾ ـ قال سلمة، عن ابن إسحاق: (حين تبيَّنَ عذر

(1) أي: بحضرة الملك، ولم يكن يوسف ـ عليه السلام ـ عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

يوسف ، وعرف أمانته وعلمه ، قال لأصحابه: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ ، يقول: أجعله من خُلصائي دون غيري).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: فلما كلّم الملك يوسف ، وعرف براءته وعِظَم أمانته قال له: إنك ، يا يوسف ، ﴿ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، أي: متمكن مما أردت وعرض لك من حاجة قِبَلنا ، لرفعة مكانك ومنزلتك ، لدينا ، ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما اؤتمنت عليه من شيء).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هو مسألة يوسف عليه الصلاة والسلام للملك ، ليوليه ما هو متقن في إدارته ، مختص في شؤونه. قال ابن إسحاق: (﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، إني حافظ لما استودعتني ، عالم بما وليتني. قال: قد فعلت). وعن شيبة الضبي في قوله: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ، قال: (على حفظ الطعام). وقال: (يقول: إني حفيظ لما استودعتني ، عليم بسني المجاعة).

قال ابن كثير: (﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِلَ أمرُه ، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ ، أي: خازِنٌ أمين ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، ذو علم وبصر بما يتولاه. قال: وسأل العملَ لعِلْمِهِ بقدرته عليه ، ولما في ذلك من المصالح للناس ، وإنما سأل أن يُجْعَلَ على خزائن الأرض ، وهي الأهراءُ التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السِّنين التي أخبرهم بشأنها ، ليَتَصرَّفَ لهم على الوجه الأحوطِ والأصلحِ والأرشدِ. فأجيبَ إلى ذلك رغبةً فيه ، وتكرِمَةً له).

قلت: والآية تدل على أركان العمل الصالح ، أو العمل المقبول: 1 ـ الإخلاص. 2 ـ الصواب.

فقوله: ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾ يشير إلى الإخلاص. وقوله: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يشير إلى سلامة المنهج. وكذلك العمل الصالح لا بد فيه لينال رضوان الله وقبوله من الإخلاص والصواب. وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: 110].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: 2].

قال الفضيل بن عياض: (أخلصه وأصوبه) ـ وأخلصه أن يكون خالصاً لوجه الله تعالىٰ. وأصوبه: أن يكون على السنة. لذا لما قيل: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن، عن أبي سعيد مرفوعاً: [ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزيِّنُ صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل](1).

الحديث الثاني: أخرج البيهقي وابن خزيمة من حديث محمود بن لبيد قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إياكم وشرك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر الرجل إليه. فذلك شرك السرائر](2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده: [أنه قال للنبي ﷺ: والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعدما حلفتُ عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما الذي بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك لله، وأن توجِّهَ وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة](3).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾.

قال السدي: (استعمله الملك على مصر، وكان صاحبَ أمرها، وكان يلي البيعَ والتجارة، وأمرها كله). وعن مجاهد قال: (أسلم الملك الذي كان معه يوسف).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الإمام أحمد في المسند (3/ 30)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 497) لتفصيل هذا البحث ـ في النهي عن الرياء وحب الرياسة والشهرة والتعظيم.

(2) أخرجه البيهقي في السنن (2/ 290)، وهو حديث حسن. وانظر فتح المجيد (440).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد في مسند البصريين (19171) من حديث بهز عن أبيه عن جده مرفوعاً. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 497) لتفصيل هذا البحث.

قال ابن زيد: (﴿ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ ﴾ ، قال: ملكناه فيما يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا ، يصنع فيها ما يشاء ، فُوِّضَتْ إليه).

والخلاصة: لقد مكّنَ الله تعالىٰ يوسف عليه السلام في أرض مصر ، يتصرف فيها كيف يشاء ، ويتخذ منها منزلاً حيث يشاء ، بعد الضيق والحَبْس والإسار.

وقوله: ﴿ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي: تنال رحمته تعالىٰ من يشاء من عباده ، ولا يضيع جزاء من أحسن الطاعة وأقام الدين ، وعظّم حرمات الله ، كما كان ليوسف عليه الصلاة والسلام بعد الصبر على أذىٰ إخوته واختيار السجن على المعصية ، فكتب الله له في النهاية السلامة والنصر والتأييد ، وكذلك حال كل مؤمن صبر على طاعة الله واجتناب معصيته ونصر دين ربهِ عز وجل.

يروي ابن جرير بسنده عن سلمة عن ابن إسحاق قال: (لما قال يوسف للملك: ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، قال الملك: قد فعلت! فولاه ، فيما يذكرون ، عملَ إطفير ، وعزل إطفير عما كان عليه. يقول الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ ﴾ ، الآية. قال: فذكر لي ، والله أعلم ، أن إطفير هلَكَ في تلك الليالي ، وأن الملكَ الرَّيان بن الوليد ، زوَّج يوسف امرأة إطفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترىٰ حسناء جميلة ، ناعمةً في مُلْكٍ ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلكَ الله في حُسنك وهيئتك على ما رأيتَ. فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين: أفراثيم بن يوسف ، وميشَا بن يوسف. وولد لأفراثيم نونُ ، والد يُوشَع بن نون ، ورحمةُ امرأةُ أيوبَ عليه السلام).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: ثم إنّ ما ادّخره الله ليوسف في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل والخلود في النعيم ، لهو أعظم من النفوذ والتمكين الذي أعطاه إياه في الدنيا ، وكذلك شأن من جاهد لإعلاء كلمة الله في الأرض ، فإن ما ينتظره في الآخرة من السرور والرزق الكريم أكبر من التمكين في الدنيا وسعادة قهر الأعداء ورؤية دين الله وشرعه يعلو كل منهج في الأرض.

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالىٰ:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطرَ على قلب بَشَر][1].

58 ـ 62. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾.

في هذه الآيات: بعد مضي سني الخصب السبع وتلتها سنين الجدب ، وعَمَّ القحط بلاد مصر حتىٰ وصل إلى بلاد كنعان ، التي يقطنها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وقد مكّن الله تعالىٰ ليوسف في وزارته بتلك البلاد ، وباشَرَ مَهَامَّهُ فيها لتوزيع الثروات والغلات في أحسن وجه ، لمواجهة القحط وسنوات الجدب ، وكان بحق رحمة من الله على أهل مصر ، وهنا ورد عليه الناس من مختلف الأقاليم والأمصار ، يلتمسون عطاءه ويمتارون لأنفسهم وعيالهم ، وكان من جملة مَنْ وَرَدَ للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم لهم بذلك ، وكان بلغهم أن عَزيز مصر يُعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً ، وركبوا عشرة نَفر ، وبقي يعقوب مع ابنه بنيامين شقيق يوسف وأحب ولده له بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس على كرسي رياسته ووزارته في كامل أبّهته وسلطانه ، عرفهم حين نظر إليهم ، ولم يعرفوه ، إذ كانوا فارقوه صغيراً ولم يخطر ببال أحدهم أنه سيصير إلى ما آل إليه ، فسألهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيها العزيز ، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: له أولادٌ غيركم؟ قالوا: نعم ، كنا اثني عشر ، فذهب أصغرُنا ، هلك في البَرِّية ، وكانَ أحَبَّنا إلى أبيه ، وبقي شقيقُه فاحتبسه أبوه ليتسلىٰ به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم. ثم لما وفّاهم كَيْلهم ، وحَمّل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3244) ، كتاب بدء الخلق ، وكذلك (4779) ، كتاب التفسير ، ورواه أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح (2824).

ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ، ألا ترون وفائي ، وإن لم تفعلوا فلا كيل لكم عندي بعد اليوم. فوعدوه أن يفعلوا ، فأمر فتيانه بإعادة بضاعتهم التي قدموا بها إلى رحالهم من حيث لا يشعرون ، حكمة منه بذلك.

فعن قتادة: (﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ ، قال: لا يعرفونه).

وعن ابن إسحاق قال: (لما اطمأن يوسف في ملكه وخرج من البلاء الذي كان فيه ، وخلت السنون المخصبة التي كان أمرهم بالإعداد فيها للسنين التي أخبرهم بها أنها كائنة ، جُهِدَ الناس في كل وجه ، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلدة. وكان يوسف ، حين رأىٰ ما أصاب الناس من الجهد ، قد آسىٰ بينهم ، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً ، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين[1] ، تقسيطاً بين الناس وتوسيعاً عليهم. فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، فعرفهم وهم له منكرون ، لما أراد الله أن يبلغ ليوسف عليه السلام فيما أراد).

وعن السدي قال: (فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما أمركم ، فإني أنكر شأنكم! قالوا: نحن قوم من أرض الشأم. قال: فما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نمتار طعاماً. قال: كذبتم ، أنتم عيون ، كم أنتم؟ قالوا: عشرة. قال: فأخبروني خبركم؟ قالوا: إنا إخوة بنو رجل صِدِّيق ، وإنا كنا اثني عشر ، وكان أبونا يحبّ أخاً لنا ، وإنه ذهب معنا البرية فهلك منا فيها ، وكان أَحَبَّنا إلى أبينا. قال: فإلىٰ من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه).

وعن ابن إسحاق قال: (لما جَهَّزَ يوسف فيمن جَهَّزَ من الناس ، حَمّل لكل رجل منهم بعيراً بعدّتهم ، ثم قال لهم: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ، أجعل لكم بعيراً آخر ، أو كما قال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ ، أي: لا أبخس الناس شيئاً ، ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ ، أي: خير لكم من غيري ، فإنكم إن أتيتم به أكرمت منزلتكم ، وأحسنت إليكم ، وازددتم به بعيراً مع عدّتكم ، فإني لا أعطي كل رجل منكم إلا بعيراً ، ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ، لا تقربوا بلدي).

---

(1) أي: في السنة الواحدة من تلك السنين. وذُكر أنه كان ـ عليه السلام ـ لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، حتىٰ يتكفّىٰ الناس بما في أيديهم مُدَّة السبع السنين.

وعن قتادة: (﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ، يعني بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه).

وعن مجاهد: (﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ، يوسف يقوله: أنا خيرُ من يُضيف بمصر).

وعن ابن إسحاق: (﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ، لنجتهدنّ) ـ أي: في إقناع أبينا بإرساله معنا بنيامين ـ قال: (ثم أمر ببضاعتهم التي أعطاهم بها ما أعطاهم من الطعام ، فجعلت في رحالهم وهم لا يعلمون).

وفي تأويل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها ابن جرير ومن بعده ابن كثير:

1 ـ قيل: خشي يوسفُ ـ عليه السلام ـ ألا يكون عِندهم بضاعةٌ أخرىٰ يرجعون للميرة بها.

2 ـ وقيل: تَذَمَّمَ أن يأخذ من أبيه وإخوته عِوَضاً عن الطعام.

3 ـ وقيل: أراد أنْ يَرُدَّهُم إذا وجدوها في متاعهم تَحَرُّجاً وتورُّعاً لأنه يعلم ذلك منهم. والله أعلم.

63 ـ 66. **قوله تعالىٰ:** ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

في هذه الآيات: رُجوعُ إخوة يوسف إلى أبيهم يشكون إليه منع الكيل عنهم حتىٰ يرسل معهم أخاهم ويتعهدون بحفظه. وَفَتْحُهُم متاعهم ليجدوا فيه بضاعتهم ردت

إليهم. وَإِرْسَالُ الأب ابنه معهم بعد أخذه التوثيق منهم على حفظه والله هو الحفيظ العليم.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾، يقول: منع منا الكيل، فوق الكيل الذي كِيلَ لنا، ولم يكل لكل رجل منّا إلا كيل بعير، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾، بنيامين يَكتَل لنفسه كيلَ بعير آخر زيادة على كيلِ أباعرِنا، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، من أن يناله مكروه في سفره).

وقرأ عامة قراء المدينة: ﴿نكْتَل﴾، وكذلك بعض أهل مكة والكوفة، في حين قرأها بعض قراء الكوفة: ﴿يكْتَل﴾ ـ بمعنىٰ: يكتل هو لنفسه، كما نكتال لأنفسنا. وكلاهما قراءتان معروفتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال النسفي: (يعني أنكم قلتم في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كما تقولونه في أخيه، ثم خنتم بضمانكم، فما يأمنني من مثل ذلك. ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ـ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم ـ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين).

وقوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

قال قتادة: (يقول: ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفىٰ لنا الكيل).

وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ـ أي: ونطلب لأهلنا طعاماً فنشتريه لهم. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، الذي ترسله معنا، ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ـ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يعطي كلَّ رجل حمل بعير. قال ابن جريج: (كان لكل رجل منهم حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار[1]).

---

(1) وهي لغة. قال القاسم: يعني مجاهد أن «الحمار» يقال له في بعض اللغات «بعير».

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ـ قال ابن كثير: (هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إنّ هذا يسير في مقابلة أخذِ أخيهم ما يَعدِلُ هذا).

وقوله: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

قال مجاهد: (إلا أن تهلكوا جميعاً). وقال قتادة: (إلا أن تغلَبوا حتىٰ لا تطيقوا ذلك).

وقال ابن إسحاق: (إلا أن يصيبكم أمرٌ يذهب بكم جميعاً، فيكون ذلك عذراً لكم عندي).

والمقصود: أن يعقوب عليه السلام أراد توثيق العهد مع بنيه، لتأتنني بأخيكم إلا أن يصيبكم ما لا قدرة على منعه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال القرطبي: (أي: حافظ للحلف. وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل). وقال ابن إسحاق: (وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بُدّاً من بعثهم لأجل الميْرَةِ التي لا غِنىٰ لهم عنها، فبعثه معهم).

67 ـ 68. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)﴾.

في هذه الآيات: نَصيحةُ يعقوب ـ عليه السلام ـ لبنيه بعدم الدخول من باب واحد بل من أبواب متفرقة خشية العين عليهم، وهو بذلك متوكل على الله حق التوكل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فقوله: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

قال الضحاك: (خاف عليهم العين). وقال قتادة: (خشي نبي الله ﷺ العينَ على بنيه، كانوا ذوي صورة وجمال). وفي رواية قال: (كانوا قد أوتوا صورة وجمالاً فخشي عليهم أنفُسَ الناس). وقال السدي: (خاف يعقوب ﷺ على بنيه العين، فقال:

﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ فيقال: هؤلاء لرجل واحد! ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة).

وكذلك قال ابن إسحاق: (لما أجمعوا الخروج، خشي عليهم أعين الناس، لهيأتهم، وأنهم لرجل واحد). وقال القاسمي: (﴿وَقَالَ﴾ أي أبوهم: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد، أنظار من يقف عليه من الجند، ومن يعسّ للحاكم، فيريب بهم، لأن دخول قوم على شكل واحد، وزيّ متحد، على بلدٍ هم غرباء عنه، مما يلفت نظر كل راصد. وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها، وعلى كل باب حرسه، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبه، وإتباع البصر. وقيل: نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة).

وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

قال ابن كثير: (أي: هذا الاحتراز لا يردُّ قدرَ الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يُخالَفُ ولا يمانَعُ).

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: وما الحكم إلا لله سبحانه، لا يشاركه أحد، ولا يمانعه أحد، وإنما أفوض أمري إليه، وإلى الله فليفوِّض أمورَهم المفوِّضون.

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

قال مجاهد: (﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، خيفة العين على بنيه).

وقال ابن إسحاق: (ما تخوّفَ على بنيه من أعين الناس، لهيأتهم وعِدَّتهم).

وقال ابن جرير: (ولما دخل ولد يعقوب من حيث أمرهم أبوهم، وذلك دُخولهم مصر من أبواب متفرقة، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى﴾ دخولهم إياها كذلك، ﴿عَنْهُم﴾ من قضاء الله الذي قضاه فيهم فحتمه، ﴿مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، إلا أنهم قضوا وطرَاً ليعقوب بدخولهم، لا من طريق واحد، خوفاً من العين عليهم، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أُتوا من قبل ذلك، أو نالهم من أجله مكروه).

قلت: وهذه الآية من جملة الآيات في القرآن الدالة على أثر العين، وقد تنبّه

يعقوب صلوات الله وسلامه عليه إلى ذلك لما أوتي أبناؤه من حسن الهيئة وجمال السمت ، فخشي عليهم من أنفس الناس .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم : 51 ـ 52] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : 67] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث :

الحديث الأول : يروي الإمام البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ رأىٰ في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال : [استرقوا لها فإن بها النظرة][1] .

الحديث الثاني : يروي الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [العين حق ، ولو كان شيء سابَقَ القدر سبقته العين ، وإذا استغسِلتُم فاغسلوا][2] . أي : إذا عُرف العائن ـ وهو الحاسد ـ يطلب منه الاغتسال ، ويجب عليه أن يفعل ، ثم يؤخذ هذا الماء ويصب على رأس المصاب وظهره فيبرأ بإذن الله .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : [استعيذوا بالله من العين ، فإن العين حق][3] .

الحديث الرابع : أخرج الحاكم بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : [لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة][4] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ .

قال قتادة : (أي : مما علمناه) ـ أي : وإن يعقوب لذو علم ، لتعليمنا إياه .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5739) ـ كتاب الطب ـ باب رُقْيَة العين .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2188) ـ كتاب السلام ـ باب الطب والمرض والرقي .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (2/ 356) من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (737) .

(4) حديث حسن . أخرجه الحاكم بسند حسن من حديث عائشة مرفوعاً . انظر تخريج مشكاة المصابيح (2234) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7616) .

وقال أيضاً: (إنه لعامل بما عَلم). وقال سفيان: (﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾، مما علمناه. وقال: من لا يعمل لا يكون عالماً).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ـ قال ابن جرير: (ولكن كثيراً من الناس غير يعقوب، لا يعلمون ما يعلمه، لأنا حَرَمناه ذلك فلم يعلمه).

69 ـ 76. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

في هذه الآيات: دُخُولُ إخوة يوسف على يوسف عليه الصلاة والسلام، واختِلاءُ يوسف بأخيه بنيامين وتعرِيفُه بأمره، واحتيالُ يوسف بالتواطؤ معه لإبقائه عنده معززاً مكرماً بقصة صواع الملك، واستخراجها من وعاء أخيه، وإخوتُهُ لذلك مندهشون.

فقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾.

أي: لما قدم إخوة يوسف ومعهم بنيامين رحَّب بهم يوسف عليه الصلاة والسلام، وأنزلهم دار كرامته وأراهم حسن ضيافته، واختلىٰ بأخيه فأخبره بخبره وعرّفه أنه أخوه، وقال له: لا تحزن على ما صدر منهم نحوي، واكتم ذلك بيني وبينك، وتواطأ معه أنه سيحتال ليبقيه عنده معززاً مكرماً.

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ـ قال قتادة: (فلا تحزن ولا تيأس). وقال السدي: (يقول: لا تحزن على ما كانوا يعملون). قال ابن جرير: (فتأويل الكلام

إذن: فلا تحزن ولا تستكن لشيء سلف من إخوتك إليك في نفسك ، وفي أخيك من أمك ، وما كانوا يفعلون قبل اليوم بك).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ .

قال قتادة: (يقول: لما قضىٰ لهم حاجتهم ووفّاهم كيلهم). ـ يقول: جعل الإناء الذي يكيل به الطعام في رَحْل أخيه. والسقاية: المشربة. قال مجاهد: (السقاية: الصواع الذي كان يشرب فيه يوسف). وقال قتادة: (مشربة الملك).

قيل: هو إناء من ذهب كان يشرب به ويكيل الناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك ـ ذكره ابن عباس ومجاهد. وقيل: بل هو من فضة ـ وهو قول الأكثرين ، ذكره سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضاً.

والخلاصة: لقد احتال يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ لإبقاء أخيه عنده فأمر بعض فتيانه أن يضع الإناء في متاع بنيامين من حيث لا يشعر بذلك أحد.

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ .

أي: ثم نادىٰ منادٍ بينهم قبل أن ترتحل العير: إنكم لسارقون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ .

أي: قال بنو يعقوب حين سمعوا النداء وأقبلوا على المنادي ومن بحضرتهم يقولون لهم: ما الذي تفقدون؟

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ .

قال ابن عباس: (﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ ، قال: كان من فضة مثل المكوك. وكان للعباس منها و احدٌ في الجاهلية). وقال سعيد بن جبير: (﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾: وكان إناءه الذي يشرب فيه). وعن قتادة: (﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، يقول: وقر بعير. ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ ، قال: كفيل).

قال ابن كثير: (﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، وهذا من باب الجعَالة ، ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ ، وهذا من باب الضَّمان والكَفَالة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ .

قال الربيع: (يقول: ما جئنا لنَعْصي في الأرض). أي: لقد عرفتمونا منذ جئناكم وتحققتم أننا لسنا بأهل شرور وفساد ـ وقد شاهدوا منهم حُسْنَ سيرة ـ وليست السرقة

من سجايانا. وقوله: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ أصله «والله»، فقلبت الواو تاء لكثرة استخدام العرب لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾.

أي: كيف ستكون عقوبة من وجدنا عنده ما نفقده؟

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال ابن إسحاق: (﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾، أي: سُلِّمَ به، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: كذلك نصنع بمن سرقَ منّا). وقال معمر: (أخبروا يوسف بما يحكم في بلادهم، أنه من سرق أخذ عبداً). أي: يُدْفع السارق إلى المسروق منه ـ هكذا في شريعة إبراهيم عليه السلام ـ.

وقوله: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ ﴾.

أي: ففتش يوسف عليه السلام أوعية إخوته من أبيه قبل تفتيشه وعاء بنيامين، ثم فتش آخر ذلك وعاء أخيه فاستخرج الصواع من وعاء أخيه، وإنما فعل ذلك تورية.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾.

قال ابن كثير: (فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المرادِ الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحِكْمةِ والمصلحة المطلوبة. قال: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، أي: لم يكن له أخذُه في حكم ملك مصر).

ومن أقوال أهل التأويل:

1 ـ عن مجاهد: (﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ ﴾، كادها الله له، فكانت علة ليوسف. ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾، قال: إلا فعلة كادها الله، فاعتلّ بها يوسف).

2 ـ وعن ابن عباس: (﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، يقول: في سلطان الملك). وقال السدي: (في حكم الملك). وعن قتادة قال: (يقول: ما كان ذلك في قضاء الملك أن يستعبد رجلاً بسرقة). قال معمر: (كان حكم الملك أن من سَرَقَ ضوعف عليه الغُرْم).

3 ـ وعن ابن إسحاق: (﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، أي: بظلم، ولكن الله

كاد ليوسف ليضمّ إليه أخاه). قال ابن زيد: (ليس في دين الملك أن يؤخذ السارق بسرقته. قال: وكان الحكم عند الأنبياء، يعقوب وبنيه، أن يؤخذ السارق بسرقته عبداً يسترقّ).

قلت: وهذه الأقوال متقاربة في معناها متكاملة في مفادها، فغاية القول: إن الله تعالىٰ شاء ليوسف عليه السلام هذه الحيلة ليحتفظ بأخيه عنده، فاستفاد من حكم السارق في شريعتهم ـ شريعة أبيهم يعقوب ـ أن يُسْتَرَقَّ فيصير عبداً للمسروق منه، فأخذه بإقرارهم، وما أراد يوسف من ذلك قضاء حكم ملك مصر وتعريض أخيه لقوانين تلك البلاد، ليظلم بلا حجة وبلا ذنب.

قال القاسمي رحمه الله: (وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته، وكمال حكمته، ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر «ديناً» لها والآيات في ذلك كثيرة). وقال النسفي: (﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه).

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ ـ قال ابن جريج: (يوسف وإخوته، أوتوا علماً، فرفعنا يوسف فوقهم في العلم).

وقال ابن جرير: (بمعنىٰ: نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك ومنزلته في الدنيا على منازل إخوته ومراتبهم).

وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ـ قال الحسن: (ليس عالمٌ إلا فوقه عالم، حتىٰ ينتهي العلم إلى الله). وعن قتادة: (﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ، وتعلّمت العلماء، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: ﴿وفوْق كل عالمٍ عليمٌ﴾).

77 ـ 79. **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تَصْريحُ إخوة يوسف تجاه الموقف باللمز بيوسف وتشبيه بنيامين به في صنيعه، وَطَعْنُ يوسف بمقولتهم في نفسه، واستِعطافُ الإخوة يوسف لإطلاق بنيامين وأخذ أحدهم مكانه، وإصرار يوسف على مقام العدل في محاسبة الجاني دون غيره.

فقوله: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ـ قال القاسمي: (هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به. أي: إنَّ هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف).

وعن ابن جريج: (قال: كانت أم يوسف أمرت يوسف يسرق صنماً لخاله يعبده، وكانت مسلمة). وقال قتادة: (ذكر أنه سرق صنماً لجده أبي أمه، فعيروه بذلك)، وقيل غير ذلك، والله تعالىٰ أعلم.

قلت: والذي أرادوا من قولهم ذلك ـ كما ذكر ابن كثير والقاسمي وغيرهم ـ التنصل من فعل بنيامين، ومحاولة طعنه مع أخيه أمام العزيز ليظهروا أمامه بالصفاء والصدق.

وقوله: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: أَسَرَّ في نفسه قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾. والمقصود: أن يوسف عليه السلام طعن في نفسه بشهادتهم الكاذبة، بقوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ ﴾ أي: منزلة، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ومكرتم به شر مكر، ثم طفقتم تفترون على بنيامين البريء، والله أعلم بما تصفون من أمر يوسف وأخيه وبما تكذبون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في السن وفي القدر ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أبدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد، فإن أباه يتسلىٰ به عن أخيه

المفقود ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا ، فأتمم إحسانك ، أو من عادتك الإحسان فَاجْرِ على عادتك ولا تغيّرها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾.

قال ابن إسحاق: (يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعاً عنده ، إنّا إذن نفعل ما ليس لنا فعله ونجورُ على الناس).

80 ـ 82. **قوله تعالىٰ:** ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: فَقْدُ إخوة يوسف الأمل من إطلاق سراح بنيامين ، وتَحاوُرُهم في ذلك ، ورَفْضُ كبيرهم الرجوع معهم حتىٰ يحظىٰ بسماح والده ، ونصيحته لهم إخبار والدهم بحقيقة ما جرىٰ وبتصديق أهل القرية لروايتهم.

فقوله: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ ﴾ ـ أي: فلما يئسوا من يوسف أن يخلي سبيل بنيامين ويأخذ منهم واحداً مكانه. وقال ابن إسحاق: (﴿ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ ، أي: خلا بعضهم ببعض ، ثم قالوا: ماذا ترون؟). والمقصود: أنهم انفردوا عن الناس يتناجون بينهم فيما حصل ، وينظرون كيف يخلصون من غضب أبيهم وسخطه وكيف يعتذرون!

وقوله: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾.

أي: قال أكبرهم وهو فيما ذكر ـ روبيل ـ ألم تعلموا ـ أيها القوم ـ أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهود الله ومواثيقه لتردن إليه بنيامين إلا أن يحاط بكم ، هذا إضافة إلى ما كان من تفريطكم في يوسف من قبل.

وقوله: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

أي: فلن أغادر هذه البلدة حتىٰ يسمح لي أبي بالرجوع إليه، أو يحكم الله لي بأخذ أخي بالسيف أو بتمكيني من ردّه، أو بما يشاء سبحانه وهو خير الحاكمين.

قال ابن إسحاق: (﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾، التي أنا بها اليوم، ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾، بالخروج منها). وعن أبي صالح: (﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾، قال: بالسيف) ـ وكأنه أراد حربهم وتخليص أخيه من بين أيديهم. قال ابن جرير: (﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾، أو يقضي لي ربي بالخروج منها، وترك أخي بنيامين، وإلا فإني غير خارج، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، يقول: والله خير من حكم، وأعدل من فصل بين الناس).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾.

أي: عودوا إلى أبيكم ـ وأنا في انتظاري هنا ـ فأخبروه بصورة ما وقع ليكون لنا عذراً عنده. قال مجاهد: (﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾: ما كنا نظن ولا نشعر أنه سيسرق). وقال قتادة: (ما كنا نظن أن ابنك يسرق).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾، يعنون مصر). وعن ابن إسحاق: (﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، فقد علموا ما علمنا وشهدوا ما شهدنا، إن كنت لا تصدقنا، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾).

قال ابن جرير: (﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾، وهي مصر، يقول: سل من فيها من أهلها، ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، وهي القافلة التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبر ابنك وحقيقة ما أخبرناك عنه من سَرَقِهِ، فإنك تَخْبُرُ مصداق ذلك، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾، فيما أخبرناك من خبره).

83 ـ 87. قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ

يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تَلَقِّي يعقوب الخبر بالتشكيك بأولاده، والصبر على المصاب الجديد، وتَذَكُّر يوسف والبكاء من شدة الحزن، وبثه الشكوىٰ إلى الله العظيم، ثم أَمْرُه لهم بالضرب في الأرض لالتماس خبر يوسف وأخيه، وعدم القنوط من رحمة الله، فإنه لا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون.

فقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ـ قال قتادة: (يقول: زينت). أي: لما رجع إخوة بنيامين إلى أبيهم وتخلف روبيل وأخبروه أنه سرق اتهمهم أبوهم بأنه قد زينت لكم أنفسكم أمراً هممتم به. قال محمد بن إسحاق: (لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرىٰ اتَّهَمَهُم وظنّ أنها كفعلتهم بيوسف: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾).

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ـ أي: أصبر على ما نالني من فقد ولدي صبراً لا شكاية فيه ولا جزع، عسىٰ الله أن يردّ عليّ أولادي الثلاثة: يوسف، وبنيامين، وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ قال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾، بِوَحْدَتي، وبفقدهم وحزني عليهم، وصِدْق ما يقولون من كذبه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في تدبيره خلقه).

وقوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ـ أي: أعرض عن بنيه وقد تجدّد له الحزن القديم وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: يا حزني على يوسف). والأسف أشد الحزن والتندم.

وعن ابن إسحاق: (﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أعرض عنهم، وتتامَّ حزنه وبلغ مجهودَه، حين لحق بيوسف أخوه، وهَيَّجَ عليه حزنه على يوسف فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾). وعن مجاهد: (﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، قال: يا جَزَعاه حزناً).

روىٰ عبد الرزاق وابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قال: (لم يُعْطَ أحدٌ غيرَ هذه الأمة

الاسترجاع ، ألا تسمَعُون إلى قول يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾).

وقوله: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾. أي: من شدة الحزن. ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ـ قال مجاهد: (كظيم الحزن) ـ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. وقال الضحاك: (كئيب حزين). وقال قتادة: (تردَّدَ حُزْنُـهُ في جوفه ، ولم يتكلّم بسوء). أو قال: (كظيم على الحزن ، فلم يقل إلا خيراً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾.

أي: قال بنو يعقوب له: إنك لا تزال تذكر يوسف حتىٰ يجهدك المرض ويؤذي جسمك وعقلك أو يهلكك.

قال مجاهد: (﴿ تَفْتَؤُاْ ﴾ ، تفتر من حبه). أي: إنك لا تفتر من حب يوسف واستعراض ذكراه. وقال قتادة: (لا تزال تذكر يوسف).

وعن ابن عباس: (﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ ، يعني الجَهْدَ في المرض ، البالي). وقال مجاهد: (الحرض ، ما دون الموت). وعن قتادة: (﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ ، حتىٰ تبلىٰ أو تهرم).

وقال الضحاك: (الحرض: الشيء البالي الفاني). أو قال: (البالي المُدْبر).

قال ابن جرير: (وأصل «الحرض» الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو العشق).

والمقصود: إن كثرة ذكرك ليوسف يؤذي بدنك ويُعِلّ صحتك وينعكس على نفسك وعقلك بالفساد والسوء ـ يقوله بنو يعقوب لأبيهم.

وقوله: ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ ـ قال مجاهد: (من الميتين). أي: تكون ممن هلك بالموت.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ بَثِّى ﴾ ، همي). وقال الحسن: (حزني). أو قال: (حاجتي) ، وقيل: غمّي. وعن ابن إسحاق قال: (قال يعقوب عن عِلْمٍ بالله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، لما رأىٰ من فظاظتهم وغلظتهم وسوء لَفْظِهم له: لم أشك ذلك إليكم ، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾).

قال ابن عباس: (﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له). وقال ابن كثير: (﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أرجو منه كلَّ خير).

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

أي: التمسوا خبر يوسف وأخيه وتعرّفوا أمرهما. وأصل التحسُّس من الحِسِّ. وهو قول يعقوب لبنيه حين طمع في يوسف وأحسّ قرب لقائه. قال السدي: (﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، بمصر).

وقوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ـ قال قتادة: (أي: من رحمة الله). وقال السدي: (من فرج الله أن يردَّ يوسف). وقال ابن زيد: (من فرج الله، يفرِّج عنكم الغمَّ الذي أنتم فيه).

قال ابن إسحاق: (ثم إن يعقوب قال لبنيه وهو على حسن ظنه بربه، مع الذي هو فيه من الحزن: يا بني، اذهبوا إلى البلاد التي منها جئتم ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، أي: من فرجه).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته، ويقطع رجاءه منه، ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يعني: القوم الذين يجحدون قُدرته على ما شاء تكوينه).

88 ـ 93. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآيات: عَوْدَةُ إخوة يوسف إلى مصر، ودخولُهم على يوسف ببضاعة قليلة، وهم يرجونه رحمتهم في شأن أخيهم وحسن التزود من كيله، وَكَشْفُ يوسف الحقيقة في أمره، واعترافُهُم له بالذنب وتفضيل الله له عليهم، وصفحه هو عنهم ورجاؤه عفو الله عنهم، وإعطاؤهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً بإذن الله ثم ليأتوه أجمعين.

فقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ ـ في الكلام محذوف، والتقدير: فلما خرجوا من عند يعقوب وتوجهوا إلى مصر ودخلوا علىٰ يوسف. ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ـ يعنون من الجَدْب والقحْط وقلة الطعام.

وقوله: ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ ـ قال ابن إسحاق: (وخرجوا إلى مصر راجعين إليها، ﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، أي: قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به، إلا أن يتجاوز لهم فيها، وقد رأوا ما نزل بأبيهم، وتتابَعَ البلاء عليه في ولده وبصره، حتىٰ قدموا على يوسف. فلما دخلوا عليه قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾، رَجَاةَ أن يرحمهم في شأن أخيهم، ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾).

وعن ابن عباس: (﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، قال: رَدِيَّةٍ زُيُوفٍ، لا تنفق حتىٰ يوضَعَ منها). أو قال: (رَثَّـةُ المتاع، الحبلُ والغرارةُ والشيء). أو قال فيها: (كاسدة غير طائل). وعن مجاهد: (﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾، قال: قليلة). وقال الضحاك: (كاسدة، لا تنفق). وقال قتادة: (يسيرة).

وأصل الإزجاء: السَّوْق بدفع. قال القرطبي: (والمعنىٰ أنها بضاعة تدفع، ولا يقبلها كل أحد). وقال ثعلب: (البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة).

قلت: والمقصود أنهم قدموا ليمتاروا بثمن طعام قليل.

وقوله: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ ـ قال ابن كثير: (أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فأوقِرْ ركابنا وتصَّدق علينا﴾). وعن ابن جريج: (﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾، قال: رُدَّ إلينا أخانا).

وقال سعيد بن جبير: (﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾، يقولون: تصدَّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوَّزْ فيها).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ـ يعني في الدنيا والآخرة. فهو سبحانه يثيب المتفضلين على أهل الحاجة بأموالهم.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك، أنه حَدَّث عن رسول الله ﷺ: [إنَّ الكافِرَ إذا عملَ حسنةً أُطعِمَ بها طُعمةً من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدّخِرُ له حسناته في الآخرة ويُعقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا، على طاعته][1].

وقوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ـ قال القرطبي: (استفهام بمعنىٰ التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: 15] الآية).

وعن ابن إسحاق قال: (ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام، غلبته نفسه، فارفَضَّ دمعه باكياً، ثم باح لهم بالذي يكتم منهم، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾).

وخلاصة المعنىٰ هي كما ذكر ابن كثير: (أنه لما ذكر له إخوتُه ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعُموم الجَدْب. وتذكَّر أباه وما هو من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسَّعة، فعند ذلك أخذته رِقَّةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقة على أبيه وإخوته، وبَدَرَه البكاءُ، فتعرَّف إليهم، يقال: إنه رفع التاجَ عن جبهته، وكان فيها شامةٌ، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾).

وقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ ـ أي: بإثم العمل الذي أقدمتم عليه وتبعاته.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

قال ابن إسحاق: (لما قال لهم ذلك، يعني قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، كشف الغِطاء فعرفوه، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ...﴾، الآية).

قال ابن جرير: (﴿وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾، بأن جمع بيننا بعد ما فرقتم بيننا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) (56) (57)، كتاب صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنه من يجمع بين التقوىٰ والصبر على المحن وعلى طاعة الله فإن الله يحفظ ذلك له، ويبادله بالإحسان الإحسان.

قال مجاهد: (﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾، يقول: من يتق معصية الله، ويصبر على السجن).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

هو اعتراف إخوة يوسف له بالفضل والرفعة والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق، والسَّعة، والملك، والتصرف والنبوة. قال قتادة: (﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، وذلك بعدما ما عرَّفهم أنفسهم. يقول: جعلك الله رجلاً حليماً).

وعن السدي قال: (لما قال لهم يوسف: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾، اعتذروا إليه وقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، فيما كنا صنعنا بك).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: (﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم).

وعن السدي قال: (اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، يقول: لا أذكر لكم ذنبكم). قال ابن جرير: (يقول: لا تعيير عليكم، ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو).

قال ابن كثير: (يقول: لا تأنيبَ عليكم ولا عَتْب عَليكُم اليوم، ولا أُعِيدُ ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

قال السدي: (قال لهم يوسف: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن. قال: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾).

قلت: وهذا بلا شك من النبوة، فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ كان قد عمي من كثرة

البكاء ، فأمر يوسف ـ عليه السلام ـ إخوته بإلقاء قميصه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره بإذن الله ، كما أمرهم بإحضار جميع أهلهم إليه لتتم الآية ويحصل تأويل الرؤيا .

94 ـ 98. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾.

في هذه الآيات: شُعورُ يعقوب عليه السلام بريح يوسف عند قدوم العير ، واستِنكارُ الأولاد شعور أبيهم ، وتصديقُ الشعور بإلقاء البشير القميص على وجه يعقوب وعودته بصيراً ، واعترِافُ الأبناء أمام أبيهم راجين عفوه وصفحه عنهم ، واستِغفارُ يعقوب ربه تعالىٰ لأبنائه والله هو الغفور الرحيم .

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

قال ابن عباس : (هاجت ريح فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال) .

أي : لما خرجت عير بني يعقوب من عند يوسف متوجهة إلى يعقوب قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام : ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

وعن مجاهد : (﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾. قال: تُسَفِّهون). وقال الحسن : (تُهَرِّمون). وقال الضحاك : (تكذبون) : والتفنيد : الإفساد ، فيدخل في مفهومه الضعف والهرم والكذب وذهاب العقل .

وقوله تعالى : ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قال ابن عباس : (يقول : خطئك القديم). وعن قتادة : (أي : من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه . قالوا لوالدهم كلمةً غليظة ، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله ﷺ). وعن ابن إسحاق قال : (﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ ، أي : إنك لمن ذكر يوسف في الباطل الذي أنت عليه) .

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ٱلْبَشِيرُ﴾: البريد). والمقصود: لما جاء البشير من عند يوسف، وهو المبشِّر برسالة يوسف، فوصل إلى يعقوب فألقىٰ القميص على وجهه فارتد بصره بإذن الله. فعندها قال يعقوب لبنيه: ألم أقل لكم إني أعلم من الله أنه سيردّ عليّ يوسف وستنكشف القصة ويظهر أمر الرؤيا. قال ابن جرير: (لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد قضىٰ أن أخِرَّ أنا وأنتم له سجوداً، فكنت موقناً بقضائه ـ يقول يعقوب).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: فلما أبصر بنو يعقوب المشهد أمامهم، أيقنوا أن الله تعالىٰ قد كشف الأمر وأعز يوسف عليه الصلاة والسلام، فعندئذ طلبوا من أبيهم أن يَسأل ربه تعالىٰ ليعفو عنهم ويستر عليهم ذنوبهم التي كانوا أذنبوها في حق يعقوب أبيهم وابنه يوسف أخيهم، فلا يعاقبهم بها يوم القيامة، وهاهم يعترفون بذنبهم ويقرون بما صدر منهم. فأجابهم يعقوب عليه السلام إلى طلبهم: أن سوف أسأل ربي عز وجل أن يعفو عنكم ويصفح عن ذنوبكم، إنه هو الغفور الرحيم.

99 ـ 100. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

في هذه الآيات: قُدُومُ موكب يعقوب عليه الصلاة والسلام وزوجته ـ أم يوسف ـ، وبنيه بلادَ مصر، للقاء يوسف عليه الصلاة والسلام، وقد كان حمَّل إخوته الأمر أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحمَّلوا عن آخرهم وترحّلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف ـ عليه السلام ـ باقترابهم خرج هو والملك لتلقي نبي الله

يعقوب ﷺ. وقد أمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج والمشاركة باستقبال موكب والدي يوسف وعائلته ، فكان الاستقبال الرائع من يوسف لأبويه ودخلوا مصر بإذن الله آمنين. ورفع يوسف أبويه على سريره وخرّوا له سجداً ، وأخبرهم حصول تأويل رؤياه في هذا المشهد الرهيب بعد رحلة شاقة طويلة بين السجن والغربة وفراق الأبوين ونزغ الشيطان بينه وبين إخوته ، والله لطيف في تقديره وهو العليم الحكيم.

فعن السدي قال: (فحملوا إليه أهلهم وعيالهم ، فلما بلغوا مصر ، كَلَّم يوسف الملك الذي فوقه ، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم ، فلما بلغوا مصر قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾).

وعن ابن إسحاق: (﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ، قال: أباه وأمه).

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ـ قال ابن كثير: (ما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ ، وضمَّنه: اسكنوا مصر؟ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ، أي: مما كنتُم فيه من الجَهْد والقَحْطِ ، ويُقال ـ والله أعلم ـ إن الله تعالىٰ رَفَع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قُدوم يعقوب عليهم. كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يوسف»[1] ، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعُوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك ، فدعا لهم ، فَرُفِعَ عنهم بقيةُ ذلك ببركة دعائه عليه السلام).

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

قال مجاهد: (العرش: السرير). وقال ابن زيد: (﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، قال: مجلسه). والمقصود أن يوسف رفع أبويه على السرير ، أي: أجلسهما معه على سريره. وعن ابن عباس: (﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ ، يقول: رفع أبويه على السرير وسجدا له ، وسجد له إخوته).

وقال ابن إسحاق: (تحمّل ـ يعني يعقوب ـ بأهله حتىٰ قدموا على يوسف ، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه ، دخلوا على يوسف ، فلما رأوه وقعوا له سجوداً ، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان ، أبوه وأمه وإخوته).

قال ابن كثير: (وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سَلّموا على الكبير يسجُدون له ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1007) ، (1020) ، ومسلم (2798) ح (40) ، وأحمد (1/ 380) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدمَ إلى شريعة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ فحرَّم هذا في هذه الملة ، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالىٰ. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث ، أن معاذاً قدِمَ الشام فوجَدَهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجَعَ سَجَدَ لرسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجُدون لأساقفتهم ، وأنت أحق أن يُسجدَ لك يا رسول الله! فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ الزوجة أن تسجُدَ لزوجها من عِظَم حَقِّه عليها»[1]).

وقوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ .

قال يوسف لأبيه: يا أبت ، هذا ما آلت إليه رؤياي أيام الصبا ، حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر كلهم لي ساجدون ، فهو هذا السجود الذي سجدت أنت وأمي وإخوتي لي ، فقد حقّقها ربي عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ .

قال قتادة: (وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان ، أهل مواشٍ وبرّية).

وقال ابن جريج: (كانوا أهل بادية وماشية ، وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبات من أرض فلسطين ، من غور الشام ، قال: وبعضٌ يقول: كانوا بالأولاج من ناحيةِ شِعْبِ أسفلَ من حُسْمىٰ ، وكانوا أصحاب باديةٍ وشاءٍ وإبل).

والخلاصة: يتذكر يوسف عليه الصلاة والسلام نعم الله عليه إذ أخرجه من السجن وعزّزه وكرّمه ، وحمل إليه أهله من البادية ليرونه على أحسن حال ، وفي أبّهة الملك والسلطان ، ومع ذلك فهو يملك نفساً عالية رفيعة بعيدة عن أحوال الملوك والسلاطين وما يعتريهم من الكبر والعجب ، وهو اليوم يصفح عن إخوته ولا يشمت بهم ولا يجرح مشاعرهم بل يقول: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

قال النسفي: (ولم يذكر الجُبَّ لقوله لا تثريب عليكم اليوم ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسد بيننا وأغرىٰ ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيف

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2322) ، والبغوي في «التفسير» (587) من حديث معاذ بن جبل ، وأخرجه ابن ماجة (1853) ، وأحمد (4/ 381) ، وابن حبان (4171) من حديث ابن أبي أوفىٰ.

التدبير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف).

101. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

في هذه الآية: التِجاءُ يوسف عليه الصلاة والسلام إلى ربه بالدعاء بعد تمام نعمه سبحانه عليه، من قوة السلطان وحسن التمكين، وتأويل الأحلام للسائلين، والحكم والعلم والنبوة، ليتم نعمته عليه بحسن الختام، والوفاة على الإيمان، واللحوق بالصالحين.

فعن مجاهد: (في قوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، قال: العِبارة).

وعن الضحاك يقول: في قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يقول: (توفني على طاعتك، واغفر لي إذا توفيتني).

قال ابن جرير: (قال يوسف: بعدما جمع الله له أبويه وإخوته، وبسط عليه من الدينا ما بسط من الكرامة، ومكنه في الأرض، متشوِّقاً إلى لقاء آبائه الصالحين: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، يعني: من ملك مصر، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، يعني من عبارة الرؤيا، تعديداً لنعم الله عليه، وشكراً له عليها، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: يا فاطر السماوات والأرض، يا خالقها وبارئها، ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، يقول: أنت وليي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء بنصرك، وتغذوني فيها بنعمتك، وتليني في الآخرة بفضلك ورحمتك، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾، يقول: اقبضني إليك مسلماً، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك).

قلت: وليس في الآية ما يدل على تمني يوسف الموت، أو أنه أول من تمناه من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، بل غاية المعنىٰ أنه يسأل حسن الختام، والوفاة على الإيمان، وأن يلحقه الله تعالىٰ عند وفاته بآبائه الصالحين.

وقد جاءت سنة نبينا محمد ﷺ بآفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : [لا يَتَمَنَّيَنَ أحدُكمُ الموتَ لِضُرٍّ نزلَ به ، فإن كانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّياً فليَقُل: اللهم أَحْيِني ما كانت الحياةُ خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي][1] .

الحديث الثاني: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أم الفضل رضي الله عنها: [أنّ رسولَ الله ﷺ دخل عليهم ، وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكي ، فتمنىٰ عباس الموت ، فقال له رسول الله ﷺ: يا عم! لا تتمن الموت ، فإنك إن كنت محسناً ، فأن تؤخر تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك ، وإن كنت مسيئاً فأن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك ، فلا تتمنّ الموت][2] .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وأحمد من حديث معاذ وابن عباس ـ في قصة المنام ـ والدعاء الذي دعا فيه النبي ﷺ مما علّمه الله تعالىٰ وقال له: [يا محمدُ! إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعلَ الخيرات ، وتركَ المنكراتِ ، وحُبَّ المساكين ، وأن تغفرَ لي ، وترحمني ، وتتوبَ عليَّ ، وإذا أردتَ بعبادك فتنةً فاقبضني إليك غيرَ مفتون][3] .

102 ـ 107. قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن ما قصّه عليه في هذه السورة من أنباء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6351) ـ كتاب الدعوات ، ومسلم (2682) ، وأبو داود (3109). وأخرجه أحمد في المسند (2/ 514) ، والنسائي (4/ 3) ، وابن ماجة (4265) من طرق.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 339) ، والبيهقي (3/ 377) ، وهو على شرط الإمام البخاري.

(3) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (3235) ، ومسند أحمد (5/ 243) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (59) ، وصحيح سنن الترمذي (2580) ـ (2582).

الغيب إنما هو لتثبيته على الصراط فيما يلاقيه من أذىٰ قومه وتكذيبهم ، وبأن المكر سيرجع على المكرة بالنكال والوبال. إنَّ أكثر الناس لا يفيدون من آيات الله في هذا الكون الفسيح بل يعيشون مستكبرين مشركين. فهل أمنوا مكر الله وعذابه أو الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون؟!

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه ، ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه لنثبّتَ به فؤادك ، ونشجع به قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذىٰ من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله ، إذ صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعُرْف ، وأعرضوا عن الجاهلين ، فازوا بالظفر ، وأيّدوا بالنصر ، ومُكّنوا في البلاد ، وغلبوا من قَصدوا من أعدائهم وأعداء دين الله).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ـ قال ابن عباس: (هم بنو يعقوب). وقال قتادة: (يقول: ما كنت لديهم وهم يلقونه في غَيَابَةِ الجب).

والمعنىٰ: ما كنت يا محمد حاضراً عند إخوة يوسف ، حين عزموا على إلقاء يوسف في غيابة الجب واجتمعت آراؤهم على ذلك المكر ، ولكن أعلمناك به وحياً أنزلناه إليك. وفي التنزيل نحو هذا كثير:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: 44].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: 46].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: 69 ـ 70].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قال النسفي: (أراد العموم أو أهل مكة ، أي: وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم). وقال ابن كثير: (يقرر تعالىٰ أنه رسُوله ، وأنه قد أطلعه على

أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاةٌ لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس).

قلت: والآية في ذم الكثرة الضائعة ، فإن القلة المؤمنة ممدوحة وعليها يعول. وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 8].

وفي صحيح مسلم عن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرُّهم مَنْ خَذَلَهم أو خالفهم ، حتىٰ يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

أي: وإنك لا تسألهم ـ يا محمد ـ على دعوتك لهم ونصحك لنجاتهم في الدنيا والآخرة أجراً أو مالاً ، وإنما تبتغي من وراء ذلك رضوان الله ، وإن هو إلا ذكر لهم ليتذكروا ويتعظوا وليكونوا من الناجين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي: وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السماوات: من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض: من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قال ابن عباس: (من إيمانهم ، إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله» ، وهم مشركون). وقال عكرمة نحوه: (فذلك إيمانهم بالله ، وهم يعبدون غيره). وعن قتادة قال: (إنك لست تلقىٰ أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه ، وهو الذي خلقه ورزقه ، وهو مشرك في عبادته).

وعن الضحاك قال: (كانوا يشركون به في تلبيتهم). وعن ابن عباس: (ولئن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1037) ـ كتاب الإمارة ـ ، وانظر (1921) ، (1923) من الباب نفسه.

سألتهم: من يرزقكم من السماء والأرض؟ ليقولن: الله. وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ، ويسجدون للأنداد دونه).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كان المشركون يقولون: لَبَّيْكَ لا شريك لك ، قال فيقول رسول الله ﷺ: وَيْلَكُمْ! قَدْ قَدْ[1] ، فيقولون: إلا شريكاً هو لك ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ، عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظمُ عند الله؟ قال: أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك ، ـ قلت: إن ذلك لعظيم ـ ، قلت: ثم أيّ؟ قال: وأنْ تقتلَ ولدك تخافُ أن يطعمَ معك ، قلت: ثم أيُّ؟ قال: أن تُزانيَ حليلةَ جارك][3].

الحديث الثالث: أخرج الحكيم الترمذي ونحوه أبو يعلىٰ بسند جيد في الشواهد عن أبي بكر مرفوعاً: [الشِّرك فيكم أخفىٰ من دبيب النَّمل ، وسأدلك على شيء إذا فعلتهُ أذهب عنكَ صغارَ الشركِ وكبارَه ، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشركَ بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم][4].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي من حديث ابن عمر مرفوعاً: [من حلف بغير الله فقد أشرك][5].

الحديث الخامس: أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [إن الرُّقى والتمائم والتولة شرك][6].

---

(1) أي كفاكم فاقتصروا عليه.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1185) ـ كتاب الحج ـ باب التلبية وصفتها ووقتها.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477) ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة ، آية (22).
(4) صحيح لشواهده. أخرجه الحاكم الترمذي من حديث أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً. انظر مجمع الزوائد (10/ 224) ، وفتح المجيد (83) ، وصحيح الجامع (3625).
(5) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1535) ، وأحمد (2/ 34 ، 87 ، 125) ، وأبو داود (3251).
(6) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3883) ، وأحمد (1/ 381) ، وابن ماجة (3530) ، والبيهقي (9/ 350). وفي لفظ عند أحمد: [الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل].

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ، قال: تغشاهم). وقال قتادة: (أي: عقوبة من عذاب الله). أو قال: (وقيعة تغشاهم من عذاب الله).

والمقصود: هل أمن هؤلاء المشركون أن يغشاهم عذاب قريب من الله فيهلكهم أو تأتيهم القيامة فجأة وهم مقيمون على جحودهم وشركهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 45 ـ 47].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 97 ـ 99].

أخرج أبو نعيم والبزار عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنْته يوم أجمع عبادي][1].

108 ـ 111. قوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98)، ورواه البزار كما في «المجمع» (10/ 308). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4208).

وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

في هذه الآيات: خاتِمةٌ رائِعةٌ في أعقاب أحداث هذه السورة الكريمة، فيها تأكيدٌ على وجوب لزوم منهاج النبوة في الدعوة إلى الله والصبر على الأذى، ودعوة الناس للاعتبار بقصص القرآن والاستعداد للآخرة، وتأكيدٌ على النصر والتمكين للرسل وأتباعهم في نهاية الرحلة والمجاهدة للمعاندين والمستكبرين والمجرمين. إن في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب وتأكيد على ثوابت المنهج وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون.

فعن الربيع بن أنس قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، قال: (هذه دعوتي). وقال ابن زيد: (هذا أمري وسنتي ومنهاجي). قال النسفي: (﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾: هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي. والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان).

وقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ـ أي: أدعو إلى الدين الحق على حجة واضحة وبرهان ساطع، فهو شأني وشأن من سار على منهجي واتبع أثري.

قال ابن زيد: (وحقٌّ والله على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكّر بالقرآن والموعظة، وَينْهى عن معاصي الله).

فإن كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، فهو دليل علىٰ أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم ـ ذكره العلامة ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ثم قال: (وكلا المعنيين حق) ـ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. ـ قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: وَأُنَـزِّه الله وأُجِلُّهُ وأُعَظِّمُه وأقدِّسُه، عن أن يكون له شريكٌ أو نظير، أو عديل أو نديدٌ، أو ولدٌ أو والدٌ أو صاحبةٌ، أو وزيرٌ أو مُشيرٌ، تباركَ وتقدّسَ وتنزَّهَ تعالىٰ عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44]).

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾. ـ قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وما أرسلنا، يا محمد، من قبلك إلا رجالاً، لا نساءً ولا ملائكة). قال ابن عباس: (﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم). وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: 20].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: 8 ـ 9].

وقوله: ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾. ـ أي: نوحي إليهم آياتنا الدالة على إفراد الله بالدعاء والتعظيم، وهم من أهل الأمصار دون البوادي.

والقرىٰ: جمع قرية، وهي لغة: المصر الجامع. لأن القرية كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً، والمراد هنا المدن دون البوادي، فأهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل البادية الذين يغلب عليهم الجفاء لتأثرهم بقسوة الريف والسواد.

وعن قتادة: (﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العَمود[1]).

وفي التنزيل: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: 97].

أخرج الإمام أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ سَكَنَ البادية جَفَا، ومن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، ومن أتىٰ السلطان افتُتِنَ][2].

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

قال ابن جريج: (﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾، من أهلكنا؟ قال لقريش: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا في آثارهم، فيعتبروا ويتفكروا؟).

وقوله: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

قال القرطبي: (والمراد بهذه الدار الجنة، أي: هي خير للمتقين. وقُرِئ: ﴿وللدّار الآخِرة﴾. وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر).

---

(1) أهل العمود: هم أهل البادية، والمراد بالعمود الخشبة القائمة وسط الأخبية والخيام، وهي بيوت أهل البوادي، ولذلك سمي أهل البادية أهل العمود.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2859) ـ كتاب الصيد ـ باب في اتباع الصيد، وانظر صحيح سنن أبي داود (2486)، ورواه أحمد وبعض أهل السنن، انظر صحيح الجامع (6172).

وقال القاسمي: (﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تستعملون عقولكم، فتعلموا أن الآخرة خير، أو تعلموا كيف عاقبة أولئك).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: 51 ـ 52].

وأضاف الدار إلى الآخرة نحو قولك صلاة الأولىٰ، ومسجد الجامع، وبارحة الأولىٰ. والتقدير على قول البصريين: ولدار الحال الآخرة خير، ولا شك أن المقصود الجنة.

وفي صحيح البخاري عن جابر قال: [جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقالوا: مثله مثل رجل بنىٰ داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوِّلوها له يفقهها. فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. الدار الجنة، والداعي محمد. فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصىٰ محمداً فقد عصىٰ الله، ومحمد فرَّق بين الناس][1].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ أنه ينزل نصره وفرجه على رسله حالة اشتداد الضيق وحصول العنت، وتطلع القلوب المؤمنة إلى الله بالفرج واليسر بعد العسر.

وفي قوله ﴿كُذِبُواْ﴾ قراءتان:

1 ـ القراءة الأولىٰ بالتخفيف، ﴿كُذبوا﴾ وهي قراءة ابن عباس، وأهل المدينة والكوفة.

2 ـ القراءة الثانية بالتشديد، ﴿كُذِّبوا﴾، وهي قراءة عائشة رضي الله عنها، وأهل الشام.

فعلىٰ القراءة الأولىٰ يكون التأويل على عدةأقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومُهم، وظنَّ قومهم أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (7281)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/ 782 ـ 783) لمزيد من التفصيل.

الرسل قد كَذَبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ، فننجّي من نشاء).

2 ـ قال ابن زيد: (استيأس الرسل أن يؤمن قومهم بهم ، وظنّ قومهم المشركون أن الرسل قد كَذَبوا ما وعدهم الله من نصره إياهم عليهم ، وأخْلِفُوا ، وقرأ: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ، قال: جاء الرسلَ النصرُ حينئذٍ. قال: وكان أبيّ يقرؤها: ﴿كُذبوا﴾).

3 ـ قال ابن جريج: (أخبرني ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قرأ: ﴿وظنوا أنهم قد كُذبوا﴾ ، خفيفة ، قال ابن جريج: أقول كما يقول: أخْلِفوا. قال عبد الله: قال لي ابن عباس: كانوا بشراً. وتلا ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214] ، قال ابن جريج: قال ابن أبي مليكة: ذهب بها إلى أنهم ضَعُفوا فظنوا أنهم أخْلِفوا).

وعلى القراءة الثانية يكون التأويل:

4 ـ قال قتادة: (حتىٰ إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا أنهم قد كُذِّبوا ، أي: استيقنوا أنه لا خير عند قومهم ولا إيمان ، ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾).

5 ـ أخرج البخاري في صحيحه عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة: أنه سأل عائشة رضي الله عنها زوجَ النبي ﷺ: أرأيتِ قولَ الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ أو كُذِّبُوا؟ قالت: بل كَذَّبهم قومهم ، فقلتُ: واللهِ لقد استيقنوا أنَّ قومهم كذَّبوهم وما هو بالظَّن ، فقالت: يا عُرَيَّةُ ، لقد استيقنوا بذلك ، قلتُ: فَلَعلَّها أوْ كُذِبُوا ، قالت: معاذَ اللهِ ، لم تكن الرسلُ تظُنُّ ذلك بِرَبِّها ، وأما هذه الآية قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وَصَدَّقوهم وطالَ عليهم البلاءُ واستأخرَ عَنْهم النَّصْرُ حتىٰ إذا استَيْأسَتْ ممّن كَذَّبَهُمْ منْ قومهم ، وظنوا أن أتباعهم كذَّبوهم جاءهم نصر الله][1].

قال القرطبي: (﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ ـ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عمّا لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يَزِلَّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنىٰ: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يئسوا من إيمان قومهم. ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ بالتشديد ، أي أيقنوا أن قومهم كَذَّبوهم. وقيل المعنىٰ: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذَّبوهم ، لا أنَّ القوْمَ كَذَّبوا ، ولكن الأنبياء ظنوا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3389) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ وانظر (4695) ـ كتاب التفسير ـ.

وحسِبوا أنهم يُكذِّبونهم ، أي: خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك).

قلت: فالراجح في تأويل الآية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: من إيمان أقوامهم بعدما ظهر إصرارهم وعنادهم ، ثم ـ على القراءة الأولىٰ ـ: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِبوا﴾ بالتخفيف ، أي: أوشكوا على الضعف حتىٰ خطر في قلوبهم ما خطر لتأخر النصر عنهم ، وعلى ـ القراءة الثانية ـ بالتشديد: ﴿وظنوا أنه قد كُذِّبوا﴾ ممن تابعوهم لشدة المحنة عليهم فهنالك: ﴿ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ .

وفي السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تجاوز عن أمتي ما حَدَّثت به أنْفُسها ما لم تَعْمَلْ أوْ تتكلم][1] .

قال قتادة: (إذا طَلَّقَ في نفسه فليس بشيء).

وفي لفظ: [إن الله تجاوز لي عنْ أمتي ما وسوسَتْ به صُدورها ما لم تَعْمل أو تَتكلَّم].

الحديث الثاني: أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمي في «الفردوس» ، بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْر مع الصَّبر ، والفرج مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][2] .

وقوله: ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ .

قرأ عامة قراء المدينة ومكة والعراق: ﴿فَنُنْجي من نشاء﴾ مُخَفَّفة بنونين ، والقراءة بالإدغام لبعض الكوفيين. والمعنىٰ: فننجي الرسل ومن نشاء من المؤمنين حين يجيء نصرنا ، ولا رادّ لعقوبتنا وبطشنا عن أهل الكفر ومعاندة الرسل.

قال ابن عباس: (﴿فننجي من نشاء﴾ ، فننجي الرسل ومن نشاء ، ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ ، وذلك أن الله تبارك وتعالىٰ بَعَث الرسل فدعوا قومهم ، وأخبروهم أنه من أطاع نجا ، ومن عصا عُذِّبَ وغَوَىٰ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5269) ـ كتاب الطلاق ـ وكذلك (2528) ـ كتاب العتق.

(2) رجاله ثقات. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، وله شواهد عند الحاكم (3/ 541) ، وأبي نعيم في «الحلية» (1/ 314) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2382) ، وقال: الحديث صحيح.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قال مجاهد: (﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، ليوسف وإخوته). قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾، أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفترىٰ من دون الله، أي: يُكذَّب ويُختَلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكتب المُنَزَّلة من السماء، وهو يُصَدِّقُ ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنَّسْخِ أو التقرير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبّات، والنهي عن المحرّمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور علىٰ الجَلِيَّةِ، وعن الغُيُوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرّبِ تبارك وتعالىٰ بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مُمَاثلة المخلوقات).

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال النسفي: (﴿وَهُدًى﴾ من الضلال، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وأنبيائه).

وقال القاسمي: (﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويعملون بأوامره، فإن الإيمان قول وعَقْدٌ وعمل. وخصّهم لأنهم المنتفعون به).

تمّ تفسير سورة يوسف
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه
فله الحمد أولاً وآخراً

❑ ❑ ❑

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ القرآن أعظم كتاب ، نزل بأشرف لغة على أشرف رسول .

2 ـ المرأة عورة ، والنساء أشد فتنة في هذه الدنيا على الرجال .

3 ـ السجن أحب إلى المؤمن من الوقوع في الفاحشة أو ما يسخط الله .

4 ـ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

5 ـ يوسف ﷺ يقدم دعوة التوحيد على تعبير الرؤيا في السجن .

6 ـ الشيطان أنسىٰ ساقي الملك ذكر يوسف عنده، والأصل اللجوء إلى الله تعالىٰ بالدعاء .

7 ـ تمكين الله يوسف في الأرض جزاء صبره وعفته ، وكل من يخلص التقوىٰ لله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

8 ـ سعة عقل المؤمن وقوة محاكمته ، وإن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم .

9 ـ كان سجود التحية مشروعاً ، فنسخته شريعة الإسلام .

10 ـ الدعاء بالموت على النفس منسوخ بشريعتنا .

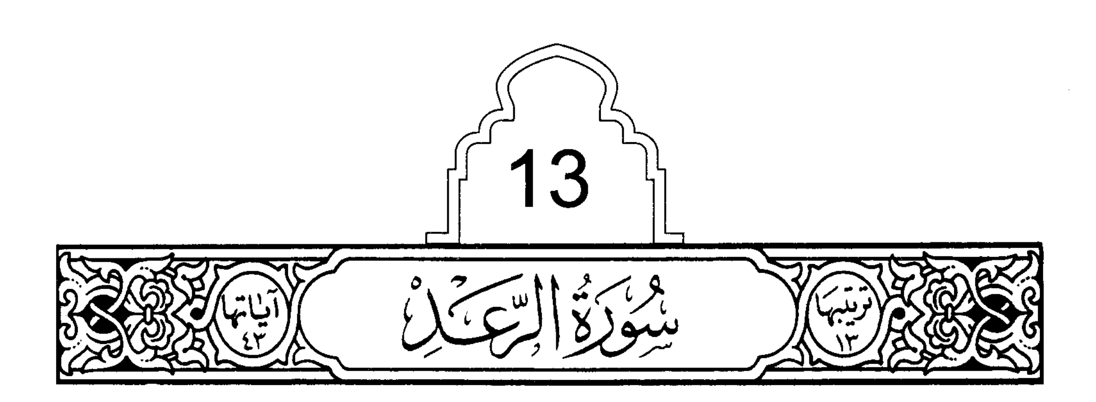
11 ـ قصة يوسف قصّها الله تسلية لمحمد ـ عليه وعلى الأنبياء الصلاة والسلام ـ وهي عبرة للناس إلى يوم القيامة .

12 ـ القلة المؤمنة أقوىٰ من الكثرة الكافرة ، والكثرة غالباً في موضع الذم ، والشرك أخفىٰ من دبيب النمل .

13 ـ الأنبياء رجال من البشر لا ملائكة ولا من النساء .

14 ـ النصر لفئة الحق حتمي ، وقد يتأخر النصر حتىٰ يظن الرسل أن أتباعهم كذبوهم .

15 ـ القرآن أصول في الإيمان ، وشرائع وأحكام ، وأخبار للاعتبار على مدار الأيام .



وهي سورة مكية مدنية ، فيها المدني وفيها المكّي ـ جمعاً بين أقوال أهل التأويل ـ ، وعدد آياتها (43) .

موضوع السورة

ـ تخويف الله عباده ببديع قدرته ومخلوقاته ـ
«والرعد مَلَكٌ من جند الله»

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالىٰ لهذا القرآن ، واستواؤه تعالىٰ على العرش بلا تكييف ولا تمثيل ولا تجسيم .

2 ـ المخلوقات الكبيرة في هذا الكون تدعو إلى التفكر والاعتبار ، والإخبات للجبار .

3 ـ عجب الله تعالىٰ من تكذيب المشركين بالمعاد ، والمكذبون هم وقود النار .

4 ـ استعجال المشركين العذاب ، وتنطعهم بطلب المعجزات للسخرية لا للإيمان .

5 ـ تأكيد علم الله تعالى الغيب وبما في داخل الأرحام ، وتسخيره الملائكة لحفظ الأنام .

6 ـ لا يغير الله حال قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وعقوبة الله نازلة بالكافرين ولا ناصر لهم .

7 ـ تخويف الله عباده ببعض آياته ، كالبرق والرعد والصواعق ليفردوه بالعبادة والتعظيم ، فله يسجد ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

8 ـ الإيمان بالربوبية يقتضي الإيمان بالألوهية ، ولا يملك ما يُعبد من دون الله كشف الضر ولا جلب النفع ، والحق له البقاء والنصر ، والباطل له الفناء والذل.

9 ـ الخلود في الجنان لأهل الإيمان ، ولافداء من العذاب لأهل الكفر والطغيان ، ولا يستوي الأعمىٰ والبصير ، وإنما يتعظ أولو الألباب.

10 ـ أولو الألباب: هم أهل الوفاء بالعهد والميثاق ، وأهل الوصل والخشوع والصبر وإقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، ومتابعة السيئات بالحسنات ، أولئك يدخلون ويستقرون في الجنات ، ومن تبعهم من الذرية والزوجات.

11 ـ أهل النفاق: هم أهل نقض العهد وتقطيع ما أمر الله بوصله ، وأهل المكر والفساد في الأرض ، وأهل الفرح بهذه الحياة الدنيا ، ولهم في الآخرة سوء الحساب والعقاب.

12 ـ تَنَطُّعُ المشركين بطلب المعجزات ، والإيمان نور يقذفه الله في القلب ، وبذكره تعالىٰ تطمئن القلوب ، والمؤمنون لهم البشرىٰ والكرامة في الدارين.

13 ـ تسلية الله نبيه بوصله بسلسلة النبوة ومنهاج المرسلين ، والقوارع لا تزال تنزل بالمشركين ، حتىٰ يأتي الله بالنصر المبين.

14 ـ الله تعالى هو القائم على كل نفس بأرزاقها وأجلها وأعمالها ، وآلهة المشركين هزيلة مهزومة ، والمشركون في عذاب السعير.

15 ـ فرح الصحابة بهذا القرآن ، ومن أهل الكتاب من ينكر بعضه ظلماً وزوراً ، وتحذير الله نبيّه من متابعة أهل الأهواء.

16 ـ بشرية الرسل ، والمعجزات بيد الله ، وهو تعالىٰ ينسخ الشرائع بحكمته وعنده أم الكتاب.

17 ـ تهديد المشركين وتوعد لهم بأن الفتح سينال قريباً أرضهم.

18 ـ إحاطة الله بمكر الطغاة في الأمم ، وسيعلم الكفار لمن عقبىٰ الدار.

19 ـ لا يزال الكفار يكذبون بالنبوة ، وكفىٰ بالله شهيداً على رسله.

20 ـ علماء أهل الكتاب يقرون بالنبوة لرسولنا ﷺ بما يجدونه في كتبهم.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

1 ـ 4. **قوله تعالى**: ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: انتصار للقرآن الكريم، نزّله الله على محمد ﷺ خاتم النبيين. إنه ـ تعالىٰ ـ الذي رفع السماوات بغير عمد ثم استوىٰ على العرش وسخر الشمس والقمر، يدبر الأمر ويفصل الآيات، وقد مهّد الأرض وجعل فيها الجبال الثوابت وأنشأ الأزواج من كل الثمرات، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات، وزروع ونخيل وطعوم متنوعات، كل ذلك آيات لقوم يؤمنون بلقاء ربهم ويستعدون لذلك ويتفكرون ويعتبرون.

فقوله: ﴿الٓمٓر ۚ﴾ ـ هو كما قيل في شأن الحروف المقطعة أوائل السور، والراجح أن ذكرها من باب الإعجاز والبيان، ليتجلىٰ عظمة ما بعدها من التنزيل.

وقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾. أي: هذه آيات هذا الكتاب المعجز، وهو القرآن العظيم. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ ـ قال مجاهد: (القرآن). وقال قتادة: (أي هذا القرآن). فهو عطف صفات على ما سبق ذكره.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وَصْفٌ لطبيعة الكثرة من الناس ، فالغالب من بني آدم على الشك واتباع الشهوات ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]. وكقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

قال ابن كثير: (﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرُهم لما فيهم من الشّقاق والعناد والنفاق).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

قال قتادة: (رفعها بغير عمد). والآية خبر من الله تعالىٰ عن عظيم قدرته وكمال سلطانه ، وأن السماوات قامت بأمره وبإذنه دون أعمدة.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ـ أي علا وارتفع سبحانه كما يليق بجلاله ، وهو غير محتاج إلى العرش ولا إلى الكرسي ، وإنما وصف العرش في القرآن كثيراً لأنه أعظم مخلوقاته. قال ابن جرير: (﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، فإنه يعني: علا عليه).

أخرج محمد بن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة](1).

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» ، بسند صحيح عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره](2).

وقوله: «﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾». قال القاسمي: (أي لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة). وقيل: المراد إلى مستقرهما تحت العرش.

قلت: ويُجمع بين التفسيرين ، بأن الله تعالىٰ أجرىٰ الشمس والقمر في السماء وسخّرهما لمصالح خلقه ، ليعلموا عدد السنين والحساب ، ويفصلوا به بين الليل والنهار ، ولكل منازل ، وكذلك بقية الكواكب ، وإنما ذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

(2) صحيح موقوف. انظر مختصر العلو ص (102) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/1161).

هذه الكواكب ، ويبقىٰ كل في حركته إلى أن يقلب الله نظام الكون مع قيام الساعة ، فتبدل الأرض والسماوات بعد أن تطلع الشمس من مغربها .

ففي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : 38] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 39 ـ 40] .

ومن السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث ، منها :

الحديث الأول : روىٰ مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أَنْسَهُ بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحا ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرىٰ على إثرها قريباً][1] .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم ـ أيضاً ـ عن أبي ذرٍّ : [أنَّ النبي ﷺ قال يوماً : أَتَدْرون أين تَذْهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن هذه تجري حتىٰ تنتهيَ إلى مستقرها تحتَ العرش ، فَتَخِرّ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتىٰ يُقالَ لها : ارْتفعي ، ارْجِعي من حيثُ جِئت فتَرْجع ، فتصبح طالعة من مَطْلَعِها ، ثم تجري حتىٰ تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخِرُّ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتىٰ يقال لها : ارتفعي ، ارْجِعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مَطْلَعِها ، ثم تجري لا يَسْتَنْكِرُ الناسُ منها شيئاً حتىٰ تنتهي إلى مستقرها ذلك تحت العرش فيقال لها : ارتفعي ، أصبحي طالعةً من مغربِك ، فتصبحُ طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ : أتدْرون متىٰ ذاكُم ؟ ذاك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : 158]][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (2053) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 1063) ـ بحث : علامات الساعة ـ لمزيد من التفصيل .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (159) ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان .

وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ يبين آياته في كتبه المنزلة: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾.

قال القرطبي: (لما بيّن آيات السماوات بيّن آيات الأرض، أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي جبالاً ثوابت، واحدها راسية، لأن الأرض ترسو بها، أي تثبت. ﴿ وَأَنْهَٰرًا ﴾ أي مياهاً جارية في الأرض، فيها منافع الخلق).

وقوله: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾. أي: من الذكور اثنان، ومن الإناث اثنتان.

قال ابن كثير: (وأجرىٰ فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوانِ والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كلِّ شكل صنفان).

وقوله: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾. قال قتادة: (أي يلبس الليل النهار).

قال ابن جرير: (يجلِّل الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه).

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

أي: إن في هذه العجائب من الخلق وتلك البدائع من التكوين لدلالات وعظات وحججاً لقوم يعتبرون فيستدلون على واجبهم نحو بارئهم عز وجل الذي أبدع كل شيء، فيفردوه بالعبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾. أي: متقاربات يجاور بعضها بعضاً، منها الطيبة الخصبة ومنها السبخة المالحة. ومن أقوال أهل التأويل:

1 ـ قال مجاهد: (السَّبَخَـة والعَذِيـة[1]، والمالح والطيب). أو قال: (سِبَاخٌ وَعَذَويّـة).

2 ـ وقال ابن عباس: (﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ ـ يعني الأرض السبخة،

(1) العذية: الأرض التربة الكريمة المنبت التي ليست بسبخة، والسَّبَخَة: المالحة.

والأرض العَذِية ، يكونان جميعاً متجاورات ، يُفَضِّل بعضها على بعض في الأكل). وقال: (العذية والسبخة ، متجاورات جميعاً ، تنبت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تُنْبت).

وقال أيضاً: (الأرض تنبت حُلواً ، والأرض تنبت حامضاً ، وهي متجاورة تسقىٰ بماءٍ واحد).

3 ـ وقال قتادة: (﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ ، قُرىً قرُبت متجاورات بعضها من بعض).

قال ابن كثير: (وكذا يدخل في هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض. فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه مُحْجَرةٌ ، وهذه سهلة ، وهذه مرمِلَةٌ ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ، فهذه بصفتها ، وهذه بصفتها الأخرىٰ ، فهذا كلُّه مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه).

قلت: ويؤيد هذا ما روىٰ أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خلق آدم من قُبْضَةٍ قَبَضها مِنْ جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض ، فجاء منهم الأحمرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبين ذلك ، والسَّهلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ][1].

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾. قرأها بالرفع أهل البصرة «وزرعٌ ونخيلٌ» عطفاً على الجنات ، والمعنىٰ: وفي الأرض قطعٌ متجاورات ، وجناتٌ من أعناب ، وفيها زرعٌ ونخيل.

وأما عامة قراء المدينة والكوفة فقرؤوها بالخفض: «وزرعٍ ونخيلٍ» ـ بالجر عطفاً على الأعناب ، والتقدير: وفي الأرض قطع متجاورات وجناتٌ من أعنابٍ ومن زرعٍ ونخيل. وكلاهما قراءتان مشهورتان متقاربتان في المعنىٰ.

وقوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾. أي: مجتمعة في أصل واحد ومتفرقة.

قال ابن عباس: (يعني بالصنوان: النخلة يخرج من أصلها النخلات ، فيحمل بعضه ولا يحمل بعضه ، فيكون أصله واحد ورؤوسه متفرقة). وقال البراء: (الصنوان:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 406) ، والترمذي (3143) ـ في التفسير ، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2355) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1630).

النخلتان أصلهما واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، النخلة والنخلتان المتفرّقتان). أو قال: (الصنوان: النخلة إلى جنبها النخلات، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، المتفرق).

والخلاصة: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في مَنْبَتٍ واحد، كالرّمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك، وغير الصِّنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ذكره ابن كثير وقال: (ومنه سُمِّيَ عم الرجل صِنْوُ أبيه. كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شَعَرْتَ أنّ عَمَّ الرجل صِنْوُ أبيه»).

وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾. قال مجاهد: (ماء السماء، كمثل صالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد). وقرأها عامة قراء المدينة والبصرة: «تسقىٰ» ـ أي الجنات والزرع والنخيل. وأما قراء الكوفة وبعض المكيين فقرؤوها بالياء: «يسقىٰ».

وقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

قال سعيد بن جبير: (الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثري والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملاً من بعض، وبعضه حلو وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض).

يروي الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال: [الدَّقَلُ، والفارِسيُّ، والحُلْوُ، والحامِضُ][1].

فاختلاف الأجناس من الثمرات والزروع في الأشكال والألوان، والروائح والطعوم، والأوراق والأزهار، والحلاوة والحموضة، والعذوبة والمرارة، كل ذلك آيات كبيرة تدل على قدرة الواحد الأحد، الذي فاوت بين خلق الأشياء وإظهارها، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ـ أي فيحملهم هذا التفكر والنظر على إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم.

5 ـ 7. قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في «التفسير». صحيح الترمذي (2493) ـ سورة الرعد ـ آية (4).

ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآيات: عَجَبُ الله تعالىٰ من تكذيب قومك ـ يا محمد ـ بالبعث بعد الموت بعد ذكر هذه الأمثال، وهؤلاء المكذبون هم وقود النار. إنهم يستعجلونك نزول العذاب بطراً واستكباراً، وقد خلت من قبلهم الأمثال الكثيرة عن أشباههم الذين دمرهم الله بالعذاب. إنهم يتنطعون بربط إيمانهم بالمعجزات وإنما أنت منذر ولكل قوم هاد.

وعن قتادة: (قوله: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾، إن عجبت، يا محمد، ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾، عجب الرحمن تبارك وتعالىٰ من تكذيبهم بالبعث بعد الموت).

وقال ابن زيد: (إن تعجب من تكذيبهم، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال، فأراهم من حياة الموتىٰ في الأرض الميتة، إن تعجب من هذه فتعَجَّب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾، أولا يرون أنا خلقناهم من نطفة؟ فالخلق من نطفة أشدُّ أم الخلق من تراب وعظام؟).

والخلاصة: إن خلق السماوات والأرض وما فيهما من بدائع وآيات أكبر من خلق الناس، فالعجب كل العجب من إنكار هؤلاء المشركين إعادة الله لهم ولأجسامهم للبعث بعد الممات.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: شتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، وكذّبني، وما ينبغي له أن يكذبني، أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الله الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه إياي، فقوله: ليس يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته].

وله شاهد من حديث ابن عباس ، ذكره البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكنْ له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأمّا تكذيبُه إياي فَزَعَمَ أني لا أقدِرُ أن أُعيدَهُ كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولدٌ ، فسبحاني أن أتّخذَ صاحبةً أو ولداً][1] .

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ ﴾ . أي: هؤلاء الذين أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب ، وعاندوا ما رأوا من قدرة الله تعالىٰ بغياً واستكباراً.

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ ﴾ ـ يقيدون بها في نار جهنم.

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . أي: وهم سكان النار يوم القيامة ماكثون فيها أبداً ، لا يخرجون منها ولا يموتون ، بل هم في شقاء مقيمون.

وقوله: ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾ .

قال قتادة: (وهم مشركو العرب ، استعجلوا بالشر قبل الخير ، وقالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأنفال: 32] ، ﴿ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾ ، وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم).

أي: يستعجل المكذبون بنزول العذاب بهم بطراً واستكباراً ، وقد علموا ما أوقع الله بمن مضىٰ من الأمم العاصية قبلهم ، وضرب لهم في هذا القرآن الأمثال الكثيرة عن أسلافهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 53 ـ 54].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [الشورى: 18].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: 16].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4482) ـ كتاب التفسير ـ وانظر روايات أخرىٰ في صحيح الجامع الصغير ـ (4199) ، (4203) ـ من حديث ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن ربك ، يا محمد ، لذو سِتر على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس ، فتاركٌ فضيحته بها في موقف القيامة ، وصافحٌ له عن عقابه عليها عاجلاً وآجلاً ، ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ، يقول: على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ، لمن هلك مُصِرّاً على معاصيه في القيامة ، إن لم يُعَجِّل له ذلك في الدنيا ، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة).

والآية تهديد ووعيد للكفار والمشركين إن لم يتوبوا من ظلمهم ويرجعوا إلى طاعة ربهم وعبادته. وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم][1].

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنَفَهُ[2] ويَسْتُرُه فيقول: أتعرف ذنبَ كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول نعم أي ربّ ، حتىٰ قَرَّرَهُ بذنوبه ، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك ، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾][3].

قلت: وقد قرن سبحانه في كثير من الآيات مغفرته وغضبه ، وعفوه وسخطه ، ليعتدل الرجاء والخوف في حياة عباده ، وليتنبه لذلك أولو الألباب. ومن ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49 ـ 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167].

وفي مسند البزار بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17) ، وأحمد في المسند (5/ 160).
(2) أي: حفظه وستره.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441) ، ومسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (2/ 74).
(4) حديث حسن. أخرجه البزار كما في «مجمع الزوائد» (10/ 308) ، وكذلك أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4208).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾.

أي: يريدون التعنت وربط الإيمان بالمعجزات الكونية والحجج والبراهين الحسية، كما سأل أهل مكة أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً.

وفي التنزيل: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: 59].

ثم يقول الله لنبيه: يا محمد، إنما أنت منذر تنذرهم بأس الله وعذابه أن يحل بهم إن أصروا على كبرهم وشركهم، ولكل قوم إمام يأتمون به، وهادٍ يتقدمهم فيهديهم إما إلى خير وإما إلى شر.

قال قتادة: (هذا قول مشركي العرب. قال الله: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾، لكل قوم داعٍ، يدعوهم إلى الله). وقال أبو العالية: (الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل). وقال عكرمة: (﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال: هو محمد ﷺ) وقال الضحاك: (المنذر: محمد ﷺ، والهادي: الله عز وجل). وقال مجاهد: (﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾، لكل قوم نبي، والمنذر محمد ﷺ).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ص: 65].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثلي ومثلُ ما بعثني الله كمثل رجل أتىٰ قوماً فقال: رأيتُ الجيشَ بعيني، وإني أنا النذير العُريانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ. فأطاعه طائفة فأدلجوا على مَهْلِهم فنَجَوْا، وكذَّبَتْهُ طائفة فَصَبَّحَهُم الجيش فاجتاحهم][1].

8 ـ 11. قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6482) ـ كتاب الرقاق ـ، باب الانتهاء عن المعاصي، ورواه مسلم في الصحيح (2283) ـ كتاب الفضائل ـ من حديث أبي موسىٰ.

تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ .

في هذه الآيات: تأكيدُ علم الله تعالىٰ بما في داخل الأرحام، وهو المتفرد بعلم الغيب والشهادة على مر الدهور والأيام. إنه ـ تعالىٰ ـ يعلم الجهر من القول وما خفي منه ومن جميع الأعمال الصالحة أو الآثام. له الملائكة المختصة بحفظ الأنام، إنه ـ تعالىٰ ـ لا يُغَيِّر ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد إنزال العقوبة بقوم فمالهم من ولي ولا ناصر يدفع بأسه عنهم.

فقوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ ـ يشمل كل إناث الخلق من الإنس والجن والبهائم وسائر الحيوانات. قال النسفي: (أي يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ ـ يشمل عدد الولد داخل الرحم وتمام المولود أو خداجه، ومدة الحمل وغير ذلك.

ومن أقوال أهل التأويل في هذه الآية:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾، يعني السِّقْط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: ما زادت الرَّحِمُ في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك بعلمه).

2 ـ قال مجاهد: (الغيض: الحامل ترى الدم في حملها فهو «الغيض»، وهو نقصانٌ من الولد. وما زاد على تسعة أشهر فهو تمام لذلك النقصان، وهي الزيادة).

وقال أيضاً: (﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾، قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: استمساك الدم). وقال: (﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾، إراقة المرأة حتىٰ يخِسَّ الولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: إن لم تُهرِق المرأةُ تَمَّ الولد وعَظُمَ).

3 ـ وكان الحسن يقول: («الغيضوضة»، أن تضع المرأة لستة أشهر أو لسبعة

أشهر ، أو لما دون الحدّ). قال قتادة: (وأما الزيادة فما زاد على تسعة أشهر).

قلت: وفي لغة العرب ـ غاض الماء أي قلَّ ونقص ، والغيض النقصان ، فقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ أي ما تنقص ، ويشمل ذلك السقط والدم النازل واكتمال جسد الجنين وأعضائه ، كل ذلك بعلم الله تعالى.

يروي البخاري في صحيحه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلمُ ما تغيضُ الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموتُ ، ولا يعلمُ متىٰ تقوم الساعة إلا الله][1].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أحدكم يُجْمَعُ في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثلَ ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يُبْعثُ إليه مَلَكٌ فيؤمَرُ بأربع كلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وعُمُرِه ، وعمله ، وشقيّ أو سعيد][2].

وفي لفظ لمسلم: [فيقول الملك: أي ربّ ، أذكر أم أنثىٰ ؟ أي ربِّ ، أشقيٌّ أو سعيدٌ ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك][3].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾. قال قتادة: (إي والله ، لقد حفظ عليهم رزقهم وآجالهم ، وجعل لهم أجلاً معلوماً).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن عبد الله قال: [قالت أم حبيبة زوجُ النبي ﷺ: اللهم أمْتِعْني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية. قال: فقال النبي ﷺ: قد سألتِ الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يُعَجِّل شيئاً قَبْل حِلِهِ أو يؤخر شيئاً عن حِلِّهِ ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4697) ، وأحمد (2/ 24) ، وابن حبان (70) (71) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3208) ، (3332) ، (6594) ، ومسلم (2643) ، وأخرجه أبو داود (4708) ، والترمذي (2138) ، وابن ماجة (76) ، وأحمد (1/ 382).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد ومسلم ـ واللفظ له ـ (2646) ، وله شواهد عند الطبراني وغيره.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 56) ـ كتاب القدر. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1846) ، باب: في ضرب الآجال وقسم الأرزاق.

الحديث الثاني: يروي ابن عاصم في كتاب «السنة» ، ورجاله رجال الشيخين ، عن أبي هريرة: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله ! أنعمل في أمر نأتَنِفُه ، أم في أمر قد فرغ منه ؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه. فقال: ففيم العمل ؟ فقال: يا عمر ، كلا لا يدرك إلا بعمل. قال: فالآن نجتهد يا رسول الله][1].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: [أرسلت بِنْتُ النبي ﷺ إليه: إنَّ ابناً لي قُبِضَ فائتنا. فأرسلَ يُقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ ، وكُلٌّ عنده بأجلٍ مُسَمّى ، فلتصبر ولتحتسب][2].

الحديث الرابع: أخرج أحمد وابن حبان بسند جيد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالىٰ فرغ إلى كل عبد من خلقه من خمس: من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره ومن مضجعه][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه ، وما شاهدتموه فعاينتم بأبصاركم ، لا يخفىٰ عليه شيء ، لأنهم خلقه وتدبيره ، «الكبير» ، الذي كل شيء دونه ، «المتعال» ، المستعلي على كل شيء بقدرته).

وقوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

إخبارٌ منه سبحانه عن علمه السر وأخفى ، وإحاطته بكل مناجاة سمعاً وعلماً.

قال مجاهد: (﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ ، يقول: السر والجهر عنده سواء ، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ ، أما «المستخفي» ففي بيته ، وأما «السارب» الخارج بالنهار حيثما كان ، المستخفي غَيْبَه الذي يغيب فيه والخارجُ ، عنده سواء).

وفي لغة العرب: «السَّارب» ـ الذاهب على وجهه في الأرض. ومن ثمّ فقوله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب «السنة» ـ (165) ـ ورجاله ثقات ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وله شواهد كثيرة في السنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1284) ـ في كتاب الجنائز ـ ، وأخرجه مسلم (923) ، ورواه أحمد في المسند (5/ 204) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 197)، وابن حبان (1811)، وابن أبي عاصم في «السنة» (303).

تعالىٰ: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر. والمقصود: أنه لا يخفىٰ على الله تعالىٰ من هو مختف في قعْر بيته في ظلام الليل ومَنْ هو ظاهر ماشٍ في بياض النهار وضيائه، فكلاهما في علم الله سواء، فإن الله تبارك وتعالىٰ لا يستترّ عنده شيء ولا يخفىٰ.

قال ابن عباس: (﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، ظاهر). وقال خصيف: (﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾: راكب رأسه في المعاصي، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، قال: ظاهر بالنهار).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: 5].

5 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والنسائي عن عروة عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه من حديث عمر ـ قال جبريل للنبي ﷺ ـ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 46)، والبخاري (7385) تعليقاً، والنسائي (3460)، وفي «التفسير» (590)، وأخرجه ابن ماجة (188)، (2063)، وعبد بن حميد (1514)، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (33726)، وإسناده على شرط مسلم.

أخبرني عن الإحسان ؟ قال: [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ـ ورواه من حديث أبي هريرة(1) .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن النواس بن سمعان الكِلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما مِنْ قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن. إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه. وكان رسول الله ﷺ يقول: يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك. قال: والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة](2) .

وقوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ ـ هي الملائكة المختصة بحفظ العبد من المصائب والطوارئ ما لم يسبق القدر.

قال ابن عباس: (والمُعَقِّباتُ من أمر الله ، وهي الملائكة. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدَرُ الله خَلَّوا عنه).

وقال مجاهد: (ما من عبد إلا له ملك موكل ، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام).

وقوله: ﴿ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ من التعاقب ، أي ملائكة تعتقب في حفظه ، والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف ، أو هو مفعلات من عقبه لأن بعضهم يعقب بعضاً ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ أي قدامه ووراءه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرسٌ بالليل وحرسٌ بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكةٌ آخرون لِحِفْظِ الأعمال من خير أو شر ، ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار. فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرُسانه ، واحدٌ من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنهار ، وأربعةٍ آخرين بالليل ، بَدَلان حافظان وكاتبان ، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي ؟

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم وأهل السنن. انظر مختصر صحيح مسلم (2) ص (7) ، وصحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (53).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (199) ـ باب فيما أنكرت الجهمية ـ وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (165).

فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلّون ، وتركناهم وهم يُصَلّون»[1]).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

قال النسفي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي).

قال البغوي في «معالم التنزيل» (6/ 184): (وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل ، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه قال: ليس من سنة بِأَمَرّ من أخرىٰ ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا ، في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار).

قلت: ويشهد له ما أخرج الحاكم وابن جرير بسند صحيح على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما من عام بأكثرَ مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الفرقان: 50] الآية][2].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

أي: فإذا نزل قدر الله بمصيبة قوم فقد وقع عليهم ما قُدِّر ثم لا سبيل لهم للهروب من ذلك الخزي ، وليس لهم من وال يلي أمرهم أو ينصرهم.

قال القرطبي: (﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي هلاكاً وعذاباً ، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمىٰ أبصارهم حتىٰ يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتىٰ يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعىٰ بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي ملجأ ، وهو معنىٰ قول السُّدي. وقيل: من ناصر يمنعهم من عذابه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (555) ، ومسلم (632) ، والنسائي (1/ 240) ، وأحمد (312) ، و (486) ، وأخرجه مالك (1/ 170) ، وابن خزيمة (321) ، وابن حبان (1728) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 403) ، وابن جرير في «التفسير» (19/ 15) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وأقرّه الألباني في السلسلة الصحيحة (2461).

12 ـ 15. **قوله تعالىٰ**: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تَخْويفُ الله تعالىٰ عباده ببعض آيات قدرته كالبرق والرعد والصواعق ليعبدوه وحده، فله دعوة الحق والذين يدعون من دونه دعوتهم باطلة، فله ـ تعالى ـ يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً فهو العظيم القهار الجبار.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ عن كمال قدرته، وأن تأخيره عقوبة من جحد أمره ونعمه ليس عن عجز، فالبرق: هو ذلك النور الساطع اللامع المخيف الذي يسطع من خلال السحاب.

قال قتادة: (﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، يقول: خوفاً للمسافر في أسفاره، يخاف أذاه ومشقته، ﴿وَطَمَعًا﴾، للمقيم، يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله).

وقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾. أي: يثير السحاب المثقل بالمطر.

قال مجاهد: (﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، قال: الذي فيه الماء). وقال ابن كثير: (أي: ويَخْلُقها مُنشأةً جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلةٌ قريبة إلى الأرض).

وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

تعريف باشتراك الرعد والملائكة بتنزيهه وتسبيحه سبحانه، كسائر الخلق صغيره وكبيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

وكقوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: 41].

أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح من حديث ابن عباس قال: [أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا الله على ما نقول وكيل. قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكّر؟ قال: يلتقي الماءان فإن علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النّسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا. قال عبد الله: قال أبي، قال بعضهم: يعني الإبل فحرّم لحومها. قالوا صدقت. أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله. قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته. قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية][1].

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي بسند صحيح عن إبراهيم بن سعد قال: أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جَنْبِ حُميد بن عبد الرحمن في المسجد، فَمَرَّ شيخٌ من بني غفار، فأرسل إليه حُميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وَسِّع فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ. فجاء حتىٰ جلس فيما بيني وبينه، فقال له حُميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ الله يُنشِئُ السَّحاب فينطِقُ أحسنَ النطق، ويضحكُ أحسن الضحك][2].

ورویٰ مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه[3]: (أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال:

(1) حديث صحيح لشواهده. أخرجه أحمد (1/ 274)، والترمذي (3117)، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة البقرة ـ آية (97)، وقد مضىٰ بتمامه.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 435)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (988)، وأورده ابن كثير في التفسير وقال: (والمراد ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضحِكها البرقُ).

(3) هو ابن الزبير. والأثر ذكره القرطبي في «التفسير» (سورة الرعد، آية« 13»).

سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد).

قلت: وأما عند رؤية السحاب والمطر فقد ثبت الدعاء فيه عن رسول الله ﷺ.

فقد أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن المقدام بن شريح عن أبيه: [أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان إذا رأىٰ سحاباً مقبلاً من أفق من الآفاق ، ترك ما هو فيه. وإن كان في صلاته ، حتىٰ يستقبله. فيقول: «اللهم إنا نعوذ بك مِنْ شَرِّ ما أُرْسِلَ به» فإن أمطر قال: «اللهم سَيْباً نافعاً» مرتين أو ثلاثاً. وإن كشفه الله ، عز وجل ، ولم يمطر ، حمد الله على ذلك][1].

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

أخرج أبو يعلىٰ والبزار ، واللفظ لأبي يعلىٰ ، بسند صحيح من حديث أنس قال: [بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تبارك وتعالىٰ فقال: أيش ربك الذي تدعوني من حديد هو ؟ من نحاس هو ؟ من فضة هو ؟ من ذهب هو ؟ فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره فأعاده النبي ﷺ الثانية ، فقال مثل ذلك ، فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره فأرسله إليه الثالثة ، فقال مثل ذلك. فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد أنزل على صاحبك صاعقة فأحرقته ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾][2].

وبنحوه رواية البزار ، إلا أنه قال: (إلى رجل من فراعنة العرب ـ وقال الصحابي فيه: يا رسول الله ! إنه أعتىٰ من ذلك ، وقال: «سحابة» ، فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه ذلك الكلام ـ قال: فبينما هو يكلمه إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3889) ـ كتاب الدعاء ـ باب ما يدعو به الرجل إذا رأىٰ السحاب والمطر. والسَّيْب والصَّيِّب المطر الجاري على وجه الأرض من كثرته. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3137) ، وكذلك (3138) ، (3139) من الباب نفسه.

(2) حديث صحيح لشواهده. أخرجه أبو يعلىٰ برقم (3468) ، وأخرجه الطبري (13/ 125) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (7/ 42) وقال: (رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة).

ورواه الطبراني في «الأوسط» ـ نحوه ـ وقال: (فرعدت فأبرقت).

وله شاهد قوي أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» عن ثابت، عن أنس قال: [أرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رأس المشركين يدعوه إلى الله تعالىٰ، فقال المشرك: هذا الذي تدعوني إليه من ذهب أو فضة أو نحاس! فتعاظم مقالته في صدر رسولِ رسولِ الله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: ارجع إليه، فرجع إليه بمثل ذلك وأرسل الله تبارك وتعالىٰ عليه صاعقة من السماء فأهلكته، ورسول رسول الله ﷺ في الطريق لا يدري. فقال له النبي ﷺ: إن الله قد أهلك صاحبك بعدك، ونزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾][1].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ ـ أي يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو الكبير المتعال، وأما المحال فمن الحيلة، والمعنىٰ كما قال مجاهد: (﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، قال: شديد القوة). وقال علي رضي الله عنه: (شديد الأخذ) ـ رواه ابن جرير بسنده إليه، وقال ابن عباس: (شديد الحَوْل). وقال قتادة: (أي القوة والحيلة)، وعن الحسن: (﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، يعني الهلاك. قال: إذا محل فهو شديد. وقال قتادة: شديد الحيلة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: 50 ـ 51].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 ـ 16].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلته][2].

---

(1) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (692)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (2/ 846)، وابن جرير (13/ 84)، وقال الألباني في تحقيق كتاب «السنة» (304): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وقد توبع.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجة (4018)، وابن حبان (5175)، وأخرجه البيهقي (6/ 94).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إنْ نَسِيَ ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غيرَ ذلك جعلَ له وزيرَ سوء، إن نسيَ لم يذكِّرْه، وإن ذكر لم يُعِنْه][1].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشَّر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة][2].

وقوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾.

قال ابن عباس: (﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾: لا إله إلا الله). وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: (﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾، قال: التوحيد). ـ رواه ابن جرير وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: (والآلهة التي يَدْعوها المشركون أرباباً وآلهة. وإنما عنىٰ بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: أنها مُقصِّرة عنه، وأنها لا تكون إلـٰهاً، ولا يجوز أن يكون إلـٰهاً إلا الله الواحد القهار. ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾، يقول: لا تجيب هذه الآلهة، التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهةً، بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرّ).

وقوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال علي رضي الله عنه: (كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه، وما هو ببالغه). وقال مجاهد: (يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده، ولا يأتيه أبداً). أو قال: (يدعوه ليأتيه، وما هو بآتيه، كذلك لا يستجيب من هو دونه).

2 ـ وقال ابن عباس: (هذا مثل المشرك مع الله غيره، فمثله كمثل الرَّجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه).

3 ـ وقال قتادة: (﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾، وليس الماء ببالغ فاه، ما قام باسطاً كفيه لا يقبضهما).

وقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

قال ابن كثير: (ومعنىٰ هذا الكلام أنّ هذا الذي يبسُط يده إلى الماء إما قابضاً وإما

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2932) ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ـ، باب في اتخاذ الوزير.
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 64)، والبيهقي في «الأسماء»، ص (154)، وله شاهد عند ابن حبان (2455)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1220).

متناولاً له من بُعد ، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه ، الذي جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره ، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال: ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴾ .

أي: إن الله تبارك وتعالىٰ قد قهر كل شيء بعظمته وجبروته ، ودان له كل شيء ، فسجد له ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي ملائكته ومن في ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس ، طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من المشركين حين يُكرهون على السجود. كما يسجد له أيضاً ظلالُ كل من سجد طوعاً وكرهاً بالغُدوات والعَشايا. والغدو: البُكر ، والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار.

فعن قتادة: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال: (فأما المؤمن فيسجد طائعاً ، وأما الكافر فيسجد كارهاً).

وعن ابن عباس: (﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴾ ، يعني: حين يفيء ظلُّ أحدهم عن يمينه أو شماله). وقال مجاهد: (ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع ، وظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره).

وقال ابن زيد: (ذُكِرَ أن ظلال الأشياء كلها تسجد له ، وقرأ: ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾. وقال: تلك الظلال تسجد لله).

والآية التي أشار إليها هي من سورة النحل وهي بتمامها: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: 48].

16 ـ 17. **قوله تعالىٰ:** ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تقرير الله تعالىٰ أن الاعتراف بالربوبية يقتضي الإقرار له تعالىٰ بالألوهية ، وأن ما يُعبد من دونه لا يملك كشف الضر ولا جلب النفع ، فهو سبحانه الواحد القهار. لقد أنزل الماء من السماء فسالت بذلك الأودية ، فعلا الماء زبد وكذلك ما يوقد في النار مما يسبك فيها من الذهب أو الفضة ابتغاء حلية من نحاس أو حديد يعلوه زبدٌ كذلك ، وكلا الزبدين يتلاشىٰ ، وهذا شأن الباطل في اضمحلاله وتلاشيه ، وشأن الحق في ثباته وبقائه ، كذلك يضرب الله الأمثال.

فقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ .

قال ابن كثير: (يقرر تعالىٰ أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ، وهو ربها ومُدَبِّرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولىٰ ، ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ ، أي: لا تُحَصِّلُ منفعة ولا تدفع عنهم مضرةً. فهل يستوي من عَبَدَ هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ؟!).

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ .

قال مجاهد: (أما ﴿ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ ، فالكافر والمؤمن ، وأما ﴿ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ ، فالهدىٰ والضلالة).

وقوله: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قال مجاهد: (ضربت مثلاً. قال: خلقوا كخلقه ، فحملهم ذلك على أن شكُّوا في الأوثان).

قال النسفي: (أي أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ـ فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء ، حتىٰ يقولوا قَدَرَ هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً على ما يقدر عليه الخالق).

وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

أي: ما وجه إشراككم ما لا يخلق ولا يضر ، والله تعالىٰ هو الفرد الذي لا ثاني

له ، وهو القهار الذي خلق كل شيء وقهره بأمره ، فهو وحده المستحق للتأليه والعبادة .

وقوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ . قال مجاهد : (بقدر ملئها) .

وقال ابن جريج : (بقدر صغرها وكبرها) .

قال القاسمي : (﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي المزن ﴿ مَآءً﴾ أي مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي : بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أي أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره) . وقال ابن كثير : (وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يَسَعُ علماً كثيراً ، ومنها ما لا يَتَّسِعُ لكثير من العلوم بل يضيق عنها) .

وقوله : ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ﴾ .

يشتمل على مثلين اثنين ضربهما الله مثلاً للحق والباطل . فالمثل الأول : ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ ـ أي فَعَلا المَاءُ زبدٌ في تلك الأودية . والمثل الثاني : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ مما يسبك فيها من الذهب أو الفضة ﴿ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ من نحاس أو حديد فإنه يعلوه زبدٌ أيضاً . وكلا الزَّبَدين يضمحل بسرعة ويتلاشىٰ . وكذلك الباطل في اضمحلاله وفنائه ، والحق في ثباته وبقائه .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ .

قال ابن عباس : (قوله ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ ، فهذا مثل ضربه الله ، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها . فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ ، وهو الشك ، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ ، وهو اليقين ، كما يُجْعل الحَلْيُ في النار فيؤخذ خالصُه ويترك خبثه في النار . فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك) .

قال ابن جرير : (﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ ، يقول : فأما الزبد الذي علا السيل والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها ، فيذهب بدفع الرياح وقذف الماء به ، وتعلُّقه بالأشجار وجوانب الوادي ، وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة والرصاص والنحاس ، فالماء يمكث في الأرض فتشربه ، والذهب والفضة

تمكث للناس ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ، يقول: كما مثّل هذا المثل للإيمان والكفر ، كذلك يمثّل الأمثال).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ .

المعنىٰ: هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً ، يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقىٰ أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمىٰ به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. أفاده النسفي ثم قال: (قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالىٰ للقرآن والقلوب والحق والباطل ، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان ، كالماء للأبدان ، والأودية للقلوب ، ومعنىٰ بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق ، فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقىٰ صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ويبقىٰ الحق كما هو. وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية ، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص ، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب ، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب ، وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل).

قلت: وفي القرآن كثير من ضرب الأمثال للحق والباطل ، والإخلاص والنفاق ، والإيمان والكفر ، وغير ذلك.

1 ـ قال تعالىٰ في وصف المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: 17].

2 ـ وقال تعالىٰ في نعتهم أيضاً: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 19].

3 ـ وقال جل وعز في نعت الكافرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: 39].

وفي صحيح السنة من تلك الأمثال أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثَلُ ما بعثني الله من الهدىٰ والعلم كمثلِ الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نَقِيّةٌ، قبلت الماء، فأنبتتِ الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادِبُ، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فَشربوا وسَقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قيعان لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً، فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثلُ مَنْ لمْ يَرفَعْ بذلك رأساً ولم يقْبَلْ هدىٰ الله الذي أُرْسِلتُ به][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [مَثَلُ المُنافقِ كمثلِ الشاةِ العائرةِ بين الغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [مثلي ومثلُكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولَه جعلَ الفراشُ وهذه الدواب التي يقعن في النار يَقَعْنَ فيها، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ويغلِبْنَه فَيَتَقَحَّمْنَ فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار، هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ، فتغلبوني، فَتَقْتَحِمونَ فيها][3].

18 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالىٰ بلوغ الجنة لأهل طاعته، والخلود في مستقر

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (79)، كتاب العلم، وأخرجه مسلم في الصحيح (2282)، ورواه أحمد في المسند (4/ 399).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2784) ـ كتاب صفات المنافقين ـ. والعائرة: المتردّدة، الحائرة لا تدري أيهما تتبع، ومعنىٰ تعير أي تتردد وتذهب.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 312)، ومسلم (2284) ح (18)، وانظر صحيح البخاري (3426)، وسنن الترمذي (2874)، وصحيح ابن حبان (6408).

رحمته. وبلوغ النار لأهل معصيته ، ولا فداء لهم من العذاب ولو جاؤوا بما في الأرض جميعاً ومثله معه لفديته. إنه لا يستوي من آمن بالوحي وانتفع به ، ومن هو أعمىٰ القلب جاهل بالوحي كافر به ، إنما يتعظ بآيات الله أولو الألباب.

فعن قتادة: (﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ، قال: وهي الجنة).

فالحسنىٰ الجنة ، أو الجزاء الحسن.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: 88].

قال القرطبي: (وقيل: من الحسنىٰ النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غداً).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

فيه تهويل حالة الخسران التي يلقاها المجرمون يوم القيامة ، الذين كفروا بالله ورسله وتحاكموا للطاغوت.

قال القاسمي: (﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهم الكفرة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بما في الأرض ومثله معه من أصناف الأموال ، ليتخلصوا عما بهم. وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ، ولأجله عدل عن أن يقال: وللذين لم يستجيبوا السوءىٰ ، كما تقتضيه المقابلة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 91].

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

أي مناقشة حسابهم صعبة ومخيفة ، ثم مرجعهم بعد انتهاء المحاسبة إلى النار ، وبئس المكان الممهد مثوىٰ لهم وبئس المستقر.

وعن فرقد السبخي قال: قال إبراهيم النخعي: (يا فرقد ، أتدري ما «سوء

الحساب» ؟ قلت: لا ـ ! قال: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء) ـ ذكره ابن جرير بسنده إليه.

وقوله: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾.

قال قتادة: (هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه وَوَعَوْه، قال الله: ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾، قال: عن الخير فلا يبصره).

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾. قال القرطبي: (والمراد بالعمىٰ عمىٰ القلب، والجاهل بالدين أعمىٰ القلب).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول، وهي ﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، واحدها «لُبٌّ»).

20 ـ 24. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله تعالىٰ أولي الألباب: فهم أهل الوفاء بالعهد والميثاق، وأهل الوصل لما أمرهم الله بوصله، وأهل الخشوع والخوف من سوء الحساب. وهم أهل الصبر ابتغاء وجه ربهم، وأهل إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله، ومتابعة السيئات بالحسنات، فأولئك لهم عقبىٰ الدار. جنات عدن يدخلونها ومن وافقهم على منهاج الإيمان من الآباء والأزواج والذرية، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ويحيونهم بالسلام مقابل صبرهم وجهادهم فنعم عقبىٰ الدار.

فقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ ـ صفة لأولي الألباب، والعهد اسم للجنس، والمقصود بجميع عهود الله. قال القرطبي: (وهي أوامره ونواهيه التي وصّىٰ بها عبيده، ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي).

وقوله: ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾. قال النسفي: (ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من

الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد ، تعميم بعد تخصيص).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ . قال ابن كثير: (من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف).

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ .

أي: يخافون ربهم في جميع أعمالهم ويحذرون مناقشة الحساب يوم القيامة وتدقيق الأعمال.

قال أبو الجوزاء: (﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ ، قال: المقايسة بالأعمال).

قال ابن جرير: (يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب ، ثم لا يصفح لهم عن ذنب ، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته ، محافظون على حدوده).

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ يحاسَبُ يومُ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن عديٍّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينَه وبينه ترجمان ، ولا حجاب يَحْجُبُه ، فينظُرُ أيمنَ منه فلا يرىٰ إلا ما قَدَّمَ من عمله ، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرىٰ إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاءَ وجهه ، فاتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة][2].

وفي رواية: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ .

قال ابن زيد: (الصبر ، في هاتين ، فصبرٌ لله على ما أحبَّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، وصبرٌ عمَّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين. وقرأ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 24]).

وعن ابن عباس: (﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ، يعني الصلوات الخمس ، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ، يقول: الزكاة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4939) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2876).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 225) ، (13/ 397) ، ومسلم (1016) (67) و (68).

والمقصود: ذِكْرُ مآثر المؤمنين الذي فطموا أنفسهم عن المحارم والمآثم ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ وتعظيماً لوجهه الكريم وحياءً منه ، ثم إنهم أقاموا الصلاة بأركانها وفروضها وسننها وخشوعها ، وأنفقوا مما رزقهم الله على من وجب عليهم الإنفاق عليهم من الزوجات والأولاد والأرحام والقرابات والفقراء والمساكين منْ زكاة مفروضة ونفقات واجبة أخرىٰ ، وذلك في الخفاء وفي الظاهر حسب طبيعة الحال.

وقوله: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ـ أي يدفعون الإساءة ضدهم بالإحسان.

قال ابن زيد: (يدفعون الشر بالخير ، لا يكافئون الشّر بالشّر ، ولكن يدفعونه بالخير).

وفي التنزيل: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

هو كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 35].

قال ابن جرير: (﴿ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان ، من دارهم التي لو لم يكونوا مؤمنين كانت لهم في النار ، فأعقبهم الله من تلك هذه. وقد قيل: معنىٰ ذلك: أولئك لهم عَقِيبَ طاعتهم ربَّهم في الدنيا ، دارُ الجنان).

وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾.

أي: جنات إقامة ـ والعدنُ: الإقامة ـ يخلدون في نعيمها وروضاتها هم ومن كان معهم على الهدىٰ والإيمان من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

قال الضحاك: (﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ ، قال: مدينة الجنة ، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدىٰ ، والناسُ حولهم ، بعدد الجنات حوْلها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

أي: وتدخل الملائكة على هؤلاء المؤمنين في الجنان من كل باب من أبوابها ، تسلم عليهم وتحمل لهم البشرىٰ بما صبروا على إقامة الدين وجاهدوا في سبيل الله ، بأن لهم الخلود في دار النعيم ، فنعم دار القرار بعد دار الاختبار.

قال ابن زيد: (﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، قال: حين صبروا بما يحبه الله فقدّموه ، وصبروا عما كره الله وحرم عليهم ، وصبروا على ما ثقل عليهم وأحبه الله ، فسلم عليهم بذلك). وعن أبي عمران الجوني: (﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ ، قال: الجنة من النار).

والخلاصة: كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي: وتدخل عليهم الملائكةُ من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدُخول الجنة ، فعند دخولهم إيّاها تَفِدُ عليهم الملائكة مُسَلِّمين مُهَنِّئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصدِّيقين والأنبياء والرسل الكرام).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث من جوامع الكلم النبوي في آفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: [من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فهلم. قال أبو بكر: يا رسول الله ذاك الذي لا توىٰ عليه ـ أي لا خسارة ولا هلاك ـ فقال النبي ﷺ: إني لأرجو أن تكون منهم][(1)].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد: إنّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تَنْعموا فلا تبأسوا أبداً. وذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]][(2)].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [هل تدرون أوّل من يدخل الجنة من خَلْقِ الله ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أَوّل مَن يدخلُ الجنة من خلقِ الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغورُ ، وتُتَّقىٰ بهم المكاره ، ويموت أحدُهم وحاجتهُ في صدره لا يستطيع لها قضاءً ، فيقول الله تعالىٰ لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فَحَيُّوهم. فتقول الملائكة: نحن سُكَّان سمائِك ، وخيرَتُك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فَنُسَلِّمَ عليهم ؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً ، وتُسَدُّ بهم الثغور ، وتُـتَّقَىٰ بهم المكاره ، ويموت أَحُدهم وحاجتُه في صَدْره فلا يستطيع لها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1897) ، (2841) ، (3216). وأخرجه مسلم (1027) ـ كتاب الزكاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837)، كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة.

قضاء. قال: فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيَدخلون عليهم من كلِّ باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾][1].

وفي رواية: [أولُ ثُلَّةٍ يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تُتَّقىٰ بهم المكاره، وإذا أُمِرُوا سَمِعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتىٰ يموتَ وهي في صدره، وإن الله يدعُو يومَ القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: رَبَّنا نحن نُسَبِّحُكَ الليل والنهارَ، ونقدِّسُ لك، مَنْ هؤلاء الذين آثرتَهم علينا؟ فيقول الربُّ ـ عز وجل ـ: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي. فتدخل عليهم الملائكة من كلِّ باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح على شرط مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتعلمُ؟ أولُ زمرةٍ تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ فقال: المهاجرون، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون: بأيِّ شيءٍ نحاسبُ وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتىٰ متنا على ذلك؟ قال: فيفتح لهم فيقيلون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس][2].

25 ـ 26. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: ذَمُّ الله تعالىٰ أهل نقض العهد وتقطيع ما أمر الله بوصله وأهل الفساد في الأرض، وتوعدهم باللعنة وسوء العاقبة في الآخرة. إن الله هو الذي يبسط الرزق لعباده ويقدر لهم، وأهل الغفلة في فرح بهذه الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 168)، وذكره الهيثمي في المجمع (10/ 259) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجاله كلهم ثقات، وانظر صحيح ابن حبان (7421)، وصفة الجنة لأبي نعيم (81)، والبيهقي في «البعث» (414) وسنده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 70) وهو على شرط مسلم، وانظر السلسلة الصحيحة (853).

قال ابن عباس: (أكبر الكبائر الإشراك بالله، لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الحج: 31]، ونقض العهد، وقطيعة الرحم، لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، يعني سوء العاقبة).

وقال أبو العالية: (﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾... الآية، قال: هي ست خصالٍ في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخِصال: إذا حَدَّثوا كَذَبوا، وإذا وعدوا أخلَفُوا، وإذا اؤتمنوا خانُوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرَةَ عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانُوا).

وقد ثبت نحو هذا المعنىٰ في صحيح السنة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كذَبَ، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا اؤْتُمِنَ خان](1).

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وأحمد وأكثر أهل السنن عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: [أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافقاً خالِصاً، ومَنْ كانت فيه خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كانت فيه خَلَّةٌ من نِفاق، حتىٰ يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهد غَدَرَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ](2).

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والبزار والبيهقي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [يا معشر المهاجرين خصالٌ خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحِشة في قوم قطّ، حتىٰ يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مَضَت في أسلافهم الذين مَضَوا، ولم ينقُصُوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشِدّة المؤنة، وجَور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم يَنْقُضُوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (33)، (2682)، ومسلم (59)، وأحمد (2/ 357)، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (34)، ومسلم (58)، وأبو داود (4688)، والترمذي (2632)، والنسائي (8/ 116)، وأحمد (2/ 189)، وابن حبان (254)، وغيرهم.

تحكم أئمَّتُهم بكتاب الله عز وجل ويتحرَّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم][1].

قال ابن جرير: (﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فسادهم فيها، عملهم فيها بمعاصي الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البعد من رحمته، والإقصاء من جنانه، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، يقول: ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

أي: يبسط الله الرزق لبعض عباده ويُقتِّر على بعضهم، وكل ذلك مقسوم بحكمته سبحانه، فربما كان لا يصلح حال بعضهم إلا بسعة الرزق ووفرته، وربما كان الإقتار هو الأنسب لبعضهم، وقد يفرح هؤلاء الذين بُسِطَ لهم على كفرهم ويغيب عنهم أن هذا استدراج من الله لهم، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل للفريقين.

قال مجاهد: (﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، قال: قليل ذاهب).

وقال عبد الرحمن بن سابط: (﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، قال: كزاد الرّاعي يُزَوِّده أهله: الكفّ من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشربُ عليه اللبن).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 ـ 56].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: 16 ـ 17].

ومن كنوز السنة الصحيحة في مفهوم هذه الآية، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراجٌ. ثم

(1) حديث صحيح. رواه ابن ماجة (4019)، والحاكم (4/ 540)، وأبو نعيم في «الحلية»: (8/ 333 ـ 334)، وله طرق كثيرة، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (106).

تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله عز وجل يُمْلي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْه. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن قيس قال: سمعت مُسْتَورِداً أخا بني فِهْرٍ يقول: قال رسول الله ﷺ: [والله ! ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجعَلُ أحدُكُمْ إِصْبَعَهُ هذه ـ وأشار يحيىٰ بالسَّبابة ـ في اليَمِّ ، فلينظُرْ أحدُكُم بم ترجِع ؟][3] .

الحديث الرابع: روىٰ مسلم عن جابر بن عبد الله: [أنّ رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق ، داخِلاً مِن بعضِ العالية ، والناس كَنَفَتَهُ ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ، فتناوله فأخذ بأُذُنِه ، ثم قال: أيّكُم يُحبُّ أنَّ هذا له بدِرْهَم ؟ فقالوا: ما نحب أنّه لنا بشيءٍ ، وما نصنَعُ به ؟ قال: أتُحِبُّونَ أنه لكم ؟ قالوا والله ! لو كان حَيّاً ، كان عَيْباً فيه ، لأنّه أسَكُّ ، فكيف وهو ميت؟ فقال: فوالله ! للدّنيا أهونُ على الله ، من هذا عليكم][4]. والأسَكّ: هو صغير الأذنين. ومعنى «كنفته» أي: جانبه.

27 ـ 29. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: تَنَطُّعُ المشركين في اقتراحهم رؤية آية أمام وضوح الأدلة الكثيرة

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه أحمد (4/ 145) ، والطبري (13243) ، والطبراني (17/ 330) ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (4540) من طرق ، وله شواهد ، وقد مضىٰ بتمامه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، وابن ماجة (4018) ، وأخرجه ابن حبان (5175) ، والبيهقي (6/ 94).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2858)، كتاب الجنة ونعيمها ، باب فناء الدنيا ، وبيان الحشر يوم القيامة. وأخرجه أحمد (4/ 228 ـ 229) ، والترمذي (2323) ، وابن ماجة (4108).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2957)، كتاب الزهد والرقائق ، وانظر مسند أحمد (1/ 329) ، ومسند أبي يعلىٰ (2593).

الدالة على صدق النبوة ، فقل لهم ـ يا محمد ـ إن الله قد يخذل من يشاء عن الإيمان والتصديق بالآيات ، ويهدي إلى الإيمان من تواضع لله وأناب. إن المؤمنين الصادقين تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وبذكر الله تطمئن القلوب. إن الذي آمنوا وعملوا الصالحات لهم البشرىٰ والخير والكرامة في الآخرة.

فقوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ ـ هو من قول المشركين للنبي ﷺ.

أي: هلاّ أنزل ربك عليك ـ يا محمد ـ آية من آياته ، إما ملك يكون معك نذيراً ، أو كنز يلقىٰ إليك ، أو تحوّل الصفا ذهباً ، أو تجري لنا ينبوعاً ، أو تزيح الجبال من حول مكة ليصير مكانها المروج والبساتين.

قال القرطبي: (بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: 7 ـ 8].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ﴾[الإسراء: 59].

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك ، بسند صحيح عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: [سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحّي الجبال عنهم فَيَزْدَرِعوا ، فقيل له: إن شِئْتَ أن تَسْتَأنيَ بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أُهْلكوا كما أَهْلَكْتُ مَنْ قبلهم ! قال: لا ، بل أستأني بهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (310) ، وأحمد في المسند (1/ 258) ، والطبري (2298) ، وصححه الحاكم (2/ 362) ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

أي: قل لهم يا محمد، إن الله يخذل من يشاء عن الإيمان والتصديق بالآيات، ويوفق من يشاء للهداية ممن رجع إليه وصدق التوبة والإقبال.

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أي: من تاب وأقبل).

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال قتادة: (يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال مجاهد: (بالقرآن).

وقال سفيان: (بأمره). وقال مقاتل: (بوعده). وقال ابن عباس: (بالحلف باسمه، أو بذكر فضله وإنعامه، كما تَوْجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه).

و«الذين» في محل نصب مفعول به ليهدي، والتقدير، يهدي الله الذين آمنوا، أو في محل نصب بدل من قوله: «مَنْ أناب».

وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. قال مجاهد: (لمحمد وأصحابه). قلت: بل الآية عامة.

أي: قلوب المؤمنين المخبتين إلى ربهم، فإن ذكر الله تعالىٰ يؤنس وحشة القلوب المضطربة، والنفوس المتألمة، ويرجع على الروح بسعادة وطمأنينة.

وذكر الله يشمل القرآن وتلاوته وتدبر آياته، وكذلك التفكر في وعد الله ووعيده، وثوابه وعقابه، وجنته وناره، كما يشمل المبادرة إلى العمل بطاعته والقيام بتعظيم أوامره، وكذلك فإنه يشمل طلب العلم النافع الذي فيه بيان شرعه وهديه.

وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

هو ابتداء وخبره، أو التقدير: لهم طوبىٰ، ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ معطوف عليه. وفي معنىٰ «طوبىٰ» أقوال عند المفسرين:

1 ـ قال عكرمة: (﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال: نعم مالهم).

2 ـ وعن الضحاك: (﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال: غِبطة لهم).

3 ـ وعن ابن عباس: (قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، يقول: فرحٌ وقُرَّة عين).

4 ـ وعن قتادة قال: (يقول: حسنىٰ لهم، وهي كلمة من كلام العرب). وقال: (هذه كلمة عربية، يقول الرجل: «طوبى لك»، أي: أصبتَ خيراً).

5 ـ وقال إبراهيم النَخَعِيّ: (﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، خير لهم. قال: الخير والكرامة التي أعطاهم الله).

6 ـ وعن ابن عباس قال: (﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: اسم أرض الجنة، بالحبشية). وقال مجاهد: (الجنة).

7 ـ قال ابن عباس وأبو هريرة: (﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: شجرة في الجنة).

قلت: وفي كلام العرب «طوبىٰ» مشتق من «طيب»، وهو من الطِّيب: ضد الخبيث، فيكون «طوبىٰ» فُعلىٰ من الطّيب قلبوا الياء واواً لضمة ما قبلها، وطوبىٰ اسم شجرة في الجنة أيضاً. فيكون المعنىٰ: الطيّب للمؤمنين الذين عملوا الصالحات في الجنة، من الغبطة والفرح وقرة العيون والتلذذ بألوان النعيم والخير والكرامة، كما أن لهم «طوبىٰ»: شجرة في الجنة مسيرة مئة عام، تخرج ثيابهم من أكمامها، كما جاء ذلك في صحيح السنة العطرة، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد في المسند، بسند حسن، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: [طوبىٰ شجرة في الجنة، مسيرةَ مئة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن جرير بسند حسن لغيره، عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه بالحلي والحلل، وإن أغصانها لتُرىٰ من وراء سور الجنة][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلها مئة عام لا يقطعها، إن شئتم فاقرؤوا: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾][3].

وله شاهد عنده من حديث أبي سعيد الخُدْري، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة

(1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أحمد (3/ 71)، وابن جرير (13/ 101)، وابن حبان (2625)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1985). والأكمام: غلاف التمر والحب قبل أن يظهر.
(2) حسن لغيره. أخرجه الطبري (20393)، ويشهد له الحديث الذي قبله، وانظر المرجع السابق.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3251)، وأخرجه الترمذي في السنن (3293).

شجرةً يسير الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ السريع مئة عام ما يقطعها][1].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث عبد الله بن عمرو قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقاً تخلق أم نسجاً تنسج ؟ فضحك بعض القوم ، فقال رسول الله ﷺ: وممّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً ؟ ثم أكبّ رسول الله ﷺ ، ثم قال: أين السائل ؟ قال: هو ذا أنا يا رسول الله ! قال: لا بل تشقق عنها ثمر الجنة «ثلاث مرات»][2].

وعن الضحاك: (﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ، قال: حسن منقلب).

30 ـ 32. **قوله تعالىٰ**: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تَسْلِيَةٌ من الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ في وصله بسلسلة النبوة ومنهاج الدعوة الذي مضىٰ عليه المرسلون قبله وصبرهم على الأذىٰ ، وهؤلاء قومك ـ يا محمد ـ يكفرون بالرحمان ، فأعلن إيمانك بالله الواحد الأحد وحسن توكلك عليه وأوبتك إليه. إنه لو كان كتاب مما أنزل الله تُسَيَّرُ به الجبال أوتُشَقّ به الأرض أو تُكَلّم به الموتىٰ لكان هذا القرآن ، وإنما أمْرُ ما يَلتمسونه بيد الله ، أفلم يتبين المؤمنون أن حجة هذا القرآن تكفي لإيمان جميع الخلق لو شاء الله ذلك ، إنه لا تزال البلايا والقوارع تنزل بالكفار أو قريباً منهم حتىٰ يأتي وعد الله بموتهم أو قيام الساعة والله لا يخلف الميعاد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6552 ـ 6553) ، وأخرجه مسلم (2827 ـ 2828).

(2) أخرجه أحمد (2/ 202) ، (2/ 224 ـ 225) عن حنان بن خارجة عن عبد الله بن عمرو ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (4/ ص 640) عقب الحديث (1985).

ولقد استهزئ ـ يا محمد ـ برسل قبلك فصبروا حتىٰ قطع الله استدراجه للكافرين وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: كذلك ـ يا محمد ـ أرسلناك في قومك كما أرسلنا من قبلك من الرسل في أقوامهم وأممهم لتنذرهم بهذا الوحي مغبة استرسالهم في غيِّهم وشركهم، فكذبوك كما كذب الأقوام رسلهم من قبلك، فصبر إخوتك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على ما كُذِّبوا، فلك بهم أسوة في الصبر والاحتساب.

وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. قال ابن كثير: (أي: هذه الأمةُ التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يُقرُّون به لأنهم كانوا يأنَفُونَ من وصف الله بالرحمن الرحيم).

وعن مجاهد قال: (هذا لمّا كاتب رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية، كتب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قالوا: لا تكتب ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وما ندري ما ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ولا تكتب إلا: «باسمك اللهم». قال الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، الآية).

قلت: وأصل ذلك في صحيح البخاري من حديث المسور ومروان، وكذلك في مسند الإمام أحمد من حديث المسور.

فقد روىٰ البخاري ـ في صلح الحديبية ـ قال الزهري: [فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتُبْ بيننا وبينكم كتابا. فدعا النبي ﷺ الكاتب ـ وهو علي رضي الله عنه ـ فقال النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. (وفي رواية أحمد: فقال رسول الله ﷺ: اكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾) فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب] الحديث[1].

و«الرحمن» اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2731)، (2732)، كتاب الشروط، وأخرجه مسلم في صحيحه (1784)، كتاب السير، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 325).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: 29].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: 110].

ومن كنوز السنة الصحيحة في اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: أنا الرحمن وهي الرحم، شققت لها من اسمي، من يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ أحبَّ الأسماء إلى الله تعالىٰ عبد الله وعبد الرحمن][2].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إن كفر هؤلاء الذين أرسلتك إليهم، يا محمد، بالرحمن فقل أنت: الله ربي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، يقول: وإليه مرجعي وأوبتي).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ﴾. مَدْحٌ للقرآن، وثناءٌ عطرٌ على إعجازه، وتفضيل له على سائر الكتب المنزلة قبله.

والمقصود: لو كان كتاب مما أنزل من قبل تُسَيَّرُ به الجبال فتزول عن أماكنها، أو تُقَطَّعُ به الأرض وتنشقُّ، أو تُكَلَّمُ به الموتىٰ في قبورها، لكان هذا القرآن، لأنه الكتاب الأعلى في إعجازه في هذا الكون، وهو كلام الله العظيم الذي تتصدع أمامه جميع المخلوقات كبيرها وصغيرها.

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 498)، وإسناده جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين انظر الصحيحة (2) ص (38).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2132)، وأبو داود (4949)، والترمذي (2835)، وابن ماجة (3728) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وفي التنزيل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.
وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [ما من نبيّ من الأنبياء إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة][1].

فائدة: القرآن يُطلق على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع. ذكره الحافظ ابن كثير ـ ثم أورد حديث الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خففت على داودَ القراءةُ فكان يأمرُ بدابَّته أن تُسرَجَ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسْرَجَ دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه][2].

قلت: والحديث رواه البخاري أيضاً بلفظ: [خُفِّفَ على داودَ عليه السلام القرآنُ فكان يأمرُ بِدوابِّهِ فتُسْرَجُ فيقرأُ القرآنَ قبل أن تُسْرجَ دَوابُّه، ولا يأكل إلا من عمل يده].
ولا شك أن المقصود بالقرآن هنا الزَّبور.

وقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾. قال القرطبي: (أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله).

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: أفلم يعلم المؤمنون ويتبينوا أن حجة هذا القرآن وبيانه وإعجازه يكفي لإيمان جميع الخلق لو شاء الله ذلك. قال ابن عباس: (﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، يقول: يعلم).

وقال قتادة: (أفلم يعلم الذين آمنوا). أو قال: (أفلم يتبيّن الذين آمنوا).

وقال أبو العالية: (قد يئس الذين آمنوا أن يهدُوا، ولو يشاء الله لهدىٰ الناس جميعاً).

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ـ فيه تفسيران عند المُفسِّرين:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4981)، (7274)، وأخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (152).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 314)، والبخاري (3417)، كتاب أحاديث الأنبياء، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6225).

1 ـ أي: لا تزال البلايا والمصائب والقوارع تنزل بالكفار بسبب كفرهم وخُبْثِ أعمالهم، أو تنزل قريباً منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها حتىٰ يأتي وعد الله بموتهم أو قيام الساعة.

2 ـ أي: لا يزال ينزل بكفار مكة من المصائب والقوارع نتيجة ما صنعوا برسول الله ﷺ فيصيب المسلمون منهم ويختطفون منهم بإغارتهم على مواقعهم حول مكة ويغنمون ويأسرون، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتىٰ يأتي وعد الله بفتح مكة ودخولك منتصراً مُظفّراً، وعد الله، ولا يخلف الله الميعاد.

قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويلين معاً، فكلاهما ضمن آفاق مفهوم الآية.

فعن ابن زيد: (﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، قال: قارعة من العذاب). وعن قتادة قال: قال الحسن: (﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، قال: أو تحل القارعة قريباً من دارهم). وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ ـ قال الحسن: (يوم القيامة).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، يقول: عذابٌ من السماء ينزل عليهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم). وعن سعيد بن جبير: (﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، قال سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، قال: أنت يا محمد). وقال عكرمة عن ابن عباس: (﴿قَارِعَةٌ﴾ ـ قال: السرايا).

وقال مجاهد: (سرية، أو قال: كتيبة). وقال: (﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ ـ قال: فتح مكة).

وفي التنزيل: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه، وسؤالهم الآيات تنطعاً واستهزاء وبطراً.

يقول: إن لك بإخوتك الرسل من قبلك أسوة في صبرهم على أذىٰ أقوامهم ومكرهم واستهزائهم، ثم بما آلت إليه أحوال المعاندين والمتكبرين بعد إمهالهم وتأجيلهم،

فكيف بلغك ما صنعت بهم وما كان من إهلاكهم وتدميرهم.

وفي التنزيل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: 48].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله لَيُمْلي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][1].

33 ـ 35. **قوله تعالى**: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾.

في هذه الآيات: إعْلامٌ من الله تعالى أنه القائم على كل نفس في أرزاقها وأجلها وأعمالها ومع ذلك يعبد المشركون الأوثان التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، فقل لهم ـ يا محمد ـ: سمّوا ما أشركتم في عبادة الله؟ فإن قالوا: هي آلهة، فقد كذبوا، لأن الله هو الإلـٰه الحق الواحد القهار، وآلهتهم هزيلة مهزومة ضعيفة، فهل تخبرونه سبحانه أن في الأرض إلـٰهاً لا يعلمه أم تفترون الكذب والباطل! لقد زَيّن الشيطان للكافرين افتراءهم على الله وصدهم عن سبيله، ومن ثم فمن خذله الله عن الهدىٰ فماله إلى الهداية من سبيل. إن لهؤلاء المشركين الخزي والعذاب في الدنيا، ثم يردون إلى أشد العذاب في الآخرة، وما لهم من الله من ولي ولا نصير. وأما المؤمنون المتقون فهم في روضات الجنات، تجري من تحتها الأنهار، منغمسون في ألوان النعيم، على النقيض من أحوال أصحاب الجحيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3109)، وابن ماجة (4018)، وابن حبان في صحيحه (5175)، وأخرجه البيهقي (6/ 94).

فقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ـ هو الله تعالى قائم على كل نفس في أرزاقها وأجلها وأعمالها.

قال قتادة: (ذلكم ربكم تبارك وتعالىٰ، قائمٌ على بني آدم بأرزاقهم وآجالهم، وحفظَ عليهم والله أعمالهم). وقال ابن عباس: (يعني بذلك نفسه، يقول: هو معكم أينما كنتم، فلا يعمل عاملٌ إلا والله حاضِرُه. ويقال: هم الملائكة الذي وُكلوا ببني آدم).

وقال الضحاك: (فهو الله قائم على كل برّ وفاجر، يرزقهم ويَكلؤهم، ثم يشرك به منهم من أشرك).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10].

5 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

6 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث عبادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة][1]. وفي لفظ: [إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 317)، والترمذي في التفسير (2/ 232)، وانظر تخريج المشكاة (94)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 807) لتفصيل الروايات المختلفة.

قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد]. وفي لفظ آخر: [اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

الحديث الثالث: يروي الطبراني بسند صحيح من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][2]. وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾.

أي: عبدوا تلك الأصنام والأوثان وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تملك كشف الضر عن نفسها ولا تحويلاً. فقل لهم يا محمد: سمّوا ما أشركتم في عبادة الله؟ فإن قالوا: هي آلهة، فقد كذبوا، لأنه لا إله إلا الله الواحد القهار لا شريك له، وهو خلق كل شيء، ومن ثمّ فإن ما زعمتم آلهة مخلوق ضعيف مقهور بأمر الله، فهل تخبرونه سبحانه أن في الأرض إلهاً لا يعلمه!! أم تقولون الكذب والباطل!!

وفي التنزيل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: 23].

وعن ابن عباس: (﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾، والله خلقهم). قال الضحاك: (ولو سمَّوهم آلهةً لكذبوا وقالوا في ذلك غير الحق، لأن الله واحدٌ ليس له شريك. قال الله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾، يقول: لا يعلم الله في الأرض إلـٰهاً غيره). وعن مجاهد: (﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾، بظن). وقال قتادة: (والظاهر من القول هو الباطل). وعن الضحاك قال: (يقول: أم بباطل من القول وكذب، ولو قالوا: قالوا الباطل والكذب).

وقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ: (كتب الله مقادير الخلق..)، وانظر صحيح مسلم (8/ 51)، باب: كتب المقادير قبل الخلق، وروىٰ أحمد نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (7/ 195)، وبنحوه أحمد (5/ 197). انظر تخريج الطحاوية (78)، وصحيح الجامع الصغير (4077)، (4078) ـ (4079).

أي: بل زين للكافرين افتراؤهم الكذب على الله وصدهم عن سبيله، ومن ثمّ فإن من أضلّه الله عن إصابة الحق وخذله عن الهدىٰ فلا سبيل لهدايته.

وعن مجاهد: (﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾، قال: قولهم). يعني ما افتروه على الله من الشرك به والدعوة إلى الضلال والإلحاد.

وقرأ الكوفيون: ﴿وصُدُّوا عن السبيل﴾ بضم الصاد، أي وصدّهم الله عن سبيله بسبب تماديهم في الكفر والمكر. وأما قراء البصرة والحجاز فقرؤوه بالفتح: ﴿وصَدّوا﴾، أي إنَّ المشركين لم يكتفوا بكفرهم بل صدوا الناس أيضاً عن سبيل الله ـ والقراءتان مشهورتان.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، يقول تعالىٰ ذكره: ومن أَضَلَّهُ الله عن إصابة الحق والهدىٰ بخذلانه إياه، فماله أحدٌ يهديه لإصابتهما، لأن ذلك لا يُنال إلا بتوفيق الله ومعونته).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41].

2 ـ وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [النحل: 37].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [المؤمن: 34].

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصيرَ القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾. أي: لهؤلاء المشركين بالله الصادّين عن سبيله عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والآفات، وما ينتظرهم من عذاب الآخرة أشد ثم لا ولي ولا شفيع ولا نصير.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 89 ـ 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) ـ كتاب الفتن، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 12 ـ 14].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25 ـ 26].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47].

ومن السنة الصحيحة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأَهْونِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أَكُنْتَ مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منكَ أهونَ من هذا وأنت في صُلْب آدم ـ أن لا تشركَ، ولا أدخِلَكَ النار، فأبيتَ إلا الشرك][1].

الحديث الثاني: أخرج النسائي والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: [لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايِشَهم، فكيف بمن يكون طعامه][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصَارة أهل النار، طينةِ الخبال][3].

وقوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (8/ 134). وانظر مختصر صحيح مسلم (1955) ـ كتاب صفة القيامة. باب: في كثرة العرق يوم القيامة.

(2) حديث صحيح. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683)، وصحيح الجامع الصغير (5126).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وصحيح الجامع الصغير (7896)، ورواه أحمد.

تفريقٌ بين المصيرين ، فهذا مصير السعداء المتقين ، في جنان النعيم ، تجري من تحتها الأنهار ، دائمة الظلال والأكل والملذات ، على النقيض من أحوال أهل الجحيم والحسرات .

وفي التنزيل:

1 ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 32 ـ 33].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد ، وأبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [في الجنة شجرةٌ يسيرُ الراكب في ظلها مئة سنة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: 30]][1].

الحديث الثاني: روى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطُون ولا يتغوَّطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جُشَاء كريح المسك ، ويُلهمون التسبيح والتقديس كما يُلهمون النفس][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني والبزار عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل إذا نزعَ ثمرةً من الجنة عادت مكانها أخرى][3].

36 ـ 37. قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3252) ، ومسلم (2826) ، والترمذي (2523) ، وأحمد (2/ 418) من حديث سهل بن سعد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2835) ، وأبو داود (4741) ، وأحمد (3/ 316) ، وغيرهم.

(3) أخرجه الطبراني (1449) والبزار (3530) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (10/ 414) وقال: رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال: «عيد في مكانها مثلاها» ، ورجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات.

مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى فرح الصحابة بهذا القرآن ومسارعتهم للعمل به، ومن أهل الكتاب وغيرهم من الطوائف من ينكر بعض ما في القرآن ظلماً وزوراً، فأعلن ـ يا محمد ـ إفرادك الله بالتعظيم والدعاء، فإليه الرجوع والمآب. لقد شرّفك ربك ـ يا محمد ـ بهذا القرآن المحكم بلسان العرب فحذار متابعة أهل الأهواء بعدما جاءك من العلم، فإنه لا ناصر لك حينئذ ولا يقيك من الله واق.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ـ يعني الصحابة فرحوا بالقرآن وعملوا به. قال قتادة: (أولئك أصحاب محمد ﷺ، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدّقوا به).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ ـ يعني اليهود والنصارىٰ وغيرهما من الطوائف.

قال مجاهد: (من أهل الكتاب، و﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾، أهل الكتب يقرّبهم تحزُّبهم. ﴿يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ قال: بعض القرآن).

وعن ابن زيد: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، قال: هذا مَنْ آمَنَ برسول الله ﷺ من أهل الكتاب، فيفرحون بذلك. وقرأ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: 40]. وفي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، قال: ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾، الأممُ، اليهود والنصارىٰ والمجوس، منهم من آمن به، ومنهم من أنكره).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

أي: قل لهم يا محمد، أما أنا فأفرد الله تعالىٰ بالتعظيم والعبادة ولا أشرك به، وإلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناس، إليه مصيري ومآلي ومرجعي.

قال قتادة: (﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، وإليه مصير كلّ عبد).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾. قال النسفي: (حكمة عربية مترجمة بلسان العرب).

وقال ابن كثير: (أي: وكما أرسلنا قبلكَ المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من

السَّماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحكماً مُعْرباً ، شرّفناك به وفَضَّلْنَاك على من سِواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجَليّ الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : 42]) .

وقيل: نظم الآية ـ (وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً ، أي بلسان العرب ، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام) ـ حكاه القرطبي .

قلت: والبيان القرآني يحتمل كل ما سبق من التأويل ، فالقرآن كلام عربي مبين يفصل بين الحق والباطل ، ويحكم على كل شيء ، وفيه حكمة بالغة لكل شيء ، أنزله الله بلسان عربي فصيح ، لغة نبينا محمد ﷺ.

وقوله : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ .

قال القاسمي : (أي : لئن تابعتهم على دين ، ما هو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج ، فلا ينصرك ناصر ، ولا يقيك واق. وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب ، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان) .

38 ـ 40 . **قوله تعالى** : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: ردُّ الله على المشركين رفضهم النبوة إلا من مَلَك ، بإثبات بشرية الرسول شأن الرسل قبله : يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم ، وما يقدر رسول أن يأتي بآية أو معجزة إلا بأمر الله ، ولكل أجلٍ أمرٍ قضاه الله كتابٌ قد كتبه تعالىٰ فهو عنده. وهو تعالى ينسخ الشرائع ويثبت ما يشاء منها وعنده أم الكتاب .

إن الذي عليك ـ يا محمد ـ هو تبليغ الرسالة سواء أراك ربك مصارع المعاندين أو توفاك قبل ذلك ، فإلى الله الإياب وعليه الحساب .

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾. أي: إن شأنك يا محمد شأن الرسل الذين أرسلناهم قبلك، كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية.

قال القاسمي: (وهو ردٌّ لقولهم: لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، وإعلامٌ بأن ذلك سنة كثير من الرسل، فما جاز في حقهم لمَ لا يجوز في حقه؟ وقد قال تعالىٰ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: 110]).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وما يقدر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أن يأتي أُمَّتَهُ بآية وعلامة، من تسيير الجبال، ونقلِ بَلْدَةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء الموتىٰ، ونحوها من الآيات، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، يقول: إلا بأمر الله الجبال بالسير، والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيا، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يقول: لكل أجلِ أمرٍ قضاه الله، كتابٌ قد كتبه فهو عنده).

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ له أكثر من تأويل عند المفسرين:

التأويل الأول: قيل يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغَيّران.

قال ابن عباس: (يدبر الله أمر العبادة، فيمحو ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت). وفي لفظ: (يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت). وقال مجاهد: (إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة، فإنهما لا يتغيران).

التأويل الثاني: يمحو الله ما يشاء ويثبت من كتاب سوىٰ أم الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ، فكأن المحو والإثبات من الصحف التي بأيدي الملائكة.

قال عكرمة: (الكتاب كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب).

التأويل الثالث: قيل بل يمحو كلّ ما يشاء، ويثبت كل ما أراد.

يروي ابن جرير بسنده عن أبي عثمان النَّهدي: (أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقْوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة).

ثم روىٰ عن ابن عباس قوله: (هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلاله، فهو الذي يمحو. والذي يثبت: الرجل يعملُ بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، فهو الذي يثبت).

التأويل الرابع: قيل بل معنى ذلك يمحو من قد حان أجله ويثبت من لم يجئ أجله إلى أجله.

قال الحسن: (يمحو من جاء أجله فذهب، والمثبت الذي هو حيّ يجري إلى أجله).

التأويل الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفر. فعن عطاء، عن سعيد قال: (يثبت في البطن الشقاء والسعادة، وكلَّ شيء، فيغفر منه ما يشاء، ويؤخر ما يشاء).

التأويل السادس: ينسخ الله ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه.

قال ابن عباس: (﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب).

قلت: والسياق يدل على التأويل السادس، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ـ فيه إخبار أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله الذي قدّر للشرائع أجلاً وغاية ثم ينسخها بالشريعة الأخرىٰ ويثبت ما يشاء منها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾. ـ خطاب للنبي ﷺ للقيام ببلاغ قومه وإنذارهم والله يتولىٰ مكرهم وحسابهم. قال النسفي: (وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ـ فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ ـ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهّمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم).

41 ـ 43. **قوله تعالى**: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تَهْدِيدٌ للمشركين وتَوَعُّدٌ لهم! أو لم يروا كيف نفتح لمحمد ﷺ فتحاً بعد فتح حتى أوشك الفتح أن يطال أرضهم؟ والحكم لله وهو سريع الحساب. وقد مكر الطغاة في الأمم قبلهم فأحاط بهم مكر الله وطوّقهم وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة الحميدة. وما يزال هؤلاء الكفرة يكذبون نبوتك ـ يا محمد ـ فقل حسبي الله يشهد بما أرسلني به، وكذلك يشهد علماء أهل الكتاب بما يجدونه في كتبهم من صدق رسالتي ونبوتي ونعتي.

فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أولم ير مشركو مكة كيف نفتح لمحمد ﷺ أرضاً بعد أرض حتىٰ أوشك أن يفتح أرضهم وهم لا يزالون متنطعين يسألون الآيات.

قال ابن عباس: (﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾، قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض). قال: (يعني بذلك ما فتح الله على محمد. يقول: فذلك نُقْصَانها).

وقال الحسن: (هو ظهور المسلمين على المشركين). وقال الضحاك: (يعني أن نبي الله ﷺ كان يُنْتَقَصُ له ما حوله من الأرَضِين، ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون، قال الله في «سورة الأنبياء»: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: 44]، بل نبي الله ﷺ وأصحابه هم الغالبون).

التأويل الثاني: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرِّبها، فأوشكوا أن نخرب أرضهم ونهلكهم؟ قال ابن عباس: (أولم يروا إلى القرية تخربُ حتىٰ يكون العُمْران في ناحية؟).

وقال مجاهد: (﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾، قال: خرابُها). وقال ابن جريج: (خرابُها وهلاك الناس). وقال عكرمة: (تُخرب من أطرافها).

التأويل الثالث: ننقص من بركتها وثمرتها وأهلها بالموت.

قال الشعبي: (لو كانت الأرض تُنْقَص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تُنْقَصُ الأنفس والثمرات). وقال مجاهد: (﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال: في الأنفس، وفي الثمرات، وفي خراب الأرض). وعن ابن عباس: (يقول: نقصان أهلها وبركتها). وقال عكرمة: (هو قَبْضُ الناس). وقال: (هو الموت. ثم قال: لو كانت الأرض تنقص لم نجد مكاناً نجلسُ فيه).

التأويل الرابع: ننقصها بذهاب فقهائها وخِيارها.

قال عطاء، عن ابن عباس: (ذهابُ علمائها وفقهائها وخِيار أهلِها).

وقال مجاهد فيها: (موتُ العلماء).

قلت: والتأويل الأول أقواها وأنسبها للسياق، فالآيات قبلها في تهديد المشركين وتوعدهم، واختاره ابن جرير، وابن كثير وقال: (والقول الأول أولىٰ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية. كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: 27] الآية). واختاره النسفي وقال: (﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة، والمعنى عليك البلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال القرطبي: (أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بَنان).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لمشركي مكة في مكرهم وغيّهم وعنادهم، شأن من سبقهم من أقوام الرسل وتمادوا في الغيّ والكبر والمكر، فحاق المكر بأهله ونصر الله تعالى الرسل ونجّاهم من ذلك المكر وجعل العاقبة للمتقين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: 50 ـ 52].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 ـ 16].

وفي صحيح السنة في مفهوم المكر والكيد من الله بالكافرين أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافىٰ به يوم القيامة](1).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نَسِيَ ذكَّره، وإن ذكرَ أعانه، وإذا أراد به غيرَ ذلك جعلَ له وزيرَ سوء، إن نَسِيَ لم يذكِّرْه، وإن ذكر لم يُعِنْه](2).

الحديث الثالث: أخرج الشيخان من حديث أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته](3).

فقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ـ كما قال القرطبي: (أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه). وقال القاسمي: (﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره، وأنه مما لا يسوء، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال، وهم نائمون على فرش الإمهال، مما لا يخطر لهم على بال، كما يومئ إليه قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي (2/ 64)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (154)، وأخرجه ابن حبان (2455)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 274).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2932) ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ـ. باب في اتخاذ الوزير.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وأخرجه ابن ماجة (4018)، وابن حبان (5175)، والبيهقي (6/ 94).

نَفْسٍۢ﴾ أي فيوفيها جزاءها المعدّ لها على ما كسبت من فنون المعاصي التي منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

إِخْبَارٌ عن تكذيب الكفار برسالة النبي ﷺ ونبوته ـ فقل لهم يا محمد ـ: حسبي الله يشهد بما أرسلني به ، وكذلك يشهد بذلك علماء أهل الكتاب فيما يجدونه عندهم من صدق رسالتي ونبوتي ونعتي.

قال القرطبي: (وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب ـ من آمن منهم ـ في التفاسير).

تم تفسير سورة الرعد
بعون الله وتوفيقه ، وواسع مَنِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ استواء الله على عرشه ، حقيقة بلا تكييف ولا تمثيل ولا تجسيم .

2 ـ المخلوقات دالة على الخلاق العظيم ، ومن بدأ الخلق يعيده ولا عجب .

3 ـ المشركون يستعجلون عذاب الله تحدياً وعناداً وتكذيباً ، والله أعلم وأكبر من كل شيء .

4 ـ لكل إنسان قرينٍ من الجن وقرين من الملائكة . فالشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، والمَلَكُ يبثُّ الأمل ويحث على الطاعة .

5 ـ السحاب الثقال هي الثقيلة بالماء . والرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب .

6 ـ مثل الحق كالماء الصافي والذهب الخالص ، ومثل الباطل كالزبد المضمحل .

7 ـ الجنة لمن استجاب للحق ، والنار لمن لم يستجب .

8 ـ المؤمن : مصل ، منفق ، خاشع ، صابر ، محسن لمن يسيء إليه .

9 ـ المعجزات لا تنفع قوماً صمّوا آذانهم عن الهدى وأقفلوا قلوبهم عن الحق .

10 ـ قلوب المؤمنين تسكن وتطمئن عند ذكر الله .

11 ـ القرآن أفضل الكتب السماوية المتقدمة ، لإعجازه الجن والإنس ، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غير هذا القرآن أضله الله وأخزاه .

12 ـ المتبع أهواء الكافرين ماله من نقمة الله من واق .

13 ـ أم الكتاب : هي علمه تعالىٰ الذي لا يتغير ولا يمحىٰ .

14 ـ ليس لأحد أن يتعقب حكم الله فيرده لقول أحد من خلقه .

15 ـ شهادة الله لنبيه محمد ﷺ بالرسالة والنبوة كافية كاملة ، وهي فوق كل شهادة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها(52)

موضوع السورة

ملة الخليل إبراهيم ، ملة التوحيد لله والتعظيم
والنصر للمؤمنين والخزي للكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالى للقرآن العظيم ، الذي يخرج الناس بإذن الله الملك من الظلمات إلى النور المبين.

2 ـ الكفار اختاروا الدنيا على الآخرة ، وصدوا عن سبيل الله ، وهم أهل الضلال البعيد.

3 ـ حمكة الله في إرسال كل رسول بلغة قومه لإقامة حجته تعالىٰ عليهم.

4 ـ إرسال الله نبيّه موسىٰ بآياته ، وتذكيره قومه بأنعم الله عليهم.

5 ـ قضاء الله مقابلة شكره بمزيد عطائه ، وهو سبحانهُ الغني الحميد.

6 ـ إخبار الله تعالى عن أقوام سالفة تتابعوا على تكذيب الرسل ، وقابلهم رسلهم بالصبر والتوكل على الله ، حتىٰ نزل نصر الله.

7 ـ استكبار الكافرين وتهديدهم لرسلهم ، والخزي و النكال والدائرة عليهم ، وأعمال الكفار كالرماد تحمله الريح العاصفة لا انتفاع لهم بها في الآخرة.

8 ـ تنبيه الله العبادَ على قدرته العجيبة بخلق السماوات والأرض ، وأنه لو شاء أهلكهم وجاء بغيرهم.

9 ـ تصوير الله خروج الكفار للحشر ، وتقابل الرؤساء والضعفاء في مشهد الذل ، والمؤمنون في جنات النعيم.

10 ـ مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، وقلوب العباد بيد الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعدله وحكمته.

11 ـ تغيير الكفار نعمة الله على أقوامهم بجحدهم النبوة ، وإصرارهم على الشرك باللهِ ، ومآلهم إلى نار الجحيم.

12 ـ أَمْرُ الله عبادهُ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله قبل مجيء يوم انعدام البيع والصحبة.

13 ـ نعم الله على العباد لا يمكن إحصاؤها ، وإن الإنسان لظلوم كفار.

14 ـ دعوة أبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بجعل البلد الحرام آمناً وتجنيبه وولده عبادة الأصنام ، وجعل الأفئدة من الناس تهوي قلوبهم قصد البيت الحرام ، وببسط الرزق عليهم من كل مكان.

15 ـ تسلية الله نبيّهُ بأنه تعالى غير غافل عما يمكر الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم الخزي والندامة الواقع بالمجرمين.

16 ـ وَعْدُ الله نبيّه النصر الأكيد المبين ، واللهُ عزيز ذو انتقام.

17 ـ نَعْتُ الله تعالى يوم تبدل السماوات والأرض ، للقيامِ ليوم الحشر.

18 ـ المجرمون يوم الحساب مصفّدونَ بالأغلال ، وسرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار.

19 ـ كل نفس يوم القيامة بما كسبت رهينة ، واللهُ سريعُ الحساب.

20 ـ هذه السورة تحمل النذارة للناس ليتداركوا أنفسهم بإفراده تعالى بالعبادة والتعظيم ، قبل أن ينزل بهم العقاب الأليم.

❑ ❑ ❑

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

1 ـ 3. **قوله تعالى**: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآيات: انْتِصارُ الله تعالى للقرآن العظيم ، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور المبين ، بإذن الله مالك السماوات والأرض وللكافرين عذاب أليم. الذين اختاروا الدنيا على الآخرة ومضوا يصدون الناس عن سبيل الله يبغون إشاعة الكفر والفواحش في الأرض ، أولئك أهل الضلال البعيد.

وقوله: ﴿الٓر﴾. قد سبق القول في الحروف المقطعة أوائل السور ، وأن فيها بياناً لإعجاز هذا القرآن المؤلف من جنس هذه الأحرف ، ولا يستطيعُ أحد أن يُرَكِّبَ من مثل هذه الحروف سورة من مثله.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾. تأكيد للمعنىٰ السابق ، وانتصار لهذا القرآن ، أنزله اللهُ عليكَ ـ يا محمد ـ فهو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، واختار لحملِهِ وتلقيه منه أشرف رسول ، بعثهُ الله تعالى إلى العالمين ، وختم به النبوة والرسالة إلى الثقلين.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: لتهديهم بـه من ظلمات الضلالـة والكفر ، إلى نور الإيمان وضيـائـه ، وتُبَصِّرَ به أهل الجهل والعمىٰ سُبل الرَّشاد والهُدَىٰ).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: 11].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

قال ابن القيم رحمه الله: (فأولياؤهم يعيدوهم إلى ما خلقوا فيهِ من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرقَ لهم نورُ النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدّوهم، فذلكَ إخراجهم من النور إلى الظلمات)[1].

وفي صحيح السنة في مفهوم النور والظلمة أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضي اللهُ عَنْهُما، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقهُ في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلكَ النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضَلَّ][2].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه من حديث عياض، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاءَ كُلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل بهِ سلطاناً][3].

---

(1) انظر «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص (5)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 69).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176ـ 197)، وابن حبان (1812)، والحاكم (1/ 30)، وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة(1076).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2865)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 266).

قلت: فالظلمة هي ظلمةُ الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات.

والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله، الذي أخذه سبحانهُ على عباده بِنَعْمانَ وهو واد إلى جنب عرفات.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [أخذ اللهُ تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بِنَعمان ـ يعني عرفة ـ (وفي رواية: يوم عرفة). فأخرج من صُلْبِهِ كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديهِ كالذر ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾][1].

ووَحَّد سبحانه لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: 48]، مما يدل على شرف النور وتفرد الحق، وانتشار الباطل وتشعبه.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

إشارة إلى المشيئة الإذنية: وهي المشيئة المرتبطة بعلم الله وعدله وحكمته، فما أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله، ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله، بل الكل داخل في اختيارهِ تحت مشيئتهِ سبحانه.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: 64].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، يعني بتوفيق ربهم لهم بذلكَ ولطفهِ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 272)، والنسائي في «الكبرى» (11191)، والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1623).

بهم ، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ، يعني : إلى طريق الله المستقيم ، وهو دينهُ الذي ارتضاهُ ، وشَرَعَهُ لخلقه) .

وقوله : ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ أي ملكاً وخلقاً وتصريفاً وتدبيراً . قرأه قراء المدينة والشام برفع اسم الجلالة ﴿اللهُ﴾ على الابتداء ، وقرأهُ قراء العراق والكوفة والبصرة بالخفض : ﴿اللهِ﴾ على البدل ، وكلاهما قراءتان مشهورتان .

وقولهُ : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ .

تَـوَعُّـدٌ وتَهْدِيدٌ للكفار من سوء العذاب يوم القيامة . قال الزجاج : (﴿وَوَيْلٌ﴾ هي كلمة تقال للعذاب والهلكة) .

وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ـ نَعْتٌ لأولئك الكفار ، إذ اختاروا الحياةَ الفانية في هذه الدار الزائلة ، على الحياة الأبدية السرمدية في الدار الآخرة الباقية ، ولم يكتفوا بكفرهم وجنايتهم على أنفسهم ، بل استطالوا على أهل العلم والحق لصدهم عن الدعوة إلى الله ، مستخدمينَ بذلكَ كل أساليب الظلم والمكر لصد الناس عن سبيل الله ودينه الحق . قال القرطبي : (﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم) .

وقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ . أي في ذهاب عن الحق بعيد ، وجور عن قصد السبيل ، وتخبط في الظلمات والأهواء والفتن .

4 ـ 5 . **قوله تعالى** : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ .

في هذه الآيات : تقديرُ الله تعالى حكمتهُ في إرسال كل رسول بلسان قومه ولغتهم ليبينَ لهم ويقيم عليهم حجة الله البالغة ، فمن اهتدىٰ فبتوفيق الله له ومن ضلّ فبعقوبة الله له واللهُ عزيز حكيم . وإِخْبارُ الله سبحانه عن إرساله نبيّه موسىٰ عليه السلام بآياته

ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، وليذكرهم بأنعم الله عليهم، وفي هذا التذكير دلالات لكل صبار شكور.

فقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾.

قال ابن كثير: (هذا مِنْ لُطفِهِ تعالى بخلقه أنَّهُ يرسل إليهم رُسُلاً منهم بلغاتهم لِيفهمُوا عنهم ما يريدونه وما أُرسلوا به إليهم).

وعن قتادة: (﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، الذي أرسل إليهم، ليتخذ بذلكَ الحجة).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: [لم يبعث الله تعالى نَبيّاً إلا بلغةِ قومِهِ][1].

وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

قال النسفي: (﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ من آثر سبب الضلالة، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ من آثر سبب الاهتداء ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾، قال: التسع البيّنات). وفي لفظ قال: (التسع الآيات، الطوفان وما معه).

وعن ابن عباس: (﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، يقول: من الضلالة إلى الهدىٰ).

وقوله: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾. قال مجاهد: (بأنعم الله)، أو قال: (بنعم الله)، وقال: (بالنعم التي أنعم بها عليهم، أنجاهم من آل فرعون، وفلق لهم البحر، وظلَّلَ عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسَّلوىٰ).

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

قال قتادة: (نعم العبد عبدٌ إذا ابتلي صبر، وإذا أُعطيَ شكر).

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ أحمد (5/ 158)، وقال الهيثمي في «المجمع» (11095): (رجاله رجال الصحيح). والحديث يشهد له القرآن ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5073).

وقال الشعبي: (الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شُكْر).

قال القرطبي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في التذكير في أيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله).

قال: (وإنما خصّ بالآيات كل صبار شكور، لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: 45]، وإن كان منذِراً للجميع).

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم ودلالة هذه الآية، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الدارمي في سننه، وأحمد في مسنده، بسند صحيح، عن صهيب قال: [بينما رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! وممّ تضحك؟ قال: عجبتُ لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير، وإن أصابه ما يكره فصبر كان لهُ خير، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][1].

الحديث الثاني: أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، وأبو يعلىٰ بسند رجاله ثقات عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي اللهُ لهُ شيئاً إلا كانَ خيراً له][2].

الحديث الثالث: أخرج الطيالسي والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبتُ للمسلم إذا أصابتهُ مصيبةٌ احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمدَ الله وشكر، وإنّ المسلم يؤجر في كل شيء حتىٰ في اللقمة يرفعها إلى فيه][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (2/ 318)، وأحمد (6/ 16)، وسنده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرج مسلم في صحيحه (8/ 227) نحوه، وهو رواية لأحمد (4/ 332).

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24)، وأبو يعلىٰ (200/ 2)، ورجاله ثقات، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (148).

(3) أخرجه الطيالسي (211) بإسنادٍ صحيح. وانظر صحيح الجامع (3881)، ورواه البيهقي وغيره.

(4) أخرجه الترمذي (2/ 64)، وابن ماجة (4031)، وسنده حسن. وانظر: «الصحيحة» (146).

6 ـ 8. **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

في هذه الآيات: تَذْكِيرُ موسىٰ عليه السلام قومه بنعمة الله الكبيرة عليهم في نجاتهم من فرعون وجنده، الذين كانوا يذيقونهم سوء العذاب ويذبحونَ أبناءهم ويستبقون نساءهم، وفي ذلكم اختبار من الله شديد. وَقَضَاءُ الله تعالى بمقابلة شكره بمزيد عطائه ومقابلة جحد نعمه بالحرمان والعذاب الشديد. وإِعْلانُ موسىٰ عليه السلام لقومِهِ أن الله تعالى غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود ولو كفر جميع خلقه، فإنما مردّ الكفر على أهله.

فعن ابن عيينة: (﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أياديَ الله عندكم وأيّامه).

وقوله: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. أي: حين أنجاكم من أهل دين فرعون وطاعته.

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. أي: يذيقونكم أذل العذاب وأصعبه، حين كانوا يذبحون مَنْ وجد من أبنائكم، ويستبقون إناثكم.

وقد وردت الآية في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وفي الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بلا واو، وهنا في سورة إبراهيم جاءت مع الواو، فيكون التذبيح هنا زائداً على جنس العذاب، في حين يكون مفسراً له حيث ورد بلا واو.

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. أي: اختبار عظيم، وبلاء شديد.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. أي قضىٰ سبحانهُ زيادة نعمه للشاكرين.

قال ابن زيد: (﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾: وإذ قال ربكم، ذلك «التأذن»).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾، أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنىٰ: وإذ أقسم ربكم وآلىٰ بعزَّته وجَلاله وكبريائه، كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: 167]. وقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها).

وقوله: ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

أي: وإن جحدتم النعم ولم تؤدوا شكرها قابلكم ربكم بحرمانها أو بتسليط العذاب عليكم، فإن النعم تُقابل بالشكر لا بالتمرد والعصيان.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكلَ الأكلةَ فيحمده عليها، ويشربَ الشربةَ فيحمدهُ عليها][1].

الحديث الثاني: أخرجَ أبو داود بسند صحيح عن أبي أيوب الأنصاري، قال: [كان رسول الله ﷺ، إذا أكل أو شرب، قال: الحمدُ لله الذي أطعم وسقىٰ، وسَوَّغَه وجعلَ له مَخْرَجاً][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي أمامة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا رُفعت المائدة قال: «الحمدُ لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غيرَ مَكْفِيٍّ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مستغنىٰ عَنْهُ، ربَّنا»][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: [كان رسول الله ﷺ إذا استجدَ ثوباً سماهُ باسمه: إما قميصاً أو عمامة، ثم يقول: اللهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم ـ في الصحيح (8/ 87) ـ. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1305) كتاب الأطعمة، باب: في الحمد لله على الأكل والشرب.

(2) حديث صحيح. أخرجهُ أبو داود (3851)، كتاب الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3284)، كتاب الأطعمة، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام.

لكَ الحَمْدُ أَنْتَ كسوتَنيهِ ، أَسألُك مِنْ خَيْرِه وخَيْرِ ما صُنِعَ له ، وأعوذُ بك من شرِّه وشَرِّ ما صنِعَ له][1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

المقصود : أن الله تعالى غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ولو كفر جميع خلقهِ ، فإنما مردّ الكفر على أهله .

يروي ابنُ جرير بسندهِ عن أبي روق ، عن أبي أيوب ، عن علي : (﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ ﴾ ، قال غني عن خلقه ، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ ، قال : مُسْتَحْمِدٌ إليهم) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر : 7] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : 6] .

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ أنه قال : [يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلكم وآخركُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل منكم ما زاد ذلكَ في ملكي شيئاً . يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانوا على أفجرِ قلب رجل منكم ما نقصَ ذلكَ في ملكي شيئاً . يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلكُم وآخِركم وإِنْسَكُم وجِنكم قامُوا في صَعيدٍ واحِدٍ فسَأَلُوني فأعطيتُ كُلَّ واحد مَسْألته . ما نقص ذلكَ من مُلكي شيئاً ، إلا كما ينقصُ المِخيَطُ إذا أُدْخِلَ في البحر . . .] الحديث[2] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرةَ قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله تعالى : إذا أحب عبدي لقائي أحببتُ لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهتُ لقاءه][3] . ورواهُ البخاري والنسائي .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4020)، كتاب اللباس، وأخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (1838) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (17/8) ، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160) .

(3) حديث صحيح . أخرجهُ البخاري (7504)، كتاب التوحيد ، ورواهُ أحمد والنسائي ومالك في الموطأ وغيرهم . انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ(4179) .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! مهما عَبَدْتني ورجوتني ولم تُشرِكْ بي شيئاً غفرتُ لكَ على ما كان مِنْكَ، وإن استقبلتني بمِلءِ السماء والأرض خطايا وذُنوباً استقبلتكَ بملئِهنَّ من المغفرة، وأغفِرُ لكَ ولا أُبالي][1].

9 ـ 12. **قوله تعالى**: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالى عن أقوام سالفة لا يعلم عددهم إلا الله رَدُّوا رسلهم بعدما جاؤوهم بالحجج البينات والدلائل القاطعات، وواجهوهم بالتشكيك والتكذيب، وطالبوهم بالمعجزات والخوارق، فقابلهم الرسل بالصبر على الأذىٰ والتوكل على الله، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

فقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ـ خبر من الله تعالى عن هذه الأقوام المكذبة للرسل ـ قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ـ لا يعلم ولا يحصي عددهم إلا الله.

(1) حديث صحيح. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (3365)، وانظر المرجع السابق (4217).

وقوله: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾. قال ابن جرير: (يعني بِحُجَجٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه معجزات).

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل محتمل:

التأويل الأول: عن أبي الأحوص، عن عبد الله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، قال: (عضوا عليها تَغَيُّظاً). أو قال: (عضوا على أناملهم). أو قال: (عضوا على أطراف أصابعهم).

وقال ابنُ زيد: (أدخلوا أصابعهم في أفواههم. وقال: إذا اغتاظ الإنسان عضَّ يده).

التأويل الثاني: عن ابن عباس: (﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، قال: لما سمعوا كتاب الله عجِبوا، ورَجعوا بأيديهم إلى أفواههم).

التأويل الثالث: عن مجاهد: (﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، قال: ردوا عليهم قولهم وكذّبوهم). وقال قتادة: (كذبوا رسلهم وردّوا عليهم ما جاؤوا به من البينات، وردّوا عليهم بأفواههم، وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾).

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾.

إِخْبَارٌ عن قيل أولئك الأقوام الذين صرحوا لرسلهم بكفرهم بما أرسلوا به، يقولون: لسنا مصدقين لكم فيما جئتم به، بل عندنا شك قوي فيما تدعوننا إليه.

وقوله: ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾. يحتملُ شيئين في التأويل:

1 ـ أفي وُجود اللهِ شك؟ وقد جُبلت الفِطر على الإقرار بوجوده، فإن عرض لها اضطراب فذكرتهم الرسل بما يدلُ عليه ويوصل إليه وهو أنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ـ مبدعهما وموجدهما ومن فيهما، إذْ لا بُـدَّ لذلكَ من صانع، ألا وهو الله لا إله إلا هو.

2 ـ أفي إلاهِيَّتِهِ وتفرّده بالعبادة والتعظيم شك؟ فإن تفرّده بالخلق والملك والتدبير، يقتضي تفرده بالتعظيم والدعاء والعبادة.

وقوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

قال القاسمي: (أي: يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا، لا أنّا ندعوكم إليهِ من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمىٰ).

وقال ابن جرير: (يقول: يدعوكم إلى توحيدهِ وطاعته، ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾، يقول: وينسئ في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتَبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيه، وهو الأجل الذي سمّىٰ لكم).

وفي التنزيل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3].

وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أجابهم القوم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة أو خلقاً خارقاً، ومن ثمَّ فلا فضلَ بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا، فلم تُخصونَ بالنبوة والرسالة دوننا، وإنما تريدون صرفنا عن عبادة ما كان يعبدهُ آباؤنا من الأوثان، فأتونا بحجة بينة تثبت صدق ما تدعوننا إليه.

قال النسفي: (﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

إِخْبَارٌ عن إجابة رسلهم لهم، قالوا: صحيح أنّا بشرٌ مثلكم، وإنما يمنّ اللهُ بالرسالة والنبوة على من يشاء من عباده، فيصطفي لذلكَ من شاء من خلقه، ولا طاقة لنا كبشر على استحضار الآيات والمعجزات إلا بإذن الله لنا وتقديرِهِ وتوفيقه، وما ثقتنا إلا باللهِ، عليهِ نتوكل وبه نستعين، شأن جميع المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هو من تمام قيل الرسل لأممها: وَلِمَ لا نثقُ كُلَّ الثقة بالله، ونستجير برحمته ونستعين بعنايته وكفايته ونصره، وهو الذي عَرَّفنا سبيل النجاة من سخطهِ وعذابه، وطريق السعادةِ في الدنيا والآخرة، وإنا سنتابعُ الطريق في دعوته متحمِّلين كل ألوان

الأذىٰ وما تلقوننا به من المكروه والمكر ، وإنما يتوكل على الله المتوكلون.

13 ـ 18. **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: استِكْبَارُ الكافرين وتهديدهم لرسلهم ، وتَثْبِيتُ الله المرسلين بأن الدائرة ستكونُ على معانديهم ، الخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. إنما مثل أعمال الذين كفروا بربهم وكذبوا رسله كالرماد تحمله الريح العاصفة فتنثره لا يقدرون على جمعه ، وكذلك يجد الكافرون أعمالهم يوم القيامة هباءً منثوراً لا سبيل للانتفاع بها أحوج ما يحتاجون إلى نفعها.

فقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

هو نَعْتُ صنيع الأمم برسلها بعد التكذيب والعناد ، فهم يلجؤون إلى التضييق والتهديد إن لم يحصل للملأ الكافر الانقياد ، وقد وصف الله هذا المسلك من الطغاة عبر الزمان في آيات كثيرة:

1 ـ قال تعالى ـ في شأن شعيب وتكذيب قومه له ـ: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

2 ـ وقال تعالى ـ في شأن لوط وتكذيب قومه له ـ: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

3 ـ وقال تعالى ـ في شأن نبينا محمد ﷺ مع قومه ـ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 76].

وقال أيضاً: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

وقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هو فَصْلُ الأمر من الله تعالى تجاه مكر القوم والملأ الكافر برسولهم، بأنه تعالى سيهلك القوم الذين ظلموا وطغوا وأفسدوا في البلاد، وحاربوا الرسل وهم يدعونَ إلى دين الواحد الأحد.

وقوله: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ ـ هو من تمام وعد الرحمن للمؤمنين الصابرين.

قال قتادة: (وعدهم النصرَ في الدنيا، والجنة في الآخرة).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾. قال القرطبي: (أي مقامه بين يديّ يوم القيامة). والوعيد: الاسم من الوعد.

قال الأخفش: (﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي عذابي، ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي القرآن وزواجره).

وقيل: (﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي قيامي عليه، ومراقبتي له). كما في التنزيل: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرعد: 33].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قال مجاهد: (﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾، قال الرسل كلها. يقول: استنصروا، ﴿ عَنِيدٍ﴾، قال: معاند للحق مجانبه). قال القرطبي: (﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستنصروا. أي أُذِن للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم).

قال ابن عباس: (كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرُونهم ويكذبونهم، ويدعونهم إلى أن يعودوا في مِلَّتهم، فأبىٰ اللهُ عز وجل لرسلِهِ وللمؤمنين أن يعودُوا في مِلَةِ الكفر، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يُسْكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز الله لهم ما وعدهم، واستفتحوا كما أمرهم أن يستفتحوا، وخاب كل جبار عنيد).

قال إبراهيم: (﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، قال: هو الناكب عن الحق). وقال قتادة: («الجبار العنيد»، الذي يأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: وراء هذا الكافر جهنم بعد هلاكه، وشرابه ماء كالصديد وهو ما يسيلُ من أجسام أهل النار من القيحِ والدم. قال قتادة: (والصديد: ما يسيل من لحمه وجلده).

وعن مجاهد: (﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: قيح ودم)، وقال الضحاك: (يعني بالصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم).

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

أي: يتحسَّاه جُرَعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته، ولا يكاد يبتلعه لشدةِ أذاه، بل يتغصَّصُه ويتكرّهه.

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

قال ابن عباس: (أنواع العذاب التي يُعذِّبهُ اللهُ بها يوم القيامةِ في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموتُ، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: 36]).

وعن ميمون بن مِهران: (﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، قال: مِنْ كُلِّ عظم، وعِرْقٍ، وعَصَبٍ).

وقال عكرمة: (حتىٰ من أطراف شعره). وقال إبراهيم التيميّ: (من موضع كل شعرة، أي: من جَسَدِه، حتى من أطراف شعره). وقال ابن جرير: (أي: من أمامه وورائه، وعن يمينهِ وشماله، ومن فَوقِه ومن تحتِ أرجُلِه، ومن سائر أعضاء جسده).

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. أي: وله بعد ما هو فيه من سوء الحال، عذاب أغلظ وأشد. قال ابن كثير: (أي: وله من بعد هذا الحال عذابٌ آخرُ غليظٌ، أي: مؤلم صعب شديدٌ أغلظ من الذي قبله وأدهىٰ وأمرُّ. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64 ـ 68]. فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارةً يردون إلى الجحيم، عياذاً باللهِ من ذلك).

وفي التنزيل أيضاً:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 41 ـ 44].

2 ـ وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: 55 ـ 58].

وفي صحيح مسلم من طريق النعمان بن بشير مرفوعاً: [إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغهُ كما يغلي المرجل، ما يَرى أن أحداً أشدُّ منهُ عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً]. ورواه البخاري(1).

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: الذين كفروا بربهم وعبدوا غيره، فأعمالهم يوم القيامةِ كرماد اشتدت به الريح في يومٍ عاصف، لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم، كما لا يُقْدَر على الرماد إذا أُرْسِلَ في يوم عاصف).

وعن ابن جريج: (﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، قال: حملتهُ الريح في يومٍ عاصف).

والمقصود: هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عظموا غيره سبحانهُ، أو أشركوا في عبادته، وكذبوا رسله، فإنهم يرون أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم كالرماد تحمله الريح العاصفة فتنثره لا يقدرون على جمعهِ في ذلكَ اليوم، وكذلكَ أعمالهم يجعلها اللهُ هباءً منثوراً، ولا يقدرونَ على الانتفاع بها يوم الحساب أحوج ما يحتاجون إلى ذلك.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: 117].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (6561) ـ (6562) ـ كتاب الرقاق ـ ومختصر صحيح مسلم، حديث رقم، (99) ـ (100).

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يظلم مُؤمِناً حَسَنَةً يُعطي بها في الدنيا ويَجْزِي بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة، لم تكنْ له حسنةٌ يُجْزَىٰ بها][1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ـ إشارة إلى انحراف سعيهم عن منهج النجاة، وكون أعمالهم على غير أساس واستقامة، ففقدوا الثواب، وبطل العمل وحصل الندم وانقطع الأمل.

19 ـ 20. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)﴾.

في هذه الآيات: تنبيه الله تعالى على قدرته العجيبة في خلق السماوات والأرض ليدرك العباد ضعفهم وعجزهم، وأنه تعالى لو شاء أهلكهم وذهب بهم وجاء بغيرهم، وما ذلكَ عليه بعزيز.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ـ إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وثبوت المعاد.

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات التي هي أكبرُ من خلقِ الناس، أفليس الذي قَدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتّساعها وعَظَمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلِفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرضُ بما فيها من مهادٍ ووهادٍ، وأوتادٍ وبَرَاريَّ وصحارَىٰ وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوانٍ، على اختلاف أصنافها ومنافِعها، وأشكالها وألوانها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808)، كتاب صفات المنافقين. باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يسۤ: 77 ـ 83]).

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي اللهُ عَنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولم يَكُنْ له ذلكَ، وشتمني، ولم يكن لهُ ذلك، فأما تكذيبهُ إيايَّ فزعمَ أني لا أقدِرُ أن أعيدَهُ كما كانَ، وأما شَتْمُهُ إيايَ، فقولهُ: لي ولد، فسبحاني أن أتّخِذَ صاحبة أو ولداً][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ تعالى: يؤذيني ابنُ آدم، يقول: يا خيبةَ الدهر! فلا يقولنَّ أحدُكم: يا خيبة الدهر! فإني أنا الدهرُ، أقلِّبُ ليلهُ ونهارهُ، فإذا شئتُ قبضتهما][2].

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

قال النسفي: (أي هو قادرٌ على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم إعلاماً بأنه قادرٌ على إعدام الموجود وإيجادِ المعدوم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 15 ـ 17].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4482) ـ كتاب التفسير ـ باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: 116].

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (7/ 45) من حديث أبي هريرة. انظر مختصر صحيح مسلم (1813) ـ كتاب البر والصلة ـ باب: النهي عن سبّ الدهر.

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: 38].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: 133].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: 54].

وكذلكَ قال القرطبي: (﴿ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل وأطوع منكم، إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدةَ في الإبدال. ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي منيع متعذر).

21 ـ 23. **قوله تعالى**: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تصوير الله خروج الكفار من قبورهم ليوم الحشر، وتقابل الأتباع الضعفاء مع المتبوعين المستكبرين الرؤساء، وتبرؤ الكبراء من الضعفاء، وكذلكَ تبرؤ الشيطان من أتباعه، والظالمون في عذاب أليم، والمؤمنون في جنات النعيم.

فقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾. قال ابن جرير: (وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامةِ من قبورهم، فصاروا بالبراز من الأرض ﴿ جَمِيعًا ﴾ يعني كلهم).

وقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾.

قال ابن جريج: (﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾، قال الأتباعُ، ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾، قال: للقادة). أي: قال التُّباع ـ حين برزوا لله جميعاً للحساب ـ للمتبوعين الطغاة المتكبرين عن اتباع الرسل وإقامة دين الله وشرعه في الأرض والحكم به، إنا كنا لكم تبعاً في الدنيا نمضي بأمركم وننفذ مكركم، فهل أنتم دافعون عنا اليوم من عذاب الله من شيء.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾.

قال النسفي: (أي لو هدانا اللهُ إلى الإيمانِ في الدنيا لهديناكم إليه، أو لو هدانا اللهُ طريق النجاةِ من العذابِ لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاةِ كما سلكنا بكم طريق الهلكة).

وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

أي: إن الجزع والصبر سواء في حق من كتب اللهُ عليه النار، إذ لا منجىً ولا ملجأ ولا مهرب من أمر الله الذي قد قضاه على الكافرين، وهذه المراجعة يمكن أن تكونَ قبل دخولهم النار وبعده.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: 47 ـ 48].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: 31 ـ 33].

3 ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: 38 ـ 39].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

تَنَصُّلٌ من إبليس اللعين ، من أتباعِهِ الذين أطاعوه وكانوا من حزبِهِ المشين ، بعد أن قُضِيَ الأمر ودخلَ أهل الجنة الجنةَ وأهل النار الجحيم ، فخاطب الأتباع: إن الله وعدكم معشر الأتباع النار ، ووعدتكم النصرة والتأييد والدفاع عنكم ، فأخلفتكم وعدي ، وصدق اللهُ وعده لكم. قال النسفي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفىٰ لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾. أي: وما كان لي عليكم من تسلط واقتدار لأجبركم على شيء مما دعوتكم إليه ، وإنما هي وسوستي لكم ، وتزييني لضلالكم وانحرافكم فأسرعتم في إجابتي وتركتم تحذير الله لكم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. فلا تلقوا اللوم عليّ بل لوموا أنفسكم إذ جئتموني من غير حجة.

وقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

أي: ما أنا بمغيثكم ، ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله فمنجيَّ منه. وفي كلام العرب: أصْرَخْتُ الرجل إذا أغثتُه. والمُصْرِخ المغيث.

وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال ابن جريج: (إني كفرتُ اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشرك باللهِ تعالى).

وقال قتادة: (إني عصيت الله). وقال الثوري: (كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول: إن الكافرين بالله والمشركين في عبادته لهم عذاب يوم القيامة مؤلم موجع.

وقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

ذِكْرٌ للصورة المقابلة ، وَعَطْفٌ على ذكر حال الأشقياء وما آلوا إليهِ من سوء المستقر في دار الخزي والنكال ، بذكر حال السعداء وحسن مستقرهم في جنات النعيم

التي تجري تحتها أنهار الماء والعسل واللبن والخمر لذة للنظر والشاربين ، ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ، والملائكة يدخلون عليهم ويحيونهم بالسلام.

قال ابن جريج : (﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ : الملائكة يُسلِّمون عليهم في الجنة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23 ـ 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

3 ـ وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: 75].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال: [السلامُ اسمٌ من أسماء الله وضعهُ في الأرض ، فأفشُوه بينكم ، فإن الرجل المسلِمَ إذا مَرَّ بِقَوم فسَلَّمَ عليهم فردُّوا عليه ، كان له عليهم فضل درجةٍ ، فإن لم يردوا عليه ردّ عليهِ من هو خيرٌ منهم وأطيب][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند ، والشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خلق اللهُ عز وجل آدمَ على صورته طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال له: اذهب فسلِّم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحيةُ ذريتك. قال: فذهب فقال: السلام عليكم ، فقالوا: السلامُ عليكَ ورحمة الله ، فزادوه: ورحمة الله. قال: فكلُّ من يدخلُ الجنةَ على صورة آدم طوله ستون ذراعاً. فلم يزل ينقص الخلق بعده حتىٰ الآن][2].

---

(1) حديث حسن لشواهده. أخرجه البزار (1999) ، والطبراني في «الكبير» (10392) ، وإسناده جيد ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1894).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3326) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (6227) ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام. وأخرجه مسلم (2841) ، كتاب الجنة ونعيمها ، ورواه أحمد.

24 ـ 27. **قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: شبه سبحانهُ الكلمة الطيبة بأنها لشدة ثبات جذورها وتأثيرها في قلوب الناس لا تزال تثمر في حياتهم وقلوبهم، كالشجرة الطيبة التي لا تزالُ تؤتي أكلها في كل موسم وحين، فيُذكر صاحب الكلمة الطيبة بالإحسان والخير في كل وقت وحين. وأما الكلمةُ السيئة والأسلوب المؤذي فلا يزال يتركُ أثراً سيئاً يُذكر صاحبه بسوء الخلق حتىٰ لو كان عنده من العلمِ الكثير، فلا يجد في قلوب الناس مكاناً فَيُجْتَثُّ من حياتهم ويخرج من قلوبهم كما تُجتَثُّ الشجرة المؤذية من طريق الناس وتستأصل من جذورها.

فمن كان من أهل الكلمة الطيبة التي أعلاها «لا إله إلا الله» ثبّته الله عند الغرغرة والاحتضار، وعند سؤال الملكين في القبر قبل الاستقرار، ومن كان جاحداً لكلمة التوحيد يعيشُ على خلاف منهاجها أضلّه الله وأخزاهُ عند السؤال والامتحان، ليكون ذلك علامة سوء في الخاتمة وحرمان من الجنان، فقلوب العباد وأعمالهم بيد الله سبحانهُ يضل من يشاء ويهدي من يشاء بحكمته وعدله وعلمه ويفعل سبحانه ما يشاء.

فعن ابن عباس: (﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، قال: شهادةُ أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يُرفَعُ بها عمل المؤمن إلى السماء).

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: (إن ذلك عبارةٌ عن المؤمن، وقوله الطيِّب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النّخل، لا يزالُ يُرفع له عملٌ صالحٌ في كل حينٍ ووقتٍ، وصباح ومساء).

وعن ابن عباس: (﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة).

وعن أنس وابن مسعود رضي اللهُ عَنْهُما قالا: (هي النخلة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ عن نافع، عن ابن عمرَ قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني بشجرة تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها وَلا وَلا وَلا، تؤتي أُكُلَها كُلَّ حين! قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النَّخلة، ورأيتُ أبا بكر وعمرَ لا يتكلمان فَكَرِهْتُ أَنْ أتكلَّم. فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هيَ النخلة. فلمَّا قُمْنا قلتُ لِعُمَرَ: يا أبتاه، واللهِ لقد كانَ وقعَ في نفسي أنها النَّخْلةُ، فقال: ما مَنَعك أَنْ تكلَّم؟ قال: لم أَرَكُمْ تكَلَّمُون، فكرِهْتُ أَنْ أتكلَّمَ أو أقولَ شيئاً. قال عمر: لأَنْ تكونَ قُلْتَها أَحَبُّ إليَّ من كذا وكذا][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن من الشجرِ شَجَرةً لا يَسْقُط وَرَقُها، وإنها مَثَلُ المُسْلِم فحدِّثوني ما هي؟ فوقعَ الناسُ في شجرِ البوادي، قال عبد الله، ووقَعَ في نفسي أنها النخلة، فاسْتَحييتُ ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن مجاهد قال: [صحبتُ ابنَ عمر إلى المدينة، فلم أسمعهُ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: كُنَّا عند النبي ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّار[3] فقال: إنَّ مِنَ الشجر شجرةً مَثَلُها كَمَثَلِ المُسْلِم. فأردت أن أقولَ: هي النَّخْلَةُ، فإذا أنا أصْغَرُ القَوْمِ فسكتُّ، قال النبي ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ][4].

وخلاصة المعنىٰ كما ذكر عطية العوفي: (﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: ذلكَ مثل المؤمن لا يزال يخرجُ منهُ كلامٌ طيبٌ وعمل صالح يَصْعَدُ إليهِ).

---

(1) حديث صحيح، أخرجه البخاري (4698)، كتاب التفسير، وأخرجه مسلم في الصحيح (2811).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (61) ـ كتاب العلم ـ باب قول المحدّث: حدَّثنا وأَخْبَرنا وأَنبأَنا، وانظر صحيح البخاري (131)، ومسند أحمد (61/2)، (2/ 123)، وصحيح ابن حبان (243).
(3) الجُمَّار: شحم النخل، ومنه يخرج الثمر.
(4) أخرجه البخاري (72)، كتاب العلم، باب الفَهْم في العِلم. وانظر الحديث رقم (2209) منه، وأخرجه مسلم (2811)، وأحمد (2/ 12)، وابن حبان (244).

وعن الربيع بن أنس قال: (﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ، قال: أصلُ عمله ثابتٌ في الأرض ، ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، قال: ذكرُه في السماء).

وقوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (غُدوة وعشية). أو قال: (بُكْرةً وعشيّاً). قال: (﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، قال: يذكر الله كلّ ساعة من الليل والنهار).

2 ـ وقال الضحاك فيها: (المؤمن يطيع الله بالليل والنهار وفي كل حين).

3 ـ وقال الربيع بن أنس: (يَصْعَدُ عملهُ أولَ النهار وآخره). وقال: (﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، قال: تخرجُ ثمرتها كُلَّ حين. وهذا مثلُ المؤمن يعمل كل حين ، كل ساعة من النهار وكل ساعة من الليل ، وبالشتاء والصيف ، بطاعة الله). وقال النسفي: (﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسير خالقها وتكوينه). قلت: وكذلكَ عمل المؤمن الصالح هو بتوفيق الله وتيسيره ومنّه وكرمه.

وقيل الحين ستة أشهر أو سنة أو غير ذلك ، وما سبق أعمّ من ذلك.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ويمثّل الله الأمثال للناس ، ويُشَبِّهُ لهم الأشباه ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، يقول: ليتذكروا حُجَّةَ الله عليهم ، فيعتبروا بها ويتعظوا ، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان).

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

قال أنس: (تلكم الحنظل ، ألم تروا إلى الرياح كيف تُصَفِّقُها يميناً وشمالاً).

وقال مجاهد: (﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ، الحنظلة).

قال ابن كثير: (هذا مثلُ كفرِ الكافرِ ، لا أصلَ لهُ ولا ثباتَ ، وشُبِّهَ بشجرةِ الحَنْظَلِ. ويقالُ لها: الشَّريان).

قلت: والآية تشمل إضافة إلى كلام الكفر الفحش من القول والمنكر والبذيء ، فإن صاحبه بعيد عن قلوب الناس لا أُنْسَ بلقائه ووجوده بينهم.

وفي صحيح السنة المطهرة أحاديث في هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج العُقَيلي بسند حسن عن ابن أبي مُلَيكة عن عائشة مرفوعاً:

[يا عائشة: إياك والفحشَ إياك والفحش ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [المؤمن يألف ، ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يُؤلف][2].

وله شاهد عند الطبراني من حديث جابر بلفظ: [المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق! قيل: ما القلب المحموم؟ قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد. قيل فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة. قيل: فمن على أثره؟ قال: مؤمن في خلق حسن][3].

وقوله: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾. قال قتادة: (استؤصلت من فوق الأرض). أي فما لهذه الشجرة الخبيثة المؤذية من قرار ولا أصل في الأرض تقوم عليه وتثبت بجذره ، وكذلكَ كفر الكافر ومعصيتُه في الأرض. قال ابنُ عباس: (ضرب اللهُ مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر. يقول: إن الشجرةَ الخبيثةَ اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول: الكافر لا يُقبل عمله ولا يصعد إلى الله ، فليس لهُ أصلٌ ثابتٌ في الأرض، ولا فرعٌ في السماء. يقول: ليسَ له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة).

وقوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾. أي: يثبت الله المؤمنين على منهاج الإيمان باللهِ ورسوله محمد ﷺ في حياتهم الدنيا رغم تقلب الأحوال والفتن ، ثم يثبتهم سبحانه عند سؤال الملكين في قبورهم ليشهدوا أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فيموتوا على دين الإسلام.

---

(1) حديث حسن. رواه العقيلي (259) ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (537).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 335) ، (2/ 400) ، وأورده الهيثمي (8/ 87) وكذلكَ (10/ 273) ، وقال: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح. وانظر للشاهد «المجمع» (10/ 273 ـ 274) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (426 ـ 427).

(3) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (4216) ، وصحيح الجامع (3286) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (948).

وفي ذلكَ أحاديث من السنة الصحيحة العطرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي اللهُ عَنْهُما، عن النبي ﷺ قال: [إذا أُقْعِدَ المُؤمِنُ في قَبرِهِ أُتِيَ ثم شَهِدَ أَنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلكَ قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾][1].

ثم قال البخاري: حدَّثنا محمد بن بشّار: حدَّثنا غُنْدَرٌ: حَدثنا شعبة بهذا، وزاد: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نزلت في عذاب القبر.

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه، والترمذي في جامعه، عن سَعد بن عُبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: [﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر، يُقال له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ، فذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾][2]. ولفظ الترمذي: [﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ قال: «في القبر إذا قيل له: من ربُّكَ وما دينُكَ ومَنْ نبيُّك»].

الحديث الثالث: روىٰ أحمد وأبو داود والبيهقي بسند صحيح عن البراء بن عازب قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يدِهِ عودٌ يَنْكُتُ بِهِ في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا باللهِ من عذاب القبر. مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليهِ ملائكة من السماء بيض الوجوه كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكفان الجنةِ وحنوطٌ من حَنُوطِ الجنّة، حتىٰ يجلسوا منه مدَّ البصر. ثم يجيء ملكُ الموتِ حتىٰ يجلسَ عند رأسِهِ، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيِّبةُ، اخرجي إلى مغفرة من اللهِ ورضوانٍ. قال: فتخرجُ تسيل كما تسيلُ القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعُوها في يدهِ طرْفة عينٍ حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلكَ الكفن وفي ذلكَ الحنوطِ، ويخرجُ منها كأطيب نَفَحةِ مِسْكٍ وُجدت على وَجْهِ الأرض. فيصعَدُون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1369)، كتاب الجنائز. باب ما جاء في عذاب القبر. وانظر (4699) منه.

(2) حديث صحيح أخرجه مسلم (2871) كتاب الجنة ونعيمها، وانظر سنن أبي داود (4750)، وسنن الترمذي (3120)، وأخرجه النسائي في «التفسير» (284)، والطبري (20759).

الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروح الطيِّب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السَّماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فَيُفْتَحُ له، فيشيّعُهُ من كل سماء مُقَرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتىٰ ينتهي به إلى السماءِ السابعةِ، فيقولُ الله: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرىٰ. قال: فتعادُ روحهُ في جسدهِ، فيأتيه ملكان فيجلسانِه فيقولان له: من ربُّكَ. فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول، هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به وصدّقت. فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينكَ؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنةٍ تعرض على المؤمن، فذلكَ حين يقول اللهُ عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، وَنَبِيّي محمد ﷺ، فينادِ منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبرهِ مدّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومكَ الذي كنتَ توعد. فيقول: مَنْ أَنْتَ؟ فوجْهُكَ الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملكَ الصالحُ. فيقول: ربّ، أقِمِ الساعة، ربِّ أقم الساعة، حتىٰ أرجعَ إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافرَ إذا كانَ في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نَزَلَ إليهِ من السماء ملائكةٌ سود الوُجوه معهم المُسُوح، فجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرُجي إلى سَخَطٍ من الله وغَضب. قال: فَتُفَرَّقُ في جسده، فَيَنْتَزِعُها كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يدهِ طرفة عين، حتىٰ يجعلوها في المُسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يَمُرُّونَ بها على ملأ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان. بأقبح أسمائه التي كان يُسمونه بها في الدنيا، حتىٰ ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يُفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: 40]، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سِجِّين ـ في الأرض السفلىٰ ـ فتُطرح روحُه طَرحاً. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]. فتعاد روحُه في جسده، ويأتيه

مَلَكان فيُجلسانه ويقولان له: من ربُّكَ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري؟ فيقولان: ما دينُك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري؟ فينادي منادٍ من السماء: أن كذَبَ، فأفرِشُوه من النار، وافتحوا لهُ باباً إلى النار. فيأتيهِ من حَرِّها وسَمُومِها، وَيُضَيَّقُ عليهِ قبرُه حتىٰ تختلفَ فيه أضلاعهُ، ويأتيهِ رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، مُنْتِنُ الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد! فيقول: ومن أَنت؟ فوجْهُكَ الوجهُ يجيءُ بالشر! فيقول: أنا عَمَلُكَ الخبيث، فيقول: رَبِّ، لا تُقِم الساعة][1].

وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾. أي يخذل الله المنافق والكافر عند السؤال، فلا يوفقه للنطق بالشهادتين والحق الذي فيه النجاة، أحوج ما يحتاجُ إليه.

قال ابن عباس: (أما الكافر، فتنزل الملائكة إذا حضره الموت، فيبسطُون أيديهم، «والبَسطُ»، هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أُدْخِل قبره فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساهُ اللهُ ذكر ذلك. وإذا قيلَ له: من الرسول الذي بُعث إليكَ؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليهِ شيئاً، يقول الله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾).

وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾. قال ابن جرير: (يعني تعالى ذكره بذلك: وبيدِ الله الهداية والإضلال، فلا تنكروا، أيها الناس، قدرتَه، ولا اهتداءَ من كان منكم ضالاً، ولا ضلالَ مَنْ كانَ منكم مهتدياً، فإنَّ بيدهِ تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعلُ فيهم ما يشاء).

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذا المعنىٰ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس، قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط الرازق][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمامُ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص

---

(1) حديث صحيح، أخرجه أبو داود (4753)، وأحمد (4/ 287)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (20، 55)، وصححه الحاكم (1/ 37 ـ 40). وانظر أحكام الجنائز ـ الألباني ص 159.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3451)، كتاب الإجازة، باب في التسعير. انظر صحيح سنن أبي داود (2945)، ورواه ابن ماجة (2200)، ورواه الترمذي والبيهقي وأحمد ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1842).

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن قلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يصرفه كيف يشاء. ثم يقول رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك][1].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحَكَمُ، وإليهِ الحُكْمُ][2].

28 ـ 30. قوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله تعالى نبيَّهُ محمداً ﷺ فيقول: ألم تنظر يا محمد إلى كفار قومكَ غيروا ما أنعم الله عليهم من نعمه فجعلوها كفراً به، إذ جحدوا نبوتكَ ونعمةَ اللهِ العظيمة في إرسالكَ إليهم لتنقذهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأنزلوا قومهم من مشركي قريش بذلكَ دار الهلاك، جهنم يصلونها وبئس المستقر. لقد أصروا على الشرك بالله على طريقة آبائهم في اتخاذ الأنداد والأوثان والطواغيت يعبدونها من دون الله، ويصرفون لها الخضوع والتذلل والرجاء والدعاء، وهم في ذلكَ ضالون مضلون عن سبيل الله ـ قل لهم يا محمد: تمتعوا بترويج فاسد عادات الآباء وتعظيم تقاليد الجاهلية فإن مآلكم في إصراركم هذا إلى النار.

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ باب ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: (﴿ ۞أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تَعْلَمْ، كقوله: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ [البقرة: 243]. ﴿ٱلْبَوَارِ﴾: الهلاك. بارَ يَبُورُ بَوْراً، ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: 18]: هالكين. حدَّثنا عليُّ بن عبد الله: حدَّثنا سفيان عَنْ عُمْرو، عَنْ عَطاءٍ: سَمِعَ ابنَ عبّاسٍ: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هُمْ كُفّار أهل مكة).

وقال السُّدي: (﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية! ذكر مسلم المستوفي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51)، وأحمد (2/ 168 ـ 173)، والطبري (6657).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4955)، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4145)، ورواه النسائي.

عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنُو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلّوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُدٍ. وكان أبو جهل يومَ بدر. وأبو سفيان يومَ أحد. وأما دار البَوار فهي جهنم).

وروىٰ نحوهُ ابن أبي حاتم عن عمرو بن مُرّ قال: (سمعتُ علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، قال هما الأفجران من قريش، بنو أمية وبنو المغيرة فأهلِكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين).

قلت: ولا شك أن الآية عامة تعم في مفهومها جميع الكفار، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ويتحاكمون لأهوائهم مستهزئين بشرع الله العظيم.

وقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾. أي مآلهم إلى النار في الآخرة وبئس المستقر.

قال قتادة: (﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هي دارهم في الآخرة). وقال ابن زيد: (﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ النار، قال: وقد بيَّنَ الله ذلكَ وأخبرك به؟ فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: وجعلوا لله شركاء كي يضلوا الناس عن منهج عبادة الله الذي يحبهُ ويرضاه. قل لهم يا محمد: تمتعوا قليلاً بتعظيمِ جاهليتكم فإن مثواكم إلى النار.

قال ابن جرير: (يقول: قل يا محمد لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وعيداً من الله لهم، لا إباحة لهم التمتع بها، ولا أمراً على وجهِ العبادة، ولكن توبيخاً وتهديداً ووعيداً، وقد بين ذلكَ بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم، وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غبّ تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

2 ـ قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن اللهَ لَيُملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

31 ـ 34. **قوله تعالى**: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ اللهِ تعالى عبادهُ المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاءِ الزكاة والإنفاق في سبيلهِ قبل مجيء يوم ينعدمُ فيه البيع وتُفقد فيهِ الخلة والصحبة. إنه تعالى الخالق الرزاق المسخِّر المنعم الذي أعطاكم من كل ما سألتموه، وإن تحاولوا إحصاء نعم الله عليكم لا تدركوا بعض ذلك، وإنما الإنسان ظلوم كفار.

فقول: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. قال ابن عباس: (يعني الصلوات الخمس).

وقوله: ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾. قال ابن عباس: (يقول: زكاة أموالهم).
قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ آمراً العباد بطاعته والقيام بحقِّه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب. والمرادُ بإقامتها هو: المحافظة على وَقتها وحُدودها، وركُوعها وخشوعها وسُجودها. وأمر تعالى بالإنفاق مما رَزَق في السِّر، أي: في الخُفْيَةِ، والعَلانية وهي، الجهرُ، وليبادروا إلى ذلكَ لخلاص أنفسهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، كتاب التفسير، وانظر مختصر صحيح مسلم (1831).

وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

قال قتادة: (إن الله تبارك وتعالى قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالُّونَ بها في الدنيا، فلينظر رجل من يخالل، وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فإنها ستنقطع).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 123].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [الحديد: 15].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

قال ابن جرير: (ليس هناكَ مُخَالّة خليل فيصفحَ عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَّته، بل هناك العدلُ والقسط).

والخلال جمع خلة، والمقصود أنه لا ينفعُ أحداً بيعٌ ولا فدية ولو كانَ بملء الأرض ذهباً لو وجده، وكذلكَ لا ينفعهُ صداقة أحد ولا شفاعة أحد يوم القيامة إذا لقي الله كافراً. قال القاسمي: (﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ أي: ليتداركَ به التقصير، أو يفتدي به ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: مخالة. مصدر بمعنىٰ المصاحبة، أي لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدىٰ به).

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾.

تَعْرِيفٌ من الله تعالى عباده بعض نعمه الكبيرة عليهم، كنعمة خلق ما في السماوات وما في الأرض، فالملائكةُ مسخرون لما ينفع العباد، وكذلكَ الأفلاكُ والمجرات، وجعل السماء سقفاً محفوظاً، وجعل الأرض فراشاً مبسوطاً، وأنزل من السماء الماء لحياة عباده وثمارهم وزروعهم ودوابهم، وسخّر السفن تجري بتيارات الهواء والماء في البحار لأسفارهم ومعاشهم ومنافعهم، وشقّ الأنهار تعبر الأقطار والأرجاء يشرب منها الناسُ والدواب والأشجار رحمة بهم، لعل في عرض بعض هذه النعم عبرة لهم لشكره سبحانه وتعظيمِهِ حق التعظيم.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.

متابعة في بَسْط النعم الجليلة التي ينتفع بها العبادُ صباح مساء. قال القرطبي: (﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنىٰ يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار).

قلت: وفي تعاقب الليل والنهار وحركة الشمس والقمر مواسم للتوبة والاستغفار فيها خيرٌ كبيرٌ.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: 54].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 40].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: 73].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: 61 ـ 62].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ عبد الله بن قيس الأشعري رضي اللهُ عَنْه عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالى يَبْسُطُ يدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النّهار، ويَبْسُطُ يدهُ بالنهار ليتوبَ مُسيءُ الليل حتى تطلعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبها][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2759)، كتاب التوبة. باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

[من تابَ قبلَ أَنْ تطلعَ الشمسُ من مَغْرِبها تابَ اللهُ عَليهِ][1].

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

قال مجاهد: (من كل ما سألتموه ورغبتم إليه فيه). وقال رُكانة بن هاشم: (ما سألتموه وما لم تسألوه). وقال الضحاك: (يقول: أعطاكم أشياء ما طلبتموها، ولا سألتموها، صدق اللهُ كم من شيء أعطاناهُ الله ما سألناه إياه، ولا خطر لنا على بال).

قال النسفي: («من» للتبعيض» أي أتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه، فما موصولة، والجملة صلة لها).

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

إخبار الله تعالى عبادهُ عن عجزهم عن القيام بحق شكره، إذ هم عاجزون عن إحصاء نعمه عليهم وفضله وإحسانه لهم، بل غالب حال الإنسان غفلة وظلم وجهل ونسيان للنعيم وحق المنعم جلّ ذكره.

قال طلق بن حبيب: (إنَّ حقّ الله أثقل من أن تقوم بِهِ العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أصبِحوا تَوّابين وأمسُوا توّابين).

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق معنىٰ هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: [والذي نفسي بيده! لَتُسْأَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتىٰ أصابكم هذا النعيم][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَنْ يُنْجِيَ أحداً مِنكم عملُهُ، ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللهُ برحمته، ولكن سدّدوا وقاربوا واغْدُوا وَرُوحوا، وشيءٌ من الدُّلجَةِ، والقصدَ القَصْدَ تَبْلُغوا][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي أمامة: [أن النبي ﷺ كان إذا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2703)، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2038) ـ كتاب الأشربة ـ وهو جزء من حديث طويل.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6463)، وانظر (5673)، ورواه مسلم (2816)، (2817).

رفع مائدته قال: الحمدُ للهِ كثيراً طيّباً مباركاً فيه، غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عَنْهُ ربَّنا][1].

وفي رواية: [الحمدُ للهِ الذي كفانا وأرْوانا، غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مَكْفُور].

35 ـ 41. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآيات: دعوة أبينا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه بجعل البلد الحرامِ آمناً، وتجنيبه وولده عبادة الأصنام، وبجعل أفئدة من الناس تهوي قلوبهم قصد مكة، وبِبَسْطِ الرزق عليهم من كل مكان. واستجابة الله دعاءه وإكرامه بإسماعيل وإسحاق في ذريته من الصالحين. وببلوغ دعائه إلى جميع المؤمنين.

فعن مجاهد: (﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ قال: فاستجابَ اللهُ لإبراهيم دعوته في ولده، قال: فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته. والصنم: التمثال المصوّر، ما لم يكن صنماً فهو وثن، قال: واستجاب اللهُ له، وجعل هذا البلدَ آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعلهُ إماماً، وجعلَ من ذُرِّيَتِهِ من يقيم الصلاة، وتقبّل دعاءه، فأراهُ مناسِكَهُ، وتابَ عليه).

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. يعني الأصنام. قاله قتادة، وقال أيضاً:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5458)، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه. وانظر (5459) للرواية الأخرى.

(يعني الأوثان). قال ابن جرير: (يقول: يا ربّ إنّ الأصنامَ أضللن، يقول: أزلن كثيراً من الناس عن طريق الهُدىٰ وسبيلِ الحق حتىٰ عبدوهنّ، وكفروا بك).

وقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال النسفي: (فمن تبعني على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ـ أو ومن عصاني عصيان شرك ـ فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن).

وعن قتادة: (﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال: اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم، لا والله ما كانوا طعّانين ولا لعّانين، وكان يقال: إنَّ من أشرّ عباد الله كلَّ طعان لعّان، قال نبي الله ابن مريم عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: [أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ورفع يديه، قال: «اللهم أمتي، اللهم أمّتي». وبكىٰ، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد ـ وربُّكَ أعلم ـ وسَله ما يُبكيك؟ فأتاهُ جبريل ـ عليه السلام ـ فسألهُ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال. فقال الله: اذهب إلى محمد: فقل لهُ: إنا سنرضيكَ في أمتك ولا نسوؤك][1].

وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ـ الآية.

قال ابن كثير: (وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولّىٰ عن هاجر وولدها، وذلكَ قبلَ بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبةً إلى الله عز وجل).

قال قتادة: (﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، قال: مكة لم يكن بها زرع يومئذ). وقال: (﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، وإنه بيتٌ طهَّره الله من السُّوء، وجعله قبلة، وجعله حَرَمه[2]، اختاره نبيُّ الله إبراهيم لولده). قال ابن عباس: (أسكن إسماعيل وأمه مكة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (202) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وأخرجه ابن حبان (7234)، والطبري في «التفسير» (20841).

(2) مفهوم المحرّم: أي من استحلال حرمات الله فيه، والاستخفاف بحقه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فعلت ذلكَ يا ربنا كي تؤدّىٰ فرائضكَ من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرّم).

وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ـ تتمة الدعاء، وكانت الإجابة بتشريع الحج.

قال مجاهد: (لو قال أفئدة الناس تهوي إليهم، لازدحمت عليهم فارس والروم).

وقال عكرمة وعطاء وطاووس: (البيت تهوي إليهِ قلوبهم يأتونه). وقالوا: (الحج ـ هواهم إلى مكة أن يحجوا). وقال ابن عباس: (إن إبراهيم خليل الرحمن، سأل الله أن يجعل أناساً من الناس يهوَوْن سكنىٰ أو سكن مكة).

والخلاصة: لقد استجاب الله تعالى دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام، فشرع الحج، وشرع العمرة، يَستهوي ذلك قلوب المسلمين إلى تلك الديار فتنزع إليها.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وارزقهم من ثمرات النبات والأشجار ما رزقت سكان الأرياف والقرىٰ التي هي ذوات المياه والأنهار، وإن كنتَ أسكنتهم وادياً غير ذي زرع ولا ماء، فرزقهم الله جلّ ثناؤه ذلك).

وفي التنزيل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: 57].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال ابن عباس ومقاتل: (تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أُسْكِنَا بوادٍ غير ذي زرع).

وقيل: قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ـ هو قول إبراهيم. وقيل هو من قول الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾. ثناء على الله تعالى من إبراهيم عليه السلام وشكر له على إجابته دعوته فيما سأله من الولد، وقد رزقه الله ما رزقه من الولد بعد الكِبَر رحمة منه وآية من لدنه، واللهُ

سميع الدعاء مجيب لعباده قريب منهم ويزيدهم من نعمه كلما شكروا له واستقاموا على دينه.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: 186].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: 65].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: [تعوّذوا بالله من جهد البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند جيد عن عائشة رضي اللهُ عَنْها قالت: [كان رسول الله ﷺ يستحبُّ الجوامعَ من الدعاء، ويدعُ ما سِوَىٰ ذلكَ][3].

الحديث الرابع: أخرجَ الترمذي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [دعوة ذي النون إذْ دعا ربَّه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين، فإنه لم يَدْعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجابَ له][4].

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (298)، كتاب الصلاة، باب الدعاء في السجود.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 256)، وأخرجه مسلم (8/ 76)، وغيرهما.

(3) إسناده جيد. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1332)، وتخريج المشكاة (2246)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4825).

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3505). انظر صحيح سنن الترمذي (2785)، وكذلكَ صحيح الجامع (2602) لرواية الحاكم.

ورواه الحاكم بلفظ: [ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ ، أو بلاءٌ ، من أمر الدنيا دعا به فَفُرِّجَ عنه؟ دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

متابعة الدعاء من إبراهيم عليه السلام: إذ سأل ربهُ أن يجعلهُ محافظاً على الصلاة مقيماً لحدودها هو وذريته في ذلك ، وأن يتقبل الله تعالى دعاءه في كل ما سألهُ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

قال ابن كثير: (وقرأ بعضهم ﴿ولوالدي﴾ على الإفراد. وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه ، لما تَبَيَّن له عداوته لله عز وجل ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أي: كلّهم ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسبُ عبادكَ فتجزيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرٌّ).

42 ـ 46. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: خِطَابُ الله تعالى نبيّه ﷺ مسلياً له بأنه ـ جلت عظمته ـ غير غافل عن مكر الظالمين ، إنما يؤخرهم ليوم المذلة والخزي الذي سيحيط بهم صاغرين. فأنذر الناس ـ يا محمد ـ عذاب ذلك اليوم الذي تنزل به الندامة بالمجرمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ولم يعتبروا بمصير من قبلهم من الماكرين.

فقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

قال ميمون بن مِهران: (هي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم). والآية خطاب للنبي ﷺ: لا تحسَبَنَّ ـ يا محمد ـ الله ساهياً عن أعمال هؤلاء المشركين من قومك، بل هو عالم بها وإنما يجازيهم بها في يوم كتب فيه مجازاتهم بها، وهو يوم الحساب. قال قتادة: (﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ قال: شخصت فيه والله أبصارهم، فلا ترتدّ إليهم).

قال القرطبي: (﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أي: لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم).

وقوله: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾. أي: مسرعين رافعي رؤوسهم.

قال النسفي: (﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر: 8].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: 108].

وفي لغة العرب: أهطع الرجلُ إذا مدّ عُنقه وصَوّب رأسه، وأهْطَعَ في عَدْوِه إذا أسرع. ومنه قول الضحاك: (﴿ مُهْطِعِينَ ﴾، قال: شدّة النظر الذي لا يطرف). قال ابن جرير: (والإهطاع في كلام العرب بمعنىٰ الإسراع أشهر منه بمعنى إدامة النظر).

وعن ابن عباس: (﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾، قال: الإقناع: رفع رؤوسهم).

وقال قتادة: (المقنع الذي يرفع رأسه شاخصاً بصره لا يطرف).

وقوله: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾. أي: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، بل أبصارهم طائرة شاخصة، لشدة ما هم فيه من الهول والفِكرةِ والمخافة لما سينزل بهم.

وقوله: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾. قال ابن عباس: (ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة). وقال مرّة: (متخرقة لا تعي شيئاً). وقال مجاهد: (ليس من الخير شيء في أفئدتهم، كقولك للبيت الذي ليس فيه شيء إنما هو هواء). وقال ابن زيد: (الأفئدة: القلوب هواء كما قال الله، ليس فيها عقل ولا منفعة). وقال قتادة: (﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

انتزعت حتىٰ صارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم ، ولا تعود إلى أمكنتها) .

والراجح : أن المقصود خلو القلوب من العقل والخير من هول المشهد ، حتى تصبح خاوية من الخير كالخراب .

وقوله : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ .

أي : أنذر الناس يا محمد يوم حلول العذاب في القيامة ، فيقول الذين كفروا بربهم وكذبوا نبوتك : ربنا أخّر عنا عذابك وأمهلنا لفرصة أخرىٰ نجبْ دعوة الحق فنَصْدُقَك الإيمان ونصدّق المرسلين ونتابع دعوتهم .

قال مجاهد : (﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ قال : مدّة يعملون فيها من الدنيا) .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ . أي : أو ما حلفتم أنه لا معاد ولا جزاء .

قال مجاهد : (﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ، أي : ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة) . وقال : (هو قسم قريش أنهم لا يبعثون) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 27 ـ 28] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 99 ـ 100] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون : 10] .

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم الآية أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ

قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنتَ مُفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أَرَدْتُ مِنْكَ أهونَ من هذا وأنت في صُلْبِ آدم: أن لا تشرك ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك][1].

وفي لفظ: [فيقال له: كذبتَ، وقد سُئِلت ما هو أيسرُ من ذلك].

وفي رواية: (فيؤمر به إلى النار).

وقوله: «كَذَبْتَ». قال النووي: (معناهُ لو رددناكَ إلى الدنيا لما افتديت لأنك سئلت أيسر من ذلك، فأبيت، فيكون من معنىٰ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وبهذا يجتمعُ معنىٰ هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾).

الحديث الثاني: أخرج الإمام الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ [يؤتىٰ بالعَبْدِ يَوْمَ القِيامةِ فيقولُ لهُ: ألمْ أَجعَلْ لكَ سَمْعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخَّرت لك الأنعام والحرث، وتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ، فكنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول: اليومَ أَنْساكَ كَما نَسيتني][2].

قال أبو عيسىٰ: (ومعنىٰ قوله: «اليوم أنساكَ كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب، وكذا فسّر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ [الأعراف: 51]. قالوا: معناه اليوم نتركهم في العذاب).

وقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

قال ابن زيد: (سكنوا في قراهم مدين والحجر والقرىٰ التي عذّب الله أهلها، وتبيّن لكم كيف فعل الله بهم، وضرب لهم الأمثال). وقال مجاهد: (﴿الْأَمْثَالَ﴾: الأشباه).

قال القاسمي: (﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كعاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2805)، كتاب صفات المنافقين، باب طلب الكفار الفداء بملء الأرض ذهباً. ورواه البخاري (2/ 333)، (4/ 239 ـ 242)، وأخرجهُ أحمد (3/ 127 ـ 129).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2558)، أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي (1978).

وما تواترَ عندكم من أخبارهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم. أي ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر).

قلت: وفي الآية تقريع لأولئك الظالمين في سكناهم أماكن دمار الأمم التي أنزل اللهُ بها عذابهُ ـ وهو معنىٰ لم أجد من المفسرين من لفت إليه ـ وهو من صُلب السنة الصحيحة. وفي ذلكَ حديثان.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللهُ عَنْهُما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابِهِ ـ يعني لما وصلوا الحِجْر: وهي ديار ثمود فيما بين المدينة والشام ـ: [لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يُصيبُكم ما أصابهم][1]. وفي لفظ لمسلم: (ثم قَنَّع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي). وفي لفظ للبخاري: (ثم تَقَنَّعَ بردائه وهو على الرّحل).

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره: [أن الناسَ نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرضِ ثمود فاستقوا من آبارها، وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا، ويَعْلِفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة][2].

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (3/ 560): (ومنها: أن الماء الذي بآبار ثمود، لا يجوز شُربهُ، ولا الطبخُ منهُ، ولا العجينُ بِهِ، ولا الطهارةُ بِهِ، ويجوزُ أن يُسقىٰ البهائم إلا ما كان من بئر الناقة. قال: ومنها: أنَّ من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لم ينبغ له أن يدخُلَها، ولا يُقيمَ بها، بل يُسرع السير، ويتقنّع بثوبه حتىٰ يجاوزَها، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ـ له تأويلان:

1 ـ قال ابن عباس: (ما كان مكرهم لتزول منه الجبال). وكان الحسن يقول: (وإن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3381)، كتاب الأنبياء، ومسلم (2980)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 9 ـ 58).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2980)، كتاب الزهد والرقائق، وانظر صحيح البخاري (3381).

كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال). فوجّهوا «إنْ» بمعنىٰ «ما» أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه.

2 ـ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90 ـ 91]).

وعن شِمر، عن عليّ قال: (الغدر: مكر، والمكر: كفر).

قال القاسمي: (﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أي بالنبي صلوات الله عليه «﴿مَكْرَهُمْ﴾ أي العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقريرالباطل ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي جزاء مكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ أي في العظم والشدة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي مُسَوّىً ومُعَدّاً لإزالة الجبال عن مقارّها، لتناهي شدته).

قلت: والمعنىٰ الثاني هو الراجح في مفهوم هذه الآية، وهو الأنسب للسياق.

47 ـ 52. **قوله تعالى**: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾.

في هذه الآيات: متابعة الله خطابه لنبيه يَعِدُهُ بالنصر المبين. ويَنْعَتُ لهُ يومَ تُبدل السماوات والأرض حال المجرمين. وقد صُفِّدوا بالأغلال وسرابيلهم من قطران وتغشىٰ وجوههم نار الجحيم. ليجزي الله بعدله الصادقين والكاذبين. إنما هذا بلاغ للناس من الله رب العالمين.

فقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ـ تثبيت من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وتسلية له عما يلقاه من تكذيب قومهِ وعنادهم وجحود نبوّته عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾. قال ابن جرير: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يمانع منه

شيء أراد عقوبته ، قادر على كل من طلبه ، لا يفوته بالهرب منه . ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن كفر برسله وكذّبهم ، وجحد نبوّتهم ، وأشرك به واتخذ معه إلـٰهاً غَيْره).

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ .

قال القاسمي: (وذلكَ أن تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوّىٰ ، فلا يرىٰ فيها عوج ولا أمت. وتبدل السماوات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفراءَ ، كقُرصة النَّقِيّ ، ليس فيها مَعْلَم لأحد][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، وأحمد في مسنده ، عن مسروق ، عن عائشة ، أنها قالت: [أنا أوّل الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، قالت: قلت: أينَ الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: على الصراط][2]

وفي رواية: (هم في الظلمة دون الجسر).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قال: [كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءهُ حَبْرٌ من أحبارِ اليهود ، فقال: السلامُ عليكَ يا محمد. فدفعتهُ دَفعةً كاد يُصرعُ منها ، فقال: لِمَ تدفعُني؟ فقلتُ: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنَّما ندعُوهُ باسمِهِ الذي سمَّاهُ بِهِ أهلُه! فقال رسول الله ﷺ: إن اسمي محمدٌ الذي سمّاني به أهلي. فقال اليهودي: جئتُ أسألكَ. فقال رسول الله ﷺ: أينفعكَ شيءٌ إن حَدَّثْتُكَ؟ فقال: أسمعُ بأذني. فنكتَ رسول الله ﷺ: بعودٍ معهُ ، فقال: سَلْ. فقال اليهودي: أينَ يكونُ الناس حين تُبدلُ الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: هم في الظلمة دون الجسر. قال: فمن أوَّل الناس إجازةً؟ قال: فقال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6521) ، ومسلم (2790) ، وابن حبان (7320).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2791) ، والترمذي في الجامع (3121) ، وابن ماجة في السنن (4279) ، وأحمد في المسند (6/ 35).

فقراء المهاجرين. قال اليهودي: فما تُحْفَتُهُم حينَ يدخلونَ الجنة؟ قال: زيادة كبدِ الحوت. قال: فما غِذاؤُهم في أثرها؟ قال: يُنحَر لهم ثورُ الجنةِ الذي كانَ يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عينٍ فيها تسمّىٰ سلسبيلا. قال: صدقت. قال: وجئتُ أسألكَ عن شيء لا يعلَمه أحدٌ من أهلِ الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان؟ قال: ينفعكَ إن حدَّثتك؟ قال: أسمعُ بأذني. قال: جئتُ أسألكَ عن الولد. قال: ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفرُ. فإذا اجتمعا فَعَلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة منيَّ الرجل أنَّثا بإذن الله. قال اليهودي: لقد صَدَقْتَ، وإنكَ لنبيٌّ. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علمٌ بشيءٍ منهُ، حتىٰ أتاني اللهُ به][1].

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: خرجتِ الخلائق جميعُها من قبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قَهَرَ كلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ، ودانت لهُ الرقابُ، وخضعت له الألبابُ).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ يقول: في وثاق). وقال الضحاك (الأصفاد: السلاسل). وقال قتادة: (مقرّنين في القيود والأغلال).

والأصفاد: جمع صَفَد، وهو القيد. قال الأعمش: (الصفد: القيد).

وقال ابن زيد: (صفدت فيها أيديهم وأرجلهم ورقابهم، والأصفاد: الأغلال).

والخلاصة: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وتبرز الخلائق جميعاً من قبورها لديّانها، ترىٰ ـ يا محمد ـ يومئذ المجرمين ـ الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ومحاربة الرسل والدين الحق وأهله ـ مشدودين بالأغلال والقيود بعضهم إلى بعض، وقد جُمع يومئذ بين الأصناف المتماثلة والأشباه والنظراء من كل صنف وزوج من أهل الكفر والبغي والفساد في الأرض في صورة من الذل والهوان والخزي في عرصات القيامة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (315)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (7422)، وأخرجه البيهقي في «البعث» (315).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: 22 ـ 23].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: 7].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: 37 ـ 38].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: 13].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصارة أهل النار، طينةِ الخبال][1].

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾. أي: ثيابهم وقمصهم من كثرة ما طليت بهناء الإبل الذي هو سائل أسود اللون منتن الريح يسرعُ فيه اشتعال النار صار كالسرابيل وغلب على لباسهم. وقَطِرَان وقَطْرَان وقِطْرَان ثلاث لغات. ومن قرأها «قَطْرٍ آنٍ» فسّره بالنحاس المذاب.

قال الحسن: (﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ يعني: الخَضْخَاض هِناء الإبل). وقال ابن عباس: (﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ نحاس). وعن الربيع بن أنس: (من قَطْرٍ آنٍ» قال القطر: النحاس، والآن: يقول: قد أنىٰ حرّه، وذلكَ أنه يقول: حميمٌ آن). وقال سعيد: (والآن: الذي قد انتهىٰ حرّه).

وعن ابن عباس: (من قَطْرٍ آنٍ» قال: هو النحاس المذاب).

قلت: وسواء المراد هِناء الإبل، أو النحاس المذاب فإنهُ لباس ألصق شيء بالنار، فبئس اللباس الذي جعلهُ اللهُ لباس المجرمين في النار.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد والترمذي بسند حسن من حديث ابن عمرو. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وتخريج «مشكاة المصابيح» (5112)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

قال النسفي: (﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما يتحلب من شجر يسمىٰ الأبهل فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربىٰ فيحرق الجرب بحدته وحره ، ومن شأنهِ أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح فيطلىٰ به جلود أهل النار حتىٰ يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح ، علىٰ أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ، وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ، وكأنهُ ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة ، نعوذ باللهِ من سخطهِ وعذابه).

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [أربعٌ من أمرِ الجاهليةِ لا يُتركن: الفخر بالأحساب ، والطعنُ في الأنساب ، والاستسقاءُ بالنجوم ، والنياحة ، والنائحةُ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تقام يوم القيامةِ وعليها سربالٌ من قطران ودِرْعٌ من جَرَبٍ][1].

وقوله: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ـ كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [المؤمنون: 104]. أي: تضرب النار وجوههم فتعلوها باشتعالها ، قال القاسمي: (وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب في باطنه ، ولذلكَ قال: ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: 7] ، ولكونها مجمع الحواس التي خلقت لإدراكِ الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها في تدبره. كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملؤوها بالجهالات. أفاده الزمخشري وأبو السعود) انتهىٰ. قلت: وحكىٰ نحوه النسفي في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: ليجزي الله يوم الحساب المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وما حسابه لجميع عباده إلا أسرع من لمح البصر ، إذ لا تخفىٰ عليه خافية من أعمالهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ فإن حسابه سريع مجيئهُ. قال ابن كثير: (﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ﴾ أي: يوم القيامة ، كما قال: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ، يحتملُ أن يكون كقوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1] ، ويحتمل أنه في حال محاسبتهِ لعبده

---

(1) حديث صحيح: أخرجه مسلم (934) ، وأحمد (5/ 342 ـ 344) ، وابن حبان (3143) ، وأخرجه البيهقي (63/4)من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

سريعُ النّجاز ، لأنه يعلم كلّ شيء؛ ولا يخفىٰ عليه خافية ، وإن جميعَ الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: 28] ، وهذا معنىٰ قول مجاهد: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ إحصاءً. ويحتمل أن يكون المعنيان مُرادَين ، واللهُ أعلم).

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

أي: هذا القرآن وما فيهِ من وعد ووعيد بلاغ لجميع الناس ، كفاية في التذكير والموعظة ، لينتفعوا بعظاته ويتعظوا بنذارته ، وليوقنوا أنما إلـٰههم إلـٰه واحد فيفردوه بالتعظيم والألوهية ، وإنما يتذكر وينتفع بالذكرىٰ أولو العقول والنهىٰ.

قال ابن زيد: (﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ، قال: القرآن: ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ ، قال بالقرآن).

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا ، أليسَ تشهدونَ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآنَ سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسّكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً]. (1)

تم تفسير سورة إبراهيم
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 165) ، ورواه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (58/ 1) ، وابن نصر في «قيام الليل» (74) ، وسنده صحيح على شرط مسلم. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (713).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ ما أرسل رسول قط إلا بلسان قومِهِ ، فللهِ الحكمة البالغة .

2 ـ المؤمن صبار في الضرّاء ، وشكور في السرّاء ، فهو بخير على كل حال .

3 ـ كل الأقوام كذبوا رسلهم إلا من رحم الله ، وأغلب الأمم كانت مؤمنة بالربوبية ، كافرة بالألوهية .

4 ـ الإيمان بالربوبية يقتضي الإيمان بالألوهية والأسماء والصفات .

5 ـ كل الأقوام هددوا رسلهم بالنفي من الأرض .

6 ـ الأعمال التي لا تبنىٰ على توحيد الله وتعظيمِهِ ، إنما هي هباء منثور .

7 ـ المؤمن كالنخلةِ ، لا يزالُ يرفعُ لهُ عمل صالح في كل وقت وحين .

8 ـ المؤمنون يثبتهم الله تعالى على الأصول الثلاثة في القبر ، وينعمون فيه .

9 ـ الكفار لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ويعذبون في قبورهم .

10 ـ سؤال الملكين في القبر حق ، ونعيم القبر وعذابه حق وصدق ، وإنكارُ ذلكَ ضلال .

11 ـ كل من بلغه الإسلام ولم يتبعهُ فقد بدل نعمة اللهِ وجحدها .

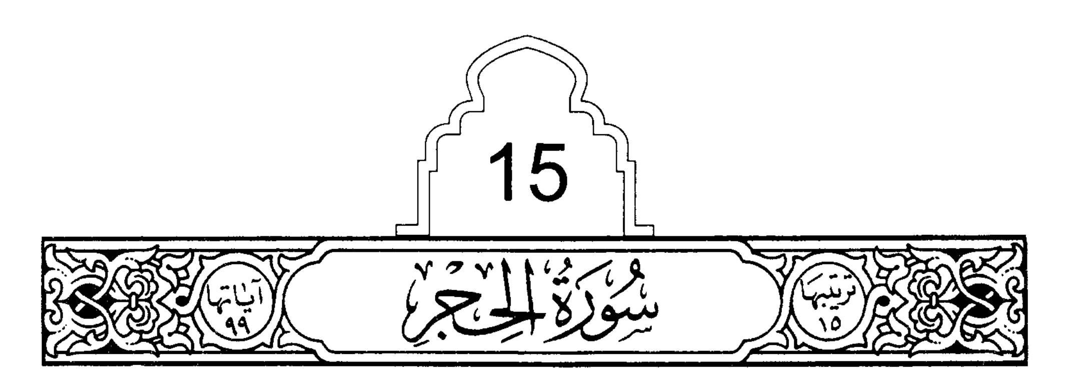
12 ـ نعم الله تعالى على عبادهِ لا تحصىٰ ، وقليل من عباد اللهِ الشكور .

13 ـ الظالمون لن يفلتوا من عدل الله ، ولسوف يندمون ويبكون .

14 ـ الشرك : تكاد السماواتُ يتفطرن منه وتنشقُ له الأرض وتخرّ الجبال منه هدّاً .

15 ـ تبدّل الأرض يوم القيامة والسماوات ، وبروز الجميع للواحد القهار ، والقرآن أعظم بلاغ للناس ، وما يذكرُ إلا أولو الألباب .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (99).

موضوع السورة

قصة الإنسان ، وإغواء الشيطان

نصر الله المرسلين ، وهلاك ثمود ـ أصحاب الحجر ـ كبقية الأقوام المجرمين.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله لكتابه الكريم ، وإخبار عن الندامة التي ستلحق الكافرين ، وتمنّيهم لو كانوا مسلمين.

2 ـ تهديد ووعيد للمستكبرين ، الذين هم في شهواتهم وملذاتهم يرتعون.

3 ـ اتهام الكفار محمداً بالجنون ، وسؤالهم نزول الملائكة ، وردّ الله عليهم ، وتكفله تعالىٰ بحفظ هذا الذكر العظيم.

4 ـ تسلية الله رسوله بوصله بسنن المرسلين ، وجهادهم أقوامهم المستهزئين.

5 ـ تذكير الله عباده ببعض آياته البديعة من خلقه ، السماء وطبقاتها ونجومها ، والأرض وبَسْطها وجبالها ونباتها.

6 ـ إثبات خزائن منافع العباد بيد الله تعالىٰ ، والرياح والأمطار والأرزاق والآجال والأعمال تمضي بأمره وهو الحكيم الخبير.

7 ـ إخبار الله عن خلق الإنسان من طين ، والجان من نار السموم ، وذِكْر امتثال الملائكة أمر الله تعالى السجود لآدم، إلا إبليس اعترته الحميّة، وتعزّز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، وسأل الله النظرة ، فأعطاه الله ذلك امتحاناً للذرية إلى يوم الدين.

8 ـ تَعهُّدُ إبليس إغواء ذرية آدم ، وحماية الله عباده المخلصين ، وجهنم ذات الأبواب السبعة موعد أتباع إبليس اللعين.

9 ـ نَعْتُ الله حال المتقين ، في خلودهم في جنات النعيم.

10 ـ ذِكْرُ الله خبر ضيوف إبراهيم ، وإهلاك قوم لوط المجرمين.

11 ـ انتقام الله من قوم شعيب وقوم صالح لما كفروا وكذبوا رسلهم.

12 ـ إثبات الله تعالىٰ خلقه السماوات والأرض بالعدل والإنصاف ، وأن الساعة قادمة ، فالصفح أولىٰ حتىٰ يأتي أمر الله ، واختصاص الله نبيه محمداً ﷺ بفاتحة الكتاب وهي السبع المثاني والقرآن العظيم.

13 ـ الأمر بالصدع بالحق والجهر بالدعوة والله يكفيك ـ يا محمد ـ أمر المستهزئين.

14 ـ تسلية الله نبيّه لئلا يقع في الضيق مما يقولون ، فإنهم سوف يعلمون.

15 ـ الاستعانة على الأمر ومشقة الطريق بالتسبيح والسجود والعبادة حتىٰ مجيء الموت وهو اليقين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى**: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

في هذه الآيات: انْتِصارُ من الله تعالىٰ لهذا الكتاب العظيم، وإِعْلامٌ منه سبحانه عن الندامة التي ستلحق الكافرين، وأنهم سيتمنّون يوماً لو كانوا مسلمين، وتَهْدِيْدٌ وَوَعِيدٌ للمستكبرين الذين يأكلون وينغمسون في ألوان الشهوات معرضين عن الحق وسنن الأولين، فإنه ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.

فقوله: ﴿الٓر﴾. قد سبق بيان مفهوم ذلك من الحروف المقطعة أول السور وأنه دلالة على إعجاز هذا القرآن العظيم، الذي آياته وكلماته من جنس هذه الأحرف، ولا قدرة لأحد على معارضته ولا بسورة نحوه.

وعن مجاهد: (﴿الٓر﴾ فواتح يفتتح بها كلامه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: التوراة والإنجيل).

وقال قتادة: (﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن).

وقوله: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾. أي: وآيات قرآن بيّن الدلالة والهدىٰ والرشاد. قال قتادة: (تبيّن والله هداه ورشده وخيره).

وقوله تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾. قال ابن كثير: (إخبار عنهم أنهم سيندَمُون على ما كانوا فيه من الكفر، ويَتَمَنَّونَ لو كانوا مع المسلمين في الدنيا. ونقل السدِّي في تفسيره بسنَدِه المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفار لما عُرِضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل

المرادُ أن كلَّ كافر يَوَدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]. وقيل: هو في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين. وقال سعيد بن جبير: (إذا أُخْرِجَ أهلُ التوحيد من النار وأُدخلوا الجنة، يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ـ ذكره الترمذي.

قلت: وكل ما سبق محتمل ممكن يتسع له مفهوم الآية. وقرأ نافع وعاصم ﴿رُبَمَا﴾ مخفّف الباء، والباقون قرؤوها بالتشديد، وهما لغتان. أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

تهديد ووعيد للكفار وهم يعيثون فساداً في الأرض. أي: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا وينغمسوا في ألوان الشهوات والملذات منشغلين بها عن طاعة الله وتعظيمه حتىٰ تفجأهم آجالهم ويروا العذاب.

وفي التنزيل: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: 46]. ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: 30].

قال الحسن: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل) ـ ذكره القرطبي ثم قال: (وصدق رضي الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوىٰ. وهذا أمر قد شوهِدَ بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صَاحبه ببرهان، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة).

ويروىٰ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: (يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إنَّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون مشيّداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بُوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدَت ... منه ويزعم أن يحظىٰ بأقصاها
أنّىٰ تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما ... أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها)

أخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن من حديث ابن عمرو مرفوعاً: [نجا أوَّلُ هذه الأمة باليقين والزهد، ويَهلكُ آخرُها بالبُخْل والأمل][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾.

تنبيه لأهل مكة ولمن سار على منهاجهم في الكفر والطغيان وتكذيب الرسل: بأنه ما أهلك الله قرية إلا بعد إقامة حجّته البالغة على أهلها، وبأنه سبحانه لا يؤخر هلاك أمة حان أجل عقابها ونزول الدمار فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

قال الزهري: (نرىٰ أنه إذا حضر أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم، وأما ما لم يحضر أجله، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدّم ما شاء).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ما يتقدّم هلاك أمة قبل أجلها الذي جعله الله أجلاً لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي جعل لها أجلاً).

6 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾.

في هذه الآيات: اتّهامُ الكفار محمداً ﷺ بالجنون، وتنطُّعهم بطلب نزول الملائكة تشهد له بالنبوة إن كان من الصادقين، وردُّ الله تعالىٰ عليهم طلبهم بأن الملائكة إنما تنزل بالرسالة على النبيين، أو بالعذاب على المجرمين، وتأكيدُ الله سبحانه أن هذا القرآن أنزله وتكفل بحفظه ولو كره الكافرون.

وعن الضحاك: (﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ قال: القرآن).

قال النسفي: (﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ يعنون محمداً عليه السلام، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾).

(1) حديث حسن. أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (3)، والأصبهاني في الترغيب (165)، والديلمي في زهر الفردوس (4/ 123)، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (6622).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أي: هلاّ تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول إن كنت صادقاً في دعواك النبوة والرسالة واختيار الله لك بالوحي.

وفي التنزيل: ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: 21 ـ 22].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

قال مجاهد: (﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، قال: بالرسالة والعذاب).

وهناك قراءات ثلاث متقاربات المعاني لقوله ﴿نُنَزِّلُ﴾. فقد قرأها قراء المدينة والبصرة «ما تَنَزَّلُ»، أي الفعل للملائكة. وقرأها بعض أهل الكوفة: «ما نُنَزِّل»، وبعضهم قرأها «ما تُنَزَّلُ».

قال ابن جرير: (فتأويل الكلام: ما ننزل ملائكتنا إلا بالحق، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه، ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم ينظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين أتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة). وقال القاسمي: (﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي مُؤَخَّرِين).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

تقرير وتأكيد أن هذا القرآن أنزله الله وتكفل حفظه من التغيير والتحريف والتبديل.

قال قتادة: (فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينتقص منه حقاً، حفظه الله من ذلك). قال: (وقيل: الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من ذكر محمد ﷺ، بمعنىٰ: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه).

قال النسفي: (﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهو ردّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكّد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فوقع التحريف، ولم يكل

القرآن إلى غير حفظه ، وقد جعل قوله : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ﴾ دليلاً على أنه منزل من عنده آية ، إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه. أو الضمير في «له» لرسول الله ﷺ كقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾).

وقال القاسمي : (﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي من كل مَنْ بغىٰ له كيداً. فلا يزال نور ذكره يسري ، وبحر هداه يجري ، وظلال حقّيّته في علومه تمتد على الآفاق ، ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغماً عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : 8]. وفي إيراد الجملة الثانية اسميةً ، دلالة على دوام الحفظ).

قلت : والحفظ للذكر يتناول حفظ التأويل ، وإقامة الحجة على مدار الزمان بصواب التفسير ، وهذا يتضمن حفظ الوحي الثاني ـ ألا وهو السُّنة ـ المفسرة للوحي الأول : القرآن. كيف لا ، وقد جاءت كلمة «الذكر» في موضع آخر من القرآن لتدل على ذلك.

قال تعالىٰ في سورة النحل : ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : 44].

أي : وأنزلنا إليك السنة وهي السيرة ، لتفسر بها للناس هذا القرآن.

قال الحافظ ابن كثير : (﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي : من ربهم لعلمك بمعنىٰ ما أنزل الله عليك وحرصك عليه).

فكلاهما في كِلاءة الله وحفظه ، وقد تكفل الله بحماية فهم كتابه ، ليبقىٰ الدين بهذا النقاء والصفاء حجة الله على عباده.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن أبي سعيد الخدري قال : [كنا جلوساً ننتظر رسولَ الله ﷺ ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه ، فقمنا معه ، فانقطعت نعله ، فتخلَّفَ عليها عليٌّ يَخْصِفُها ، فمضىٰ رسول الله ﷺ ومضينا معه ، ثم قام ينتظره ، وقمنا معه ، فقال : «إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله». فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر ، فقال : لا ، ولكنه خاصف النعل. قال : فجئنا نبشِّرُه][1].

وفي رواية : (إنّ منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله. فقام أبو بكر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «خصائص علي» ص (29) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 33) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2487).

وعمر ، فقال: لا ، ولكن خاصف النعلِ ، وعليٌّ يخصِفُ نعله).

وجاء في تدريب الراوي للسيوطي ، وفي «الباعث الحثيث» شرح اختصار علوم الحديث ، عن عبد الله بن المبارك: (وقد سئل: هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال: تعيش لها الجهابذة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾).

وجاء في: «الروض الباسم في الذّب عن سنة أبي القاسم» عن العلامة محمد بن إبراهيم الوزير قال: (﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: وهذا يقتضي أن شريعة رسول الله ﷺ لا تزال محفوظة ، وسنّته لا تبرح محروسة).

وفي سنن أبي داود والبيهقي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها] وسنده صحيح(1).

وأخرج ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يحمل هذا العلم من كل خلف عُدولُـهُ ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين](2).

10 ـ 15 . قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

في هذه الآيات: تَسْلِيةُ الله تعالىٰ نبيّه بِوَصْلِهِ بسنن المرسلين ، وقد جاؤوا أقوامهم بالبلاغ المبين ، فكذبوهم وآذوهم واستهزؤوا بهم حتىٰ طبع الله على قلوب المجرمين. فهم لا يؤمنون ولو أبصروا عظيم آيات الله في هذا الكون لقالوا نحن قوم مسحورون.

فعن ابن عباس: (﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: أمم الأولين). و﴿شِيَعِ﴾ جمع شيعة ، وشيعة الرجل: أولياؤه ، والمقصود: تسلية النبي ﷺ عما

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4291) ، والحاكم (4/ 522) ، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (ص 52) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (599).

(2) حديث حسن. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (248) ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتمس» ، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 269).

يلقاه من تكذيب قومه ، بأنه ما أتىٰ رسولٌ قبله في أمة إلا استهزؤوا به وكذبوه وعاندوه ، وسخروا به وبمن تبعه ، وتمردوا وعتوا في الأرض بغياً وكبراً. وهو قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ .

قال قتادة : (إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به). وقال ابن جريج : (﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال : التكذيب). وقال الحسن : (الشرك). وقال ابن زيد : (هم كما قال الله ، هو أضلهم ومنعهم الإيمان).

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقول : لا يصدّقون بالذكر الذي أنزل إليك. والهاء في قوله : ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ من ذكر الاستهزاء بالرسل والتكذيب بهم).

قلت : والآية دلالة على بعض عقوبات الله في حرمانه الهدىٰ والهداية لمن استهزأ بفرصها وضيّعها ، فإن للإيمان بالله ومتابعة الرسل مواسم وعزائم تتوجه نحو القلب فإن فوّتها ولم يكترث بها ربما لم تعد مرة أخرىٰ ، وكان الضياع والحرمان ثم الشقاء.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه. فقال : لعلكم تَعْنون فتنةَ الرجل في أهله وماله وجاره ؟ قالوا : أجل. قال : تِلكَ تُكفِّرُها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر التي تَموجُ موج البحر ؟ قال حذيفة : فَأَسْكَتَ القومُ ، فقُلتُ : أنا. قال : أنت لله أبوك ؟ قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [تُعرض الفِتَنُ كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّ قَلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء ، وأيُّ قَلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء ، حتىٰ يصير على قلبين : على أبيضَ مثل الصفا فلا تضرّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ ، والآخر مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا يُنْكِرُ منكراً ، إلاّ ما أُشرِبَ من هواه][1].

وقوله : ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

قال قتادة : (وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم). وقال النسفي : (مضت طريقتهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم. انظر مختصر صحيح مسلم (1990) ـ كتاب الفتن ـ باب : عرض الفتن على القلوب ونكتها فيه. وقوله «مرباداً» : شدة البياض في سواد. و«مجخياً» : منكوساً.

التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

أي: ولو أريناهم أكبر آية ـ نحو فتح باب من السماء ـ ويسرنا لهم معراجاً يصعدون فيه إليها ، وأبصروا من عظيم الآيات والدلائل على وجوب إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، والتصديق بالوحي الذي نزل على محمد ﷺ سيد المرسلين ، لقالوا إنما هو شيء نتخايله لا حقيقة له ، بل سحرنا محمد بذلك.

وعن مجاهد: (﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ ، قال: سُدّت أبصارنا). وقال قتادة ، عن ابن عباس: (أخذت أبصارنا). وقال العوفي ، عن ابن عباس: (شبِّهَ علينا ، وإنما سُحِرْنا). وقال الكلبي: (عَمِيت أبصارنا). وقال ابن زيد: (﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ ، السكران الذي لا يَعْقِلُ). قال ابن جرير: (معنىٰ ذلك: أخذت أبصارنا وسحرت ، فلا تبصر الشيء على ما هو به ، وذهب حدُّ إبصارها ، وانطفأ نوره).

16 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾.

في هذه الآيات: تَذْكيرُ الله تعالى عباده ببعض آياته البديعة من خلقه ، فقد خَلَقَ السماء وجعلها سبع طبقات لكل منها ارتفاعها وملائكتها وأفلاكها ، وَزَيّنَ السماء الدنيا بالنجوم والكواكب الثواقب تبهر الناظرين ، وتطرد بشهبها الشياطين ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ، والأرض بسطها سبحانه ومهّدها وثبّتها بالجبال الشامخات وأنبت فيها من كل شيء بقدر معلوم ، رزقاً للعباد وَلِمَنْ لَسْتُم له من الخلق برازقين.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾. قال مجاهد: (كواكب). وقال قتادة: (وبروجها: نجومها).

وقوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن عباس: (إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبل[1] وتجرح من غير أن تقتل).

والمقصود: أن الله تعالىٰ قد حفظ السماء الدنيا من كل شيطان لعين أن يسترق الخبر يقضيه سبحانه في السماء، كما كانوا يفعلون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن ربما خطف بعضهم جزءاً من الخبر قبل أن يحرقه الشهاب فيضيف عليه مئة كذبة فيصدق عند الجهال في الأرض بتلك الكلمة التي ألقاها إلى الساحر وأضاف لها ما أضاف من الكذب لتصبح قصة لها بداية ونهاية.

فقد أخرج البخاري في صحيحه ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن أبي هريرة يبلغُ به النبي ﷺ قال: [إذا قضىٰ الله الأمرَ في السماء ضَرَبت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ـ قال عليٌّ: وقال غيرُه: صَفْوانٍ يَنْفُذُهُمْ، ذلكَ ـ فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربّكُم؟ قالوا للذي قال: الحَقَّ وهو العليُّ الكبيرُ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُو السمع، ومسترِقُو السَّمع هكذا، واحِدٌ فوقَ آخرَ. ـ ووصف سفيانُ بيده وفرَّج بين أصابع يده اليمنىٰ، نصبها بعضَها فوْقَ بعض ـ فربَّما أدركَ الشِّهابُ المستَمِعَ قبل أن يَرْميَ بها إلى صاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّما لم يُدْرِكْهُ حتىٰ يَرْمِيَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أَسْفَلُ منه حتىٰ يُلْقوها إلى الأرض ـ وَرُبَّما قال سفيانُ: حتىٰ تنتَهِيَ إلى الأرض، فَتُلْقىٰ على فَم السّاحر فَيَكْذِبُ معها مئة كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فيقولون: ألم يُخْبِرْنا يَوْمَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا؟ فوجَدْناهُ حَقّاً ـ للكلمة التي سُمِعَتْ مِنَ السماء][2].

وفي التنـزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾. [الفرقان: 61].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].

---

(1) الخبل: فساد الأعضاء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4701) ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجر، آية (18)، وأخرجه أبو داود (3989)، والترمذي (3223)، وابن ماجة (194)، وابن حبان (36).

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾. أي: دحوناها فبسطناها ومهدناها وجعلنا على بعض أجزائها الجبال الثابتات.

قال قتادة: (﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾. وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: 30]. وذُكِرَ لنا أن أمّ القرىٰ مكة، مِنْها دُحيت الأرض. قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ رواسيها: جبالها).

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾. يعني أنبت فيها سبحانه من الزروع والثمار المتناسبة.

قال ابن عباس: (أي: معلوم). وقال ابن زيد: (من كل شيء يُوزَنُ ويُقَدَّر بِقَدَر).

وقال ابن زيد: (ما تزِنهُ الأسواقُ).

قال القاسمي: (أي وزن بميزان الحكمة، وقُدِّرَ بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان. أو بمعنىٰ مستحسن متناسب من قولهم: كلام موزون).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

المعايش: جمع معيشة. قال الحسن: (إنها الملابس). وقيل: (إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة) ـ قال الماوردي: (وهو الظاهر). قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشونَ بها).

وعن مجاهد: (﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الدواب والأنعام). وقال منصور: (الوحش). قال ابن جرير: (وأحسن أن يقال: عني بقوله ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ من العبيد والإماء والدواب والأنعام).

قال ابن كثير: (والقصْدُ أنه تعالىٰ يمتنّ عليهم بما يَسَّرَ لهم من أسباب المكاسب ووُجوه الأسباب وصُنوف المعايش، وبما سَخَّرَ لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقُهم على خالقهم لا عَليهم، فلهم هو المنفعة، والرزق على الله تعالىٰ).

21 ـ 25. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إثْباتُ خزائن منافع العباد بيد الله تعالىٰ وإنما تصريف ذلك حسب مشيئته وحكمته جلت صفاته ، وإِثْباتُ إرسال الله الرياح حوامل ملقحة تحمل الماء والتراب والخير والنفع الكثير ، وكذلك المطر المنهمر والحياة والموت بأمر الله العزيز الكبير ، الذي علم الأرزاق والآجال والأعمال والمرجع إليه وهو الحكيم الخبير.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

أي: كل خزائن منافع العباد عند الله تعالىٰ وهو ينزل من ذلك بحكمته وتقديره.

يروي ابن جرير بسنده عن أبي جحيفة ، عن عبد الله ، قال: (ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه عمن يشاء ، ثم قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾).

وفي لفظ ، قال عبد الله بن مسعود: (ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يقسمه حيث شاء ، عاماً هاهنا وعاماً هاهنا ، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾).

قلت: فخزائن صنوف جميع الأشياء عند الله تعالىٰ ، ينزل منها بحكمته فيغطي بذلك حاجات عباده أو بعضها ، أو يعاقبهم فيحرمهم من إنزالها ، وينزل المعونة برحمته على قدر المؤنة ، وينزل الفرج والصبر على قدر المصيبة.

يروي الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ المعونة تأتي من الله للعبد على قَدْر المؤنة[1] ، وإن الصبر يأتي من الله على قدْر البلاء][2]. وفي رواية: (على قدر المصيبة).

وفي لفظ آخر: [إنّ الله يُنزِلُ المعونة على قدر المؤنة ، وينزل الصبر على قدر البلاء].

---

(1) المؤنة: القوت ، ويقال أيضاً: المؤونة. والجمع: مُؤن ، ومؤونات.

(2) حديث صحيح. أخرجه البزار في «مسنده» (ص 156) ، وابن عدي في «الكامل» (206/ 1) ، وابن عساكر (5/ 205/ 2) ، ورواه الحاكم والبيهقي. انظر صحيح الجامع (1948) (1915) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1664).

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ ـ أي: حوامل، تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع الكثير. وهي في الحقيقة لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه. قال ابن مسعود: (يرسل الله الرياح فتحمل الماء، فتجري السحاب، فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر) ـ ذكره بسنده ابن جرير، ثم قال: (فقد بين عبد الله بقوله: يرسل الرياح فتحمل الماء أنها هي اللاقحة بحملها وإن كانت ملقحة بإلقاحها السحاب والشجر).

وعن الحسن: (﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قال: لواقح للشجر، قلت: أو للسحاب؟ قال: وللسحاب تمريه حتىٰ يمطر).

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾. قال القرطبي: (﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السحاب. وكل ما علاك فأظلّك يسمىٰ سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿مَآءً﴾ أي قطراً. ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم).

وفي لغة العرب: سقيته الماء أي ليشرب هو، وأسقيته الماء: إذا جعلت له ماءً لشربه ولشرب أرضه وماشِيَتِه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾. قال سفيان: (بِمَانِعين). قال ابن كثير: (ويَحتمِلُ أنّ المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزِلُه ونحفظُه عليكم، ونجعَلُه مَعِيناً وينابيعَ في الأرض، ولو شاء تعالىٰ لأغارَه وذَهَبَ به، ولكن مِنْ رحمتِهِ أنزله وجعله عذباً، وَحَفِظَهُ في العُيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقىٰ لهم في طول السَّنةِ يشربون ويُسقُون أنعامَهُم وزُروعهم وثمارهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 68 ـ 70].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: 30].

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما من عامٍ بأكثر مطراً من

عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾][1] .

وله شاهد عند البغوي في «معالم التنزيل» من حديث ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمَرَّ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار][2] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ .

قال النسفي: (أي نحيي بالإيجاد ونميت بالإفناء ، أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ .

قال عكرمة: (هم خلق الله كلهم ، قد علم من خلق منهم إلى اليوم ، وقد علم من هو خالقه بعد اليوم). وقال قتادة: (المستقدمين: من مضىٰ ، والمستأخرين: من بقي في أصلاب الرجال). وقال مجاهد: (من مات ومن بقي).

وكان الحسن يقول: (المستقدمون في طاعة الله ، والمستأخرون في معصية الله).

وعن أبي الجوزاء قال: (المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة والمستأخرين).

قلت: وكل ما سبق داخل في تأويل هذه الآية ، كما أن النّص الصحيح جاء في تأكيد التفسير في صفوف القوم في الصلاة.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: [كانت امرأة تُصلي خلف رسول الله ﷺ ، حسناء من أحسن الناس ، وكان بعض القوم يتقدم حتىٰ يكون في الصف الأول لأن لا يراها ، ويستأخر بعضهم حتىٰ يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 403) ، وابن جرير في «التفسير» (19/ 15) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في الصحيحة (2461).

(2) حديث صحيح. انظر «معالم التنزيل» (6/ 184 ـ منار) ، والمرجع السابق (ج 5) ص(593).

نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾][1] .

وله أصل من حديث سفيان الثوري ، أخرجه الحاكم عن رجل عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: الصفوف المقدمة ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: الصفوف المؤخرة)[2] .

وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح قال: [قال سهل بن حنيف الأنصاري: أتدرون فيم أنزلت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ . .﴾ الآية ؟ قلت: في سبيل الله ، قال: لا ، ولكنها في صفوف الصلاة][3] .

وقد زعم ابن كثير رحمه الله في الحديث السابق ـ حديث الترمذي ـ نكارة شديدة ، ربما يعني أنه لا يعقل لأحد من المصلين التأخر للصف الآخر لينظر إلى امرأة. والجواب على ذلك بأن يقال: إذا ورد الأثر بطل النظر ، ويحتمل عندئذ أن يكون الناس المستأخرون من المنافقين أو ممن أسلم حديثاً ولم ترسخ آداب الإسلام في سلوكهم.

ومن جهة أخرىٰ ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فمع أن المعنىٰ المستفاد من سبب النزول يختلف قليلاً عما تدل عليه الآية بسباقها وسياقها ، فإن عموم اللفظ يتسع لذلك ، وقد اختار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله حمل الآية على هذا العموم حيث قال: (وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء ، والمستأخرين فيه لذلك ، ثم يكون الله عز وجل عمّ بالمعنىٰ المراد منه جميع الخلق ، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضىٰ من الخلق وأحصيناهم وما كانوا يعملون ومن هو حيّ منكم ، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس ! وأعمال جميعكم ، خيرها وشرها ، وأحصينا جميع ذلك ، ونحن نحشرهم جميعهم فنجازي كلاً بأعماله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ، ولكل من تعدىٰ حد الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعداً لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3341) ـ أبواب تفسير القرآن ـ سورة الحِجْر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2497) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2472).

(2) انظر: مستدرك الحاكم (2/ 353) ، والمرجع السابق(ج 5) ص (610).

(3) انظر: «الدر المنثور» (97/4) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 5) ص (610) ، وهو شاهد للحديث السابق الذي رواه الترمذي والطيالسي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قال قتادة: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾: أي الأول والآخر). وقال عكرمة: (هذا من هاهنا، وهذا من هاهنا). وعن عطاء، عن ابن عباس قال: (وكلهم ميت، ثم يحشرهم ربهم). وقال الحسن: (قال عليّ: قال داود: سمعت عامراً يفسر قوله ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن ربك حكيم في تدبيره خلقه في إحيائهم إذا أحياهم، وفي إماتتهم إذا أماتهم، عليم بعددهم وأعمالهم، وبالحيّ منهم والميت، والمستقدم منهم والمستأخر). وقال قتادة: (كل أولئك قد علمهم الله، يعني المستقدمين والمستأخرين).

26 ـ 38. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن خلقه الإنسان من صلصال من طين، والجان من نار السموم، وذِكْرُ خبر أمر الله الملائكة السجود لآدم وجدال إبليس المتكبر اللعين، الذي كتب الله عليه لعنته إلى يوم الدين، ثم أنظره فتنة للعالمين، إلى يوم الوقت المعلوم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

قال ابن عباس: (خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب، وأما اللازب: فالجيد، وأما الحمأ: فالحمْأة، وأما الصَّلصال: فالتراب المرقّق، وإنما سمي إنساناً لأنه عهد إليه فنسي). وقال قتادة: (والصلصال: التراب اليابس الذي يسمع له

صلصلة). أو قال: (الطين اليابس له صلصلة). والحمأ: جمع حَمأة ، وهو الطين المتغيِّر إلى السواد. والمسنون الأملس.

والمقصود: أن الله تعالىٰ خلق الإنسان الأول ـ آدم عليه السلام ـ من قبضة من تراب جمعها من كل ترب الأرض ، فجعلها في يده كالصلصال من الطين المتغير ـ إلى السواد ـ الأملس.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: 14 ـ 15].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].

وفي سنن أبي داود والترمذي بسند صحيح عن أبي موسىٰ ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله خلقَ آدم من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض ، وبين ذلك ، والخبيث والطيِّبُ ، وبين ذلك][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

أي: وكان خلق إبليس ـ وهو أبو الجن ـ من قبل خلق الإنسان ، خلقه الله من نار السموم.

قال ابن عباس: (السموم الحارّة التي تقتل). وقال الضحاك: (من لهب النار).

وقيل: (من أحسن النار). قال ابن كثير: (ومقصود الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة مَحْتِده[2]).

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [خُلِقت الملائكة من نور ، وخُلِقَ الجان من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4693) ، والترمذي (2955) ، وأحمد (4/ 400) ، والحاكم (2/ 261 ـ 262) ، وأخرجه ابن حبان (6160) ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(2) المحتد: الأصل والجوهر.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (226/8). وانظر مختصر صحيح مسلم (2169) ص (578). وقوله: «مما وصف لكم»: أي من طين.

ثم ذكر تعالىٰ تنويهَه بذكر آدم عليه السلام في ملائكته ، وأمره لهم بالسجود له تشريفاً له وتكريماً ، وشمل الأمر إبليس الذي اعترته الحمية ، وتعزّز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، فأتبعه الله السخطة واللعنة وطرده من الجنة والرحمة ، فسأل الله النظرة ، فأعطاه سبحانه النظرة ، استكمالاً للبلية ، واستحقاقاً للسخطة إلى يوم الدين . وقد مضىٰ تفصيل ذلك في أول سورة البقرة ، فلله الحمد والمنة .

39 ـ 44 . قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تَعَهُّـدُ إبليس إغواء ذرية آدم إلا عباد الله المخلصين ، الذين سيحميهم الله من محاولاته ومكره إلا من اتبعه من الغاوين . فإن جهنم موعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب قد كُتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس منه يلجون .

فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ . أي : بسبب إغوائك . وقيل : أقسم بإغواءِ الله له .

وقوله : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . قال ابن جرير : (لأحسننّ لهم معاصيك ، ولأحببنّها إليهم في الأرض) .

وقوله : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . أي : لأصرفنهم عن سبيل الهدىٰ والرشاد ، إلى سبيل الغي والضلال .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ . قال الضحاك : (يعني : المؤمنين) . وقال قتادة : (هذه ثَنِيَّةُ الله تعالى ذكره) .

وفي التنزيل :

﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 62] .

ومن كنوز السنة المطهرة في آفاق مفهوم الآية أحاديث، منها :

الحديث الأول: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح في الشواهد عن أبي سعيد

رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : [إنّ الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تبارك وتعالىٰ : وعزتي وجلالي : لا أزال أغفر لهم ما استغفروني](1) .

الحديث الثاني : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ قال : [وآمركم أن تذكروا الله تعالىٰ ، فإن ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتىٰ إذا أتىٰ على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يَحْرِزُ نفسَهُ من الشيطان إلا بذكر الله تعالىٰ](2) .

الحديث الثالث : أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال : [إنّ الشيطان قد يَئِسَ أن يُعبد بأرضكم ، ولكن رضي أن يُطاعَ فيما سوىٰ ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتابَ الله ، وسنّة نبيّه . . .] .

وأصله في صحيح مسلم من حديث جابر بلفظ : [إن الشيطان قد أيسَ أن يَعْبُدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم](3) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

قال مجاهد : (الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرِّج علىٰ شيء) . وقيل المعنىٰ : المرجع إلى الله ثم الجزاء والحساب .

وعن ابن سيرين : (أنه كان يقرأ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ يعني : رفيع) .

واختار ابن جرير القراءة الأولىٰ ﴿ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وهي الأشهر .

---

(1) صحيح لشواهده . أخرجه الحاكم (4/ 261) ، والبيهقي في «الأسماء» (ص 134) ، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (1/ 146) ، وأحمد (3/ 29) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (104) ، فضيلة الاستغفار والذكر .

(2) حديث صحيح . رواه أحمد في «المسند» (4/ 202) ، والترمذي (2867) ـ (2868) ، في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصيام والصلاة والصدقة ، وهو جزء من حديث طويل .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/ 138) ، والترمذي (3/ 127) ، وأحمد (3/ 313) ، والحاكم باللفظ الأول ، وأخرجه أبو يعلىٰ (2/ 577) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1608) .

والخلاصة في تأويل الآيــة:

التأويل الأول: طريق الحق مرجعُها إلى الله تعالىٰ ، وإليه تنتهي ، كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: 9].

التأويل الثاني: أي مرجعكم كُلّكُم إليّ ، وهو تهديد وتوعد من الله لإبليس ومن تبعه ـ ثم أجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر. كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: 14].

وكلاهما مما يحتمل من التأويل ، ويتسع له البيان الإلـهي المعجز.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

تأكيد على حماية الله تعالىٰ عباده المؤمنين المخلصين من سبيل الشياطين.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن عبادي ليس لك عليهم حجة ، إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من الضلالة ممن غوىٰ وهلك).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تأكيد لمكان مستقر الطغاة والمجرمين ، وهي جهنم موعد الكفار أجمعين.

قال ابن كثير: (أي: جهنّم موعدٌ جميع من اتّبعَ إبليس ، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: 17]).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ عن جهنم ، أن لها سبعة أبواب ، قد كُتب لكل باب منها جزءٌ من أتباع إبليس ، اختارهم الله لذلك الباب لولوج جهنم منه حسب أعمالهم وتبعاً لجرائمهم. قال قتادة: (هي والله منازلُ بأعمالهم).

قلت: ونار جهنم كما أن لها سبعة أبواب ، كذلك لها سبعون ألف زِمام[1].

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مَعَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها][2].

---

(1) الزمام: ما يزم به الشيء ، أي يشد به ويربط.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (149/8)، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1975) ، كتاب صفة النار ، باب: في ذكر أزِمّة النار.

45 ـ 50. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله حال المتقين ، فهم يوم الخلود في جنات وعيون ، يدخلونها بسلام آمنين ، لا غل ولا حسد ولا حقد في قلوبهم على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها أي تعب وما هم منها بمخرجين ، فإن الله هو الغفور الرحيم ، وإن عذابه هو العذاب الأليم.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ ـ بيان للصورة المقابلة ، فأهل النار في جحيم وسموم ، وأهل الجنة في جنات وعيون. فإن جزاء التقوىٰ الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

قال ابن كثير: (﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ ، أي: سالمين من الآفات ، مُسَلَّماً عليكم ، ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من كل خوف وفزَع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناءٍ).

قلت: ويدخل أولاً السابقون السابقون ، ثم أصحاب اليمين.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: 40].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 10 ـ 12].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتعلمُ أولَ زمرة تدخل الجنة من أمتي ؟ قلت: الله ورسوله أعلم ؟ فقال: المهاجرون ، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون ، فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم ؟ فيقولون: بأي شيء نحاسبُ وإنما كانت أسيافنا

على عواتقنا في سبيل الله حتىٰ متنا على ذلك ؟ قال: فيفتح لهم فيقيلون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس][1] .

وأما صفة دخول الزمر الجنة ـ فتدخل الزمرة الأولىٰ ، ثم الزمرة الثانية . وتفصيل ذلك :

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [أول زمرةٍ تَلِجُ الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصُقون فيها ، ولا يمتخطون ولا يتغوَّطونَ ، آنيتُهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامِرُهُم الألُوَّة ، ورشْحُهم المِسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يُرىٰ مُخُّ سُوقِهِا من وراء اللحم من الحُسْن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغُض ، قلوبهم قلبٌ واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والثانية على لونٍ أحسنَ من كوكب دري في السماء ، لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حُلّة ، يبدو مُخُّ ساقها من ورائها][3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ .

قال علي رضي الله عنه: (إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم).

قال النسفي: (﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهو الحقد الكامن في القلب ، أي إن كان لأحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيّب نفوسهم. قال: وقيل معناه: طهّر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقىٰ فيها التوادد والتحابب ﴿إِخْوَانًا﴾ حال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ كذلك قيل تدور بهم الأسِرّة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرىٰ بعضهم بعضاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 70) على شرط مسلم ، ورواه البيهقي وصححه الألباني ، انظر صحيح الجامع (95) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (853).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (146/8). وانظر مختصر صحيح مسلم (1956) ، (1957) ، وصحيح الجامع (2561) ـ (2563) ، ورواه البخاري وغيره.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 16) ، والترمذي (2/ 85 ـ 87) ، وانظر صحيح مسلم (8/ 146) ، وصحيح ابن حبان (2631) ، (2632).

أخرج البخاري وأحمد من حديث أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال: [يخلص المؤمنون من النار ، فَيُحْبَسُون على قنطرةٍ بين الجنة والنار ، فيُقتصّ لبعضهم من بعض ، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا ، حتىٰ إذا هُذِّبُوا ونُقّوا أُذِنَ لهُم في دخول الجنة][(1)].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أي: لا ينالهم تعب في الجنة ، بل هم في راحة دائمة ولذة مستمرة ، في إقامة سرمدية لا منغّصَ لها ولا قاطع.

والنصب: التعب والمشقة والأذىٰ ، وقد ورد ذكر نفي ذلك ـ في السنة ـ في شأن خديجة رضي الله عنها في بيت خاص لها في الجنة.

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: [أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتَتْ معها إناء فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرَابٌ ، فإذا هي أتَتْكَ فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومِنّي ، وبَشِّرها بِبَيْتٍ في الجنة من قَصَبٍ ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب][(2)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يدخل الجنة يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ ، لا تَبْلىٰ ثيابُه ولا يَفْنىٰ شبابُه][(3)].

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

جَمْعٌ بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، وعليهما بناء التوازن في العبادة.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن اللهَ خلَقَ الرَّحْمة يَوْمَ خلقها مِئَةَ رحْمة ، فأمْسكَ عِنده تِسْعاً وتِسْعين رَحْمةً ، وأرسَلَ في خلقِهِ كلّهم رحمة واحِدة ، فلو يعلم الكافِر بكل الذي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2440)، وأحمد (3/ 13) ، وغيرهما.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3820)، كتاب مناقب الأنصار، وانظر صحيح مسلم (2434).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2836)، كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نَعيم أهل الجنة.

عند الله من الرحمة لم ييْأَسْ من الجنة ، ولو يَعْلمُ المؤمنُ بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمَنْ من النار](1).

الحديث الثاني: أخرج البزار بسند حسن عن أبي سعيد مرفوعاً: [لو تعلمون قَدْرَ رحمةِ الله لا تكلتم عليها].

ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر مرفوعاً: [لو تَعْلمون قَدْر رحمةِ الله عزَّ وجلَّ ، لاتّكلتم وما عَمِلْتُم مِنْ عَمَلٍ ، ولو عَلِمْتُم قَدْر غَضَبِهِ ما نفعكم شيء](2).

الحديث الثالث: أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت ، فقال: كيف تجدك ؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمّنه مما يخاف](3).

51 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْر الله خبر الملائكة الذين أرسلهم الله لاستئصال قوم لوط المجرمين ، فنزلوا ضيوفاً عند إبراهيم ، فخاف منهم فبشروه بغلام عليم ، كما بشروه بهلاك قوم آثمين ، وبنجاة آل لوط إلا امرأته كانت من الغابرين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6469)، كتاب الرقاق ، باب الرجاء مع الخوف ، وانظر صحيح مسلم (2755) ، وسنن الترمذي (3542) ، ومسند أحمد (2/ 334).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (2/ 193/ 1) ، وقال الهيثمي (10/ 213): «رواه البزار ، وإسناده حسن». انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2167).

(3) حديث حسن. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 24/ 25) ، وابن أبي الدنيا كما في «الترغيب» (4/ 141) ، ورواه الترمذي وغيرهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾. أي: أخبر عبادي ـ يا محمد ـ عن الملائكة الذين دخلوا ضيفاً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حين بعثهم الله لإهلاك قوم لوط المجرمين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

إخبار من الله سبحانه عن الملائكة الذين نزلوا على إبراهيم الخليل ﷺ، فباشروه بالسلام، لكنه ما لبث أن أوجس منهم خيفة حينما رأىٰ أيديهم لا تصل إلى العجل السمين الحنيذ الذي قرّبه إليهم ضيافة منه لهم. فقال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ ـ أي خائفون.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

أي قالوا له لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28]، وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

قال مجاهد: (عجب من كبره، وكبر امرأته).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾.

قال ابن جرير: (قال ضيف إبراهيم له: بشرناكَ بحقّ يقين، وعلم منّا بأن الله قد وهب لكَ غلاماً عليماً، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله، فييأسون منه، ولكن أبشر بما بشرناكَ به واقبل البشرىٰ).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

قال النسفي: (أي لم أستنكر ذلكَ قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً لهُ في العادة التي أجراها).

في التنزيل: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

ومن كنوز صحيح السنة في ذمِّ القنوط من رحمة الله حديثان:

الحديث الأول: يروي الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأسُ من رَوْح الله، والأمْنُ من مكر الله][1].

---

(1) إسناده صحيح. انظر تحقيق «فتح المجيد» ـ الأرناؤوط (422)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 492) ـ لتفصيل البحث.

الحديث الثاني: روى عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله][1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

إِخْبارٌ من الله سبحانهُ عن سؤال إبراهيم لضيوفهِ ـ لما ذهب عنه الروع وجاءتهُ البشرى ـ عن سبب قدومهم ومجيئهم له، فأخبروه بإرسال الله تعالى لهم إلى قوم لوط المجرمين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أخبروه أنهم سينجّون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين. ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: الباقين المُهْلكين).

61 ـ 66. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾.

في هذه الآيات: وصول الملائكة إلى لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأنكرهم ولم يعرفهم، فأخبروهُ بأمرهم ومهمّتهم، وأمروه بالخروج بأهله ليلاً فإن موعد القوم الصبح فقد قضي فيه انتهاء أمرهم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

إخبار من الله عن إنكار لوط ـ عليه السلام ـ للملائكة المرسلين في صورة شبابٍ حسانِ الوجوه، أي: إنه أنكرهم ولم يعرفهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ـ قال مجاهد: (بعذاب قوم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن مسعود. انظر: «فتح المجيد» (424) ـ تحقيق الأرناؤوط، والمرجع السابق (1/ 492) لمزيد من التفصيل.

لوط). قال ابن جرير: (فقالت له الرسل: بل نحن رسل الله جئناكَ بما كانَ فيه قومكَ يشكون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

أي: أتيناكَ يا لوط باليقين من الله ـ أن العذاب نازل بقومكَ المجرمين ـ وإنا لصادقون في خبرنا ذلكَ لك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

هو أمر الله للوط قبل حلول ساعة الانتقام: أن سر بأهلك ببقية من الليل، وكن من ورائهم وهم أمامكَ ولا يلتفت منكم وراءه أحد. قال مجاهد: (﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يلتفت وراءه أحد، ولا يُعَرِّج). وقال قتادة: (﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال: أُمِرَ أن يكونَ خلف أهلهِ، يتبعُ أدبارهم في آخرهم إذا مشوا).

قال ابن كثير: (يمشي وراءهم، ليكون أحفظَ لهم. وهكذا كانَ رسول الله ﷺ: يمشي في الغَزاة بما كان يكونُ ساقةً، يُرجي الضعيف، ويَحملُ المُنْقَطِع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تَلتفِتُوا إليهم، وذَرُوهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل).

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

أي: تقدّمنا إليه في هذا أن دمارهم وقت الصباح، وفرغنا له من ذلكَ الأمر. قال ابن زيد: (أوحينا إليه). وقال ابن عباس: (قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ يعني: استئصال هلاكهم مصبحين).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81].

67 ـ 77. قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ

بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: مَجِيءُ أهل سدوم طمعاً بالحصول على أضياف لوط لفاحشتهم ، واستِنْكارُ لوط ﷺ على قومه ونصيحته لهم ، ولكنهم أصروا على المضي في طلبهم ، فأتاهم أمر الله فدمَّر عليهم بلدتهم ، وأمطرهم حجارة من السماء وجعلهم عبرة لمن بعدهم.

فقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾. أي: قدم أهل مدينةِ سدوم طمعاً بضيف لوط. قال قتادة: (استبشروا بأضياف نبيّ الله ﷺ لوط ، حين نزلوا لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾.

أي: قال لهم لوط هؤلاء أضيافي فلا تُخجِلون ، وخافوا الله في عملكم ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم بالتعرض للنيل منهم بمكروه. قال القرطبي: (يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجل).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. قال قتادة: (ألم ننهكَ أن تضيف أحداً). والمقصود أحد تأويلين:

1 ـ ألم ننهكَ عن استضافةِ الغرباء ـ وكانوا يقصدونهم لفاحشتهم.

2 ـ أو لم ننهكَ عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

قال قتادة: (أمرهم نبيّ الله لوط أن يتزوجوا النساء ، وأراد أن يَقِيَ أضيافهُ ببناته).

والمقصود: أرشدهم لوط ـ ﷺ ـ إلى نسائهم وإلىٰ الزواج وترك الحرام ، وربما كنىٰ ببناته عن بنات قومِهِ ، وقد تقدم بيان ذلكَ في سورة هود.

وقوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

أي: أقسم تعالى بحياة نبيّه ـ ﷺ ـ أن القوم كانوا غافلين عما ينتظرهم من العذاب ، وكذلكَ قومكَ يا محمد لو أصروا على تكذيبكَ ومخالفتكَ.

قال ابن عباس: (ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله أقسم بحياةِ أحد غيره، قال اللهُ تعالى ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾). وعن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: (ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، قال: وحياتكَ يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾). أو قال: (لَعَيْشُك ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَتَمادَوْن). وهي كلمة من كلام العرب، لفي سكرتهم: أي في ضلالتهم يعمهون: أي يلعبون). وقال الأعمش: (لفي غفلتهم يتردّدون).

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾. أي: فأخذتهم صاعقة العذاب عند شروقهم. قال ابن جريج: (حين أشرقت الشمس، ذلكَ مشرقين).

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

أي: فرفعنا القرية وقلبناها بمن فيها، بعد مجيء الصوت القاصف عند شروق الشمس، فجعلنا عالي أرضهم سافلها، وأمطرناهم بحجارة من طين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

قال مجاهد: (للمتفرسين). وقال ابن عباس: (للناظرين). وقال قتادة: (للمعتبرين). قال ابن كثير: (أي: إنّ آثار هذه النِّقم ظاهرةٌ على تلكَ البلاد لمن تأمَّلَ ذلكَ وتَوَسَّمَهُ بعين بَصَره وبصيرته).

أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: [إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم][1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

قال قتادة: (بطريق واضح). وقال مجاهد: (مَعْلَم).

والمقصود: أن قرية سَدُوم التي حلَّ بها قوم لوط ونشروا فيها فاحشتهم وقلبها الله فوق رؤوسهم وقذفهم بالحجارة حتىٰ أصبحت بحيرة خبيثة منتنة، هي قرية معلومة لقومكَ يا محمد، مستمرة إلى اليوم بطريق معلم واضح.

---

(1) إسناده جيد. أخرجهُ البزّار (3632)، والطبراني في «الأوسط» (2956)، ورجاله ثقات، وحسَّنهُ الألباني ـ كما في صحيح الجامع ـ (2164).

كما في التنزيل: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137 ـ 138].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن في هلاكهم لعبرة للمؤمنين على مر الدهور وتعاقب الأيام. قال القرطبي: (أي: لعبرة للمصدِّقين).

78 ـ 84. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن ظلم قومِ شعيب وانتقامِهِ منهم، وكذلكَ ثمود قوم صالح أصحاب الوادي المعرضين عن آيات ربهم، فأخذتهم صيحة الهلاك وما أغنت عنهم بيوتهم ولا أموالهم ولا قوتهم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾. المقصود: قوم شعيب وما كانوا عليه من ظلم. قال سعيد بن جبير: (أصحاب الأيكةِ: أصحاب غَيْضة). وقال الضحاك: (هم قوم شعيب، والأيكة: الغيضة). وقال قتادة: (والأيكة: الشجر الملتف).

قال ابن كثير: (وكان ظُلمُهم بشركهم باللهِ وقطعهم الطريق، ونَقصِهم المكيال والميزانَ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرَّجفة وعذاب يوم الظُّلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَعْدَهم في الزمان، ومُسَامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شعيب قومهُ قال في نِذَارَتِهِ إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]).

وقال ابن جرير: (﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: وإن مدينة أصحابِ الأيكة، ومدينة قوم لوط. . لبطريق يأتمون بهِ في سفرهم، ويهتدونَ به ﴿مُّبِينٍ﴾ يقول: يبينُ لمن ائتمَ به استقامتهُ، وإنما جعل الطريق إماماً لأنه يُؤَمّ ويُتَّبع).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾. المقصود: ثمود قوم صالح عليه السلام. قال قتادة: (أصحاب الحجر: أصحاب الوادي).

وقال النسفي: (هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني بتكذيبهم صالحاً، لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، فمن كذَّب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً). وقال القاسمي: (ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام، فقد كذب الجميع. لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلفُ باختلاف الأمم والأعصار).

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قال القرطبي: (المراد الناقة، وكان فيها آيات جَمَّة: خروجها من الصخرة[1]، ودُنُوُّ نتاجها عند خروجها، وعظمها حتىٰ لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتىٰ تكفيهم جميعاً. ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوىٰ الناقة، كالبئر وغيره. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يعتبروا).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾. أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، وإنما هو أشر وبطر، وعبثٌ وتكبّر، يظنون أن تلكَ البيوت تدفع عنهم عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعدوا العذاب، وقيل لهم: تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام... يقول: فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثةِ قبل ذلك). وقال ابن كثير: (﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. أي: ما كانوا يستغلّونهُ من زروعهم وثمارهم التي ضَنّوا بمائها عن الناقةِ، حتىٰ عقروها لئلا تُضيِّقَ عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلكَ الأموال، ولا نفعتهم لمَّا جاء أمرُ ربك).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بتوصيات تخص الأقوام السابقة التي دكّها الله

(1) أخرج الله الناقة لهم بدعاءِ صالح من صخرة صَمّاء، فكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِرْبُ يوم معلوم. فلما عتوا وعَقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

بالعذاب ، ذكرها رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك حين بلغ ديار ثمود :

الوصية الأولىٰ: لا تجوز السياحة في أماكن هلاك الأمم التي أنزل اللهُ بها عذابه .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي كبشة الأنماري قال : [لما كان في غزوة تبوك تسارع الناسُ إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلكَ رسول الله ﷺ فنادىٰ في الناس : الصلاة جامعة ، قال : فأتيتُ رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله! قال : أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟! رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسدّدوا ، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يَدفعون عن أنفسهم بشيء](1) .

الوصية الثانية: عبور تلك الأماكن عند الحاجة بسرعة وبكاء وتغطية للرؤوس .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللهُ عَنْهُما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابِهِ ـ يعني لما وصلوا الحِجْر : وهي ديار ثمود فيما بين المدينة والشام ـ : [لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكينَ ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم](2) .

وفي رواية : (ثم قَـنَّعَ رسول الله ﷺ رأسهُ وأسرع السير حتىٰ أجاز الوادي) .

وفي لفظ للبخاري : (ثم تَـقَـنَّـعَ بردائه وهو على الرَّحل) .

وفي لفظ لمسلم : (ثم زجَرَ فأسرع حتىٰ خَلّفَها) .

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (3/ 560) : (ومن هذا إسراعُ النبي ﷺ السير في وادي مُحَسِّر بين مِنَىٰ وعَرَفة ، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه) .

والخلاصة: إن أماكن العذاب تركها الله في الأرض ليعتبر البشر ، فلا ينبغي المشي فيها والسياحةُ خلال آثارها ، بل الأليق بها أن يمر المسلم فيها مسرعاً خائفاً من الله أن ينزل بأمته ما أنزل بتلك الأمم ، من المصائِب والدمار والنقم .

---

(1) حديث حسن . أخرجهُ أحمد في المسند (4/ 231) ، وانظر كتابي : السيرة النبوية (3/ 1532) .

(2) حديث صحيح . انظر الروايات المختلفة في صحيح البخاري (3381) ـ كتاب الأنبياء ، وفي صحيح مسلم (2980) ـ كتاب الزهد والرقائق ، وفي مسند أحمد (2/ 9) ، (2/ 58) .

الوصية الثالثة: عدم الشرب من بقية مياه تلك الأقوام أو استخدامها في الوضوء أو صنع الطعام.

ففي صحيح مسلم عن نافع أن عبدَ الله بن عمر أخبره: [أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْرِ أرضِ ثمود فاستقوا من آبارها، وعجنوا بِهِ العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا، ويَعْلِفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقةُ][1].

85 ـ 93. **قوله تعالى**: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إِثْباتُ الله تعالى خلقه السماوات والأرض بالعدل والإنصاف، وأنَّ الساعة قادمةٌ فاصبر ـ يا محمد ـ على الدعوة واصفح الصفح الجميل. فربكَ الخلّاقُ لا يعجزهُ شيء وسيجمعُ الناس من قبورهم إلى مشهدِ الحشر الكبير. لقد آتاكَ ربكَ فاتحة هذا القرآن العظيم، وهي أعظم سورةٍ في الكتاب الكريم، فلا تتمنّين ما بأيدي بعض القوم من الزينةِ الفانية والمتاع الزائل المهين. وتواضع لمن تبعكَ من المؤمنين، وقل لمشركي قومك: إنما أنا نذير لكم مبين، أنذركم نحو العقاب الذي أنزلهُ الله تعالى على الأمم السابقة التي اقتسمت القرآن المنزل عليها فآمنت ببعضه وكفرت ببعض وسيسألهم ربهم أجمعين، عما كانوا يعملون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2980)، كتاب الزهد والرقائق. وانظر تفصيل هذا البحث والدروس والنتائج والأحكام الخاصة به في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ (في أعقاب غزوة تبوك ـ (3/ 1530 ـ 1540)).

فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وما كان من خلق للسماوات والأرض وما بينهما مما في أطباق ذلكَ إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلمِ والجَور. قال ابن جرير: (وإنما يعني تعالى ذكره بذلكَ: أنهُ لم يظلم أحداً من الأمم التي اقتصّ قَصَصَها في هذه السورة، وقصص إهلاكهِ إياها بما فعل به من تعجيلِ النقمة له على كفره به، فيعذّبه ويهلكه بغيرِ استحقاق، لأنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنهُ خلق ذلكَ بالحق والعدل).

وفي التنزيل مما يشبهُ ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: 27].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16 ـ 18].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115 ـ 116].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

أي: والساعة قادمة فاعف عمن آذاك منهم واصفح، وأعرض عنهم إعراضاً جميلاً.

كما في التنزيل: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89].

وعن مجاهد: (﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ قال: هذا قبل القتال). وعن قتادة: (ثم نسخ ذلكَ بعد، فأمره الله تعالى ذكره بقتالهم، حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدهُ ورسوله، لا يقبلُ منهم غيره).

ولا شكَّ أن هذه الآية مكية، وشرع القتال بعد الهجرة، فيكون المفهومُ كما ذهب مجاهد وقتادة أنه يرجع لأول الأمر، ثم نسخ الأمر بقتال المشركين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

تَأْكِيدٌ لأمر قيام الساعة الذي يكذب به المشركون، فالله تعالى هو الخلاّقُ لا يعجزهُ شيء، وهو القادر على جمع الأجساد بعد تفرقها في تراب الأرض.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: 4].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 81 ـ 83].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

وفي سنن ابن ماجة ومسند أحمد بسند صحيح عن بسر بن جحاش القرشي مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: [يقول الله: يا ابن آدم أنّىٰ تعجزني وقد خلقتكَ من مثل هذه، حتىٰ إذا سويتكَ وعدَّلتكَ مشيتَ بين بردتين وللأرض منكَ وئيد ـ يعني شكوىٰ ـ فجمعت ومنعت، حتىٰ إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنّىٰ أوان الصدقة][1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

قال قتادة: (ذُكِرَ لنا أنهنّ فاتحةُ الكتاب، وأنهن يُثَنَّيْنَ في كل قراءة). وفي رواية: (في كل ركعة مكتوبة أو تطوُّع). وَرُوِيَ ذلكَ عن عُمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، قال ابن عباس: (والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصّكم اللهُ بها). وقيل: السبع المثاني هي السبع الطوال، والقول الأول أصح وبه جاءت الأحاديث الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الدارقطني والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأتم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرؤوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إنها أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها][2].

وفي رواية: (إحدىٰ آياتها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2/ 157)، والحاكم (2/ 502)، وأحمد (4/ 210)، وابن سعد (7/ 427)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وأقرّهُ الألباني ـ انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1143).

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارقطني (118)، والبيهقي (2/ 45)، والديلمي (1/ 1/ 70)، وإسنادهُ صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1183)، وصحيح الجامع (742).

الحديث الثاني: روىٰ البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ قال: [كنتُ أصلي في المسجد فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه حتىٰ صليت ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله! إني كنتُ أصلي، قال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: ألا أعلمكَ أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرجَ من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرجَ قلت: يا رسول الله! إنكَ قلتَ لأعلمنكَ أعظمَ سورةٍ من القرآن. قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته][1].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [الحمدُ لله رب العالمين، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم][2].

وفي رواية للبخاري بلفظ: [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم].

قال ابن كثير: (فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا يُنافي وصفَ غيرها من السبع الطُّوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا يُنافي وصفَ القرآنِ بكمالهِ بذلكَ أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً).

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾. قال مجاهد: (الأغنياء الأمثال الأشباه). وقال ابن عباس: (يُنهىٰ الرجل أن يتمنىٰ مال صاحبه).

قال ابن جرير: (يقول: لا تَتَمَنَّيَنَّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومكَ، الذين لا يؤمنون باللهِ واليوم الآخر، يتمتعونَ فيها، فإن منْ ورائهم عذاباً غليظاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4474)، وأحمد في المسند (3/ 211).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1310)، (1311)، وانظر صحيح البخاري (4704) للرواية بلفظ: [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم]، ورواه الترمذي. وفي الباب عنده عن أبي هريرة عن أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أَنْـزَلَ الله في التوراة والإنجيلِ، مِثْلَ أمِّ القران، وهي السَّبْعُ المثاني، وهي مَقْسُومَةٌ بيني وبين عَبْدي، ولِعبدي ما سأل]. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2499).

وقال القرطبي: (ومعنىٰ ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالاً في النعم ، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنىٰ ، فهم أزواج).

والمقصود: توجيه الله تعالى نبيهُ ﷺ إلى الاستغناء بهذا القرآن عما في أيدي القوم من زينة الدنيا الفانية ، ومتاعها الزائل.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. قال النسفي: (أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوىٰ بمكانهم الإسلام والمسلمون).

وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل للعذاب.

وقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال القاسمي: (أي تواضع لمن معكَ من فقراء المؤمنين وضعفائهم. وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء).

وأصل خفض الجناح من فعل الطائر ، فإنه إذا ضمّ فرخه إليهِ بسط جناحهُ ثم قبضه على الفرخ ، فكان ذلكَ مثلاً لتقريب الإنسان أتباعه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لمشركي قومكَ: إنما أنا نذير لكم قد أبان إنذارهُ لكم من البلاء وما يُنتظر من العقاب للمتمادين في الشرك والكفر والضلال ، مثل العقاب الذي أنزله تعالى على الأمم السابقة التي اقتسمت القرآن المنزل عليها فآمنت ببعضه وكفرت ببعض.

قال ابن عباس: (هم اليهود والنصارىٰ ، آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض).

وقال أيضاً: (هم أهل الكتاب ، جزؤوهُ فجعلوه أعضاء أعضاء ، فآمنوا ببعضهِ ، وكفروا ببعضه).

وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، قال: هم أهل الكتاب، جزؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه).

وقيل: (﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ، أي: المتحالفين. الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم).

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: 49]. وذلكَ في شأن قوم صالح. قال مجاهد: (تقاسموا: تحالفوا). وقال ابن زيد: (المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا باللهِ لنبيتنه وأهله).

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: 38].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44].

والخلاصة: كان من شأنِ المشركين في الأمم التي أرسل فيها الرسل أنهم لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسُمُّوا مقتسمين. وهم الذين جعلوا القرآن المنزل عليهم أعضاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه حسب أهوائهم، فجاء نبينا محمد ﷺ ينذر أمتهُ بأمر من الله سبحانهُ ويحذرها من تقليد صنيع تلك الأمم.

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إنما مثلي ومثلُ ما بعثني اللهُ بهِ كمثل رجلٍ أتىٰ قومهُ فقال: يا قوم، إني رأيتُ الجيشَ بعينيَّ، وإني أنا النذيرُ العريانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ! فأطاعهُ طائفة من قومهِ فأدلجوا وانطلقوا على مَهْلهم فنجوا، وكذَّبه طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيشُ فأهلَكهم واجتاحَهُمْ. فذلكَ مثلُ من أطاعني واتَّبعَ ما جئتُ بهِ، ومثلُ من عصاني وكذّب ما جئتُ به من الحق][1].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قال مجاهد: (عن لا إله إلا الله). وقال أبو العالية: (يُسألُ العبادُ كلهم عن خَلَّتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا المرسلين).

قال البخاري: (وقال عِدة من أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عن لا إله إلا الله).

قال النسفي: (أقسم بذاته وربوبيتهِ ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله ﷺ أو في القرآن أو في كتب الله).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6482)، (7283)، ومسلم (1283)، وأبو يعلىٰ (7310).

وفي التنزيـل نحـو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: 74].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: 52].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآيـة أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتىٰ يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابهِ فيم أبلاه، ومالهِ من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عملَ فيما علم][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كنَفَهُ[2] ويستُره فيقول: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتىٰ قَرَّرَهُ بذنوبه، ورأىٰ في نفسهِ أنه قد هلكَ، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطىٰ كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم على رؤوس الخلائق ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][3].

الحديث الثاني: روىٰ النسائي ورجالهُ ثقات عن أنس مرفوعاً: [إن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاهُ، أحَفِظَ ذلكَ أم ضَيَّعَ؟ حتىٰ يسأل الرجلَ عن أهل بيتهِ][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2/ 67) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (946).

(2) أي: حفظه وستره.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441)، ومسلم (2768)، وأخرجه أحمد (2/ 74).

(4) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «عشرة النساء» (2/ 2/89)، وابن حبان (1562)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1636)، وصحيح الجامع (1770).

94 ـ 99. **قوله تعالى:** ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾.

في هذه الآيات: مَجِيءُ أمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ وهو بمكة بالصدع بالحق والجهر بالدعوة والخروج إلى الناس فقد كفاكَ ربك أمر المستهزئين، الذين أصروا أن يعيشوا مشركين، فأنت في حماية ربك فلا يضيق صدركَ بما يقولون، واستعن على أمر ربكَ بالتسبيحِ والسجود واعبد ربكَ حتى يأتيكَ الموت وهو اليقين.

قال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: (ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتىٰ نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه).

وقال الفراء: (أراد فاصدع بالأمر أي أظهر دينك).

وأصل الصَّدْع في كلام العرب: الشَّقُّ، وتَصَدَّع القوم أي: تفرقوا، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون يوم القيامةِ فريقاً في الجنةِ وفريقاً في السعير.

فالآيةُ لها تأويلان محتملان:

التأويل الأول: أي فرّق جمعهم وكلمتهم يا محمد بأن تدعوهم إلى التوحيد، اصدع القوم بهذا الوحي فريقين، فإنهم يتفرقون بأن يجيبَ بعضهم ويعاند آخرون.

قال القرطبي رحمه الله: (أي تتصدع جماعة الكفار).

التأويل الثاني: الصدع بمعنىٰ الجهر. قال الرازي: (وصدع بالحق تكلم به جهاراً). ومنه قول ابن عباس: (﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، يقول: فأمضه. يقول: افعل ما تؤمر). وقال مجاهد: (﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: أي: بالقرآن. اجهر بالقرآن في الصلاة).

قال ابن القيم رحمه الله: (دعا رسول الله ﷺ إلى الله مستخفياً ثلاث سنين ثم نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾).

وخلاصة المعنىٰ: بلغ ـ يا محمد ـ ما أنزل إليكَ من ربك من الوحي الكريم، ولا تأبه ولا تلتفت لمحاولات المشركين، فإن اللهَ كافيكَ وحافظكَ منهم.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: 67].

2 ـ قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9].

وفي صحيح مسلم ـ من حديث قبيصة في بلاغ النبي ﷺ عشيرته وقومه ـ قال: [يا بني عبد مناف، يا بني عبد مناف! إني نذير، إنما مثلي ومثلكم، كمثل رجل رأى العدوَّ، فانطلق يريدُ أهله، فخشي أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه! أُتيتُم أُتيتُم][1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك، ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئاً سوىٰ الله، فإن الله كافيكَ من ناصبكَ وآذاك، كما كفاك المستهزئين، وكانوا رؤساء المستهزئين قوماً من قريش معروفين).

قال سعيد بن جبير: (هم خمسة من رهط قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبو زمعة، والحارث بن عيطلة، والأسود بن قيس).

وقيل: كانوا ثمانية. قال ابن عباس: (كلهم مات قبل بدر).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (تهديدٌ شديد، ووعيدٌ أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أي: إنا لنعلم ـ يا محمد ـ كم يضيق صدركَ وينقبض من أذىٰ قومكَ لك، ومن محاولات مكرهم بدينكَ وأصحابك، فلا يهيدَنَّكَ ذلك ولا يمنعنكَ من الجهاد في تبليغ دعوة الحق، واستعن على ذلكَ بكثرة الذكر والصلاة والدعاء.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (207)، كتاب الإيمان.

قال النسفي: (فافزع فيما نابك إلى الله ـ والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود ـ يَـكْفِكَ ويكشف عنكَ الغم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 1 ـ 5].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: 1 ـ 7].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرةَ أنّ رسول الله ﷺ قال: [أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثِروا الدعاء][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن نُعَيم بن هَمَّار: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [قال الله: يا ابن آدم، لا تعجِز عن أربع ركعاتٍ من أول النهار أكفكَ آخره][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن حذيفة رضي اللهُ عَنْهُ قال: [كان رسول الله ﷺ إذا حزبهُ أمر صلىٰ][3]. وفي روايةٍ: (فزع إلى الصلاة).

الحديث الرابع: أخرج ابن حبان بسند حسن عن عليّ رضي اللهُ عَنْهُ يقول: [لقد رأيتنا ليلة بدرٍ وما فينا إلا نائم، غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح][4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واعبد ربكَ حتىٰ يأتيكَ الموت الذي هو موقَنٌ به.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (482)، كتاب الصلاة، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (723)، و(2/ 421).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1289)، وأحمد (5/ 286)، وإسناده حسن صحيح.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 388)، والطبري (850)، وابن حبان (1975)، وغيرهم.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 125)، (1/ 138)، وابن حبان في «صحيحه» (2257) بإسناد حسن، رجاله رجال الصحيح غير حارثة، وهو ثقة.

قال ابن جرير: (وقيل يقين، وهو موقن به). وقال البخاري: (قال سالم ـ يعني ابن عبد الله بن عمر ـ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾: الموت).

وفي التنزيل إخبار عن أهل النار ـ حين قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: 43 ـ 47].

وفي صحيح البخاري عن أمِّ العلاء ـ امرأة من نساء الأنصار بايعت النبي ﷺ ـ: [أن عثمان بن مظعون طارَ لَهُ سَهْمُهُ في السُّكْنَىٰ حين اقترعَتِ الأنصار سُكنىٰ المهاجرين، قالت أمُّ العلاء: فسَكَن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكىٰ فَمَرَّضناهُ، حتىٰ إذا تُوُفِّيَ وجعلناهُ في ثيابِهِ دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رَحْمَةُ الله عليكَ أبا السائب، فشهادتي عليكَ لقد أكْرَمَكَ الله. فقال لي النبي ﷺ: وما يُدْريكِ أن الله أكرمه؟ فقلتُ: لا أدري بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أما عثمانُ فقد جاءهُ واللهِ اليقينُ، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعلُ به. قالت: فواللهِ لا أُزَكِّي أحداً بعدهُ أبداً، فأحزنني ذلكَ، قالت: فَنِمْتُ فرأيتُ لِعثمانَ عَيْناً تجري فَجِئْتُ إلى رسول الله ﷺ فأخْبَرْتُهُ فقال: ذلكَ عَمَلُه][1].

والخلاصة: هذا رسول الله ﷺ قد أمرهُ الله بعبادتِهِ حتىٰ آخر لحظة من حياته، وهو خير البشر قاطبة، وفي هذا ردٌّ على الزنادقة الذين يزعمون أنهم إذا وصلوا إلى اليقين ـ ويعنون بذلكَ المعرفة ـ رُفع عنهم التكليف، فنعوذ باللهِ من الانحراف عن منهاج النبوة في القول والعمل، ونسألُ الله الثبات على الدين الحق إلى يوم نلقاه، إنه سميع قريب.

تم تفسير سورة الحجر
بعون الله وتوفيقه، وواسع مَنِّهِ وكَرَمِه

❑ ❑ ❑

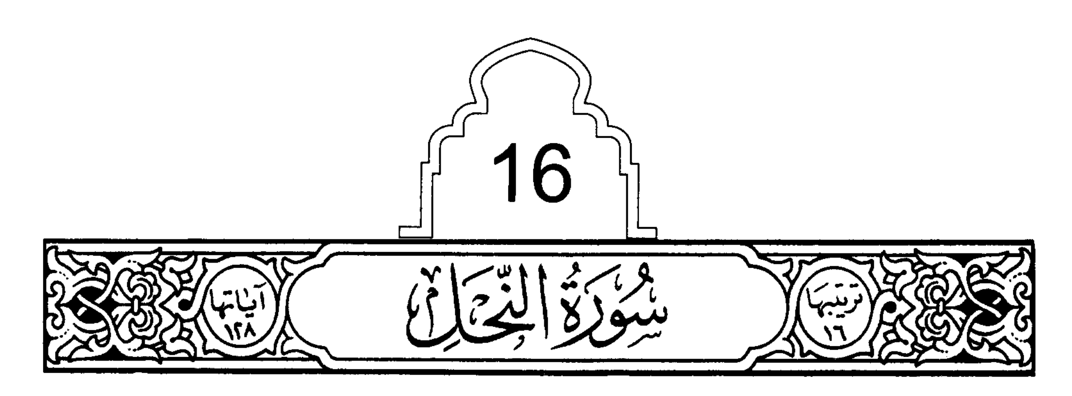
---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2687)، كتاب الشهادات، وأخرجه كذلكَ برقم (1243)، (3929)، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (7634)، وأحمد (6/ 436).

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ تمني الكفار لو كانوا مسلمين ، حين يعرضون على نار الجحيم.
2 ـ تعهّد الله حفظ كتابِهِ الكريم ، من التبديل والتحريف ومكر الماكرين.
3 ـ اعتبار الكفار المعجزات سحراً ، فهم يسألونهُا ثم يمكرون مكراً.
4 ـ الشهب حرس السماء يمنعون عنها استراق الشياطين السمع.
5 ـ الرياح أنواع : المبشرة ، والمثيرة ، والمؤلفة ، والملقحة.
6 ـ الملائكة خلقت من نور ، والجانُ من نار ، والبشر من تراب.
7 ـ تعهد إبليس غواية بني آدم ، ومنع الله تسلطهُ على عباده المخلصين.
8 ـ أهل الجنة لا غل بينهم ولا حقد ولا حسد ، والمؤمن بين الخوف والرجاء.
9 ـ ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ ـ ما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ.
10 ـ الواجب التقنع والإسراع والبكاء أو التباكي عند المرور بديار المعذبين.
11 ـ الفاتحة هي السبع المثاني لأنها تثنَّىٰ في كل ركعة.
12 ـ إقسام الله بنفسه الكريمة ليسألن الناسَ أجمعين ، عما كانوا يعملون.
13 ـ الأمر بالصدع بالحق والجهرِ بالدعوة ماض إلى يوم الدين.
14 ـ التسبيح والسجود والقيام خيرُ معينٍ على مواجهةِ أعداء هذا الدين.
15 ـ اليقينُ عند الزنادقة : أن يتيقن العبد أنه صار إلٰهاً ويسقط عنهُ التكليف ، وإنما اليقينُ في الآية هو الموت ، والنبي ﷺ ـ ومن تبعه من باب الأولىٰ ـ مأمور بالعبادةِ حتىٰ بلوغ الموتِ وهو اليقين.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (128)

موضوع السورة

ـ بَسْط النعم ، والتحذير من النقم ـ
«العسل ـ منتوج النحل ـ فيه شفاء للبدن»

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تأكيد الله تعالىٰ وقوع الساعة بصيغة الماضي ليتدارك الناس أمرهم قبل أن تفاجئهم.

2 ـ اصطفاء الله من عباده رسلاً كما يشاء ، فله الخلق والأمر ، والبشرىٰ للمتقين ، والخزي والندامة على المشركين.

3 ـ امتنان الله تعالىٰ على الإنسان بتسخير الأنعام له ، وجعل فيها المنافع والدفء والزينة والمراكب ويخلق ما لا تعلمون.

4 ـ امتنان الله تعالىٰ على عباده بنعمة الماء والشجر وأصناف الثمرات لعلهم يتفكرون.

5 ـ امتنان الله كذلك على عباده بنعمة الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والفُلك واللحم والحلي ، والجبال والأنهار ، والاهتداء بالنجوم ، وغير ذلك من النعم التي لا تُحصىٰ.

6 ـ إعلام الله تعالىٰ عباده أنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ، وتحقير الأوثان التي يعبدها بعضهم .

7 ـ إثبات كفر المشركين ، وحملهم أوزار من تبعهم من المبطلين ، وشقوتهم يوم الدين .

8 ـ ثناء الله تعالىٰ على المحسنين ، ودخولهم الجنة في سلام آمنين .

9 ـ استخفاف الله بالمشركين ، في اتباعهم سنن الذين من قبلهم من المستهزئين .

10 ـ ذمّ الله المشركين احتجاجهم بالقدر على كفرهم ، وثناؤه تعالىٰ على المرسلين في دعوتهم إفراد الله بالتعظيم ، ونبذ الطاغوت وسبل الشياطين .

11 ـ تسلية النبي ﷺ بأن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين ، وأن قوله لشي إذا أراد وجوده : كن فيكون .

12 ـ ثناء الله تعالىٰ على المهاجرين ، الذين ظُلموا في سبيل الله وصبروا وكانوا من المتوكلين .

13 ـ إثبات رجولة الأنبياء ، والأمر بسؤال أهل العلم لفهم الدين ، وإثبات نزول السنة لتبيان مجمل القرآن .

14 ـ تهديد المشركين بالخسف والعذاب ، إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب ، فكل شيء خلقه الله في هذا الكون في سجود له وتعظيم ، والملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

15 ـ إثبات الوحدانية لله العظيم ، فله ما في السماوات والأرض وله الدين الحق المبين ، وما بكم من نعمة فمن الله المنعم الكريم ، الذي إن مَسَّكُم الضر فإليه تجأرون ، وإن كشفه عنكم فأكثركم يشركون .

16 ـ إثبات جهالة المشركين ، في صرف الأموال للأصنام ووأد بناتهم وجعل البنات لله ولهم ما يشتهون ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

17 ـ تأخير الله مؤاخذة الناس بظلمهم ، والمشركون غارقون في أهوائهم ، وقد أنزل الله هذا القرآن على رسوله تبياناً ، وهدىٰ ، ورحمة للمؤمنين .

18 ـ امتنان الله على العباد بنعمة الماء والأنعام ، واللبن والنخيل والأعناب .

19 ـ أمْرُ الله إلى النحل اتخاذ البيوت من الجبال والشجر ، وإلهامها الأكل من كل الثمر ، وإخراج العسل الذي فيه شفاء للناس .

20 ـ إثبات الخلق والحياة وتصريف العمر لله ، وكذلك التفضيل في الرزق والولد ، والإنعام بالأزواج والبنين والحفدة ، والمشركون بنعمة الله يكفرون.

21 ـ ذمُّ الله المشركين ، وتمثيل الفرق بين المؤمنين والكافرين.

22 ـ إثبات أمر الغيب والساعة لله ، وامتنان الله على العباد بالسمع والأبصار والأفئدة ، وفي تسخير الطيور وحملها في جو السماء آيات لقوم يؤمنون.

23 ـ امتنان الله على عباده بنعمة البيوت والسكن وجلود الأنعام ، ونعمة الظلال والجبال والسرابيل وغير ذلك.

24 ـ تحذير الله عباده اليوم الموعود ، يوم يبعث الله فيه الشهود ، والخزي ومضاعفة العذاب على المشركين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

25 ـ اختصاص الله نبيّه بالشهادة على الأمم ، وبالقرآن الذي يحمل الهدىٰ والرحمة ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهىٰ عن الفواحش والظلم والطغيان.

26 ـ إثبات قهر مشيئته تعالىٰ كل مشيئة ، والتحذير من اتخاذ الأَيمان خديعة ، والشراء بعهده تعالىٰ ثمناً قليلاً.

27 ـ تبشير المؤمنين أهل الأعمال الصالحة ، بحياة طيبة في الدنيا والآخرة.

28 ـ الأمر بالاستعاذة من الشيطان ، عند تلاوة القرآن ، والشيطان ليس له سلطان على أهل الإيمان ، بل علىٰ أتباعه من أهل الشرك والطغيان.

29 ـ ضعف عقول المشركين ، أمام منهج التشريع في القرآن الكريم ، الذي نزل به الروح الأمين ، فيقولون إنما يعلمه بشر أعجمي وهذا لسان عربي مبين.

30 ـ استثناء المكره على الكفر من الوقوع في الكفر ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فله عذاب أليم.

31 ـ إخبار عن بعض المستضعفين بمكة الذين واتَوا المشركين على الفتنة ، ثم تمكنوا من الهجرة ، والله غفور رحيم.

32 ـ إخبار عن طبيعة مخاصمة النفوس يوم القيامة بشتىٰ الوسائل قبل نزول القصاص.

33 ـ سنة الله في القرىٰ الظالم أهلها ، ونزول الخوف والجوع والعذاب.

34 ـ تقريب الله الحلال الطيب ، وتحذيره الحرام الخبيث ، والافتراء بالتحليل والتحريم.

35 ـ استحقاق اليهود التضييق عليهم بما كسبت أيديهم ، وفتحه تعالىٰ باب التوبة للمؤمنين الراجين أن يعفو عنهم ، والله غفور رحيم .

36 ـ ثناء الله على خليله إبراهيم ، فقد كان حنيفاً ولم يك من المشركين ، بل كان إمام الشاكرين .

37 ـ رفعُ الله ذكر إبراهيم ، وأمره نبينا بمتابعة ملته ملة التوحيد لله والتعظيم .

38 ـ إضلال الله اليهود عن يوم الجمعة فاختاروا السبت يوم عيد لهم ، والله يفصل يوم القيامة بينهم .

39 ـ أمْرُ الله بالتماس طريق الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله ، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالشاكرين . ودعوة للعدل في الاقتصاص والصبر خير للصابرين .

40 ـ المكر لا يحيق إلا بأهله الماكرين ، والله تعالىٰ في عون المتقين المحسنين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تَأْكِيدُ الله تعالىٰ وقوع الساعة بصيغة الماضي لِيَهُدَّ بذلك عزيمة المستعجلين المشركين. إنه تعالىٰ ينزل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده فله الخلق والأمر فالبشرىٰ للمتقين والخزي على المشركين. لقد خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين، فلما ترعرع وكبر صار لربه المنعم كالخصم المبين، وكذلك خَلَقَ سبحانه الأنعام وجعل فيها المنافع والدفء والزينة وغير ذلك لقوم يفقهون. وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة ويخلق من المراكب ما لا تعلمون. كل ذلك ليهتدي الخلق إلى ربهم فيعظموه ويشكروه ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

فقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ ـ ردٌّ على بعض المشركين الذين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم استهزاءً وتكذيباً. فأتىٰ بصيغة الماضي ليدل على تأكيد وقوع الساعة لا محالة، وأنه عن قريب سيكون بمنزلة ما مضىٰ من الأحداث.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 53 ـ 54].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبدِ يوم القيامة فيقول له: ألمْ أجعلْ لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً، وسخّرت لك الأنعام والحرث، وتركتكَ تَرْأسُ وتَرْبَعُ، فكنتَ تَظُنُّ أنَّكَ ملاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بأنْعَمِ أهل الدنيا من أهل النار يومَ القيامة، فيُصبَغُ في النار صَبْغَة، ثم يقال: يا ابنَ آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب!..] الحديث[2].

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ تنزيه الله تعالىٰ عن الشرك الذي كان عليه العرب ومن يدين بمثله من غيرهم.

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. قال ابن عباس: (﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ يقول: بالوحي). وقال قتادة: (بالوحي والرحمة). أو قال: (يقول: ينزل بالرحمة والوحي من أمره ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيصطفي منهم رسلاً).

وفي التنزيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: 52].

قال القرطبي: (﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. أي: على الذين اختارهم الله للنبوة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2558) ـ أبواب صفة القيامة ـ وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1986) ـ وهو جزء من حديث أطول.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: 15].

وفي شُعَب البيهقي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني][1].

وله شاهد عند ابن عساكر بسند حسن من حديث وائل بن حجر بلفظ: [صلوا على النبيين إذا ذكرتموني، فإنهم قد بُعِثُوا كما بُعثت].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾. قال قتادة: (إنما بعث الله المرسلين أن يوحَّدَ الله وحده، ويُطاع أمره، ويجتنب سخطه).

والمقصود: بعث الله الرسل لينذروا البشر أن لا يحيدوا عن لا إله إلا الله، فهي منهاج التقوىٰ والنجاة في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار][2].

وله شاهد عنده وفي المسند من حديث عثمان مرفوعاً: [من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة].

وفي الصحيحين عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج «فضل الصلاة» (42) ـ الألباني، وصحيح الجامع (3675) ـ (3676).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (93) ـ كتاب الإيمان. وانظر للشاهد صحيح مسلم (26)، ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع (6428).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 206)، وأخرجه مسلم (33) ـ كتاب الإيمان.

إِخْبارٌ من الله تعالىٰ عن خلقه السماوات السبع وما فيهن ، ومن الأرض مثلهن وما فيهن ، وقد خلقهن بالحق لا للهزل واللعب ، فكيف يشرك به بعد ذلك المشركون ، ويعبدون من دونه ما لا يخلق ولا يضر ولا ينفع ، ثم كان خلق الإنسان من ذلك الماء المهين ، فلما ترعرع وكبر إذا هو لربه خصيم مبين ، يكفر بنعمه ويجحد ألوهيته ويتبع سبيل الشياطين ، ويحارب الصالحين والمرسلين.

وفي التنزيـل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 77 ـ 79].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: 54 ـ 55].

وفي صحيح سنن ابن ماجة ومسند الإمام أحمد عن بُسْر بن جحَّاش قال: [بصق رسول الله ﷺ في كفِّه ، ثم قال: يقول الله تعالىٰ: ابنَ آدم ، أنّىٰ تُعْجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟! حتىٰ إذا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بين بُرْدَيْكَ وللأرض منك وئيد ، فَجَمَعْتَ ومَنَعْتَ ، حتىٰ إذا بلغتِ الحلقوم قلتَ: أتصَدَّقُ ، وأنّىٰ أوانُ الصدقة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بالدفء: الثياب ، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة). وقال أيضاً: (﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ ، نَسْلُ كل دابة).

وعن مجاهد: (﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ قال: لباس ينسج ، ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾: مركب ولحم ولبن). وقال أيضاً: (نتاجها وركوبها وألبانها ولحومها). وقال قتادة: (﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ ، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلْغَة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾.

قال القاسمي: (﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ أي زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ أي تردونها من

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2707) ، وأحمد (4/ 210) ، وصَحَّح إسناده البوصيري في «الزوائد» ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1099).

مراعيها إلى مُراحها[1] ـ وهو مقرها في دور أهلها بالعشي ـ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي).

وقال الزمخشري: (منَّ الله بالتجمل بها كما مَنَّ بالانتفاع بها. لأنه من أغراض أصحاب المواشي. بل هو من معاظمها. لأن الرعيان، إذا روحوها بالعشي، وسرحوها بالغداة، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، آنست أهلها وفرّحت أربابها. وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8] ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: 26]. فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأىٰ البطون، حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها) انتهىٰ.

وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾. قال عكرمة: (لو تكلفونه لم تبلغوه إلا بجهد شديد). وقال قتادة: (يقول: بجهد الأنفس).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. أي ذو رحمة بكم، لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من كرمه وفضله.

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. قال ابن عباس: (هذه للركوب، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: هذه للأكل). قال النسفي: (عطف على الأنعام، أي وخلق هذه للركوب والزينة). وقال القرطبي: (ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب، فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير).

قلت: والعطف بين البغال والخيل والحمير لا يقتضي التساوي في حكم الأكل، فإن النهي جاء بالنص الصحيح عن أكل لحوم البغال والحمير، والإذن في أكل لحوم الخيل. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

---

(1) سمي المكان المُراح، لأنها تراح إليه عشياً، فتأوي إليه، يقال: أراح فلان ماشيته. ويقال: سرحت الماشية إذا خرجت للمرعىٰ. فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشي.

[نهىٰ رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأَذِنَ في لحوم الخيل][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: [ذبحنا يوم خيبر الخيل ، والبغال ، والحمير. فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل][2] .

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: [نَحَرْنا على عَهْدِ رسول الله ﷺ فَرَساً فأكلناه ونحنُ بالمدينة][3] .

وقوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . أي: من أمثال تلك المخلوقات وما يقوم مقامها في الركوب والنقل. ويدخل في ذلك جميع أنواع وسائل النقل المشاهدة ، كالسيارات والطائرات والسفن والقطارات وغير ذلك مما فتح الله به على الإنسان وسخّره له.

وقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ . انْتِقالٌ من السُّبل الحِسّية إلى السبل الدينية والمعنوية[4] ، فكما أن الأنعام للركوب وحمل الأثقال إلى الأسفار البعيدة الشاقة ، فكذلك طرق الهداية ومسالك الناس في هذه الحياة ، فإنه ليس يوصل إلى الله تعالىٰ منها إلا طريق الحق ، وهو الطريق الذي ارتضاه الله للمرسلين ، وأمر بسلوكه عباده المؤمنين.

قال ابن عباس: (﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ يقول: على الله البيان أن يبين الهدىٰ والضلالة). وقال مجاهد: (طريق الحق على الله). وقال قتادة: (يقول: على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته). وقال ابن زيد: (﴿ ٱلسَّبِيلِ ﴾ : طريق الهدىٰ). وقال الضحاك: (يقول: على الله البيان ، يبين الهدىٰ من الضلالة ، ويبين السبيل التي تفرّقت عن سبله ، ومنها جائر). وعن ابن عباس: (﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ يقول:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4219) ، (5520) ، ومسلم (1941) ، وأحمد (3/ 361) ، وأخرجه أبو داود (3788) ، والنسائي (7/ 201) ، وابن حبان (5273).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (3789). انظر صحيح سنن أبي داود (3219) ـ كتاب الأطعمة ـ باب في أكل لحوم الخيل ، ورواه أحمد في المسند (3/ 356) ، والبيهقي (9/ 327) ، وصححه الحاكم (4/ 235) ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1942) ، وابن ماجة (3190) ، وأحمد (6/ 345) ، وابن حبان (5271) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(4) وهذا وارد في القرآن ، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: 197] ، وكقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: 26].

الأهواء المختلفة). وقال قتادة: (﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: أي من السبل، سبل الشيطان. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «ومنكم جائر ولو شاء الله لهداكم أجمعين»).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه، فكنتم تهتدون، وتلزمون قصد السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرقون في سبل عن الحقّ جائرة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118 ـ 119].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس](1).

وفي لفظ عند البيهقي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر! لو أراد الله أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس].

10 ـ 11. قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

في هذه الآيات: امْتِنانُ الله تعالىٰ على عباده بنعمة الماء والشجر، والزرع والزيتون والنخيل والأعناب، وأصناف أخرىٰ من الثمرات، جعلها بين أيديهم وسخّرها لمنفعتهم وسرورهم لعلهم يتفكرون.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلق لكم الأنعام والخيل وسائر

(1) حديث صحيح لغيره. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 92)، والبيهقي في «الأسماء» (157)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642).

البهائم لمنافعكم ومصالحكم ، هو الربّ الذي أنزل من السماء ماءً ، يعني : مطراً لكم من ذلك الماء ، شراب تشربونه ، ومنه شراب أشجاركم ، وحياة غروسكم ونباتها).

وقوله : ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة : (أي : ترعون). ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي . وقال الضحاك : (ترعون أنعامكم). وقال ابن عباس أيضاً : (﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ يقول : شجر يرعون فيه أنعامهم وشاءهم).

وقوله : ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الآية . قال ابن كثير : (أي : يُخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صُنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها . ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، أي : دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل : 60]).

قلت : فنعمة الماء والنبات والشجر هي من أكمل النعم التي تفضل الله بها على الإنسان ، بعد نعمة استواء الخلق واكتمال صورته ، ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ إذا مرّ بشجر أن يذكر الله العظيم المنعم المتفضل.

فقد أخرج الطبراني في «الكبير» بسند صحيح عن أبي سلمة قال : [قال معاذ : قلت يا رسول الله أوصني . قال : اعبُد الله كأنك تراه ، واعددْ نفسك في الموتىٰ ، واذكُر الله عند كل حجرٍ ، وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنة ، السِّرُ بالسِّرِ ، والعلانيةُ بالعلانية][1] .

12 ـ 18 . قوله تعالىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ

(1) قال المنذري (4/ 132) : رواه الطبراني بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين أبي سلمة ومعاذ لكن له شواهد تقويه . انظر السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1475).

مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: امْتِنانٌ مُتَتَابِعٌ من الله سبحانه على عباده إضافة لما سبق: نعمة الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والبحار والفلك التي تجري فيها، واللحم والحلي المستخرج منها، والجبال والأنهار، والاهتداء بالنجوم، كل ذلك آيات لقوم يتفكرون. فهل من يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون؟! إنكم إن تعدّوا نعمة الله عليكم تعجزوا عن إحصائها والله غفور رحيم.

فقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ﴾.

تَذْكِيرٌ من الله تعالىٰ لعباده بنعم كبيرة أخرىٰ يتمتعون بها في حياتهم ويستفيدون من تسخيرها وتعاقبها، فنعمة الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم نعم قريبة متصلة بحياة الناس ومنافعهم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 71 ـ 73].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: 5].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 61 ـ 62].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: [تَفْضُلُ صلاةُ الجميع صلاةَ أحدكم وحْدَهُ بِخَمْسٍ وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر. ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾][1].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. قال ابن جرير: (إن في تسخير الله ذلك على ما سخّره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله، ويفهمون عنه تنبيهه إياهم).

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾. قال قتادة: (يقول: وما خلق لكم مختلفاً ألوانه من الدواب، ومن الشجر والثمار، نِعَم من الله متظاهرة فاشكروها لله). قال ابن كثير: (لما نبّه سبحانه على معالم السماء نبّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والنبات والمعادن والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواصّ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

تَذْكِيرٌ بنعم أخرىٰ في عالم البحار: من تسخير للسمك والحيتان، وإحلال لحمها في الحل والإحرام، وتسهيل استخراج اللآلئ والجواهر يلبسونها وتلبسها الزوجات زينة للأزواج الكرام، وشق السفن طريقها عبر الأمواج إلى شواطئ البلدان.

قال ابن جرير: (سخر لكم البحر، وهو كل نهر، ملحاً كان ماؤه أو عذباً ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك الذي يصطاد منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهو اللؤلؤ والمرجان). وقال قتادة: (﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني حيتان البحر. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ قال: هذا اللؤلؤ).

قال النسفي: (﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم). ولكن يبدو أنه لا دليل على تخصيص اللؤلؤ والمرجان بالنساء. قال السيوطي في «الإكليل»: (في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها). وقال صاحب «فتح البيان»: (يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان، أي يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء.. وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (648) ـ كتاب الأذان ـ باب فضل صلاة الفجر في جماعة.

الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة. فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبُّهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً).

وعن ابن عباس: (﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قال: جَواري). وقال سعيد بن جبير: (معترضة). وقال الحسن: (مواقر). وقال قتادة والضحاك: (أي تذهب وتجيء ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة). قال القرطبي: (وأصل المَخْر شقّ الماء عن يمين وشمال. مَخَرت السفينة تَمْخَر وتمْخُر مَخْراً ومخوراً إذا جرت تشق الماء مع صوت). وقال الجوهري: (ومَخَر السابح إذا شقّ الماء بصدره ، ومخَر الأرض شقها للزراعة).

وقوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. أي: ولتركبوه للتجارة وطلب الربح والسياحة في الأرض ورؤية بلاد الله الواسعة ومخلوقاته العجيبة ، مما يزيدكم ذلك لله شكراً.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾. قال قتادة: (الجبال أن تميد بكم). وقيل: لئلا تميد بكم. والميد الاضطراب والتكفؤ. يقال: مادت السفينة إذا تكفأت بأهلها ومالت ، ومنه الميد الذي يعتري راكب البحر ، وهو الدوار. قال مجاهد (﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾: أن تكفأ بكم).

وقوله: ﴿ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ﴾. قال ابن كثير: (أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخرَ ، رِزقاً للعباد ، يَنْبُعُ في موضع وهو رِزْقٌ لأهل موضع آخرَ ، فيقطَعُ البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصلُ إلى البلد الذي سُخِّر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت ، وما بين نَبْعٍ وجَمْعٍ ، وقَوِيِّ السير وبطيئه ، بحسب ما أراد وقدّر ، وسخر ويسر. فلا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه. وكذلك جعل في الأرض سُبُلاً ، أي: طرقاً يُسْلَكُ فيها من بلاد إلى بلاد ، حتىٰ إنه تعالىٰ ليقطع الجبل ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾). وقال قتادة: (﴿ وَسُبُلًا ﴾: أي طرقاً).

وقوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لكي تهتدوا بهذه السبل التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون ، والمواضع التي تريدون ، فلا تضلوا ولا تتحيروا).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾. قال ابن عباس: (يعني بالعلامات: معالم الطرق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل).

قلت: وتشمل العلامات الجبال الكبار، والآكام الصغار، ونحو ذلك مما يستدل به المسافرون أثناء النهار، وفي البر والبحار.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾. أي: هل الأوثان والطواغيت التي لا تخلق أحقّ بالعبادة أم الله الخالق البارئ القهار، الذي خلق كل شيء وبيده أمر كل شيء. قال النسفي: (﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه). وقال ابن جرير: (يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سُلطانه وقدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرّاً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

تَنْبِيهٌ من الله سبحانه على كثرة نعمه وعظيم إحسانه إلى عباده بما لا يعد ولا يحصىٰ، فحق عبادته غير مقدور، وكثيرٌ من تقصير عباده في شكرهم له مجبور، وهو الرحيم بعباده إذا أنابوا وتابوا فيتجاوز عن إساءات كبيرة ويعفو عن كثير.

قال ابن كثير: (﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نِعمه لعجزتُم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذّبكم لَعَذَّبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير).

قلت: والشكر هو سيلان اللسان بذكر الله ونعمائه، واختلاج القلب وتلهفه وتواضعه لكرمه، وإعمال الجوارح في طاعته وتعظيم أوامره.

وقواعد الشكر خمسة: الخضوع للمشكور، ومحبته، والاعتراف بنعمته، وثناؤه عليها، وصرفها فيما يحبه ويرضاه.

وآلات الشكر ثلاثة: اللسان والقلب والجوارح.

وشكر الناس نوعان: شكر العامة، وشكر الخاصة:

1 ـ **شكر العامة**: وهو شكر على ما يشغلهم على الغالب كالمطعم والمشرب والملبس

والمنكح وعافية الأبدان. فقد قال جل ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فَحَمِدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة][1].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالىٰ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][2].

2 ـ **شكر الخاصة**: وهو يشمل إضافة إلى شكر العامة ما هو أهم وأكبر: الشكر على التوحيد والإيمان وحياة القلوب، والشكر على القرآن وعلى نبي الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام.

ففي التنزيل:

1 ـ قال جل ثناؤه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 10].

2 ـ وقال جل ذكره: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

3 ـ وقال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

ومن صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالىٰ: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه] ـ ورواه البخاري[3].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان والطبراني بإسناد صحيح عن فضالة بن عبيد، أن

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع الصغير (5438)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 318) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3067) ـ كتاب الأدب، باب فضل الحامدين.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (7504) ـ كتاب التوحيد، ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4179).

رسول الله ﷺ قال: [اللهم من آمن بك، وشهد أني رسولك، فحبِّب إليه لقاءك، وسَهِّل عليه قضاءك، وأقلل له من الدنيا. ومن لم يؤمن بك ويشهد أني رسولك، فلا تحبب إليه لقاءك، ولا تسهل عليه قضاءك، وأكثر له من الدنيا][1].

19 ـ 23. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾.

في هذه الآيات: إعلام الله تعالىٰ عباده أنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم، وهذه الأوثان التي تُعْبَدُ من دونه غير قادرة على خلقهم ولا خلق شي ممن حولهم، فهي أموات لا أرواح فيها ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً وما يشعرون أيان يوم بعثهم، وإنما إلٰهكم ـ أيها الناس ـ إلـٰه واحد والكافرون بالآخرة مستكبرون معظمون لأهوائهم، والله يعلم علانيتهم وإسرارهم، وهو تعالىٰ لا يحب المستكبرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. أي: لا يخفىٰ عليه شيء سبحانه مما أخفيتم ولا ما أعلنتم، فسواء أسررتم في ضمائركم أو أظهرتم على ألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، كل ذلك في علم الله تعالىٰ.

وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء][2].

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2475)، والطبراني في «المعجم الكبير» (ق 74/ 2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1338).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1841) ـ باب: كتب المقادير قبل الخلق.

عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][1].
وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

قال قتادة: (وهي هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها، ولا تملك لأهلها ضرّاً ولا نفعاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

أي: معبودكم الذي يستحق أن تصرف له العبادة والتعظيم هو الله الواحد الأحد. والذين يكذبون بالمعاد مستنكرون لما نَقُصُّ عليهم من قدرة الله ـ المنعم المتفضل ـ على إعادتهم، وأن الاستعداد للقائه يكون بعبادته تعالىٰ وتعظيم أمره، بل هم مستكبرون عن إفراده بالألوهة، مشركون في عبادته، معظمون لأهواء عقولهم ونفوسهم.

قال قتادة: (﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ لهذا الحديث الذي مضىٰ، وهم مستكبرون عنه).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: 45].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: 5].

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان،

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني، وأحمد (5/ 197)، وابن أبي عاصم (303). وانظر الروايات المختلفة في صحيح الجامع (4077) ـ (4078) ـ (4079).

يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصارة أهل النار ، طينة الخبال][1] .

وقوله : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ . أي : حقاً يعلم سبحانه ما تخفي صدور المشركين وما يبطنون من الاستكبار على الله ، وما يعلنون ويظهرون من الكفر والصد عن سبيل الله .

وقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ . أي : لا يحب تعالىٰ المستكبرين على طاعته والمصرين على تحكيم الأهواء والأنفس والشهوات .

وفي التنزيل : قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : 60] .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبر ، قيل : إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبْرُ بَطَرُ الحق ، وغَمْطُ الناس][2] .

وله شاهد فيه عنه بلفظ : [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقالُ حبة خردلٍ من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقالُ حبة خردل من كبرياء] .

24 ـ 29. قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه أحمد في المسند ، والترمذي في السنن (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وصحيح الجامع (7896) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 65) ، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (54) ـ كتاب الإيمان .

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الله تعالىٰ كفر المشركين بالتنزيل واتهامه بأنه أساطير الأولين ، ليحملوا بذلك أوزارهم وأوزار من تبعهم من المبطلين ، وقد مكر الذين من قبلهم فحرَّكَ الله قواعد بنيانهم لِيَخِرَّ السقف عليهم من حيث لا يشعرون ، ثم يكون الخزي الأكبر والفضيحة يوم الدين على الكافرين ، الذين تتوفاهم الملائكة ظالمين ، ويقال لهم يوم القيامة ادخلوا أبواب جهنم خالدين ، فلبئس مثوىٰ المتكبرين .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ . قال قتادة : (يقول : أحاديث الأولين وباطلهم) . قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين ، ماذا أنزل ربكم ، أيّ شيء أنزل ربكم ، قالوا : الذي أنزل ما سطَّرَه الأوّلون من قبلنا من الأباطيل) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : 5] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 8 ـ 9] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : 18 ـ 24] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (إنها كقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾) . وقال مجاهد : (يحملون أثقالهم : ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يُخَفّف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً) . قال ابن جرير : (﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ يقول : ألا ساء الإثم الذي يأثمون ، والثقل الذي يتحملون) .

وقوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ .

قال قتادة: (أتىٰ الله بنيانهم من أصوله، فخرّ عليهم السقف). قال النسفي: (﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي من جهة القواعد وهي الأساطين، وهذا تمثيل، يعني أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتىٰ البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا). وذهب بعض المفسرين أن المراد نمرود بن كنعان حين بنىٰ الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع فأَهَبَّ الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه. وقيل بل المراد بُخْتَنَصَّر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال القرطبي: (أي من حيث ظنوا أنهم في أمان).

قلت: والآية تدل على احتيال الطغاة في المكر بدين الله والصد عن سبيل الله ومحاولة إضلال الناس بكل حيلة ووسيلة، فإذا صبر أهل الحق وواجهوا مكر الملأ بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت لهم العاقبة، وأتىٰ الله بنيان أولئك الذي صنعوه فاجْتَثَّه من أصله وَأَبْطَلَ عملهم وأضلّه. وقد ورد أصل هذا المعنىٰ في القرآن والسنة الصحيحة:

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 64].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: 2].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلته][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيّها قَبْلها، فجعلَه لها فَرَطاً وسلفاً بين يديها،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجة (4018)، وابن حبان (5175)، ورواه البيهقي (6/ 94).

وإذا أراد هلكةَ أمّةٍ عذّبها ونبيُّها حيٌّ فأهلكها وهو ينظر ، فأقرَّ عينَه بهلكتِها حين كذبوه وعصوا أمره][1] .

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله خلقَ شيء لم يمنعه شيء][2] .

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ . أي: يفضحهم ويظهر سرائرهم وما كانت تجنّه ضمائرهم .

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] .

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60] .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: [لكل غادر لواءٌ يُعْرَفُ به يومَ القيامة][3] . ورواه مسلم عن أبي سعيد بلفظ: [لكل غادر لواء عند اسْتِهِ يومَ القيامة][4] . وفي لفظ آخر في مسند أحمد: [لكل غادر لواء يوم القيامة ، يُرْفَعُ له بقدرِ غَدْرَتِه ، ألا ولا غادرَ أعظمُ غدراً من أمير عامة] . وفي لفظ من طريق ابن عمر: [لكل غادر لواء ينصب له بغدرته] .

وقوله: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: تخالفوني) . والمشاقّة: فعل ما يشقّ . تقول العرب: شاققت فلاناً فهو يشاقني: إذا فعل كل واحد بصاحبه ما يشقّ عليه . قال ابن جرير: (يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم ، مالهم لا يحضرونكم ، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحِلٌّ بكم من العذاب) . كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: 93] . ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (7/ 65) من حديث أبي موسى مرفوعاً . وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1596) .

(2) حديث صحيح . رواه مسلم من حديث أبي سعيد ، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (307) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2/ 301) ، وأخرجه مسلم ، وأحمد (3/ 142) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (5/ 142) ، وانظر للفظ أحمد المسند (3/ 7) ، (3/ 61) ، (3/ 19) ، وكذلك صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5046) .

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (فإذا توجّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأُسكِتُوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمُخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضرّه ولا ينفعه).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾.

إِخْبَارٌ عن حال المشركين الظالمي أنفسهم في هيئتهم عند الاحتضار، ونزول ملائكة الجبار، لقبض أرواح هؤلاء الأشرار الفجار. ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي أظهروا الاستسلام، والسمع والطاعة والانقياد، وهم يقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ ـ قال القرطبي: (أي من شرك). وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 18].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مُخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فَيُخْتَمُ على فيه، ويُقَال لأركانه انْطقي، فَتَنطِقُ بأعماله، ثم يُخَلّىٰ بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل][1].

وقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: إن الله ذو علم بما كنتم عليه من المكر بدين الله والمؤمنين، والصد عن سبيل الله القويم، تبغونها عِوَجاً وفساداً في الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي يقال لهم ذلك عند الموت. وقيل: هو بشارة لهم بعذاب القبر، إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين). وقال ابن كثير: (﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (8/ 217). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1933).

أي: بئسَ المَقِيل والمُقام والمكان من دار هَوَانٍ ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يَدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادَهم في قبورها من حرِّها وسَمُومها ، فإذا كان يومُ القيامة سُلِكَت أرواحهم في أجسادهم ، وخُلِّدت في نار جهنم ، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: 36] ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]).

30 ـ 32. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على المحسنين المتقين ، الذين يدخلون بإذنه وتوفيقه جنات عدن خالدين ، وقد توفتهم الملائكة قبل ذلك طيبين ، وقالوا لهم: سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

فقوله: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾.

هو إِخْبَارٌ عن حال السعداء المؤمنين ، بخلاف حال الأشقياء المشركين ، فإن الأشقياء لما قيل لهم ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أعرضوا عن الجواب واعتبروا ما جاءهم أساطير الأولين ، وأما المؤمنون فأقروا بالوحي الكريم ، الذي حمل لهم الخير الكبير ، من وعد الله الجليل: وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾. قال قتادة: (أي آمنوا بالله وأمروا بطاعة الله ، وحثوا أهل طاعة الله على الخير ودعوهم إليه). وقال الشهاب: (والحسنة التي في الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك).

وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ، لفنائها وبقاء الآخرة). وقال النسفي: (﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ﴾ [آل عمران: 148].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: 198].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: 17].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: 17]][1].

ويروي الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن عبد الملك بن بشير ورفع الحديث قال: [ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان. تقول الجنة: يا رب قد طاب ثمري واطردت أنهاري واشتقت إلى أوليائي فعجل إليَّ بأهلي. وتقول النار: اشتد حري وبعد قعري وعظم جمري فعجِّل عليَّ بأهلي][2].

وقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: جنات إقامة وخلود، تجري الأنهار بين أشجارها وقصورها وبساتينها، وفيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، جعلها الله تعالىٰ ثواباً للمتقين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: 30 ـ 32].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3244) ـ كتاب بدء الخلق، وانظر (4779)، (4780)، ورواه مسلم في الصحيح (2824) ـ كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها ـ.

(2) انظر: «صفة الجنة» ـ واثلي ـ ص (214) ـ وإسناده حسن. وكتابي: «أصل الدين والإيمان» (792) ـ في تفصيل نعيم أهل الجنة.

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 55 ـ 58].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 71 ـ 72].

ومن كنوز صحيح السنة في وصف أنهار الجنة وما فيها من المقام الكريم أحاديث:

الحديث الأول: يروي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تتفجر أنهار الجنة][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: [إنّ في الجنة بَحْرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللبن، وبحرَ الخمر، ثم تشقّق الأنهار بعد][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [سَيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إِخْبَارٌ عن حال المؤمنين عند الاحتضار، ونزول ملائكة الرحمة بالسلام والبشرىٰ من الملك الرحيم القهار، الذي أمر بتبشيرهم بدخول الجنان جزاء الصبر والثبات على الحق إلى ساعة مفارقة دنيا الاغترار.

قال القاسمي: (﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 14)، (9/ 101)، وأخرجه أحمد (2/ 335)، وكذلك (2/ 339)، ورواه البيهقي في «الأسماء» (398)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2703)، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ (2078).

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1968)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 776) لمزيد من التفصيل في أنهار الجنة وما ورد فيها.

والمعاصي وكل سوء ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخيٍّ إلى البعث. أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ. . .﴾ [فصلت: 30] الآيات).

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث البراء مرفوعاً ـ في صفة المؤمن في قبره بعد السؤال ـ: [ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك، أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشّرك الله بخير من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً في إطاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً. .] الحديث[1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: [فيفرجُ له فرجَةٌ قبلَ النار، فينظرُ إليها يَحْطمُ بعضُها بعضاً، فَيُقال له: انظُرْ إلى ما وقاك الله تعالىٰ، ثم يُفرجُ له فرجَةٌ قبلَ الجنة، فينظرُ إلى زهرَتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويُقال له: على اليقين كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبْعَثُ إن شاء الله][2].

33 ـ 34. قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: اسْتِخْفَافُ الله تعالىٰ بالمشركين، فهم ينتظرون الموت لقبض

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 281)، وأحمد (4/ 287)، والنسائي (1/ 282)، وأخرجه ابن ماجة (1/ 469)، والحاكم (1/ 37 ـ 40)، وانظر: «أحكام الجنائز» (157).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4268). وانظر تخريج الترغيب (4/ 188 ـ 189)، وصحيح الجامع (1964) في أثناء حديث طويل. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3443).

أرواحهم ، أو القيامة لنزول العذاب بهم ، شأن الأمم الضالة قبلهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

فعن قتادة: (قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال: بالموت ، وقال في آية أخرىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنفال: 50] وهو ملك الموت ، وله رسل ، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ذاكم يوم القيامة).

وقال مجاهد: (﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يقول: عند الموت حين تتوفاهم ، ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ذلك يوم القيامة).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة الله لقبض أرواحهم ، أو إتيان أمر الله فعل أسلافهم من الكفرة بالله ، لأن ذلك في كل مشرك بالله ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يقول جل ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلال سُخْطِه ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به ، حتىٰ استحقوا عقابه ، فعجَّل لهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

قال القاسمي: (﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الوحدانية وتكذيب الرسل ونحوها ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذاب الذي توعدتْهُم به الرسُل).

35 ـ 40. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ

بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالىٰ المشركين احتجاجهم بالقدر على شركهم، شأن الأمم الضالة قبلهم، وما على الرسل إلا البلاغ المبين. لقد بعث الله الرسل في أممهم يدعونهم لإفراد الله تعالىٰ بالتعظيم، ونبذ الطاغوت وسبل الشياطين، فمن علم الله فيه خيراً هداه، ومن علم كبره ومكره أضله، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. إنك إن تحرص ـ يا محمد ـ على هداهم فاعلم أن الله لا يهدي من يُضل ويصرّ على الضلال ومالهم من ناصرين. لقد أقسموا بالله على إنكار البعث وأكثرهم كاذبون لا يعلمون، فإنما قول الله لشيء إذا أراد وجوده أن يقول له كن فيكون.

فقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

اعْتِذارٌ تَافِهٌ من المشركين على شركهم بالله وتحريم ما لم ينزل به تشريعاً من البحائر والسوائب والوصائل معلقين ذلك كله على القدر، شأن الأمم المغرورة قبلهم.

قال ابن كثير: (ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالىٰ كارهاً لِمَا فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مَكَّننا منه. قال الله تعالىٰ راداً عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾؟ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُغَيِّره عليكم ولا أنكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة، أي: في كل قرْن من الناس وطائفة رسولاً، وكلهم يَدْعون إلى عبادة الله، ويَنْهَوْن عن عبادة ما سواه).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

قال القرطبي: (أي بأن اعبدوا الله ووحّدوه. ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي اتركوا كلّ معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال).

وقوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾.

قال النسفي: (﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ لاختيارهم الهدىٰ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي لزمته لاختياره إياها).

وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: إن كنتم معشر المشركين من قريش وغيرها غير مصدقي رسولنا فسيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف آل حال الأمم المكذبة قبلكم، وكيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والدمار والعذاب والهلاك.

وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾.

إِخْبارٌ من الله تعالىٰ رسوله ﷺ: أنّ حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إن كان الله أراد إضلالهم، لعلمه بفساد قلوبهم وانحراف فطرتهم وحبهم تعظيم الطواغيت والشهوات وإصرارهم على التمسك بنهج الجاهلية.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: 41].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تُعرض الفِتن كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلب أُشْرِبَها نُكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتىٰ يصير على قلبين، على أبيضَ مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً، لا يَعْرِف معروفاً ولا يُنْكر مُنكراً، إلا ما أشرب من هواه][1].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ـ أي ينصرونهم ويحولون بينهم وبين وقوع العقاب بهم.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1990) ـ كتاب الفتن. وقوله: «مرباداً» يعني: شدة البياض في سواد، و«مُجَخّياً» أي: منكوساً.

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

قال قتادة: (تكذيباً بأمر الله أو بأمرنا، فإن الناس صاروا في البعث فريقين: مكذِّبٌ ومصدق).

والمعنىٰ: لقد حلف المشركون وأقسموا واجتهدوا في الحلف وغلّظوا الأيمان مستبعدين حدوث البعث بعد الموت، مكذبين الرسل بذلك، فردّ الله زعمهم وكذّبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فبجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفُواً أحد][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

بَيَانٌ من الله تعالىٰ حكمته من المعاد: ليبين للناس ما اختلفوا فيه من كل شيء، فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بإساءتهم، وليعلم الذي جحدوا الحساب والجزاء والبعث بعد الموت أنهم كانوا كاذبين في دعواهم، وأن ذلك كما حملهم في الدنيا على متابعة كفرهم وظلمهم سيحملهم اليوم على مواجهة حرّ جهنم وسعيرها.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 13 ـ 16].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق معنىٰ الآيـة أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [ناركم هذه التي توقد بنو آدم، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم. قيل يا رسول الله! إن كانت لكافية. قال فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهنَّ مثلُ حرّها][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4975)، وابن جرير (21588) نحوه.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1976)، ورواه البخاري في صحيحه (3265) بلفظ قريب، ورواه أكثر أهل السنن.

وفي لفظ: [فإنها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً ، كُلُّهُنَّ مثلُ حرِّها].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألمْ أَجْعَلْ لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسَخَّرْتُ لك الأنعام والحرثَ ، وتركْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ، فكنتَ تَظُنُّ أنك مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنْساك كما نسيتني][1].

الحديث الثالث: يروي الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائنا لهم ، ولا في غير ذلك مما نخلق ونكوّن ونحدث ، لأنا إذا أردنا خلقه وإنشاءه ، فإنما نقول له: كن فيكون ، لا معاناة فيه ، ولا كُلفة علينا).

41 ـ 42. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢ ﴾.

في هذه الآيات: إثْبَاتُ الله تعالىٰ سعادة المهاجرين ، الذين ظُلِمُوا في سبيل الله وصبروا وعلى ربهم يتوكلون.

فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾.

أي: إن مفارقة الأقوام وهجرة الأوطان فراراً بالدين من ظلم الطغاة أجره عظيم عند الله ، ويُهَيِّئ الله لأهله في الدنيا مسكناً يرضونه صالحاً. وقيل في سبب ذلك أمران:

1 ـ قال قتادة: (هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة ، فأخرجوهم من ديارهم ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2558) ـ أبواب صفة القيامة. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978) ، وأصله في صحيح مسلم.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ، كما ذكر الهيثمي في «المجمع»: (5/ 235) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (4/ 1) ، وانظر السلسلة الصحيحة (471).

حتىٰ لحق طوائف منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين). وعن مجاهد: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: المدينة).

2 ـ وقال ابن عباس: (هم قوم هاجروا إلى رسول الله ﷺ من أهل مكة من بعد ظلمهم ، وظلمهم المشركون). وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل. وقال مجاهد: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً).

قلت: والآية عامة في كل زمان ومكان ، فإن الفرار بالدين ثوابه الرزق الحسن في الدنيا والآخرة. قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عكرمة قال: [لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة ، فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهماً فقال: لا تصلون إليَّ حتىٰ أضع في كل رجل منكم سهماً ثم أصير بعده إلى السيف فتعلمون أني رجل ، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم ، ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207] ، فلما رآه النبي ﷺ قال: أبا يحيىٰ ربح البيع. قال: وتلا الآية][1].

وقوله: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: (إي والله لما يثيبهم الله عليه من جنته أكبر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: الذين صبروا على أعباء الجهاد ومواجهة الطغاة ، لحراسة الدين وسياسة الدنيا به في الأرض ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وهم بالله يثقون وإليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم.

43 ـ 44. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (3/ 400) من حديث عكرمة ، وإسناده على شرط مسلم. وقد مضىٰ تخريجه في سورة البقرة ، آية (207).

أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إِثْبَاتُ الله رجولة الأنبياء الذين أرسلهم الله في جميع الأمم، ووجوب سؤال أهل العلم لفهم الدين على مدار الزمان، وإِثْبَاتُ نزول السنة وهي الوحي الثاني لِتُبَيِّنَ مجمل القرآن.

فقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾. قال القرطبي: (نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوّة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاّ بعث إلينا ملكاً، فرد الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ آدميين).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94 ـ 95].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: 20].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: 8].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9].

5 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: 110].

أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن طلحة مرفوعاً: [إنما أنا بشرٌ مثلكم، وإن الظَّنَّ يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله، فلن أكذِبَ على الله][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وابن ماجة، وأصله في صحيح مسلم (7/ 95) من حديث طلحة، ورافع بن خديج، وانظر: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2337).

وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ فيه تأويلان:

1 ـ قال ابن عباس: (قال لمشركي قريش: إن محمداً في التوراة والإنجيل). وقال: (﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: يعني أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد رسولاً، ثم قال: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ: أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم). وقال سفيان: (﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب).

2 ـ قال ابن عباس: (أهل الذكر أهل القرآن). وقال ابن زيد: (﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الذكر: القرآن. وقرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: 41] الآية).

قلت: وكلا المعنيين حق. فلما عجب المشركون من إيحاء الله لرسوله، واصطفائه برسالته، أحيلوا لسؤال أهل الكتاب أو علماء الأخبار. وكذلك الحال عند كل معضلة أو فتوىٰ فلا بد من الرجوع لأهل العلم.

قال القاسمي: (فالذكر، إما بمعنىٰ الكتاب لما فيه من الذكر والعظة، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ [يس: 69]، أو بمعنىٰ الحفظ لأخبار الأمم السالفة. وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم).

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾. قال مجاهد: (البينات: الآيات، والزبر: الكتب). والزُّبُر: جمع زَبُور، والعرب تقول: زَبَرْتُ الكتاب إذا كتبته.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: 52].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

والمعنىٰ: لقد أرسلنا الرسل المتقدمين ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ ـ أي بالحجج والدلائل والبراهين، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي بالكتب، فرجوعكم إليهم منهاج صحيح في كشف الشبهات والتعرف على الحق.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وأنزلنا إليك ـ يا محمد ـ السّنة، وهي الوحي الثاني، لتبين للناس ما نزل

إليهم ـ أي القرآن: وهو الوحي الأول ـ فتفسر لهم مجمل القرآن ، وتُفَصِّل لهم ما يحتاجون معرفته عن أمور دينهم ومفهوم الإسلام والإيمان والإحسان ، وسبيل النجاة من الفتن القادمة عبر الزمان ، ومن عذاب الله يوم القيامة ـ لعلهم يعتبرون ويتعظون فيلزمون طريق النجاة.

قال القرطبي رحمه الله: (فالرسول ﷺ مُبَيِّنٌ عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يُفَصِّلْه).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: من ربهم لعلمك بمعنىٰ ما أنزل الله عليك وحرصك عليه).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 59].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: 31].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 32].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر: 7].

قال مجاهد في التفسير: (﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ قال: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ). وقال ميمون بن مهران: (الرد إلى الله ، الردّ إلى كتابه ، والردّ إلى رسوله إن كان حياً ، إن قبضه الله إليه فالردّ إلى السنة).

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنَعُه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية].

وفي لفظ: [ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوهُ وتنزهوا عنه؟ فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية][1].

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (2356) ، ورواه أحمد وغيره. انظر صحيح الجامع (5449).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا حدثتكم حديثاً ، فلا تزيدُنَّ عليّ][1].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً: [إنه ليس شيءٌ يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به ، وليس شيءٌ يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه].

وفي لفظ عند الطبراني: [ما تركت شيئاً يقربكم إلىٰ الله تعالىٰ إلا وقد أمرتكم به ، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله تعالىٰ إلا وقد نهيتكم عنه][2].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [هلاك أمتي في الكتاب واللَّبن. قالوا: يا رسول الله ما الكتاب واللبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل ، ويحبون اللبن فيدعون الجماعات والجمعَ ويبدون][3].

قال ابن عبد البر: (أهل البدع أضربوا عن السنن ، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السنة ، فضلوا وأضلوا).

وفي «شرح السنة» للبغوي عن أبي بن كعب قال: (عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبداً ، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة).

وكان الإمام مالك يقول ـ كما ذكر الشاطبي في «الاعتصام» ـ: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً).

وكان الإمام الشافعي يقول ـ كما يروي أبو نعيم في «الحلية» ـ: (حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاءُ من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 11) من حديث سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (346).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (1647) ، وبلفظ مقارب ، وأخرجه الشافعي وابن خزيمة كما ذكر الألباني في «الصحيحة» ـ حديث رقم ـ (1803).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 155) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2778) ، وقوله: «يبدون» ـ أي يخرجون إلى البادية لطلب اللبن في المراعي على حساب واجبات دينهم.

وجاء في «طبقات الحنابلة» ـ قول الإمام أحمد ـ: (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة).

45 ـ 50. قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تهديدٌ من الله تعالىٰ ووعيد للمشركين بالخسف والعذاب، إن لم يؤمنوا ويلتزموا هذا الكتاب، فإن الله تعالىٰ خلق كل شيء في هذا الكون الفسيح في سجود له وتعظيم وهم لله داخرون، والملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون.

فقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾. قال قتادة: (السيئات: الشرك). والآية تهديد ووعيد للعصاة المستهترين الذين يشيعون المنكر في الأرض، فإن الزلازل عذاب من الله يبعثه الله عند فشو الفواحش والمنكر بين العباد. وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح من حديث عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: [في هذه الأمة خَسْفٌ، ومَسْخٌ، وقَذْفٌ، إذا ظهرت القيانُ والمعازِفُ، وشُرِبت الخمور].

وفي رواية مِنْ حديث ابن عمر بلفظ: [في هذه الأمة خسف، ومسخٌ، وقذف، في أهل القدر][1].

ورواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بلفظ: [في أمتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4061)، والترمذي (2/ 22)، وقال حسن صحيح.

ورواه ابن ماجة من طريق عبد الله ، عن النبي ﷺ بلفظ: [بين يدي الساعة مسخٌ ، وخَسْفٌ ، وقَذْف][1] .

الحديث الثاني: يروي الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: [يكون في آخرِ هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخَبَثُ][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتىٰ يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهرَ الفتن ، ويكثرَ الهرجُ ، وهو القتل][3] .

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم ، فإن عذاب الفجأة فيه شدة على النفس إضافة لما قد يقع على الجسد.

وفي التنزيل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 16 ـ 17].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر ـ أن النبي ﷺ كان يقول ـ: [اللهم إني أعوذ بك من زوال نِعمتك ، وتَحوّل عافيتك ، وفَجاةِ نِقمتكَ ، وجميعِ سخطك][4] .

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ يقول: في اختلافهم).

2 ـ قال قتادة: (﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ في أسفارهم). وقال ابن عباس: (قال: إن شئت أخذته في سفر).

3 ـ قال ابن جريج: (التقلب: أن يأخذهم بالليل والنهار).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4059) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1787).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 28 ـ 29) من حديث عائشة ، وهو شاهد للحديث السابق ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 4) ص (393).

(3) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1036) ـ كتاب الاستسقاء ، باب ما قيل في الزلازل والآيات ، ورواه أحمد.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 89) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ورواه الترمذي وأبو داود ـ انظر صحيح الجامع ـ (1302).

قال ابن جرير: (﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أو يهلكهم في تصرّفهم في البلاد، وتردّدهم في أسفارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إن أراد أخذهم كذلك).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 97 ـ 98].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196 ـ 197].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][(1)].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوّف بذلك).

وقال الضحاك: (يعني: يأخذ العذاب طائفة ويترك أخرىٰ، ويعذّب القرية ويهلكها، ويترك أخرىٰ إلى جنبها).

قال ابن كثير: (﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، أي: أو يأخذهم الله في حال خَوفهم من أخذه لهم، فإنه يكونُ أبلغَ وأشدَّ حالة الأخْذِ، فإن حصولَ ما يُتَوقَّع مع الخوف شديد. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: حيث لم يعاجلكم بالعُقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبرَ على أذىً يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ عن سجود كل ذي ظلٍّ لله تعالىٰ بكرة وعشياً. قال قتادة: (أما اليمين: فأول النهار، وأما الشمال: فآخر النهار). وقال: (ظل كل شيء سجوده).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3109)، وابن ماجة (4018)، وابن حبان (5175)، ورواه البيهقي (6/ 94).

وعن ابن جريج: (﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ قال: الغدو والآصال، إذا فاءت الظِّلال، ظلال كل شيء بالغدوّ سجدت لله، وإذا فاءت بالعشي سجدت لله).

وقال الضحاك: (يعني: بالغدوّ والآصال، تسجد الظلال لله غدوة إلى أن يفيء الظلّ، ثم تسجد لله إلى الليل، يعني: ظلّ كل شيء). وعن ابن عباس: (﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ﴾ يقول: تتميل). واختاره ابن جرير وقال: (إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيَلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية). وعن مجاهد: (﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾: صاغرون).

والخلاصة: إن جميع الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلّفوها من الإنس والجن والملائكة، قد دانت لكبرياء الله وعظمته وجبروته، وكل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ـ أي بكرة وعشياً ـ فإنه ساجد بظله لله تعالىٰ[1].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾.

هو كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: 15].

وكقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: 18].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: والملائكة تسجد لله في طاعة وتذلل، ولا يستكبرون عن عبادة ربهم تبارك وتعالىٰ.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إني أرىٰ ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وَحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضِعُ أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله

(1) ذكره ابن كثير وقال: (وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته). قال: ونزّلهم منزلة من يَعْقِل إذ أسند السجود إليهم.

تعالىٰ ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

دليل في علو الله تعالىٰ ، فهو سبحانه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، وبعض الملائكة تعرج إليه بأعمال العباد ، وبعضهم ينزل بالأمر قضاه تعالىٰ في السماء ، وجميعهم يفعلون ما يؤمرون ، ويؤدون حقوق الله عليهم ، ويجتنبون ما يُسخطه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 157 ـ 158].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيسألهم ، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون][2].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: [الراحمون يرحمهم الرحمٰن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء][3].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال: قال

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (2312)، وابن ماجة في السنن (4190)، وأحمد في المسند (5/ 173). وإسناده حسن في الشواهد. انظر تخريج المشكاة (5347) ، وصحيح الجامع (2445) ، والسلسلة الصحيحة (1059 ـ 1060).

(2) حديث صحيح. أخرجه الشيخان وغيرهما ، وفي رواية (يتعاقبون فيكم ملائكة. .) ـ انظر صحيح البخاري (555) ، (3223) ، وصحيح مسلم (632) ، ومسند أحمد (2/ 312).

(3) حديث صحيح. رواه أبو داود (4941) ، والترمذي (1/ 350) ، وأحمد (2/ 160) ، وغيرهم.

رسول الله ﷺ: [ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء](1).

51 ـ 55. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾.

في هذه الآيات: إثبات الوحدانية لله العظيم، له ما في السماوات وما في الأرض وله الدين الحق المبين، وما بكم من نعمة ـ أيها الناس ـ فمن الله المنعم الكريم، الذي إن مسكم الضر فإليه تجأرون، وإن كشفه عنكم فأكثركم يشركون، ليتمتعوا بما في أيديهم من زينة الدنيا الفانية وسوف يعلمون.

فقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أَمْرٌ من الله تعالىٰ عباده بإفراده بالألوهية، وصرف العبادة له وحده، فإنه لا إله إلا الله. وقد بعث الرسل جميعاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بهذه الدعوة، دعوة التوحيد.

ففي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار](2).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (3/ 111). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم (514) ص (140) ـ وهو جزء من حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (93) ـ كتاب الإيمان. باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار، من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة][1].

وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ قال ابن جرير: (يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً).

وقال النسفي: (نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترغيب من قوله فإياي فارهبوا، فارهبوني).

وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾.

أي: لله ملك ما في السماوات والأرض من شيء، وكل خلق ورزق وحياة وإماتة فبأمره، ومن ثم فإن الطاعة والإخلاص له سبحانه إنما ينبغي له دائماً ثابتاً وواجباً.

قال ابن عباس: (﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال: دائماً). وفي رواية أخرىٰ قال: (واجباً).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: كيف تحذرون أيها الناس وترهبون أحداً أن يسلبكم نعمة الله عليكم، وكل ما لديكم من صحة وعافية ورزق وخير فهو من ربكم، يقسم ذلك بينكم، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾. أي إن أصابكم سقم أو شدة فإلى الله تصرخون وتستغيثون. قال مجاهد: (تضرعون دعاء). وقال ابن عباس: (الضُّر: السُّقْم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: ثم إذا رفع سبحانه عنكم الشدة والبلاء والسقم سارع بعضكم إلى ما كان عليه من الشرك بالله، وربما نسب الفرج لنفسه أو لجهده وقوته وجحد النعمة.

قال القرطبي: (فمعنىٰ الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك، وهذا المعنىٰ مكرر في القرآن).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (26) ـ كتاب الإيمان. باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، من حديث عثمان رضي الله عنه.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود بسند صحيح عن أبي تميمة ، عن رجل من قومه ، أنه أتىٰ رسول الله ﷺ ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسَّكَ ضر فدعوته كشفَ عنك ، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل ، بمعنىٰ قَيَّضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي: يستروا ويجحدوا نعمة الله عليهم ، وأنه المُسْدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النِّقمَ. ثم توعّدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ ، أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، أي: عاقبة ذلك).

56 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالىٰ جهالة المشركين ، في صرف الأموال للأصنام وجعل البنات لله ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثىٰ لجأ إلى الوأد خشية عار الجاهلين ، إنه للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلىٰ وهو العزيز الحكيم.

فقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. إخبار من الله تعالىٰ عن نوع آخر من جهالات المشركين وقبائحهم ، فيجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع ـ وهي أصنامهم وأوثانهم ـ شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه. وقيل بل الضمير في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعود على

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4084). انظر صحيح أبي داود (3442). ورواه أحمد. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (918) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (242).

الأوثان. والتقدير: ويجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وكلا المعنيين محتمل.

فعَن مجاهد: (﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ قال: يعلمون أن الله خلقهم، ويضرّهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم نصيباً مما رزقناهم).

وقال قتادة: (هم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيباً مما رزقناهم، وجزءاً من أموالهم يجعلونه لأوثانهم).

وقال ابن زيد: (جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء، جعلوا لها نصيباً مما قال الله من الحرث والأنعام، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها).

وفي التنزيل: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: 136].

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

أي: والله لتسألن معشر المشركين عما تختلقون من الباطل والإفك على الله بدعواكم له شريكاً، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيباً، ثم ليعاقبكم عقوبة تكون جزاءً لكفرانكم نعمه وافترائكم عليه. ـ ذكره ابن جرير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: يجعلون لله البنات ترضونهنّ لي، ولا ترضونهنّ لأنفسكم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا وُلِدَ للرجل منهم جارية أمسكها على هون، أو دسّها في التراب وهي حية). وقال: (﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: حزين). وقال الضحاك: (الكظيم: الكميد). وقال قتادة: (هذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله تعالىٰ ذكره بخبث صنيعهم فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضىٰ بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما يدري أنه خير، لرُبّ جارية خير لأهلها من غلام. وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه، وكان أحدهم يغذو كلبه، ويئد ابنته).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

أي: يخشىٰ رؤية الناس إن بُشِّر بأنثىٰ، فهو في تأرجح من أمره، فإن أبقاها أبقاها مهانة ذليلة يفضل الذكور عليها، ويحرمها من لطفه وإرثه والعناية بها، وإلا وأدها ودفنها حية في التراب على طريقة أهل الجاهلية. إنه بئس ما يحكم به هؤلاء المشركون، أنْ جعلوا لله ما يكرهون، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: 17].

قال القرطبي: (﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بتكريم البنات وحسن رعايتهن، وما يعقب ذلك من عظيم الثواب وسبب النجاة يوم القيامة.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقَسَمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخلَ عليّ النبي ﷺ فحدّثته حديثَها، فقال النبي ﷺ: من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم وابن ماجة من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل قد أوجب بها الجنة أو أعتقها بها من النار][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1418) و(5995)، وأخرجه مسلم (2629)، وأحمد (6/ 33).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2630)، وابن ماجة (3668)، وابن حبان (448)، وأخرجه أحمد في المسند (6/ 92) ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

رسول الله ﷺ: [مَنْ عالَ جاريتين حتىٰ يُدرِكا، دخلتُ أنا وهو الجنة، كهاتين][1].

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن في الشواهد، من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: [لا تكْرَهوا البنات، فإنهنَّ المُؤْنِساتُ الغاليات][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: كل النقص والعيب ينسب للمشركين الذين كفروا بلقاء ربهم، وكل الثناء وجميع المحامد لله العلي الكبير، وهو العزيز الحكيم.

وعن قتادة: (﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله). أو قال: (الإخلاص والتوحيد).

61 ـ 64. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تأخير الله تعالىٰ مؤاخذة الناس بظلمهم رحمة بهم، والمشركون غافلون يجعلون لله ما يكرهون ويمضون كمن قبلهم من الجاهلين خلف أهوائهم، وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم والعذاب مثواهم، وما أنزلنا عليك الكتاب ـ يا محمد ـ إلا لتبين لهم، وهدىٰ ورحمة لمن آمن منهم.

فقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

أي: لو يؤاخذ الله الناس بكفرهم وظلمهم وبغيهم لعاجلهم بالعذاب ولما ترك على

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2631)، والترمذي في الجامع (1914)، وابن حبان في صحيحه (447)، وأحمد في المسند (3/ 147).

(2) حسن لشواهده. أخرجه أحمد (4/ 151)، وابن عدي (6/ 278)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3206)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (17/ 310/ 856).

ظهر الأرض من دابة ـ كافرة ، أو قيل: بل المراد العموم ـ. قال النسفي: (﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ قط ، ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين).

قلت: ويبدو أن الهلاك يعمّ إذا كثر الخبث ، ثم يحشر الله الناس على نياتهم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: 38].

وفي صحيح السنة المطهرة من ذلك المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أم المؤمنين أمِّ الحَكَم زينب بنتِ جَحْشٍ رضي الله عنها: [أن النبي ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: لا إله إلا الله، وَيْلٌ للعربِ من شرٍّ قد اقتربَ ، فُتِحَ اليوم من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثْلُ هذه ـ وحَلَّق بأصْبُعَيْه الإبهام والتي تليها ـ. فقلت: يا رسول الله أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أم المؤمنين أُمِّ عبد الله عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [يَغْزو جَيْشٌ الكعبة ، فإذا كانوا بِبَيْداءَ من الأرض يُخْسَفُ بأولهم وآخِرهم. قالت: قلت: يا رسول الله ، كيف يُخْسَفُ بأولهم وآخِرهم وفيهم أسواقُهم[2] ومن ليسَ مِنْهم؟! قال: يُخْسَفُ بأولهم وآخِرهم ، ثم يُبْعثون على نِيَّاتهم][3].

الحديث الثالث: خَرَّجَ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بُعثوا على نياتهم][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6/ 274) ، (13/ 9) ، (13/ 95) ، ومسلم (2880) ، وأخرجه أحمد في المسند (6/ 428 ـ 429).

(2) أي أهل أسواقهم أو السوقة منهم. وفيه أن من كثَّر سواد قوم في المعصية لحقته العقوبة ، وفيه التحذير من مصاحبة أهل المعصية والظلم ، وأن العمل بالنية.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 284) ـ واللفظ له ـ وأخرجه مسلم ـ (2884) نحوه.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2879) ، وأحمد في مسنده (2/ 40) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ ـ بقصة جيش الخسف ـ قالت: قلت: يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: [يُخْسَفُ بهم ، ولكن يُبْعث يوم القيامة على نيته][1].

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: (وفيه من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا ينالهم ما يعاقبون به. قال: وفيه أنّ مَنْ كثَّرَ سواد قوم جرىٰ عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال القاسمي: (أي وقت تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له ، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. قال الزهري: (نرىٰ أنه إذا حضر أجله فلا يؤخر ساعة ، ولا يقدّم ، ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ، ويُقدِّمُ ما شاء). وقال ابن جرير: (﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وُقِّتَ لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن الهلاك ساعة فيمهلون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ له حتىٰ يستوفوا آجالهم).

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. أي: ويجعلون لله البنات وتقول ألسنتهم الكذب: أن لهم الذكور من الأولاد. قال مجاهد: (قول قريش: لنا البنون ، ولله البنات). وقال قتادة: (أي يتكلمون بأن لهم الحُسنىٰ: أي الغلمان).

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. أي: حقاً لهم النار ، وأنهم متروكون فيها منسيون لقاء تفريطهم واستهتارهم. قال ابن عباس: (﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلىٰ). وقال ابن كثير: (﴿لَا جَرَمَ﴾ ، أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ، أي: يوم القيامة).

وفي قوله: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أكثر من تأويل متقارب:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قال: منسيون مُضَيَّعُون). أو قال: (متروكون في النار ، منسيون فيها). وقال مجاهد: (مَنْسيون). وقال قتادة: (مُضاعون).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4289) ـ كتاب المهدي ، وانظر صحيح مسلم (2882) ، ومسند أحمد (6/ 290) ، وصحيح ابن حبان (6756) ـ من حديث أم سلمة.

2 ـ قال قتادة أيضاً: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قال: قد أُفرِطوا في النار: أي مُعْجَلون). أو قال: (يقول: مُعْجَلون إلى النار).

3 ـ قال سعيد: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قال: مُخْسَئون مُبْعدون).

قال ابن كثير: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: مَنْسِيُّون مُضَيَّعُون. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51]. وعن قتادة أيضاً: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾، أي: مُعْجَلُون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الوِرْد. ولا منافاة، لأنهم يُعْجَل بهم يوم القيامة إلى النار، ويُنْسَونَ فيها، أي: يُخَلَّدُون).

وقوله تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. تسلية للنبي ﷺ بأن ما يلقاه من تكذيب قومه قد واجهه إخوته الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قبله. قال ابن جرير: (﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: فَحَسَّنَ لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان مقيمين، حتىٰ كذبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاؤوهم به من عند ربهم). وقال القرطبي: (﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخدة. وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي قرينهم في النار. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته. وقيل: يقال لهم يوم القيامة: هذا وليّكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. بيان لحجية القرآن للفصل بين الناس في كل ما يختلفون فيه، إضافة لكونه هدى للقلوب ورحمة للمتمسك بنوره وهديه من المؤمنين.

65 ـ 67. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنان الله تعالىٰ على العباد بنعمة الماء والأنعام، واللبن السائغ

الذي فيه شفاء للأنام ، وبثمرات النخيل والأعناب وما يكون منها من منافع عبر الأيام.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. قال ابن كثير: (وكما جعل تعالىٰ القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يُحْيي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ، أي: يفهمون الكلام ومعناه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾. الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم. وفي خلقها وطريقة عطائها والاستفادة من ألبانها وأصوافها ولحمها آية ودلالة على قدرة خالقها ولطفه ورحمته.

وقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. آية من آيات الآفاق ، يريها الله تعالىٰ عباده في أدق ما توصلت إليه الأبحاث والعلوم. فلقد اكتشف الدارسون أن اللبن في الأنعام يُسْتَخْلَصُ من بين الفَرْثِ في الأمعاء الدقيقة ، فتبقىٰ الفضلات التي تخرج في صورة بَعَرٍ ، وغيره ، بعد أن كانت كُلّها فَرْثاً سائلاً ، ثم تَدْخلُ المواد الغذائية في الدم ، ثم يُستَخْلَصُ اللبن من الدم في الضروع ، وهذا كله متضمن في دقيق ألفاظ الآية السابقة ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾. قال ابن عباس: (السَّكر: ما حُرِّمَ من شرابه ، والرزق الحسن: ما أحل من ثمرته). وقال أبو رزين: (نزل هذا وهم يشربون الخمر ، فكان هذا قبل أن ينزل تحريم الخمر). وبنحوه قال إبراهيم: (هي منسوخة نسخها تحريم الخمر). وقال مجاهد: (السكر: الخمر ، والرزق الحسن: الرُّطب والأعناب. ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ قال: هي الخمر قبل أن تحرّم). وقال قتادة: (أما السَّكر: فخمور هذه الأعاجم ، وأما الرزق الحسن: فما تنتبذون ، وما تُخَلّلون ، وما تأكلون ، ونزلت هذه الآية ، ولم تحرّم الخمر يومئذ ، وإنما جاء تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة).

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ـ تناسب بديع مع مفهوم الآية وما جاء بعدها من تحريم ما أسكر ، فإن العقل من أشرف ما في الإنسان ، وقد مهّد بذلك تعالىٰ لمجيء التحريم بعد ذلك تكريماً لهذا العقل وصيانة له من الضياع والانهيار.

68 ـ 69. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ إلى النَّحْلِ اتخاذ البيوت من الجبال ومن الشجر ومما يبنون ويعرشون. ثم إلهامها الأكل من كل الثمرات وسلوك الطرق المذلّلة لصناعة العسل الذي فيه شفاء للناس وآية لقوم يتفكرون.

فقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾. قال مجاهد: (ألهمها إلهاماً). وعن ابن عباس قال: (أمرها أن تأكل من الثمرات، وأمرها أن تتبع سبل ربها ذللاً). وقال معمر: (قذف في أنفسها).

وقوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. قال معمر، عن أصحابه: (قذف في أنفسها أن اتخذي من الجبال بيوتاً).

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. قال ابن زيد: (﴿يَعْرِشُونَ﴾: الكَرْم). وقال ابن جرير: (يعني: مما يبنون من السقوف، فرفعوها بالبناء). قال ابن كثير: (المرادُ بالوحي هاهنا: الإلهامُ والهداية والإرشادُ إلى النحل أن تَتَّخِذَ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تَسْدِيدها ورصِّها، بحيث لا يكون بينها خَلَلٌ. ثم أذِنَ لها تعالىٰ إذناً قَدَرِياً تَسْخيريّاً أن تأكل من كُلِّ الثمرات، وأن تَسلُكَ الطرق التي جعلها الله تعالىٰ لها مُذَلَّلة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبَرَارِي الشاسِعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعودُ كلُّ واحدةٍ منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع في أجنحتها، وتقيءُ العَسَلَ من فِيها، وتبيض الفراخ من دُبُرها، ثم تُصْبحُ إلى مراعيها).

وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾. أي: ثم كلي أيتها النحل من جميع الثمرات فاسلكي طرق ربك مذلّلة لك. قال مجاهد: (﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قال: لا يتوعّر عليها مكان سلكته). وقال قتادة: (﴿ذُلُلًا﴾ أي مطيعة). والذّلل: جمع ذَلُول.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾. أي: يخرج من بطون النحل شراب، هو العسل، مختلف ألوانه، فمنه الأبيض والأحمر والأسحر وغير

ذلك. قال قتادة: (ففيه شفاء كما قال الله تعالىٰ من الأدواء. وقد كان ينهىٰ عن تفريق النحل، وعن قتلها).

وفي صحيح سنن أبي داود عن ابن عباس، قال: [إنَّ النبي ﷺ نهىٰ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّرَد][1].

وقد جاء في فضائل العسل وفوائده أحاديث كثيرة، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ ففي شَرْطَةِ محجم، أو شَرْبَة من عسل، أو لذعةٍ بنار توافق داء، وما أحب أن أكتوي][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مِحْجَمٍ، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو كيّة بنار، وأنهىٰ أمّتي عن الكيّ][3].

وله شاهد في مسند أحمد من حديث عقبة قال: قال رسول الله ﷺ ثلاثاً: [إنْ كان في شيء شفاء فشرطة مِحْجَم، أو شربة عسلٍ، أو كيّة تصيبُ ألماً، وأنا أكره الكيَّ ولا أحبّه].

قال ابن جُريج: (قال الزهري: عليك بالعسل، فإنه جيد للحفظ، وأجوده أصْفاه وأبْيَضُه، وألينُه حِدة، وأصدقه حلاوة، وما يُؤْخَذُ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلايا، وهو بحسب مرعىٰ نحله).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة: [أن رسول الله ﷺ كان يُعْجِبُهُ الحَلْواءُ العَسَلُ][4].

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي اسْتَطْلَقَ بطنُه؟ فقال: اسقه عسلاً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (5267) ـ باب في قتل الذر. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث (4387).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5681)، كتاب الطب، وانظر (5860)، وأخرجه مسلم (2205)، وأخرجه أبو يعلىٰ ـ حديث رقم ـ (2100).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5680) ـ كتاب الطب. وانظر حديث (5683) ـ كذلك.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5431) ـ (5614)، وأخرجه مسلم (1474)، وأبو داود (3715)، وأخرجه ابن ماجة (3323)، وأخرجه أحمد في المسند (6/ 59).

فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ، سَقَيْتُهُ عسلاً فما زادَهُ إلا استطلاقاً! قال: اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ، ما زاده إلااستطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ: صدقَ اللهُ وكَذَبَ بطنُ أخيك! اذْهَبْ فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه فَبَرَأ][1] .

قال بعضُ العلماء بالطب: (كان هذا الرجل عنده فضلاتٌ ، فلما سقاه عَسَلاً وهو حارٌّ تحلّلت ، فأسرعَت في الاندفاع ، فزاد إسهالُه ، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرَّةٌ ، وهو مَصْلَحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدفعُ ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدةُ المضرَّة بالبدن استمسك بطنه ، وصَلَحَ مزاجه ، واندفعت الأسقامُ والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربِّه أفضلُ الصلاة والسلام)[2] .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . قال القاسمي: (أي: فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بألوهيته. وأنه هو الذي ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضابا[3] ، وتلفظه شراباً).

70 ـ 72. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الخلق والحياة والتصرف في العمر لله العليم القدير. وكذلك

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5716) ، ومسلم (2217) ، والترمذي (2083) ، وأحمد (3/ 19) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) ذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» ـ انظر تفسير سورة النحل ـ آية (69). قلت: وقوله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك» يشير إلى التفسير السابق للآية: أن المقصود من قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ العسل ، ومن ذهب إلى أنه القرآن فلا مناسبة في الآيات لذلك.

(3) الرُّضَاب: بالضم هو الريق. والرَّاضِبُ: ضَرْبٌ من السِّدْر والسَّحُ من المطر. كذا في القاموس.

التفضيل في الرزق والولد والخير وما المشركون برادّي ذلك على عبيدهم أفبنعمة الله يجحدون. الله تعالىٰ هو الذي جعل لكم الأزواج والبنين والحفدة ورَزَقَكُم فكيف تكفرون!.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ـ أي بِقبض أرواحكم من أبدانكم. فهو إخبار من الله تعالىٰ عن تصرفه بخلقه، إذ أنشأهم من العدم، ثم يحييهم، ثم يميتهم.

وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾. قال النسفي: (إلى أخسه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، أو ثمانون، أو تسعون).

وفي التنزيل: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. قال ابن كثير: (أي: بعد ما كان عالِماً أصبح لا يَدْري شيئاً من الفَنَدِ والخَرَفِ). قال ابن عباس: (﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له).

وفي صحيح السنة أحاديث في آفاق معنىٰ الآية:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ يتعوّذ يقول: اللهمّ إني أعوذ بك من الكسل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من البخل][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [كان يأمر بهؤلاء الخمسِ ويُخْبِرُهُنَّ عن النبي ﷺ قال: اللهم إني أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذ بك من الجُبْنِ، وأعوذ بكَ أن أُرَدَّ إلى أرذل العُمُرِ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6371)، ومسلم (2706)، وأبو داود (1540)، وأحمد (3/ 113) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6370) ـ كتاب الدعوات، باب التعوذ من البخل. وكذلك (6390). وأخرجه النسائي (8/ 256)، والترمذي (3567)، وابن حبان (1005) (1011)، وأخرجه أحمد (1/ 183)، (1/ 186) من حديث سعد بن أبي وقاص.

عنه: [أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو: أعوذُ بك من البُخْل والكسل، وأرْذَلِ العُمُرِ، وعذابِ القبر، وفتنة الدَّجال، وفتنة المحيا والممات][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن الله لا ينسىٰ، ولا يتغيّر علمه، عليم بكلّ ما كان ويكون، قدير على ما شاء لا يجهل شيئاً، ولا يُعجزه شيء أراده).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لم يكونوا يشركون عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾). وقال مجاهد: (﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال: مثل آلهة الباطل مع الله تعالىٰ ذكره). وقال قتادة: (هذا الذي فُضِّلَ في المال والولد، لا يشرك عبده ماله وزوجته، يقول: قد رضيتَ بذلك لله، ولم ترضَ به لنفسك، فجعلت لله شريكاً في ملكه وخلقه).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. قال قتادة: (أي: والله خلق آدم، ثم خلق زوجته منه، ثم جعل لكم بنين وحفدة).

وفي تفسير قوله: ﴿وَحَفَدَةً﴾ أكثر من تأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولدُ وولَدُ الولد). وقال: (بنوك حين يحفدونك ويَرْفِدونك، ويعينونك ويخدمونك).

2 ـ قال مجاهد: (﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه). أو قال: (الحفَدَةُ: الأنصار والأعوان والخُدَّام). وقال طاووس: (الحفدةُ: الخدمُ). وقال عكرمة: (الحفدة من خَدمك من ولدك وَوَلَدِ ولَدِك). وقال الضحاك: (إنما كانت العرب يخدمُها بنوها).

3 ـ وقال العوفي، عن ابن عباس: (بنو امرأة الرجل، ليسوا منه). وقال أيضاً: (هم الأصهار).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4707) ـ كتاب التفسير ـ سورة النحل، آية (70)، وهي الآية موضع التفسير.

ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا أي يعمل لنا.

قلت: وأصل الحَفْد في كلام العرب: خفة العمل. وفي الحديث: «إليك نسعىٰ ونحفدْ»: أي نسرع إلى العمل بطاعتك. قال الرازي: (الحَفْد: السرعة. والحَفَدَة: الأعوان والخدم وقيل الأختان وقيل الأصهار وقيل ولدُ الولد، واحدُهم حافِد). فكل ما سبق داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ـ وإن كان قوله ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يشير بالخصوص إلى أولاد الأولاد وأولاد البنات من الأصهار، فعادة يعيشون في قرب الرجل وخدمته. وغاية الأمر التذكير بنعمة الله تعالىٰ على العبد في المال والأهل والزوجة والولد.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾. أي: من ألوان المطاعم وأصناف المشارب والملذات الحلال. وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. أي: أفبعد كل هذا يصرفون العبادة أو الدعاء والتعظيم للأوثان والأصنام والطواغيت وينسون المنعم المتفضل سبحانه وتعالىٰ.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألمْ أجْعَلْ لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخّرْت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأسُ وتَرْبَعُ، فكنت تظنُّ أنك مُلاقيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][1].

73 ـ 76. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2558) ـ أبواب صفة القيامة، وانظر صحيح سنن الترمذي (1978).

ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله المشركين في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً، وتحذيرهم من تشبيه الله بالأشباه والأمثال. وتمثيل الله الكافر والمؤمن، فالكافر رزقه مالاً فعمل بمعصيته تعالىٰ، والمؤمن رزقه كذلك فعمل بطاعته تعالىٰ، فهما لا يستويان مثلاً. وتمثيل الله القائم على دينه والعاجز لا يقدر على خير، فالأول يدعو إلى الحق والعدل، والثاني عاجز مريض عالة لا يصلح لمهمة، فهما كذلك لا يستويان مثلاً.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. أي: ورغم كل ما سبق بيانه من نعم الله على العباد، فإن المشركين بالله يعظمون من دونه أوثانا لا تملك لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا تقدر على إنزال القَطْرِ ولا إخراج النبات والثمار، بل ولا تقدر على شيء. قال قتادة: (هذه الأوثان التي تُعْبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقاً ولا ضراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا نشوراً).

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾. قال ابن عباس: (يعني اتخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري). وقال قتادة: (فإنه أحَدٌ صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد). والمقصود: لا تمثلوا الله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه ـ تعالىٰ ـ لا مِثْل له، ولا شِبه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: (يقول: والله أيها الناس يعلم خطأ ما تمثلون وتضربون من الأمثال وصوابه، وغير ذلك من سائر الأشياء، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه).

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية ـ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال قتادة: (هذا مثل ضربه الله للكافر، رزقه مالاً فلم يقدِّم فيه خيراً، ولم يعمل فيه بطاعة الله، قال الله تعالىٰ ذكره ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ فهذا المؤمن أعطاه الله مالاً، فعمل فيه بطاعة الله، وأخذ بالشكر، ومعرفة حقّ الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة، قال الله تعالىٰ ذكره: ﴿هَلْ

﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29]، والله ما يستويان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾).
وقال مجاهد: (ضرب الله هذا المثل، والمثل الآخر بعده لنفسه، والآلهة التي تعبد من دونه).

يروي ابن جرير ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس: [في قوله عز وجل: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير ذاك مولىٰ عثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما][1].

قال قتادة: (﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هو الوثن ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ قال: الله يأمر بالعدل).

قال النسفي: (الأبكم الذي ولد أخرس فلا يَفْهم ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة، فهو يأمر بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم. وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع).

77 ـ 79. قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21814) ـ ورجاله رجال الصحيح. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة النحل، آية (75 ـ 76).

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالىٰ أمر الغيب له وتحذيره عباده فجأة الساعة والقيام للحساب. وامتنان من الله تعالىٰ على عباده أن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً فرزقهم السمع والأبصار والأفئدة لإدراك العلوم وفهم المنافع والمضار لعلهم يشكرون. إن في تسخير الله الطيور وحملها في جو السماء لآيات لقوم يؤمنون.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولله أيها الناس مِلك ما غابَ عن أبصاركم في السماوات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه، ودون كل ما سواه، لا يملك ذلك أحد سواه).

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال قتادة: (هو أن يقول: كن، فهو كلمح البصر، فأمر الساعة كلمح البصر أو أقرب، يعني يقول: أو هو أقرب من لمح البصر).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]. أي: يكون ما يريد كطرف العين.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

امتنان جديد من الله سبحانه على عباده، فهو الذي أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم رزقهم السمع الذي يدركون به الأصوات، والأبصار اللاتي يبصرون بها المحسوسات والمرئيات، والأفئدة ـ وهي العقول ـ يميزون بها المنافع من المضرّات، ومركز العقل والفهم هو القلب، وهو مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، لعلهم يعرفون نعمة ربهم عليهم فيقدرونها ويقومُون بحق شكرها.

قلت: وأعظم شكر تلك النعم صرفها في طاعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، فإن ذلك خير عمل الجوارح والقلب ، والله سوف يسأل العبد يوم القيامة عن صحته ونعمة العافية . وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : 23] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : 2] .

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ](1) .

الحديث الثاني : أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [اغتنم خمساً قبلَ خمس : حياتك قَبل موتك ، وصحتك قبل سقَمك ، وفراغك قبل شغلِكَ ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك](2) .

الحديث الثالث : أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : [يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتَرْبَعُ ، فكنت تَظُنّ أنك ملاقيَّ يومَك هذا؟] الحديث(3) .

الحديث الرابع : أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : [يقولُ تعالىٰ : من عادىٰ لي ولياً فقد بارزني بالحرب . وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بأفضل من أداء ما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَهُ الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبْصِرُ به ، ويده التي يَبْطِشُ بها ، ورِجْلَهُ التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن دعاني

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6412) ـ كتاب الرّقاق ، باب الصحة والفراغ ، ولا عيش إلا عيش الآخرة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (1088) ـ وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 691) لتفصيل البحث : «نعمة استواء الخلق واكتمال صورته» .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2558) ـ أبواب صفة القيامة ، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978) ، وقد مضىٰ بتمامه .

لأجيبنّه ، ولئن استعاذ بي لأعيذَنَّه ، وما تردَّدْتُ في شيء أنا فاعله تردُّدي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءَتَه ، ولا بُـدَّ له منه][1] .

يعني: إن العبد إذا صدق الله النية والعمل جعل الله جوارحه منساقة لأمر الله ورضاه ، فلا يسمع إلا ما يرضي ربه تعالىٰ ، ولا يبصر إلا ما يحب سبحانه ، وكذلك أعمال سائر جوارحه .

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . قال قتادة: (﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ : أي في كبد السماء) .

وفي التنزيل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: 19] .

قال النسفي: (﴿ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ بقدرته . وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوىٰ الطبيعية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الخلق لا غنىٰ به عن الخالق) .

80 ـ 83. قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: امتنان الله على عباده بنعمة البيوت والسكن والفائدة من جلود الأنعام في ذلك . ونعمة الظلال والجبال والسرابيل وآفاق المنافع من وراء هذا الخلق

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (11/ 292)، (11/ 297) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر فتح الباري (11/ 295) .

والتسخير كذلك. ثم إن أكثر الناس بنعم الله يجحدون، وقليل من عباد الله الذين يشكرون.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية. قال مجاهد: (﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال: تسكنون فيه). وعن ابن عباس: (﴿أَثَٰثًا﴾، قال: يعني بالأثاث: المال). وقال مجاهد: (﴿أَثَٰثًا﴾: متاعاً). وقيل: هو الثياب. وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال مجاهد: (إلى الموت). وقال ابن عباس: (﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإنه يعني: زينة، يقول: ينتفعون به إلى حين). وقال قتادة: (إلى أجل وبلغة).

فالمعنىٰ: والله جعل لكم أيها الناس من الحجر والمدر بيوتاً تسكنون فيها حين إقامتكم في دوركم وبلادكم، وجعل لكم خياماً من الشعر والصوف والوبر والجلد تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم لإقامة متنقلة وأيام محدودة، كما تستفيدون منها لإقامتكم في بلادكم وأمصاركم. قال ابن كثير: (﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾، أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾، أي: الإبل. ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾، أي: المَعْزِ ـ والضمير عائد على الأنعام ـ ﴿أَثَٰثًا﴾، أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب. والصحيح أعمُّ من هذا كلِّه، فإنه يتخذ منه الأثاث والبُسْط والثياب وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالاً وتجارة. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أجل مسمىٰ ووقت معلوم).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾. قال قتادة: (إي والله... من الشجر ومن غيرها). وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ ـ أي حصوناً ومعاقل ومواضع تسكنون فيها، والأكنان: جمع كِنّ[1]. قال الرازي: (الكِنّ: السُّترة. والأكِنّة: الأغطية). قال قتادة: (﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يقول: غيراناً من الجبال يسكن فيها).

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. قال قتادة: (يعني ثياب القطن والكتان والصوف وقمصها). وقوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. وهي الدروع التي تقي الناس في الحرب وما شابهها. قال قتادة: (هي سرابيل من حديد). والمراد دروع الحديد المصفَّح والزَّرَدِ ونحوها مما يرد سلاح العدو أثناء القتال ويصد ضرباته.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. قال قتادة: (هذه السورة

(1) وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. والمراد هنا بيوت السكن في مغاوير وتجاويف الجبال.

تسمّىٰ سورة النِّعَم). قال النسفي: (أي تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾. قال القرطبي: (﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال السدي: (يعني محمداً ﷺ، أي يعرفون نبوته ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ويكذبونه).

2 ـ قال مجاهد: (يريد ما عدّد الله عليهم في هذه السورة من النعم، أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم).

3 ـ قال عَوْنُ بن عبد الله: (هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله).

4 ـ وقال الكلبي: (هو أن رسول الله ﷺ لما عرَّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا: نَعَمْ، هي كلها نِعَم من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا).

5 ـ وقيل: يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها.

6 ـ وقيل: يعرفونها في الشّدة وينكرونها في الرخاء.

7 ـ وقيل: يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم.

8 ـ وقيل: يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم.

قلت: وجميع ما سبق مما يحتمل التأويل، ويتسع له البيان الإلـٰهي والإعجاز القرآني.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ـ قيل المراد جميعهم، وقيل المراد أغلبهم.

84 ـ 88. قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ

يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذير الله عباده اليوم الموعود، يوم يبعث الله فيه الشهود، فلا يؤذن بالاعتذار للذين كفروا، ولا يخفف العذاب عن الذين ظلموا، ولا يلقىٰ الشركاء إلا التكذيب والخزي من الذين أشركوا، ويزيد الله الكافرين الذين كانوا يصدون عن سبيل الله عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾. قال قتادة: (وشاهدها نبيّها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيتركوا الرجوع إلى الدنيا، فينيبوا ويتوبوا، وذلك كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي: إذا عاين المشركون الذين كذّبوا الرسل عذاب جهنم بالدخول إليها فإنهم لا يخفف عنهم عذابها بالعذر الذي يلقونه ولا يُفَتَّرُ عنهم ساعة، ولا يُرجؤون بالعقاب فقد فات وقت التوبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: وإذا أبصر المشركون يوم الحساب أوثانهم وأصنامهم والطواغيت التي كانوا يعبدونها من دون الله تقودهم إلى النار بأمر الله، قالوا ربنا هؤلاء الذين اتخذناهم أرباباً وجعلناهم لك شركاء، فكذبتهم الآلهة بأنها لم تكن آلهة ولا أمرتهم بعبادتها. قال القرطبي: (فيُنطق الله الأصنامَ حتىٰ تظهر عند ذلك فضيحة الكفار. وقيل: المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم).

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ: (مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام. وظنوا أنّ ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالىٰ أو ينقص من عذابهم. فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام) ـ ذكره القاسمي.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5 ـ 6].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 81 ـ 82].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25].

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يَجْمعُ الله الناس يوم القيامة فيقولُ: مَنْ كان يَعْبُدُ شيئاً فليتَّبعْه، فيَتَّبعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الشمسَ الشمسَ، وَيَتَّبعُ مَنْ كان يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ مَنْ كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ..] الحديث[1].

الحديث الثاني: أخرج الدارمي في سننه بسند جيد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادىٰ مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، ويبقىٰ الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: ننتظر إلـٰهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه، فيقعون سجداً، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ويبقىٰ كل منافق، فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7437) ـ كتاب التوحيد، وأخرجه مسلم (182)، وابن حبان (7429)، وأخرجه عبد الرزاق (20856)، وابن أبي عاصم (455) ـ في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارمي في سننه (2/ 326)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (584).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: استسلم المشركون لعذاب الله وخضعوا لِعِزِّه، وزال عنهم ما كان من تزيين الشيطان لهم في شفاعة آلهتهم، وخاب ما كانوا يؤمّلون من ذلك. قال قتادة: (﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يقول: ذلوا واستسلموا يومئذ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾. قال القاسمي: (أي يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26]. وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم. كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38]).

89 ـ 92. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في هذه الآيات: اختصاص الله تعالىٰ نبيّه محمداً ﷺ بالشهادة على الأمم، وبالقرآن المبين الذي يحمل الهدىٰ والرحمة والبشرىٰ للمسلمين أولي الهمم. وأمْرُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين بالعدل والإحسان، وتحذيرهم الفواحش والموبقات والطغيان، وتنبيههم على تعظيم أمر الأَيمان، فإليه يرجع يوم القيامة جميع الأنام.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. تشريف من الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ في اختصاصه برفيع المقام يوم حشر الخلائق،

وجعل شهادته الحكم الفصل على أعمال أمته وتصديقهم له أو تكذيبهم ، وعلىٰ بلاغ الرسل لأممهم.

وفي التنزيل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآيـة أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد والبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فَيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيُدعىٰ قومه ، فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهد لكَ ، فيقول: محمدٌ وأمته ، فيدعىٰ محمدٌ وأمته ، فيُقال لهم: هل بَلّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فَيُقال: وما علمكم بذلـك؟ فيقولـون: جاءنا نبيّنا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا فصدَّقناه ، فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والترمذي في جامعه ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوحٌ وأمَّته ، فيقول الله: هل بلّغت؟ فيقول: نعم أي ربِّ! فيقول لأمته: هل بَلّغكُم؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبيّ ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمّته ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. والوسط: العدل ، فيُدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: [اقرأ عليَّ القرآن ، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سـورة النساء حتىٰ جئت إلى هذه

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 286) ، وأحمد (2/ 32) ، وانظر صحيح الجامع (7889).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 139) ، (6/ 286) ، وأحمد (3/ 32) ، ورواه الترمذي وغيره ، انظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (7890).

الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان][1].

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾. قال مجاهد: (مما أحل وحرّم). أو قال: (ما أمر به، وما نهىٰ عنه). وقال ابن مسعود: (أنزل في هذا القرآن كل علم وكل شيء، فقد بيّن لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية). وقول ابن مسعود أشمل لمعنىٰ الآية، فالقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه العباد من معرفة أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. قال ابن جرير: (﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن صَدَّق به، وعمل بما فيه من حدود الله، وأمره ونهيه، فأحل حلاله، وحرّم حرامه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة، وعظيم كرامته).

وقوله: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾. أَمْرٌ من الله بالقسط، وندب إلى الإحسان، وصلة القرابة والأرحام. وعن ابن عباس: (﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله). وقال سفيان بن عُيينة: (العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كلِّ عاملٍ لله عملاً. والإحسان أن تكون سريرتُه أحسنَ من علانيته. والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسنَ من سريرته).

وفي التنزيل حثٌّ على الإحسان وصلة الأرحام:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ﴾ [الشورىٰ: 40].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: 26].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5050)، وأخرجه مسلم (800)، وأخرجه أحمد (1/ 380).

يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبُدَ الله ولا تشرك به شيئاً ، وتُقيمَ الصلاةَ المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تراه ، فإنه يراك. .] الحديث(1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأبو داود في السنن من حديث أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: [ما من ذنب أجدرُ أن يُعَجَّلَ لصاحبه العقوبةُ مع ما يدخر له ، من البغي وقطيعة الرحم](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يدخل الجنة قاطِع](3). قال سفيان: (يعني قاطع رحم).

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾. أي عن الكبائر والمنكرات والعدوان على الناس. قال ابن عباس: (الفحشاء: الزنا ، والبغي: الكبر والظلم). وعن قتادة ـ في هذه الآية ـ قال: (ليس من خُلُق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به. وليس من خُلُق سَيّءٍ كانوا يتعايَرُونه بينهم إلا نهىٰ الله عنه وقدَّمَ فيه. وإنما نهىٰ عن سفاسف الأخلاق ومَذَامِّها). قال ابن كثير: (فالفواحش: المحرمات. والمنكرات ما ظَهَرَ منها من فاعليها ، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]. وأما البغي فهو العدوان على الناس).

قلت: والبغي عقوبته معجلة في الدنيا قبل الآخرة ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: 71].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 30) ـ كتاب الإيمان ـ وانظر مختصر صحيح مسلم ، باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله. وأخرجه أبو داود في السنن (4695) ، والترمذي (2610) ، والنسائي (8/ 97) من حديث عمر.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (29) ، والترمذي (2511) ، وأخرجه أبو داود (4902) ، وانظر: «صحيح الأدب المفرد» (23) ـ باب عقوبة عُقوق الوالدين.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 347) ، وأخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (2556).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: 18].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَ فإن الشُّحَ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لَيُمْلي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾][2].

وقوله: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: يذكركم أيها الناس ربكم لتذكروا فتنيبوا إلى أمره ونهيه، وتعرفوا الحقّ لأهله).

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴾. أمْرٌ من الله تعالىٰ عباده بالوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكّدة. قال مجاهد: (﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول: بعد تشديدها وتغليظها. ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴾ قال: وكيلاً).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ [المائدة: 1].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: 34].

ومن كنوز السنة في آفاق معنىٰ الآية، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [لكل غادرٍ لواء يوم القيامة، يقال: هذه غَدْرةُ فلان][3].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد مرفوعاً:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2578)، كتاب البر والصلة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 267)، وأخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2583).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (10/ 464)، (12/ 299)، وأخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (1735)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[لكل غادر لواء عند اسْتِه يوم القيامة يُرْفَعُ له بِقَدْرِ غَدْرِه ، ألا ولا غادِرَ أعظمُ غدراً من أمير عامة][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [المسلمون على شُروطهم][2] .

الحديث الرابع: أخرج ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ غَشَّنَا فليس منا ، والمكر والخداعُ في النار][3] .

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾. قال ابن كثير: (تهديد ووعيد لمن نقضَ الأيمانَ بعد توكيدها).

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾. قال السدي: (هي خَرْقَـاءُ بمكة كانت إذا أبرمت غزلها نقضته). وقال قتادة: (فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده). وقال مجاهد: (غزلها: حبلها ، تنقضه بعد إبرامها إياه ، ولا تنتفع به بعد). وقوله: ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ يعني: أنقاضاً. والمقصود نقض العهد. قال ابن جرير: (﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتموه ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ يقول: خديعة وغروراً ليطمئنوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر ، وترك الوفاء بالعهد ، والنُّقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أن غيرهم أكثر عدداً منهم).

وعن ابن عباس: (﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ يقول: أكثر) أو قال: (يقول: ناس أكثر من ناس). قال مجاهد: (كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعزّ ، فينقضون حِلْفَ هؤلاء ، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ منهم ، فنهوا عن ذلك). وعن قتادة: (﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ يقول: خيانة وغدراً بينكم ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أن يكون قوم أعزّ وأكثر من قوم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1738) (16).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (3594) ـ كتاب الأقضية ، باب في الصلح. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3063).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1107) ، والطبراني في «المعجم الصغير» ص (153) ، وفي «المعجم الكبير»(3/ 69/ 1). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1058).

وفي لغة العرب: أربىٰ ـ على وزن أفعل ـ من الربا ، هذا أربىٰ من هذا ، إذا كان أكثر منه.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾. قال سعيد بن جبير: (﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ ﴾ ، يعني بالكثرة). وقال ابن جرير: (أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد). ثم قال: (وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي بكرة مرفوعاً: [ما مِنْ ذَنْبٍ أجدرُ أن يعجل الله تعالىٰ لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند جيد عن أبي بكرة مرفوعاً: [ما مِنْ ذَنْبٍ أجدرُ أن يُعَجِّلَ الله تعالىٰ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا ، مع ما يَدَّخِره له في الآخرة من قطيعة الرحم ، والخيانةِ ، والكذب ، وإنَّ أعجلَ الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتىٰ إن أهلَ البيتِ ليكونوا فَجَرَة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا][2].

الحديث الثالث: أخرج البيهقي في «السنن الكبرىٰ» ـ بسند صحيح في الشواهد ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس شيء أُطيعَ اللهُ فيه أعجلَ ثواباً من صلة الرحم ، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 301 ـ 302) ، وأحمد (5/ 36 ـ 38) ، والترمذي (2/ 83) ، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص 12) ، وأخرجه الحاكم (2/ 356) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني وبعض ألفاظه عند ابن حبان. انظر: «مجمع الزوائد» (8/ 152) ، و«الترغيب» (3/ 228) ـ للمنذري ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 2) (ص 624).

(3) صحيح لشواهده. أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (10/ 35) ، وانظر للرواية بعده «المعجم الأوسط» ـ للطبراني (1/ 155/ 2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (978).

وله شاهد عند الطبراني في «الأوسط» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إن أعجلَ الطاعة ثواباً صلة الرحم، وإن أهل البيت ليكونون فجاراً، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم، إذا وصلوا أرحامهم، وإن أعجل المعصية عقوبة البغي والخيانة، واليمين الغموس يذهب المال، ويثقل في الرحم، ويذر الديار بلاقع].

93 ـ 97. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله قَهْر مشيئته كل مشيئة، فهو ـ تعالىٰ ـ يضل من يشاء ويهدي من يشاء بحكمته، وإليه المرجع للحساب جلّت عظمته. وتحذير منه سبحانه من اتخاذ الأيمان خديعة ومكراً، والشراء بعهده ثمناً قليلاً. وتبشير المؤمنين أهل الأعمال الصالحة الرفيعة، بحياة طيبة في الدنيا والآخرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال النسفي: (﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حنيفة مسلمة ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة فتجزون به).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: 99].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118 ـ 119].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: (حذّر تعالىٰ عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعةً ومَكْراً، لئلا تَزِلَّ قدمٌ بعد ثبوتها، مثل لمن كان على استقامةٍ فحادَ عنها وزَلَّ عن طريق الهدىٰ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأىٰ أن المؤمن قد عاهده ثم غَدَر به لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قال القاسمي: (أي: لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً. وهو ما كانت قريش يَعِدُونهم ويمنونهم، إن ارتدوا ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي من إظهاركم في الدنيا وإثابتكم في الآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي من ذوي العلم والتمييز).

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: كل ما عندكم أيها الناس وإن كَثُرَ لنافد فانٍ، وما عند الله خير وأبقىٰ لمن صبر وعمل صالحاً، وليثيبَنَّ الله الذين صبروا بأجر أحسن أعمالهم. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وليثيبن الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في السّراء والضّراء، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه، بأحسن ما كانوا يعملون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرن الله لهم سيئها بفضله).

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وعْدٌ من الله تعالىٰ للمؤمنين أهل العمل الصالح أن يحييهم ـ سبحانه ـ حياة طيبة في الدنيا وأن يجازيهم بأحسن أعمالهم في الآخرة.

وقد اشتملت أقوال أهل التأويل في هذه الآية على معان كثيرة متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ قال: الحياة الطيبة: الرزق الحلال في

الدنيا). وفي لفظ: (الرزق الحسن في الدنيا). وفي لفظ آخر: (الرزق الطيب في الدنيا). وقال الضحاك: (الرزق الطيب الحلال).

2 ـ قال الحسن البصري: (الحياة الطيبة: القناعة).

3 ـ قال الضحاك: (يقول: من عمل عملاً صالحاً وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة، فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً، عيشته ضنكة لا خير فيها).

4 ـ قال قتادة: (قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، فإن الله لا يشاء عملاً إلا في إخلاص، ويوجب من عمل ذلك في إيمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وهي الجنة). وقال مجاهد: (الآخرة، يحييهم حياة طيبة في الآخرة). وقال الحسن: (ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة).

5 ـ وقيل: المقصود بالحياة الطيبة: السعادة، ذكره ابن عباس.

قلت: والحياة الطيبة تشمل كل ما ذكر وأكثر، وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب عن أبيه عن عمه قال: كنا في مجلس، فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقال له بعضنا[1]: نراك اليوم طيب النفس، فقال: أجل، والحمد لله، ثم أفاض القوم في ذكر الغنىٰ، فقال: [لا بأس بالغنىٰ لمن اتقىٰ، والصحة لمن اتقىٰ خير من الغنىٰ، وطيب النفس من النعيم][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: [قد أفلحَ من أسلم ورزق كَفَافاً، وقَنَّعه الله بما آتاه][3].

وله شاهد عند الترمذي من حديث فضَالة بن عُبيد: أنه سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول:

(1) هو يسار بن عبد الله الجهني رضي الله عنه.

(2) إسناده صحيح. أخرجه أحمد (5/ 272)، (5/ 381)، والحاكم (2/ 3)، وأخرجه ابن ماجة (2141)، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (174).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1054)، والترمذي (2348)، وأحمد (2/ 168)، وابن حبان (67) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

[قد أفلح من هُدِيَ إلى الإسلام ، وكان عيشه كَفَافاً ، وَقَنِعَ به][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يظلم المؤمن حسنةً ، يُعْطَىٰ بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعْطىٰ بها خيراً][2] .

الحديث الرابع: أخرج الحاكم وابن حبان بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: [أربع من السعادة: المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: المرأة السوء ، والجار السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق][3] .

98 ـ 100. قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ عباده بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن ، فإن الشيطان ليس له سلطان على أهل الإيمان ، إنما سلطانه على الذين يتولونه من أهل الشرك والطغيان.

فقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

قال ابن زيد: (فهذا دليل من الله تعالىٰ دلّ عباده عليه). قلت: والأمر بالاستعاذة ـ خارج الصلاة ـ عند تلاوة القرآن هو للوجوب ، كما هو داخل الصلاة لعموم الأمر. قال ابن كثير: (والمعنىٰ في الاستعاذة عند ابتداء القراءة ، لئلا تَلْتَبِسَ على القارئ قراءته ويُخْلَطَ عليه ، ويمنَعه من التدبر والتفكر).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2349) ، وأحمد (6/ 19) ، وصححه ابن حبان (705) ، وكذلك الحاكم (1/ 34 ـ 35) ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالوا.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ، وأحمد (3/ 123) ، (3/ 283) ، وابن حبان (377).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1232) ، وأحمد (1/ 168) ، والحاكم نحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال الثوري: (ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه). وقيل: المعنىٰ: لا حجة له عليهم. وقيل: ليس له تسلط وولاية على المؤمنين. قال النسفي: (فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه). قلت: وكل ما سبق داخل في آفاق مفهوم هذه الآية، فإن صدق الإيمان بالله والتوكل عليه حرز من الشيطان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: 65].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: 39 ـ 40].

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ أحمد في المسند، بسند صحيح، عن سبرة، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد بطريق الإسلام فقال: تُسلِمُ وتذرُ دينك ودينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك... فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتَل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد][1].

الحديث الثاني: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالىٰ: وعزتي وجلالي: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 483)، والنسائي (6/ 21 ـ 22)، وابن حبان (4593) وإسناده لا بأس به. انظر تخريج الترغيب (2/ 173)، وصحيح الجامع (1648).

(2) صحيح لغيره. أخرجه الحاكم (4/ 261)، والبيهقي في «الأسماء» ـ ص (134) ـ بإسناد حسن.

الحديث الثالث: روىٰ مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنّ الشيطان قد أيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ ﴾: حجته. ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ ، قال: يطيعونه). وقال قتادة: (﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ يقول: الذين يطيعونه ويعبدونه). وقال الضحاك: (﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ ـ عدلوا إبليس بربهم ، فإنهم بالله مشركون). وقال مجاهد: (يعدلون بربّ العالمين). وقال الربيع: (أشركوه في أعمالهم). قال ابن كثير: (ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالىٰ. وقال آخرون: معناه أنه شرِكهم في الأموال والأولاد).

قلت: وكل ما سبق داخل في مفهوم الآية ، فإن الشيطان يكتسب سلطانه من خضوع الناس له وطاعتهم لأوامره ووساوسه ، حتى يضعف المطيع له أكثر وأكثر ، وربما يحصل التلبّس والمسّ والصرع والدخول المؤذي وما يرافقه من النفث في العقد والسحر وغير ذلك.

ومن هنا جاءت النصوص الشرعية بمخالفته واتخاذه عدواً فإنه رجيم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 168].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 208].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [النور: 21].

وفي صحيح السنة ـ في آفاق معنىٰ الآية ـ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا قرأ ابن آدم السجدةَ فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول: يا ويله أُمِرَ ابنُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 138). وانظر مختصر صحيح مسلم (1804) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1340) ـ لتفصيل البحث.

آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرْتُ بالسجود فعصيت فليَ النار][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا دخل الرجل بَيْتَهُ ، فَذَكَرَ الله عز وجل عِنْدَ دُخوله وعند طعامِه ، قال الشيطان: لا مَبيتَ لَكُمْ ولا عَشَاء ، وإذا دخلَ فلمْ يذكر اللهَ عند دخوله ، قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لمْ يذكر الله عند طَعامه ، قال: أدركتم المبيتَ والعَشَاء][3] .

101 ـ 105 . **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥ ﴾ .

في هذه الآيات: إثبات ضعف عقول المشركين ، أمام منهج التشريع في القرآن الكريم ، الذي نزل به الروح الأمين ، ليثبت الذين آمنوا وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين ، فهم يقولون إنما يعلمه بشر أعجمي وهذا لسان عربي مبين ، والمشركون محرومون من الهداية ولهم عذاب أليم ، فما يفتري النبي الكذب بل أولئك هم الكاذبون.

فقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ـ يعني رفعناها ونسخناها بغيرها. قال

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (369).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2019) ـ كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2018) ـ كتاب الأشربة ، الباب السابق ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

مجاهد: (نسخناها، بدّلناها، رفعناها، وأثبتنا غيرها). وقال قتادة: (هو كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إن ذلك من فعل الله تعالىٰ بحكمته وعلمه ينسخ ما يشاء من الآيات والأحكام ويثبت ما يشاء. ولكن ضعف عقول المشركين يحملهم على اتهام الرسول ﷺ وأكثرهم جاهلون. قال ابن زيد: (قالوا: إنما أنت مفتر، تأتي بشيء وتنقضه، فتأتي بغيره. قال: وهذا التبديل ناسخ، ولا نبدّل آية مكان آية إلا بنسخ).

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾. أي: نزل به جبريل عليه السلام من عند ربه سبحانه بالصدق والعدل. قال محمد بن كعب: (روح القُدس: جبرئيل).

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. قال ابن كثير: (﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فيُصدِّقوا بما نزل أولاً وثانياً وتُخْبِتَ له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

اتهام للنبي ﷺ بأخذ العلم عن بعض الأعاجم، فكذبهم الله تعالىٰ.

أخرج ابن جرير ـ ورجاله رجال الصحيح ـ عن حُصين ـ وهو ابن عبد الرحمن ـ عن عبد الله بن مسلم الحضرمي: [أنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يُقال لأحدهما يسار، والآخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾][1].

قال ابن جرير: (يقول الله تعالىٰ ذكره مكذّبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون، إن لسان الذي تلحدون إليه، يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمداً أعجميّ.. يقول: وهذا القرآن لسان عربي مبين).

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21938)، ورجاله رجال الصحيح إلا المثنىٰ فيه كلام. قال الحافظ في «الإصابة»: سنده صحيح، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، رواه الحاكم وصححه. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ النحل، (103).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾.

أي: إن الذين لا يؤمنون بهذا القرآن إعراضاً عنه وكبراً أن يفهموه ويُصْغوا إليه قد أقفل الله قلوبهم وتوعدهم بعذاب أليم. إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن بآيات الله عناداً واستكباراً وأولئك هم الكاذبون. قال القرطبي: (قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هذا جواب وصفهم النبي ﷺ بالافتراء. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة في وصفهم بالكذب، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان بن حرب ـ لما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات رسول الله ﷺ ـ قال: [أفكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدَعَ الكذبَ على الناس ويذهبَ فيكذِبَ علىٰ الله، عز وجل][1].

106 ـ 109. **قوله تعالىٰ:** ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استثناء المكره على الكفر من الوقوع في الكفر، ولكن من شرح بالكفر صدراً لزمه تبعات الكفر وله عذاب عظيم. أولئك الذين استحبوا الدنيا على الآخرة والله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم مقابل إصرارهم فأصبحوا خاسرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم (7) ـ كتاب بدء الوحي، عن ابن عباس عنه، في أثناء حديث طويل.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: (فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه، فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أكره فتكلم به لسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو من عدوه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم).

قال ابن جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلىٰ، حدثنا محمد بن ثَور، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجَزرِيّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذّبوه حتىٰ قارَبَهُم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيفَ تَجدُ قَلْبَكَ»؟ قال: مُطْمَئِناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فَعُدْ»)(1).

والثبات على الدين أفضل، وهو أغيظ للمشركين، وأرضىٰ لله سبحانه، فمن لم يستطع فيجوز له أن يُوالي على الكفر ـ عند الإكراه ـ إبقاءً لمهجته. فهذا بلال رضي الله عنه قد ثبت على دينه رغم الأفاعيل التي كانوا يؤذونه فيها، وقد وضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ، ويأبى أن ينطق بكلمة الكفر التي تفرحهم، وكذلك حبيبُ بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيْلَمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حُذافة السهمي أحد الصحابة: (أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى مَلِكهم، فقال له: تَنَصَّر وأنا أشرَكك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميعَ ما تملك وجميعَ ما تملكه العربُ على أن أرجعَ عن دين محمد ﷺ طرفةَ عين ما فعلتُ! فقال: إذن أقتلك. قال: أنت وذاك! قال: فأمرَ به فَصُلِبَ، وأمر الرماة فرَموه قريباً من يديه ورِجْلَيْه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبىٰ، ثم أمر به فأُنزل، ثم أمر بقدر ـ وفي رواية: ببقرة من نحاس ـ فأُحْميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظامٌ تلوحُ. وعَرَض عليه فأبىٰ، فأمر به أن يُلقىٰ فيها، فرفع في البكْرَةِ لِيُلْقَىٰ، فبكىٰ، فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت

---

(1) أخرجه الطبري (21946)، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (1509)، والحاكم (2/ 357) والبيهقي (2/ 208 ـ 209)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شواهد في كتب السير. فالخبر بمجموع طرقه ـ وإن كان بعضها مرسلاً ـ يتقوىٰ، والله تعالىٰ أعلم.

لأن نفسي إنما هي واحدة ، تلقىٰ في هذا القدر الساعةَ في الله ، فأحببتُ أن يكونَ لي بعَددِ كُلِّ شعرة في جسدي نفسٌ تُعذَّبُ هذا العذاب في الله).

وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، ثم قال: (وفي بعض الروايات: أنه سجنه وَمنعَ عنه الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقْرَبه ، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكُلَ؟ قال: أما إنه قد حَلّ لي ، ولكن لم أكن لأشمِّتك فيّ. فقال له الملك: فقَبِّل رأسي وأنا أُطْلِقُكَ. فقال: وتطلق معي جميع أسارىٰ المسلمين؟ قال: نعم ، فقَبَّلَ رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارىٰ المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: حقٌّ على كل مسلم أن يُقَبِّلَ رأس عبد الله بن حُذافة ، وأنا أبدأ. فقام فقَبَّلَ رأسه ، رضي الله عنهما).

وأما الرِّدة عن الإسلام بعد الدخول فيه فيدخل في وعيد الآية ، وهو العذاب العظيم في الآخرة ، نتيجة لغضب الله وسخطه ، إضافة إلى خزي عذاب الدنيا. وفي ذلك أحاديث.

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة: [أن عَلِيّاً رضي الله عنه حَرَّقَ قَوْماً ، فَبَلَغَ ابن عَباس فقال: لوْ كنْتُ أنا لم أُحَرِّقْهُمْ ، لأن النبي ﷺ قال: لا تُعَذِّبُوا بعذاب الله. وَلَقَتَلْتُهُمْ كما قال النبي ﷺ: «من بَدَّلَ دينه فاقتلوه»][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي بُردَة عن أبي موسىٰ ـ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ثم أَتْبَعَهُ معاذَ بن جبل ـ: [فلما قدِمَ عليه ألقىٰ له وسَادَةً قال: انْزِلْ ، فإذا رجلٌ عِنْدَهُ مُوثَقٌ ، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلمَ ثم تَهَوَّد ، قال: اجْلِسْ ، قال: لا أجلِسُ حتىٰ يُقْتَلَ ، قَضاءُ الله ورسوله ، ثلاثَ مرات ، فأمَرَ به فَقُتِلَ . .] الحديث[2].

ورواه أحمد عن أبي بُرْدة بلفظ: [قدِمَ على أبي موسىٰ معاذُ بن جبل باليمن ، فإذا رجُلٌ عِنده ، قال: ما هذا؟ قال: رجُلٌ كان يهودياً فأسلم ثم تهوَّد ، ونحن نريده على الإسلام مُنْذُ ـ قال: أحسبه ـ شهرين ، فقال: والله لا أقعد حتىٰ تضربوا عنقه. فَضُرِبَت

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3017) ـ كتاب الجهاد والسير. باب: لا يُعَذَّبُ بعذاب الله. وأخرجه البخاري أيضاً (6922) ، وأبو داود (4351) ، والترمذي (1458) ، وأحمد (1/ 217).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6923) ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. باب: حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم.

عنقه ، فقال: قضىٰ الله ورسوله أن من رَجَعَ عن دينه فاقتلوه. أو قال: «مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فاقتُلوه»][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: حلّ بهؤلاء المشركين غضب الله ، ووجب لهم العذاب العظيم ، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة ، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها).

وقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾. قال القاسمي: (إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أي طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أي إيثاراً لها على الآخرة الباقية ، فذاك الذي له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً. وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً. وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً. ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها. فلم ينفتح لهم طريق الفهم. وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنىٰ المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب. فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور. ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع. وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه. وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب. و جليٌّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات. فكيف بها كلها!).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: لا بد ولا عجبَ أن هؤلاء في صنيعهم وإصرارهم على الكفر سيلقون الخسارة في أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

قال الرازي: (ومعلوم أنه تعالىٰ إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة. فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه. فلهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الذين ضاعت دنياهم التي استنفدوا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 231) وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البخاري (6923) ، ومسلم (1733) ح (15) ، وأحمد (4/ 140) عن أبي بردة مطولاً.

في تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا في طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة في شيء إلا في وبال التحسرات).

110. قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

في هذه الآية: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن بعض المستضعفين بمكة الذين واتَوْا المشركين على الفتنة ، ثم تمكنوا من الهجرة والتخلص من مستنقع الجاهلية والفتن ، تاركين بلادهم وأموالهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله ومغفرته ، فأولئك يَحْظون بمغفرة الله وعفوه بعد تعديل الوقوع السابق بالهجرة والصبر والجهاد.

أخرج ابن جرير ورجاله ثقات عن ابن عباس قال: [كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، وقُتِلَ بعض ، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا فاستَغْفِروا لهم ، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97]... إلى آخر الآية ، قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم ، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون ، فأعطوهم الفتنة ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10].. إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجاً ، فخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، ثم نجا من نجا ، وقُتِلَ من قُتِل][1].

111. قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله سبحانه عن طبيعة مخاصمة النفوس يوم القيامة

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21953). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك هو ثقة. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ النحل ، آية (110).

واعتذارها بشتىٰ الوسائل عما صدر من أصحابها من أعمال ، ثم يفصل الله تعالىٰ بإعطائه جزاء عملها وافياً.

قال النسفي : (فالنفس الأولىٰ هي الجملة والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره ، كُلٌّ يقول نفسي نفسي ، ومعنىٰ المجادلة عنها الاعتذار عنها ، كقولهم : هؤلاء أضلونا ، ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، الآية ، والله ربنا ما كنا مشركين).

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربَّه يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول : بلىٰ . فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فَيُخْتَم على فيه ، ويقال لأركانه انطُقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخَلّىٰ بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل][1] .

112 ـ 113 . **قوله تعالىٰ : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .**

في هذه الآيات : سنة الله في القرىٰ الظالم أهلها الشائع فيها الكفر والفواحش والآثام ، يذيقها الله الخوف والجوع بعد الإنعام والأمان ، وما ظلمهم الله بل أرسل إليهم رسوله فكذبوه فأذاقهم عقوبة أهل المكر والإجرام.

وقد ذكر ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المقصود بالقرية التي كانت آمنة مكة . فقد امتن الله تعالىٰ على أهلها بنعمة الأمن والاستقرار ، والناس يتخطفون من حولها ويلوذون بالفرار . وكان رزقها يأتي أهلها هنيئاً سهلاً من كل البقاع والأرجاء ، فلما

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (1933) . وقوله : أناضل ـ أي أجادل وأدافع وأخاصم .

جحدت نعمة الله عليها وأخصّها بعثة محمد ﷺ بدّلها الله خلاف حالها ، وأذاق أهلها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

ففي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : 28 ـ 29].

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57].

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء : 58].

قال قتادة : (قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ ، إما أن يهلكها بموت وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره وكذبوا رسله).

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق معنىٰ الآية أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قرية ، فقد أَحَلُّوا بأنفسهم عذابَ الله][1].

الحديث الثاني : أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظَهَرَ السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته][2].

الحديث الثالث : أخرج أبو داود بسند حسن عن العرس بن عميرة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا عملتِ الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة : أَنْكرها ـ كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فَرَضِيَها ، كان كمن شهدها][3]. ثم روىٰ في الباب عن

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (692).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 41) ، والحاكم (4/ 523) ، والبيهقي (2/ 441/ 2) ـ شعب الإيمان ـ وأخرجه أحمد كذلك (6/ 294) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372).

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4345) ـ كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3651) ـ (3652).

رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ قال: [لَنْ يهلكَ الناس حتىٰ يَعْذِروا ، أو يُعْذِروا ، من أنفسهم][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾. قال القرطبي: (هذا يدل على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها).

ومن ذلك العذاب: أنهم لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، دعا عليهم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كلَّ شيء لهم ، فأكلوا العِلْهِزَ ، وهو: وَبَرُ البعير ، يُجْعَلُ بِدَمِهِ إذا نحروه. ثم إنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه ـ كما ذكر ابن كثير رحمه الله ـ حين هاجروا إلى المدينة ، مِنْ سَطْوَةِ سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل مالهم في سَفَالٍ ودمار ، حتىٰ فتحها الله على رسوله ﷺ. وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164] ، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: 10 ـ 11]. وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 151 ـ 152]. ثم قال: (وكما أنه انعكس على الكافرين حالُهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرَّغَد ، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمْناً ، ورَزَقَهم بعد العَيْلَة ، وجعلهم أمراءَ الناس وحُكَّامهم وقادتهم وسادتهم وأئمتهم).

وعن قتادة: (﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ إي والله ، يعرفون نسبه وأمره ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ، فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل).

114 ـ 117. قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4347) ـ الباب السابق. وانظر صحيح أبي داود ـ حديث رقم ـ (3653).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تقريب الله تعالىٰ لعباده الحلال الطيب وتحبيبهم شكره، وتحريمه ـ تعالىٰ ـ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله مما يوجب سخطه، وكذلك الافتراء على أمره بالتحليل والتحريم الذي يوجب عقابه.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. أَمْرٌ من الله سبحانه عباده بتخيّر الحلال الطيب من الرزق واجتناب الخبيث الحرام من الأموال والطعام، والتماس شكره على نعمه تعالىٰ، فهو المنعم المتفضل الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. قال النسفي: (﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: بدلاً عما كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب).

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فَحَمِدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمدُ أفضلَ من تلك النعمة][1].

وله شاهد عند ابن ماجة بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالىٰ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][2].

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ الآية. هو تحريم الله تعالىٰ ما فيه مضرّة في الدين والدنيا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله من ذبائح الجاهلية. قال قتادة: (إن الإسلام دين يطهره الله من كلّ سوء، وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطررت إلى شيء من ذلك. قوله: ﴿فَمَنِ

(1) حديث حسن. رواه الطبراني من حديث أبي أمامة، وابن السني من حديث أنس بن مالك. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5438).

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3805) ـ كتاب الأدب ـ باب فضل الحامدين. وصحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3067).

﴿ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ غير باغ في أكله ولا عاد أن يتعدىٰ حلالاً إلى حرام ، وهو يجد عنه مندوحة). وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة ، رحيم به أن يعاقبه عليه).

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ . قال ابن كثير: (نهىٰ تعالىٰ عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلوا وحرَّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوه عليه من الأسماء بآرائهم ، من البحِيرة والسائِبة والوصيلةِ والحام ، وغير ذلك مما كان شَرْعاً لهم ابتدعوه في جاهليّتهم. ثم قال: ويدخل في هذا كلُّ مُبْتَدِع ابتدع بِدْعةً ليس له فيها مستند شرعي ، أو حَلَّلَ شيئاً مما حرّمَ الله ، أو حَرَّمَ شيئاً مما أباح الله ، بمجرَّدِ رأيه وتشهِّيه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ . توعد أكيد ، وتهديد شديد ، لأولئك الذين يشرعون بأهوائهم متجاوزين حدود الله وشرعه وهدي رسوله ، متاع زائل في الدنيا ، وعذاب أليم في الآخرة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: 69 ـ 70].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: 24].

ومن صحيح كنوز السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوتُه واشتدَّ غضبُه ، حتىٰ كأنه منذرُ جيش يقول: صَبَّحكم ومسَّاكم. ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين. ويقرن بين أصبعيه ، السبابة والوسطىٰ ، ويقول: أما بعدُ ، فإن خيرَ الحديث كتاب الله وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكُلَّ بدعة ضلالة][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (867) ـ كتاب الجمعة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/ 211) ـ كتاب الصلح. وأخرجه مسلم (1718) ـ كتاب الأقضية ، من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]. فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم! قال: أليس يُحلّون لكم ما حرّم الله فتحلّونه، ويحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه؟ قال: بلىٰ. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم][(1)].

118 ـ 119. قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٩ ﴾.

في هذه الآيات: استحقاق اليهود التضييق من الله عليهم بما كسبت أيديهم، وفتحه ـ تعالىٰ ـ باب التوبة والإنابة للراجعين إليه الراجين رحمته ليعفو عنهم ويتوب عليهم، والله غفور رحيم.

فقوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾. قال الحسن: (في سورة الأنعام). والمقصود قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: 146].

وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. أي: إنما استحقوا ذلك التضييق بما كسبت أيديهم، فإن الله لا يظلم أحداً من خلقه، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: 160].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: وأما الذين عصوا الله فجهلوا وركبوا المعصية والآثام، وما يسخط الرحمن، ثم راجعوا طاعة الله وندموا على ما فاتهم واستغفروا وتابوا، وأصلحوا فباشروا عمل

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي (3094) ـ في التفسير، ويتقوىٰ بما أخرجه الطبري (16634) عن حذيفة مرفوعاً. وانظر: «فتح المجيد» (107)، وكذلك كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 447) ـ لتفصيل مفهوم النهي عن التحاكم لغير الله.

ما يحبه الله ويرضاه، فإن ربك ـ يا محمد ـ من بعد إقبالهم تائبين نادمين ـ لغفور رحيم.

قلت: وهذا باب عظيم فتحه الله سبحانه تشرق به قلوب التائهين الذين أسرفوا على أنفسهم.

ففـي التنزيـل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].

وفي كنوز السنة المطهرة من آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [للهُ أَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِه مِنْ أحدكم سقطَ على بعيره وقد أَضَلَّهُ في أرض فلاة][1].

وفي لفظ لمسلم: [للهُ أَشدُّ فرحاً بتوبةِ عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامُه وشرابُه فأيسَ مِنْها، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظِلِّها، وقد أيسَ من راحلتِهِ، فبينما هو كذلك إذا هو بها، قائمة عِنْدهُ، فأخذ بِخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدّة الفرح].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ يَبْسُطُ يَدهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلعَ الشمس من مَغْرِبها][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله عز وجل يقبل توبة العبدِ ما لم يُغَرْغِر][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 91 ـ 92)، ومسلم ـ حديث رقم ـ (2747).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2759).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3537)، وأخرجه أحمد (6160) (6400)، وأخرجه الحاكم (4/ 257)، وصححه ابن حبان (2449)، وأخرجه ابن ماجة (4253)، وغيرهم.

120 ـ 123. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالىٰ على خليله إبراهيم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد كان حنيفاً قانتاً لله ولم يك من المشركين، بل كان على هدىٰ الله المستقيم وإماماً من الشاكرين، فرفع الله ذكره في الأرض وإنه في الآخرة لمن الصالحين، وأوحىٰ إلى نبينا محمد ﷺ اتباع ملته وإحياء منهاجه في نبذ الشرك وإحياء أصول هذا الدين.

فقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ ـ فيه آفاق كثيرة:

فالأمة: هي الجماعة من الناس والقرن منهم، كما أن العرب تطلقها أيضاً على الدين، والطريقة، والشرعة، والجماعة أرسل إليهم رسول، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان.

وأمُّ كل شيء أصله، ومنه سميت مكة أم القرىٰ لأنها توسطت الأرض. قال ابن منظور في «لسان العرب»: (والأمة الرجل الذي لا نظير له، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾). وقال القرطبي: (والأمة الجماعة، وتكون واحداً إذا كان يقتدىٰ به في الخير، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾).

والقانت: هو الخاشع المطيع، ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله).

وقال الشَّعبي: حدثني فروَةُ بن نوفل الأشجعي قال: (قال ابنُ مسعود: إن مُعاذاً كان أمةً قانتاً لله حنيفاً. فقلت في نفسي: غَلِط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: تَدْري ما الأمة؟ وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال:

الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيعُ لله ورسوله. وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله).

وقال مجاهد: (كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفّار).

وقوله: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. الحنيف: المُنْحَرِفُ قَصْداً عن الشرك إلى التوحيد. قال ابن جرير: (وهذا إعلامٌ من الله تعالىٰ أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء، وأنهم منه برآء).

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾. أي: قائماً بمقتضىٰ نعم الله عليه من الشكر والإخلاص في العبادة. كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: 37].

وقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾. أي: اصطفاه للنبوة، واختاره للخُلّة.

وقوله: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أي: أرشده إلى الدين الحق ـ دين الإسلام ـ ليعبد ربه على شرع قويم ومنهاج سليم، بعيداً عن الشبهات والشهوات والأهواء التي انخرط بها أكثر الناس، من أهل الكتاب وغيرهم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾. قال مجاهد: (لسان صدق). وقال قتادة: (فليس من أهل دين إلا يتولاه ويرضاه). قال ابن كثير: (أي: جَمَعْنا له خَيْرَ الدنيا من جميع ما يحتاجُ المؤمن إليه من إكمال حياته الطيبة).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. قال النسفي: (لمن أهل الجنة). وقال ابن جرير: (يقول: وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة لمن صلح أمره وشأنه عند الله، وحسُنت فيها منزلته وكرامته).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

دليل على كمال دين إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصحة منهجه، واستقامة مِلّته وتوحيده. فإن الله تعالىٰ جعله أسوة في سلامة الدين وصحة المنهج، حتىٰ أوحىٰ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بالتزام ذلك الصراط المستقيم.

وفي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161].

حنيفاً: أي مسلماً على الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، متبرئاً

ـ يا محمد ـ من الأوثان والأنداد والطواغيت التي يعكف عليها قومك ، كما تبرأ من قبل منها أبوك إبراهيم .

124. قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

في هذه الآية : كان اليهود قد فُرِض عليهم الجمعة يوم عيد يجتمعون فيه للعبادة شأن بقية الأمم ، فاختلفوا في تخصيص هذا اليوم واختاروا السبت بدلاً منه ، فأضلهم الله عنه . وإنما الفصل يوم القيامة عند ربهم في كل ما كانوا فيه يختلفون .

فعن مجاهد : (﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ اتبعوه وتركوا الجمعة) . قلت : وقد أضل الله هذا العيد عن أهل الكتابين ، فاختار اليهود يوم السبت ، واختار النصارىٰ يوم الأحد ، وخبأ الله هديته ـ يوم الجمعة ـ لأمة محمد ﷺ ليكون عيداً لهم . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وحُذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : [أضَلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يومُ السبت ، وكان للنصارىٰ يومُ الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا اللهُ ليوم الجُمعة ، فجعلَ الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبَعُ لنا يوم القيامة ، نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوّلون يومَ القيامة ، المقضيُّ بينهم قبل الخلائق][1] .

وفي رواية : [هُدينا إلى الجمعة وأضَلَّ الله عنها مَنْ كان قَبْلنا] .

الحديث الثاني : روىٰ مسلم ـ كذلك ـ في صحيحه عن همّام بن مُنبِّه أخي وهب بن مُنبِّه قال : هذا ما حدّثنا أبو هريرة ، عن مُحَمّدٍ رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : [نحنُ الآخِرون السابقون يومَ القيامة ، بَيْـدَ أنهم أوتوا الكتاب مِنْ قَبْلِنا وَأُوتيناه مِنْ بَعْدِهم ، وهذا يومُهُم الذي فُرِضَ عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فَهم لنا فيه تَبَعٌ ، فاليهودُ غداً ، والنصارىٰ بعد غدٍ][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (856) ـ كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (855) (21) ـ من حديث أبي هريرة ـ كتاب الجمعة ، الباب السابق .

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه والنسائي في سننه ، واللفظ لمسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [نحنُ الآخِرون الأوّلون يومَ القيامة ، ونحن أوَّلُ من يَدْخُلُ الجنة ، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهُ من بَعْدِهم ، فاختلفوا ، فَهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، هدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليومُ لنا ، وغداً لليهود ، وبعد غدٍ للنصارىٰ][1].

قال ابن كثير: (لا شك أن الله تعالىٰ شرع في كل مِلّة يوماً من الأسبوع ، يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرعَ تعالىٰ لهذه الأمة يوم الجُمعة ، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالىٰ شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسىٰ ، فَعَدَلوا عنه واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الربّ شيئاً من المخلوقات التي كمل خَلْقُها يوم الجمعة. فألزمهم تعالىٰ به في شريعة التوراة).

وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

قال النسفي: (روي أن موسىٰ عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة ، وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه ، وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم في السبت ، لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك ، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله).

125 ـ 128. قوله تعالىٰ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (855) (20) ـ كتاب الجمعة ـ الباب السابق ، من حديث أبي هريرة ، وأخرجه النسائي (1365).

لِلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ اللهِ نبيَّه ـ وهو أمْرٌ لأمته ـ بالتماس طريق الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالشاكرين. ودعوة إلى العدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، والصبر خير للصابرين. ولا يحيق المكر إلا بأهله الماكرين، والله تعالىٰ في عون المتقين المحسنين.

فقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾.

أي: التمس ـ يا محمد ـ في دعوتك الخلق إلى الكتاب والسنة واللطف واللين، والرفق والتيسير، واجتنب العنف والتعسير.

قال ابن جرير: (﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة). وقال ابن كثير: (﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالىٰ. ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدالٍ، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب).

قال القرطبي: (أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحّدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين).

وفي التنزيـل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: يروي الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ على كلِّ هين لين قريب سهل][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2620) ـ أبواب صفة القيامة. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2022).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن سرجس ، عن النبي ﷺ قال: [التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة][1].

الحديث الثالث: أخرج العقيلي بسند حسن عن ابن أبي مليكة عن عائشة مرفوعاً: [يا عائشة: إياك والفحشَ ، إياك والفحشَ ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء][2].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال: [إنه من أُعْطي حظَّهُ من الرفق فقد أُعطي حظّهُ من خير الدنيا والآخرة ، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار ، يعمران الديار ، ويزيدان في الأعمار][3].

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد في المسند عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [المؤمن يألف ، ولا خيرَ فيمن لا يألف ولا يؤلف][4] وسنده صحيح.

ورواه الطبراني عن جابر بلفظ: [المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: قد عَلِمَ الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغَ منه ، فادعهم إلى الله ، ولا تَذْهَب نفسك على من ضَلَّ منهم حَسَراتٍ ، فإنه ليس عليك هداهم ، إنما أنت نذير ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] ، و﴿ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: 272]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾. دعوة إلى العدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق ، وأجر

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في معجمه ، وعبد بن حميد في مسنده. انظر تخريج المشكاة (5059) ، وصحيح الجامع (3007).

(2) رواه العقيلي (259) ـ من حديث ابن أبي مليكة. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (537).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 159) ، وبنحوه الترمذي (1/ 362) ، وقال: حديث حسن صحيح. وانظر المرجع السابق ـ حديث رقم ـ (519).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 335) ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (10/ 273): رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد. وأورده كذلك في «المجمع» (8/ 87) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (426).

الصبر عند الله عظيم. قال ابن سيرين: (﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ يقول: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله). وقال مجاهد: (لا تعتدوا).

أخرج أحمد والترمذي وابن حبان بسند صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة، فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾. فقال رجل لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: كفوا عن القوم إلا أربعة][1].

قال النسفي: (﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ ـ أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لأنهم صابرون على الشدائد).

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. تثبيت للأمر بالصبر وتوكيد له، وإعلام أنه كائن بمشيئة الله وعونه وتوفيقه.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نَفِدَ ما عِنْدَه، فقال لهم حين أنفق كُلَّ شيء بيده: ما يَكُنْ عِنْدي من خَيْرٍ فلن أَدَّخِرَهُ عنكم، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله. وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصَّبْر][2].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. أي: لا تحزن على هؤلاء المكذبين لك ولنبوتك ـ يا محمد ـ. وقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة. ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: مما يحتالون بالخدع في الصدّ عن سبيل الله، ومن أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 135)، والترمذي في الجامع (3129)، والبيهقي في «الدلائل» (3/ 289)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة النحل، آية (126). وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3/ 265)، (11/ 260)، وأخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1053)، من حديث أبي سعيد الخدري.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

قال الحسن: (اتقوا الله فيما حرّم عليهم، وأحسنوا فيما افترض عليهم).

فالذين اتقوا الله وخافوه حق مخافته، فاجتنبوا الفواحش والكبائر، وأقبلوا على طاعته حتىٰ بلغوا مرتبة الإحسان، قابلهم ربهم سبحانه بمعية خاصة بهم، فكان النصر والتوفيق والمعونة والبر والفضل والتأييد.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: 46].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: 40].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله تعالىٰ قال: مَنْ عادىٰ لي وَلِيّاً فقد آذنته بالحَرْب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افترضْتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبْصِر به، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، وإن سألني أعطيتُهُ، ولئنْ استعاذني لأعيذَنَّهُ][1].

ومن أقوال أهل العلم في المعية:

1 ـ قال الإمام **مالك**: (الله في السماء، وعلمه في كل مكان)[2].

2 ـ وقال الإمام أحمد ـ وقد قيل له: الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان! ـ قال: (نعم، هو على عرشه، ولا يخلو شيء من علمه)[3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (11/ 292)، وكذلك (11/ 297).

(2) رواه أبو داود في المسائل، وعبد الله بن أحمد في السنة. انظر «مختصر العلو» ـ الذهبي ـ ص (140).

(3) ذكره الذهبي عن يوسف بن موسىٰ القطان: ثقة من شيوخ البخاري ـ مات 253 هـ. ورواه ابن القيم في «الجيوش» ص (77). وانظر المرجع السابق.

3 ـ وقال نعيم بن حماد: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: معناه أنه لا يخفىٰ عليه خافية، بعلمه)[1].

والخلاصة: إن الله تعالىٰ مع المتقين المحسنين بعونه وتأييده وتوفيقه ونصره، ومن وصل إلى هذه المرتبة فهنيئاً له ما بلغ إليه، نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من أهل معيته وينصرنا على أهل عداوته، إن رحمته قريب من المحسنين.

تم تفسير سورة النحل
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) إسناده صحيح. ذكره الذهبي عن محمد بن مخلد العطار، عن الرمادي. انظر: «مختصر العلو» ص (184).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ المؤمن يبادر بإقامة منهج الإيمان ، قبل حلول يوم المفاجأة والندامة والخسران.

2 ـ امتنان الله تعالىٰ على عباده بوفير النعم ، والرسل من أكبر تلك النعم.

3 ـ النهي عن أكل لحوم الحمير والبغال ، والإذن في أكل لحوم الخيل.

4 ـ المضلون والمبتدعون يحملون أوزارهم يوم القيامة وأوزار من أضلوهم.

5 ـ المتقون ينعمون بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، والمشركون تعساء مثقلون في الدنيا والآخرة.

6 ـ لا حجة بالمشيئة الكونية ، إذا كانت تتعلق بالمشيئة الشرعية.

7 ـ كل ذي ظل ، ساجد بظله لله تعالىٰ.

ـ «السَّكر» : ما حرم من التمر والعنب ، «والرزق الحسن» ما أحل منهما.

9 ـ العسل فيه شفاء للناس. صدق الله ، وكذب بطن أخيك. . . اذهب فاسقه عسلاً.

10 ـ ما دُمْتَ أبيت إشراكك مملوكك بمالك ، فالله أحق منك بذلك.

11 ـ أيخلقك سبحانه وتعبد غيره؟! ويرزقك وتشكر سواه؟!.

12 ـ إن الله يحب معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها ومذامّها.

13 ـ الوفاء بالعهود والمواثيق حق ، وكذلك المحافظة على الأيمان.

14 ـ العهد حال الضعف لا يبرر الغدر حال القوة.

15 ـ اتهام المشركين للرسول بالافتراء عند نسخ الأحكام دليل سخف عقولهم.

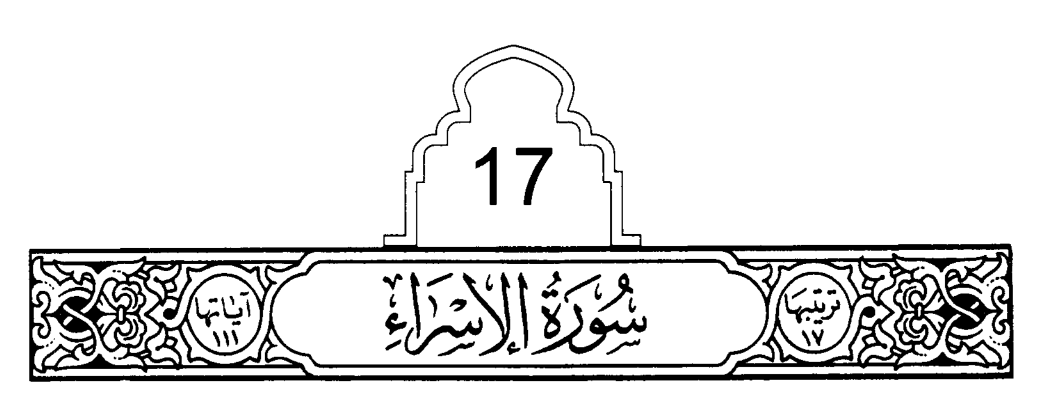
16 ـ كيف يتعلم الرسول القرآن العربي من أعجمي لا يعرف العربية.

17 ـ الكفر باللسان عند الإكراه عذر ، والثبات على الحق أفضل. ومن كَفَرَ بالرسالة حقيقة بدّل الله أمنَهُ خوفاً ورغَده جوعاً.

18 ـ لاعبرة بالأكثرية المبطلة ، فإن إبراهيم كان أمة وحده.

19 ـ الجمعة يوم عيد للمسلمين ، أضلَّ الله عنه اليهود إلى السبت ، وهدانا الله إليه.

20 ـ الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمعاقبة بمثلها والصفح خير ، ومعية الله للمحسنين المتقين بصفاته لا بذاته.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (111)

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن يزيد قال : سمعت ابنَ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال في بني إسرائيل ، والكَهْف ، ومَرْيم : [إنَّهُنَ مِنَ العِتاقِ الأُوَلِ ، وَهُنَّ مِن تِلادي](1) .

المقصود هنَّ من أحبِّ السور إليه ، ومن الكنوز الأولىٰ التي تعلمها من القرآن .

الحديث الثاني : أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول : [كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يُفْطِرَ ، ويُفْطِرُ حتى نقولَ : ما يُريد أن يصومَ ، وكان يقرأ كلَّ ليلة : «بني إسرائيل» ، و«الزُّمَر»](2) .

---

(1) موقوف صحيح . أخرجه البخاري (4994) . والعتاق : هو كل ما بلغ الغاية في الجودة . وجاء في اللسان : «وهن من تلادي» يعني السورة ، أي من قديم ما أخذت من القرآن ، شبههن بتلاد المال . وهو : المال القديم الأصلي الذي وُلِـدَ عندك .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد (6/ 68)، (6/ 122)، والترمذي (2920)، (3405)، وأخرجه الحاكم (2/ 434)، وإسناده حسن ، رجاله ثقات .

موضوع السورة

رحلة الإسراء والمعراج ووحدة منهج المرسلين ، والإيمان بالغيب وامتثال أوامر الله هو منهاج النجاة للمؤمنين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تمجيد الله تعالىٰ وإثبات حادثة الإسراء ، ورؤية الآيات العجيبة من الله السميع البصير.

2 ـ عَطْف الله تعالىٰ بذكر موسىٰ عليه الصلاة والسلام بعد ذكر محمد ﷺ وقد آتاه الله التوراة ـ كما آتىٰ نبينا القرآن ـ ، وجعله هدىً لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دون الله نصيراً ولا معبوداً.

3 ـ تنبيه الذرية على المنة في نجاة أبيهم نوح والمؤمنين ، والوعيد لبني إسرائيل بالخزي إن سلكوا سبيل المفسدين.

4 ـ ثناء الله تعالىٰ على القرآن ، الذي يحمل الهداية لجميع الأنام ، والنذارة للطغاة اللئام.

5 ـ امتنان الله تعالىٰ على عباده بنعمة تعاقب الليل والنهار ، وذكر الصحف التي توزع يوم القيامة على العباد وقد حوت جميع الأعمال الكبار والصغار.

6 ـ تأكيد عودة نفع الهداية على صاحبه ، وعودة ضرر الضلال على مبتغيه ، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ولا يعذب الله قوماً حتىٰ يبعث لهم رسولاً.

7 ـ الإصرار على الفسوق عقابه الدمار ، وتاريخ الأمم شاهد بذلك.

8 ـ إمداد الله أهل الدنيا وأهل الآخرة ، وتفضيل الدرجات في حياة الفريقين ، والآخرة أعظم تفضيلاً ، والشرك يقعد صاحبه مذموماً مخذولاً.

9 ـ أمْرُ الله تعالىٰ بإفراده بالعبادة والتعظيم ، وخفض الجناح والإحسان للوالدين.

10 ـ أمْرُ الله تعالىٰ بإعطاء ذي القرابة والمساكين ، والاجتناب للتبذير وسبل الشياطين.

11 ـ الوصية بالاقتصاد في العيش ، والتحذير من البخل وقتل الأولاد خشية الفقر ، والترهيب من الفواحش والغش والكبر والعجب والقول على الله بغير علم.

12 ـ مكارم الأخلاق من وحي الله ، والشرك أعظم الذنوب عند الله.

13 ـ ختم الله على قلوب وأسماع المشركين ، وتحديهم بالبعث بعد الموت ولو كانوا حجارة أو حديداً ، وهنالك يظنون أنهم ما لبثوا في غرور الدنيا إلا قليلاً.

14 ـ أمْرُ الله عباده اختيار أحسن الكلام ، وتفضيله تعالىٰ بعض النبيين على بعض ، وإسلام فئة من الجن وما زال بعض الإنس يعبدونهم ، وعذاب الله محيط بالكافرين.

15 ـ قضاء الله تعالىٰ إهلاك الظالمين ، وحثّه تعالىٰ نبيّه على إبلاغ رسالته للعالمين ، وقد أراه ليلة الإسراء عجائب قدرته ، وشجرة الزقوم طعام الآثمين.

16 ـ خبرُ سجود الملائكة لآدم ، وامتنان إبليس ، وتوعده إغواء الذرية ، وتعهد الله إدخاله وأتباعه جهنم ، وحماية الله المؤمنين منه والله ولي المتوكلين.

17 ـ امتنان الله تعالىٰ على عباده تسخيره لهم الفلك في البحر ، وتَقَلُّب سلوك أكثر الناس بين الشدة والرخاء ، وتكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير من خلقه تفضيلاً.

18 ـ توزيع الناس خلف أئمتهم وآلهتهم يوم الحشر ، وأصحاب اليمين هم أهل السعادة.

19 ـ تَوَعُّدُ الله أعداء نبيّه إبطال محاولات مكرهم ، وتبشيره تعالىٰ رسوله ﷺ إعلاء كلمة الحق وشوكة أهله ، وإزهاق الباطل وحزبه ، فإن الباطل كان زهوقاً.

20 ـ في القرآن رحمة وشفاء للمؤمنين ، وخسارة للظالمين ، والإنسان يستكبر عند حصول النعم ، ويجزع عند نزول الألم ، إلا من رحم الله.

21 ـ كل إنسان يعمل على وجهته وطريقته ، والروح من أمر الله ، وهو العليم الحكيم.

22 ـ فضل الله على نبيّه بهذا الوحي الكريم ، وعجز الثقلين لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، والله يصرف الآيات وأكثرهم لا يؤمنون.

23 ـ تنطّع المشركين في أمر الإيمان ومطالبتهم بالمعجزات ، وامتناعهم عن الإيمان لكون الرسول من البشر ، وأمر الهداية لله ، ونار جهنم مثوىٰ للمتكبرين.

24 ـ بُخْل المشركين ، وكفر فرعون وإغراقه وجنده ، واستخلاف بني إسرائيل.

25 ـ ثناء الله تعالىٰ على القرآن ، وعلى مهمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى أهل العلم الذين يخرون سجداً عند سماع آيات الرحمان.

26 ـ إثبات الأسماء الحسنىٰ لله ولو كره الكافرون ، وحثُّ الله نبيّه على التوسط في رفع الصوت بالقرآن لئلا يناله المشركون ، وخَتْم السورة بتنزيهه تعالىٰ عما يصفه به المبطلون.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1. **قوله تعالىٰ:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

في هذه الآية: تمجيد الله تعالىٰ، وإثبات حادثة الإسراء، ومباركة الله جوانب المسجد الأقصىٰ، ورؤية الآيات العجيبة في آفاق تلك الرحلة المدهشة، تثبيتاً لنبينا محمد ﷺ من الله السميع البصير.

فقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ـ تمجيد الله تعالىٰ نفسه عما لا يقدر عليه أحد سواه. فقد أسرىٰ بعبده محمد ﷺ في جُنح الليل من مسجد مكة إلى بيت المقدس. وهو قوله: ﴿لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. قال ابن كثير: (وهو بيت المقدس الذي بإيلياءَ، مَعْدِن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ولهذا جُمعُوا له هنالك كلُّهم، فأمَّهُم في مَحِلَّتهم ودارهم، فَدَلَّ على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدَّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين). قال النسفي: (﴿لَيْلًا﴾: نُصب على الظرف، وقيده بالليل، والإسراء لا يكون إلا بالليل للتأكيد، أو ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرىٰ به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾. أي جوانبه ببركات الدين والدنيا. قال القاسمي: (لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمىٰ الزروع والثمار. فاكتنفته البركة الإلٰهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالىٰ. والمساجد بيوت الله. ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً).

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. أي لنري محمداً ﷺ من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤية آفاق مثيرة مدهشة من ملكوت الله في أرجاء هذا الكون الفسيح.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. أي: السميع لما يقوله المشركون بمكة معترضين على الرحلة النبوية المباركة، ولما يقوله عباده جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، البصير بأعمال الخلق جميعاً، والمحيط والمحصي لكل ما صدر منهم ليجازيهم بهم يوم الحساب.

لقد ثبت حادث الإسراء والمعراج بنص القرآن الكريم، وسميت بذلك هذه السورة «سورة الإسراء» إثباتاً للحدث.

وفي التنزيل ـ في شأن الإسراء ـ: قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: 1 ـ 18].

والإسراء: هو الرحلة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصىٰ بالقدس، وقد سمي بالأقصىٰ لأنه أبعد المساجد الثلاث التي تزار وتشد إليها الرحال في الإسلام.

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه أن الإسراء وقع بعد موت أبي طالب، وكان فيما يبدو بعد العودة من رحلة الطائف المؤلمة تسلية ومواساة من الله لرسوله ﷺ.

وأما المعراج: فهو ارتفاع بعد الإسراء في طباق السماوات إلى مستوىٰ تنقطع عنده علوم الخلائق ثم العودة إلى مكة. والمعراج لغة على وزن مِفْعال: من العروج أي الآلة التي يُعْرَج ـ أي يصعد ـ فيها، ولا نعلم كيف هو ولا نسأل وحكمه كحكم المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقد ذهب قوم إلى أن الإسراء كان مرتين مرة في اليقظة ومرة مناماً، وقالوا: بالروح لا بالجسد، وينسبون لعائشة ومعاوية أنه أسري بروحه ولم يُفْقد جسده، وكل ذلك لم يصح عنهما، وقد ردّه العلماء المحققون.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والمعراج حق وقد أسري بالنبي ﷺ وعُرِجَ بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله تعالىٰ من العُلا، وأكرَمه الله تعالىٰ بما شاء فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ).

لقد كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد ، لا بالحلم والنوم ، وإلا لم يكن له معنىٰ التحدي والإعجاز ، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على إثبات ذلك ، وقد هيّأ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ لتلك الرحلة المعجزة :

يروي البخاري عن أنس عن مالك بن صعصعة أنَّ رسول الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به قال : [بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان أتاني آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه ـ يعني ثغرة نحره إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد][1] .

فإلى تفصيل هذه الرحلة النبوية العظيمة ، وهذا المؤتمر الكبير الذي حضره الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ قال : [أُتيت بالبراق وهودابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهىٰ طرفه ، فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعِثَ إليه؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحَّبَ بي ودعا لي بخير ـ وفي رواية البخاري : (وقد أرسل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم. فقال : هذا أبوك فسلِّم عليه ، فَسَلَّمْتُ عليه فردَّ السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح) ـ ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل : من أنت؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بُعِثَ إليه؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسىٰ بن مريم ، ويحيىٰ بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير. (وفي رواية البخاري : فقالا : مرحباً بك من أخ ونبي). ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك؟ قال : محمد. قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ، فإذا هو قد أعطي شطرَ الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. (قال : مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3207)، كتاب بدء الخلق.

فاستفتح جبريل ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي). (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) ، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسىٰ فرحب بي ودعا لي بخير (قال: مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). (وفي رواية البخاري: فلما جاوزت بكىٰ ، فقيل له: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي). ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم (فقال: هذا أبوك فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح (مرحباً بك من ابن ونبي)) مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهىٰ ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتَها من حُسْنها ، فأوحىٰ الله إليّ ما أوحىٰ ، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسىٰ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي ، فقلت: يارب! خفف على أمتي فحطّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسىٰ فقلت: حطّ عني خمساً. قال: إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسىٰ حتىٰ قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كلَّ يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، من همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة. قال: فنزلت حتىٰ انتهيت

إلى موسىٰ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فسَلْهُ التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت قد رجعت إلى ربي حتىٰ استحييت منه][1].

فوائد ونتائج من حادثة الإسراء والمعراج، وذِكْرُ ما روي من الآيات الكبرىٰ في تلك الرحلة:

1 - لم ير النبي ﷺ ربّه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ صحّ عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

2 - قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ دليل على أن الإسراء كان بجسده عليه الصلاة والسلام في اليقظة، فالعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح، ولا يمتنع عقلاً، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ومن ثمَّ إنكار النبوة.

3 - فإن قيل: ما الحكمة من الإسراء لبيت المقدس أولاً؟ قيل: إنه كان إظهاراً لصدق دعوىٰ الرسول ﷺ المعراج، وذلك حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فوصفه لهم.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبتها، فَكُرِبْتُ كرباً ما كربت مثله، فرفعه الله لي أنظرُ إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم][2].

4 - في حديث المعراج إثبات صفة العلو لله سبحانه.

فقوله عليه الصلاة والسلام - كما في حديث أنس الذي رواه مسلم -: [ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل] إثبات لصفة العلو، كما قال سبحانه في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

5 - في الإسراء نعت لبعض صفات بعض الرسل، ولقاء مالك خازن النار.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7517)، وأخرجه مسلم (1/ 148)، وانظر «فتح القدير» (13/ 488). وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 128 - 132) لتفصيل أخبار الحدث.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1/ 156 -157)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 132) - لمزيد من التفصيل. وكذلك بحثه: «الإسراء والمعراج» في كتابي: السيرة النبوية (360/1).

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة السابق: [وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسىٰ قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْبٌ جَعْدٌ كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسىٰ قائم يصلي ، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، فإذا إبراهيم قائم يصلي ، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد! هذا مالك خازن النار فسلّم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام](1) .

6 ـ في المعراج أوحىٰ الله لنبيّه خواتيم سورة البقرة .

ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله قال: [فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات](2) .

7 ـ في المعراج: دخل رسول الله ﷺ الجنة ورأىٰ نهر الكوثر فيها ، ورأىٰ في أصل سدرة المنتهىٰ أنهاراً أربعة تفجر منها .

فقد أخرج البخاري عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قبابُ الدر المجوف ، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طينُه مِسْكٌ أذفَرُ](3) . والأذفر هو الشديد الرائحة .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث حذيفة وفيه: [حتىٰ أتيت بيت المقدس ، ففتحت لي أبواب السماء ، ورأيت الجنة والنار](4) .

وفي صحيح البخاري من حديث مالك بن صعصعة وفيه: [وَرُفِعت لي سِدْرَةُ المنتهىٰ فإذا نَبِقُها كأنه قلال ، وورقها كأنه آذان الفيول ، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران النيل والفرات](5) .

8 ـ في المعراج: رأىٰ رسول الله ﷺ عذاب الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم ، وأبصر عذاب خطباء القول الذين لا يمتثلونه بالعمل .

---

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه (1/ 156 ـ 157) ، وانظر التفصيل في المرجع السابق .
(2) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (1/ 109) ، ومختصر صحيح مسلم ـ حديث (81) ـ ص (28) .
(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (فتح الباري 8/ 731) .
(4) حديث حسن . أخرجه أحمد (5/ 392 ـ 394) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ (874) .
(5) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه ـ (انظر: فتح الباري 7/ 201 ـ 202) .

ففي المسند بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما عرج بي ربي عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم][(1)].

وعند البيهقي بسند حسن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتيت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وَفَتْ، فقلت: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به][(2)].

9 ـ رأىٰ عن يمين آدم أهل الجنة، وعن يساره أهل النار.

فقد خرّج البخاري من حديث أنس: [... فلما فُتِحَ علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسْوِدة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكىٰ. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكىٰ][(3)].

فصدقه المؤمنون بكل ما ذكره لهم، وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه، وقد سُمِّيَ بذلك من يومئذ، فهو خيرُ المؤمنين بنبيِّه ﷺ.

2 ـ 8. قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 224)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (2/ 60).
(2) حديث حسن. أخرجه البيهقي بسند حسن من حديث أنس. انظر: صحيح الجامع ـ حديث (128).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ (انظر: فتح الباري: 6/ 477).

أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

في هذه الآيات: عَطْفُ الله تعالىٰ بذكر موسىٰ عليه الصلاة والسلام بعد ذكر محمد ﷺ، وقد آتاه الله التوراة ـ كما آتىٰ نَبيّنا القرآن ـ وجعلها تعالىٰ هدىٰ لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دون الله نصيراً ولا معبوداً. وحثٌّ وتنبيه للذرية على المِنّة في نجاة أبيهم نوح ومن آمن معه ليتشبهوا بهم. وحكم الله على بني إسرائيل في عواقب إفسادهم في الأرض وعواقب إحسانهم، وتتابع سنن الله في ذلك، وقد جعل الله في الآخرة جهنم سجناً للكافرين المفسدين.

فقوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. قال قتادة: (جعله الله لهم هدىٰ، يخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعله رحمة لهم). والآية: عطف بذكر موسىٰ عليه الصلاة والسلام، بعد ذكر محمد ﷺ عبد الله ورسوله وكليمه، وكثيراً ما يقرن الله بين ذكر موسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وكلاهما كلمه الله، وآتىٰ موسىٰ التوراة، كما آتىٰ محمداً القرآن، وأمتهما يوم القيامة أكبر الأمم.

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾. قال مجاهد: (شريكاً). وقال ابن جرير: (ومعنىٰ الكلام: وآتينا موسىٰ الكتاب وجعلناه هدىٰ لبني إسرائيل ألا تتخذوا حفيظاً لكم سواي). ثم فسّر قول مجاهد فقال: (وكأن مجاهداً جعل إقامة من أقام شيئاً سوىٰ الله مقامه شريكاً منه له، ووكيلاً للذي أقامه مقام الله).

والخلاصة في المعنىٰ: يقول: لئلا تتخذوا ولياً من دوني ولا نصيراً ولا معبوداً، بل الله وحده هو الوكيل والنصير والمعبود لا شريك له.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. قال قتادة: (والناس كلهم ذرية من أنجىٰ الله في تلك السفينة. وذُكر لنا أنه ما نجا فيها يومئذ غير نوح وثلاثة بنين له، وامرأته وثلاث نسوة، وهم: سام، وحام، ويافث، فأما سام: فأبو العرب، وأما حام: فأبو الحبش. وأما يافث: فأبو الروم). وقال مجاهد: (بنوه ونساؤهم ونوح، ولم تكن امرأته) ـ والله تعالىٰ أعلم.

قال ابن كثير: (تقديره: يا ذُرِّيَة من حملنا مع نوح. فيه تهييجٌ وتَنْبيهٌ على المِنَّة،

أي: يا سُلالة من نَجّيْنا فحملنا مع نوح في السفينة ، تَشَبَّهُوا بأبيكم ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث، وفي الأثر عن السَّلف: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يحمدُ الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كلّه ، فلهذا سُمِّيَ عبداً شكوراً).

قلت: ومن كنوز السنة العطرة نحو ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: [أنا سيد الناس يوم القيامة. إلى أن ذكر المحشر فقال: فيأتون نوحاً: فيقولون: يا نوحُ ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك. .] الحديث(1).

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لَيَرْضىٰ عن العَبْدِ أنْ يأكُلَ الأكْلَةَ أو يشربَ الشَّربةَ ، فيحمدُ الله عليها](2).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾. قال ابن عباس: (هو قضاء قضي عليهم). أي: أخبرهم سبحانه في ما أنزل عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين وسيتجبرون ويطغون ويفجرون. وقال القاسمي: (﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي كتاب اللوح المحفوظ ، أي حكمنا فيه ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ يعني أرض فلسطين بيت المقدس التي بارك الله حولها. والإفساد بالكفر والمعاصي. قال: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي: ولتستكبرن وتتعظمنَّ عن طاعة الله تعالىٰ ، أو لتظلمن الناس).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾.

أي: فإذا حان موعود الأولىٰ من المرتين ، بالعقوبة على أولىٰ المفسدتين ، أخرجنا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3340) ، ومسلم (194) ، وأحمد (2/ 435 ـ 436) ، والترمذي (2434)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6465) ، وهو جزء من حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2734) ، وأحمد (3/ 117) ، والترمذي (1817) ، وأبو يعلىٰ (4332) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

لقتالكم قوماً ذوي قوة وبطش وبأس في الحرب فيقتحمون أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب ، وعد الله ولا يخلف الله الميعاد .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ . قال قتادة : (ثم رددت الكرة لبني إسرائيل) . وقال ابن زيد : (جعلناكم بعد هذا أكثر عدداً) .

والمعنىٰ : إن بني إسرائيل لما طغوا وتمردوا وقتلوا الأنبياء والعلماء ، قيل : سلط الله عليهم جالوت وجنوده ، ثم ردّ لهم الكرّة فقتل داود[1] جالوت . وقيل : سلط الله عليهم «بُخْتَنَصَّر» ملك بابل . قال سعيد بن المسيب : (ظهر بختنصر على الشام ، فخرب بيت المقدس وقتلهم) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ .

أي : إن أحسنتم يا بني إسرائيل ، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم فإنكم تحسنون لأنفسكم ، فهذا هو ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، وإن أسأتم بارتكابكم المعاصي والآثام ، وما يسخط الرحمن ، انقلب وبال ذلك عليكم في الدنيا والآخرة ، فإذا جاء ميقات المرة الآخرة من مرتي إفسادكم في الأرض ﴿ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : لِيَسوءَ مجيء ذلك الوعد للمرّة الآخرة وجوهكم فيقبّحها) . وليدخلوا المسجد كما دخله العدو قبل ذلك وليدمروا ما علوا تدميراً .

وقوله تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

قال النسفي : (عسىٰ ربكم أن يرحمكم بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرىٰ وانزجرتم عن المعاصي ، ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ مرة ثالثة ، ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم ، وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : سُلِّطَ عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ محبساً ، يقال للسجن محصر وحصير) .

وقال ابن عباس : (﴿ حَصِيرًا ﴾ أي : سجناً) . وقال مجاهد : (يُحصرون فيها) . وقال

(1) أي بعث الله لهم ملكاً هو طالوت ومعه قائد يسمىٰ داود .

الحسن: (فراش ومهاد). والمعنىٰ متقارب، فإن جهنم مستقر للكافرين ومَحْصر وسجن لا خلاص منه.

فالمعنىٰ: سيدخل في المرة الآخرة عدو لكم ـ أيها اليهود ـ إلى بيت المقدس قاهراً لكم مُدَمِّراً ما عمرتموه. قال قتادة: (قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ للإفساد ﴿عُدْنَا﴾: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحيّ محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون).

قلت: وقد تكون العودة والكرة الآتية عند دخول المسلمين مع الخليفة المهدي محمد بن عبد الله في آخر الزمان إلى بيت المقدس، في حين يستفرد عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام بالأعور الدجال إمامهم المُنتظر. وفي آفاق ذلك أحاديث من السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [فُسْطاط المسلمين يومَ الملحمة الكبرىٰ بأرض يُقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ][1].

ورواه أبو داود بلفظ: [إن فسطاطَ المسلمين يوم الملحمة بالغوطة، إلى جانب مدينة يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتىٰ يختبئَ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد[4]، فإنه من شجر اليهود][5].

---

(1) حديث صحيح. انظر «فضائل الشام» (15)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث ـ (4081).
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4298) ـ كتاب الملاحم. باب في المَعقل من الملاحم. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث ـ (3611).
(3) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2944)، كتاب الفتن.
(4) الغرقد: شجر فيه شوك، يزرعه اليهود ويكثرون من زراعته.
(5) حديث صحيح. رواه مسلم (2922) ـ كتاب الفتن، ورواه كثير من أهل السنن.

9 ـ 14. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالىٰ على هذا القرآن، فهو يحمل الهداية للناس والبشرىٰ للمؤمنين، والوعيد والخزي للكافرين. وَذِكْرُ تعجّل الإنسان في دعائه بالشر أحياناً، ولو قابله الله بعجلة الإجابة لهلك. وامتنان الله تعالىٰ على عباده بنعمة تعاقب الليل والنهار، وما يحمل ذلك لهم من فوائد كثيرة ونعم جليلة. وتحذير الله عباده الصحف التي تجمع أعمالهم فتنشر يوم القيامة عليهم ليجتهدوا في ملئها بالأعمال الصالحة، فكل سيقرأ كتابه يوم الحساب وكفىٰ بنفسه يومئذ عليه حسيباً.

فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. قال ابن زيد: (للتي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق، قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: 3]. قال: فيها الحق ليس فيها عوج. وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: 1 ـ 2] يقول: قيماً مستقيماً).

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

قال ابن جريج: (الجنة، وكلّ شيء في القرآن أجر كبير، أجر كريم، ورزق كريم فهو الجنة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وأن الذين لا يصدقون بالمعاد إلى الله، ولا يقرّون بالثواب والعقاب في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على ربهم يوم القيامة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني موجعاً، وذلك عذاب جهنم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

قال ابن عباس: (يعني قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه، فلو يُعَجل له ذلك كما يُعجل له الخير، لهلك). وقال قتادة: (يدعو على ماله، فيلعن ماله وولده، ولو استجاب الله له لأهلكه). وقال أيضاً: (يدعو على نفسه بما لو استجيب له هلك، وعلى خادمه، أو على ماله). وقال مجاهد: (ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته، فيعجل، فيدعو عليه، ولا يحب أن يصيبه). وقال ابن عباس: (﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ قال: ضَجراً لا صَبر له على سراء ولا ضرّاء).

وفي التنزيل نحو ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ [يونس: 11].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: [سِرْنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بَطْنِ بُواط، وهو يَطْلُبُ المَجْديَّ بنَ عَمْرٍو الجُهنيَّ، وكان الناضِحُ يَعْقُبُه منا الخمسةُ والسِّتةُ والسَّبْعةُ، فدارتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ على ناضِحٍ له، فأناخَهُ فرَكِبَهُ، ثم بعثَهُ فتَلَدَّنَ عليه بعضَ التلدُّن، فقال له: شَأْ[1] لعنك الله، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هذا اللاعِنُ بعيرَهُ؟ قال: أنا، يا رسول الله! قال: انْزِل عنه، فلا يَصْحَبْنا ملعون، لا تَدْعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تَدْعوا على أموالكم، لا تُوافِقوا من الله ساعة يُسْألُ فيها عطاءٌ فيستجيب لكم][2].

قال النسفي: (﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنىٰ فيه تأني المتبصر. أو أريد بالإنسان الكافر وأنه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة، وكان الإنسان عجولاً، يعني أن العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

قال ابن عباس: (كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس

---

(1) كلمة زجر للبعير.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3009) ـ كتاب الزهد. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (5742).

آية النهار ، فمحونا آية الليل: السواد الذي في القمر). وقال مجاهد: (ظلمة الليل ، وسدفة النهار).

فإن الله سبحانه يمتنّ في هذه الآية على عباده بتلك الآيات العظام ، من تعاقب الليل والنهار ، وظلمة الليل وضوء النهار ، يسكنون في الليل وينتشرون للمعايش والأعمال والأسفار في النهار ، وليعلموا عددَ الأيام و الجمع والشهور والأعوام ، وما يرافق ذلك من تحديد آجال الديون والعبادات والمعاملات والإجارات ، وقد فصل الله تعالىٰ لعباده كل ما يحتاجون معرفته مما تقوم به حياتهم وعبادتهم وسعادتهم في الدارين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. [القصص: 71 ـ 73].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 61 ـ 62].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 5].

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق مفهوم الآية أحاديث، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالىٰ يبسُطُ يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ، ويَبْسُطُ يدَه بالنهار ليتوب مسيءُ الليل ، حتىٰ تطلعَ الشمس من مغربها][(1)].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من تابَ قبلَ أن تطلعَ الشمس من مغربها تاب الله عليه][(2)].

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2759) ـ كتاب التوبة ـ باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2703) ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، من حديث أبي هريرة.

وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. قال ابن عباس: (عمله وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان، فزائل معه أينما زال). وقال: (الطائر: عمله، قال: والطائر في أشياء كثيرة، فمنه التشاؤم الذي يتشاءم به الناس بعضهم من بعض). وقال مجاهد: (طائره: عمله، وما كتب الله له). وقال ابن كثير: (وطائره: هو ما طار عنه من عمله من خير وشر، يُلزم به ويجازىٰ عليه).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17 ـ 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 10 ـ 14].

ومن كنوز السنة الصحيحة في مفهوم الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن لغيره، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [طائرُ كلِّ إنسان في عنقه][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن جرير في «التفسير» بسند رجاله ثقات، من طريق قتادة عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: [لا عدوىٰ، ولا طيرة، وكلُّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه][2].

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وكل إنسان ألزمناه ما قُضِيَ له أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة يعمله في عنقه لا يفارقه، وإنما قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ مَثَلٌ لِما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمهم جل ثناؤه أن

(1) حسن لغيره. أخرجه أحمد في المسند (3/ 342)، (3/ 349)، (3/ 360)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1907).

(2) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (15/ 39) ورجاله ثقات رجال الشيخين، لكن قتادة لم يسمع من جابر، وروايته عنه صحيفة، قال أحمد: «قُرِئَ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها». وانظر السلسلة الصحيحة ج (4) ص (534).

كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر ، وشقاءً يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنات عدن).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ . قال مَعْمَرٌ: (وتلا الحسنُ البصري: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17] ، يا ابن آدم ، بَسَطتُ لك صحيفتَك ، وَوُكِّلَ بك مَلَكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أَقْلِل أو أكثر ، حتىٰ إذا متَّ طُويتْ صحيفتُك فجعلت في عنقك مَعَكَ في قَبْرك ، حتىٰ تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ، قد عدل ـ والله ـ عليك من جَعلك حَسِيبَ نَفْسِك).

عن قتادة: (﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا).

15 ـ 17. **قوله تعالىٰ:** ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد الله تعالىٰ عودة نفع الهداية على العبد الملتمس الهداية ، وعودة ضرر الضلال على مبتغيه ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ ، وما كان الله ليعذب قوماً حتىٰ يقيم عليهم الحق على لسان الرسل ، فإن أصروا على الكفر والفسوق دمّرهم تدميراً. وتخويف لكفار مكة أنه تعالىٰ: كم أهلك من قوم كفروا من بعد نوح وكفىٰ بالله بذنوب عباده خبيراً بصيراً.

فقوله: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ .

أي: من اختار طريق الهدىٰ والاستقامة على الحق فهو ينفع نفسه ، ومن جار عن قصد السبيل فهو يضر نفسه ويهدّد أمنه في الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ ـ كقوله: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ [فاطر: 18]. قال قتادة: (والله ما يحمل الله على عبد ذنب غيره ، ولا يؤاخذ

إلا بعمله). قلت: إلا أن يكون من دعاة الإثم والضلالة، أو الابتداع في الدين، فإنه يحمل أوزار من أضَلّهم إضافة إلى أوزاره، عدلاً من الله تعالىٰ.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ دعا إلى هدىً، كان له مِنَ الأجرِ مثلُ أجورِ من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ آثامهم شيئاً][1].

وفي صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله، قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أجْرِ من عَمِلَ بها، ولا يَنْقُصُ مِنْ أجورهم شَيْءٌ، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً، فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مثلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بها، ولا يَنْقُصُ مِنْ أوزارهم شيءٌ][2].

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. قال قتادة: (إن الله تبارك وتعالىٰ ليس يعذب أحداً حتىٰ يسبق إليه من الله خبر، أو يأتيه من الله بيِّنَة، وليس معذباً أحداً إلا بذنبه).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم).

وفي التنزيل من أمثلة ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 8 ـ 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2674) ـ كتاب العلم ـ باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدىً أو ضلالة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (1017)، كتاب العلم، الباب السابق، وله قصة.

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37].

ومن صحيح السنة في آفاق معنىٰ هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [تحاجت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النّار: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ، وقالت الجنة: مالي لا يدخُلني إلا ضُعَفاء الناس وسَقَطُهُم؟ قال الله تبارك وتعالىٰ للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابٌ أعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي، ولكل واحِدةٍ منهما مِلْؤُها. فأمّا النّار: فلا تَمْتَلِئُ حتىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فتقول: قَطْ قَطْ، فهنالِكَ تَمْتَلِئُ ويُزْوىٰ بعضُها إلى بَعْض، ولا يَظلم الله عز وجل مِنْ خلقه أحداً. وأما الجنة: فإن الله عزَّ وجل يُنْشِئُ لها خَلْقاً](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ أن نبيَّ الله ﷺ قال: [أربعةٌ يحتجون يوم القيامة، رجلٌ أصَمُّ لا يسمع شيئاً، ورجل أحمَقُ، ورجلٌ هَرِمٌ، ورجلٌ مات في فَتْرَةٍ. فأما الأصمُّ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمعُ شيئاً. وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفوني بالبَعْرِ. وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقِلُ شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ مواثيقهم ليُطيعُنَّهُ، فيرسِلُ إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسُ محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: [كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسَانِه،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4850) ـ كتاب التفسير، وانظر (4849)، ورواه مسلم وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 24)، والبزار (2174)، والبيهقي في «الاعتقاد» ص (135)، وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» (7/ 216)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (1827)، وله شواهد عندالبغوي (ق 94/ 1)، والديلمي (1/ 1/ 171)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1434).

كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء ، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء. وفي رواية لمسلم: قالوا: يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين][1].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [سُئِل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين؟ فقال: الله إذْ خَلَقَهُمْ أعلمُ بما كانوا عاملين][2].

قلت: فأولاد المشركين الذين اشتركوا في الآثام مع آبائهم ثم ماتوا يختلفون في الحكم عن أطفال المشركين الذين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها ـ والله تعالىٰ أعلم. وهذا يفسر قوله ﷺ؟ (الله أعلم بما كانوا عاملين).

فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» (6/ 308) بسنده عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: [سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها فيدخلون النار ، ولم تكن لهم حسنة يجازون بها فيكونون من ملوك الجنة؟ فقال النبي ﷺ: هم خدم أهل الجنة].

وفي لفظ عند ابن مندة في «المعرفة» (2/ 261/ 1) من حديث سنان بن سعد عن أبي مالك قال: [سئل النبي ﷺ عن أطفال المشركين؟ قال: هم خدم أهل الجنة][3].

وفي التنزيل ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179]. قال الحسن: (خلقنا). وقال مجاهد: (لقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس).

قال ابن جرير: (لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم). قال الإمام الطحاوي: (وإن الله تعالىٰ خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدران على العباد) «متن الطحاوية: 83».

وأما أطفال المسلمين فهم في الجنة باتفاق أهل العلم.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (6658) ح (23) ، وصحيح البخاري (1384) ، وأخرجه النسائي (4/ 58) ، من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (1383)، وفي لفظ: سئل رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين؟ فقال: اللهم أعلم بما كانوا عاملين. انظر صحيح البخاري ، حديث (1384) ـ كتاب الجنائز.

(3) حسن لشواهده. وانظر مسند أبي يعلىٰ (1011 ـ 1012) ، ومسند البزار (232) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1468).

وقد أخرج أبو نعيم في «أخبار أصبهان» ، وأحمد في المسند ، عن أبي هريرة مرفوعاً: [أطفال المسلمين في جَبَل في الجَنَّةِ يَكْفُلُهم إبراهيمُ وسارةُ حتىٰ يدفعونهم إلى آبائهم يوم القيامة][1] .

وفي لفظ أحمد: [ذراري المسلمين في الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ .

يعود تأويل هذه الآية إلى طريقة قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ ، فالله تعالىٰ لا يأمر بالفسق والفحشاء والفساد والإفساد.

فقد قرأها قرّاء الحجاز والعراق بالتخفيف: ﴿أَمَرْنَا﴾ ، في حين قرأها أبو عثمان بالتشديد: «أمَّرْنا». وذكر عن الحسن البصري أنه قرأها: «آمَرْنا». فيكون المعنىٰ وفقاً لذلك:

التأويل الأول: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾. قال ابن عباس: (بطاعة الله ، فعصوا) ـ واختاره ابن جرير.

التأويل الثاني: «أمَّرْنا مترفيها» مشدّدة من الإمارة. قال الربيع بن أنس: (سَلَّطنا). وقال أبو العالية: (جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها). وكذلك روي عن ابن عباس قال: (سَلَّطنا أشرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب). وقال مجاهد: (أمَّرنا مترفيها: بعثنا).

التأويل الثالث: «آمَرْنا مترفيها» بمعنىٰ أكثرنا فسقتها. قال عكرمة: (أكثرناهم). وقال الضحاك: (أكثرنا مترفيها: أي كبراءها). وقال قتادة: (يقول: أكثرنا مترفيها: أي جبابرتها ، ففسقوا فيها وعملوا بمعصية الله ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾. وكان يقال: وإذا أراد أن يهلكها أكثر مترفيها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ .
وعيد من الله تعالىٰ لمشركي قريش في تكذيبهم نبيهم ـ محمداً ﷺ ـ وتهديد لهم بالعقاب. قال القرطبي: (أي كم من قوم كفروا حلّ بهم البوار. يخوّف كفار مكة).

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 263)، والديلمي (1/ 1/ 118)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 326)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1467).

وقال ابن كثير: (ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذّبتم أشرفَ الرسل وأكرم الخلائق ، فعُقوبتكم أولىٰ وأحرىٰ). قال النسفي: (﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿ بَصِيرًا ﴾ وإن أرخوا عليها الستور).

18 ـ 22. **قوله تعالىٰ:** ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ أنَّ من طلب زينة هذه الحياة الدنيا فإنه يُعطىٰ منهاحسب مشيئته تعالىٰ ثم مرده في الآخرة إلى نار جهنم يدخلها مذموماً مخذولاً. ومن طلب سبيل الآخرة وتقدم إلى ذلك بالإيمان الصادق والعمل الصالح فإنه سيلقىٰ جزاء سعيه جزاء موفوراً. فالله سبحانه يعطي كلاً من الفريقين وما كان عطاء الله محظوراً. فانظر ـ يا محمد ـ كيف قسم الله الهداية والأرزاق وفاوت بين الفريقين في منهاج الحياة ، ثم مصير الآخرة أكبر مفاضلة وأعظم تفضيلاً. فاحذر أيها الإنسان الشرك بالله فإن الشرك يقعد صاحبه مذموماً مخذولاً.

فقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ـ الآية. قال قتادة: (يقول: من كانت الدنيا همّه وسدمه وطلبته ونيته ، عجّل الله له فيها ما يشاء ، ثم اضطره إلى جهنم ، قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مذموماً في نعمة الله مدحوراً في نقمة الله). قال ابن زيد: (العاجلة: الدنيا). وعن أبي إسحاق الفزاري يقول: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ قال: (لمن نريد هلكته). وعن ابن عباس: (﴿ مَذْمُومًا ﴾ يقول: ملوماً).

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ أنه ما كلّ من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصُل له ، بل إنما يحصُل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيّدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ ، أي في الدار الآخرة ، ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ ، أي: يَدْخُلها حتىٰ تغمُره من جميع جوانبه ، ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ، أي: في حال

كونه مذموماً على سوء تَصَرُّفه وصنيعه ، إذا اختار الفاني على الباقي ، ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ ، مُبعداً مَقْصِيّاً حقيراً ذليلاً مهاناً) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ . قال قتادة : (شكر الله حسناتهم ، وتجاوز عن سيئاتهم) .

والمقصود : أنَّ من طَلَبَ نعيم الآخرة وتقدم إلى ذلك بالإيمان الصادق والعمل الصالح على منهاج النبوة ، فإن الله سبحانه سيجزيه على حسن سعيه ويتجاوز عن سَيِّئ عمله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

قال قتادة : (أي منقوصاً ، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البرّ والفاجر ، والآخرة خصوصاً عند ربك للمتقين) . وقال الحسن : (كلاً نعطي من الدنيا البر والفاجر) . قال ابن جريج : قال ابن عباس : (فيرزق من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة) . قال ابن جريج : (﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ قال : ممنوعاً) .

والمقصود : أنَّ الله تعالىٰ يعطي كُلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة في الآخرة ، وأما في الدنيا فيرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ، وما كان عطاء الله ممنوعاً عن عباده وإن عصوا أمره .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . أي :

1 ـ انظر يا محمد ـ نظرة اعتبار ـ إلى هذين الفريقين ، كيف هدينا هذا سبيل سعادته ، وكيف خذلنا الآخر حين أصر على سلوك سبيل شقاوته ، فتفاوت الفريقان في منهاج الحياة الدنيا الذي يقرّر مصير الآخرة .

2 ـ ثم انظر ـ يا محمد ـ كيف فضلنا بين الناس في أرزاق الدنيا ومعايشها ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك .

وأما الآخرة فإن تفاوت الناس فيها أعظم وأكبر بكثير من تفاوتهم في الدنيا ، فأهل الجنة يتفاوتون في درجات الجنة وفي مقامات النعيم حسب أعمالهم ، وأهل النار يتفاوتون في دركات النار وفي منازل الشقاء حسب درجة كفرهم وخبث أفعالهم وحالات نفاقهم .

ففي التنزيل: (من أحوال أهل الجنة).

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: 7 ـ 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: 20].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: 58 ـ 59].

وفي صحيح السنة: (من أحوال أهل الجنة).

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم. قال: بلىٰ والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين](1).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ في الجنة غرفاً يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام، وصلىٰ بالليل والناس نيام](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إنَّ في الجنة مئة درجة، أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة](3).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831) ـ من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي مالك الأشعري. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2119)، وتفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 785).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 14)، (9/ 101)، وأحمد في المسند (2/ 335 ـ 339).

وفي التنزيل: (من أحوال أهل النار).

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

وفي صحيح السنة: (من درجات أهل النار).

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [أهونُ أهل النار عَذاباً أبو طالب، وهو مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْن من نارٍ يَغْلي منهما دماغُه][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَتِه][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبِّرون يومَ القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقُون من عُصَارة أهل النار، طينةِ الخبال][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

قال قتادة: (يقول: مذموماً في نعمة الله، وهذا الكلام وإن كان خرج على وجه الخطاب لنبي الله ﷺ، فهو معنيٌّ به جميع من لزمه التكليف من عباد الله جلّ وعزّ). قال النسفي: (﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾: فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان. وقيل مشتوماً بالإهانة محروماً عن الإعانة، إذ الخذلان ضد النصر والعون).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 135) من حديث ابن عباس، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (99)، (100).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه من حديث سمرة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1953) ـ في تفصيل أكبر من حديث المقداد بن الأسود.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، ورواه أحمد، انظر صحيح الجامع (7896).

والمقصود: لا تشرك أيها الإنسان بالله الذي بيده نصرك وعونك ونفعك وضرّك، بل أفرده بالعبادة والتعظيم، فإنه وحده مالك النفع والضر لك.

وفي التنزيل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

وفي سنن أبي داود ومسند أحمد، بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أصابَتْهُ فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنىٰ، إما بموت عاجلٍ، أو غِنىٰ عاجل][1].

23 ـ 25. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ بإفراده بالعبادة والإحسان للوالدين، وخفض الجناح لهما والدعاء لهما، والله أعلم بمن يقوم بحق التعظيم له والبر بالوالدين، وهو سبحانه للأوابين والتائبين غفور رحيم.

فقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أمر) ـ أي هكذا أمر تعالىٰ بإفراده سبحانه بالعبادة لا شريك له. وقال قتادة: (أمر ألا تعبدوا إلا إياه. وفي حرف ابن مسعود: «وصّىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه»). وعن مجاهد: (﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قال: وأوصىٰ ربك).

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأمركم بالوالدين إحساناً أن تحسنوا إليهما وتبرّوهما).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1645) ـ كتاب الزكاة ـ باب في الاستعفاف، وانظر صحيح سنن أبي داود (1448)، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 407)، وأبو يعلىٰ (5318)، وصححه الحاكم (2/ 408) ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾.

قال القرطبي: (﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنىٰ تبرّم). قال مجاهد: (إن يَـبْلُغانِّ عندك الكبر فلا تقل لهما أف حين ترىٰ الأذىٰ، وتميط عنهما الخلاء والبول، كما كانا يميطان عنك صغيراً، ولا تؤذهما). قال ابن كثير: (أي: لا تُسْمِعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنىٰ مراتب القول السيِّئ). وقال عطاء: (﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾: لا تنفض يدك على والديك). وقال ابن جرير: (﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ يقول جل ثناؤه: ولا تزجُرهما).

وقوله: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾. قال ابن جريج: (أحسن ما تجد من القول). وقال قتادة: (أي قولاً ليّناً سهلاً).

وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾. قال هشام بن عروة عن أبيه: (هو أن لا تمتنع من شيء يريدانه). أو قال: (هو أن تلين لهما حتىٰ لا تمتنع من شيء أحبّاه). والمقصود: بذل غاية التواضع للوالدين بالقول والفعل، والأثر السابق عن عروة ثبت بسند صحيح. فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن عُروة قال: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ قال: (لا تمتنع من شيء أحبّاه)[1].

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾. قال النسفي: (ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك، والمراد بالخطاب غيره عليه السلام، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين. وقيل: إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان وأن يدعو الله لهما بالهداية).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ ثم أنزل الله عز وجل بعد هذا: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: 113]).

وقد ورد الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما كثيراً في القرآن والسنة الصحيحة:

(1) صحيح الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (9) ـ باب لين الكلام لوالديه ـ وانظر: «صحيح الأدب المفرد» ـ حديث رقم ـ (9).

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًۭٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًۭا ﴾ [النساء: 36].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًۭا ۖ ﴾ [العنكبوت: 8].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍۢ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: 14].

وفي صحيح السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألت النبي ﷺ: أي العمل أحبُّ إلى الله تعالىٰ؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيّ؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَجْزِي وَلدٌ والداً إلاّ أنْ يجِدَهُ مَمْلوكاً، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَنْ أحَقُّ الناس بِحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أبوك][3].

قال القرطبي: (إن الأم تستحق الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة).

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [رَغِمَ أنفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ. ورغِمَ أنفُ رجُلٍ دخل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (10/ 336)، وأخرجه مسلم في الصحيح (85).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1510)، وأبو داود (5137)، وأخرجه الترمذي (1907).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 336)، ومسلم (2548)، ومقتضىٰ الحديث أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، وكأن ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الإرضاع.

عليه شهرُ رمضانَ فانسلخ قبل أن يُغفَرَ له ، ورغِمَ أنف رجُلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرَ فلم يدخلاه الجنة][1] . وفي رواية : (أو أحدهما).

وعند مسلم في صحيحه نحوه ، عنه ، عن النبي ﷺ قال: [رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك والديه ، أحدهما أو كِلاهما عند الكبر ، ولم يَدْخُلِ الجنة][2] .

الحديث الخامس: أخرج ابن حبان في صحيحه عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده قال: [صَعِدَ رسول الله ﷺ المنبر فلما رقِيَ عتبةً قال: آمين. ثم رقيَ أخرىٰ فقال: آمين. ثم رقيَ عتبةً ثالثة فقال: آمين. ثم قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد! من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله. فقلت: آمين. قال: ومن أدرك والديه أو أحدَهما فدخل النار فأبعده الله. فقلت: آمين. قال: ومن ذُكرتَ عنده فلم يصل عليك فأبعده الله. فقلت: آمين][3] .

قلت: فإن كان الأبوان مشركين ، وماتا على ذلك ، فإنه لا يجوز للابن الاستغفار لهما. ومن ذلك ما بوّب البخاري في كتابه: «الأدب المفرد» ـ باب: لا يستغفر لأبيه المشرك. روىٰ فيه عن ابن عباس ، في قوله عزّ وجل: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. قال: (فنسختها الآية التي في براءة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾)[4] .

وقوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ربكم أيها الناس أعلم منكم بما في نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم ، والبر بهم ، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم ، والعقوق لهم ، وغير ذلك من ضمائر صدوركم. وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ يقول: إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم ، وأطعتم الله فيما أمركم به من البرّ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3545) ، وأخرجه أحمد (2/ 254) ، وأخرجه ابن حبان (908).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2551) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 346) ، وغيرهما.
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ، وبنحوه الحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد. انظر صحيح الترغيب (1/ 985 ـ 986).
(4) حسن الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (23) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر صحيح الأدب المفرد ـ حديث رقم ـ (17).

بهم ، والقيام بحقوقهم عليكم ، بعد هفوة كانت منكم ، أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه ، فإنه كان للأوابين بعد الزّلة ، والتائبين بعد الهفوة غفوراً رحيماً).

ومن أقوال أهل التأويل:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ قال: البادرة تكون من الرجل إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير).

2 ـ وعن حبيب بن أبي ثابت: (﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أن لا يؤاخذ به).

وقيل في الأوابين أكثرمن تأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (المسبحين). أو قال: (﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ يقول: للمطيعين المحسنين).

2 ـ قال قتادة: (هم المطيعون ، وأهل الصلاة).

3 ـ وقال ابن المنكدر: (الصلاة بين المغرب والعشاء).

4 ـ وقال عون العُقيلي: (الذين يصلون صلاة الضحىٰ).

5 ـ وقال سعيد بن المسيب (﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾: الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب).

6 ـ وقال سعيد بن جبير فيها: (الراجعين إلى الخير).

7 ـ وقال عبيد بن عمير: (الذي يذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر الله منها).

8 ـ وقال مجاهد: (الأوابون: الراجعون التائبون).

قلت: وكل ما سبق يدل على مفهوم الأوابين ، فإن الأواب هو التائب من الذنب الراجع إلى طاعة الله ، الملتمس لمغفرة ذنوبه ألوان العمل الصالح.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون][(1)].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1797) ، ومسلم (1344) ، وأحمد (2/ 63) ، وأبو داود (2770) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [صلاة الضحىٰ صلاة الأوابين][1].

26 ـ 28. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ بإعطاء ذي القرابة والمسكين وابن السبيل حقّه من البذل والإحسان ، والابتعاد عن التبذير فإنه منهج الشيطان. واختيار الردّ بالحسنىٰ والوعد الطيب لأهل المسألة حالة العجز ورجائك عطاء المنان.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قال: هو أن تصل ذا القرابة والمسكين وتحسن إلى ابن السبيل).

والآية عطف على سابقتها ، فبدأ سبحانه وصيته ببر الوالدين ، ثم عطف بذكر الأرحام والوصية بالأقربين ، وكذلك المسافر المنقطع والمسكين.

وفي التنزيل: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: 38].

وأما السنة المطهرة فقد تواترت فيها النصوص في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أَحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقِه ، وَيُنْسَأَ له في أثرِه ، فليصل رحمه][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله خَلَقَ الخَلْقَ حتىٰ إذا فرغ من خَلْقِهِ ، قالت الرَّحم: هذا مقامُ العائذِ بِكَ من القطيعة؟ قال: نَعَمْ ، أما تَرْضَينَ أن أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وأَقْطَعَ من قَطَعَكِ؟ قالت: بلىٰ

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1286) ، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (3721).
(2) حدث صحيح. أخرجه البخاري (5986)، ومسلم (2557)، وأحمد (3/ 229)، وابن حبان (438) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يا رب ، قال: فَهُوَ لكِ. قال رسول الله ﷺ. فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: 22]][1].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي والحاكم وأحمد بسند جيد عن أبي هريرة مرفوعاً: [تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثراة في المال ، منسأة في الأثر][2].

وله شاهد عند الطبراني من حديث عمرو بن سهل بلفظ: [صلة القرابةِ مثراةٌ في المال ، مَحَبَّةٌ في الأهل ، منسأة في الأجل].

وقوله: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾. التبذير الإنفاق في غير حق. قال قتادة: (التبذير الإنفاق في المعصية ، وفي غير الحق وفي الفساد). وقال مجاهد: (لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً. ولو أنفق مُدّاً في غير حقه كان مبذراً).

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾. يعني أشباههم في ذلك. قال النسفي: (أمثالهم في الشرارة ، وهي غاية المذمة لأنه لا شر من الشيطان ، أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف).

وقوله: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾. أي جحوداً ، لأنه تجاهل نعمة الله عليه وأهمل شكره وعمل بمعصيته. قال القرطبي: (أي احذروا متابعته والتشبه به في الفساد).

والخلاصة: إنَّ هذه الأمة وسط في الإنفاق كما هي وسط في كل شيء ، لا غلو ولا إفراط ولا تفريط.

وفي التنزيل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالىٰ يرضىٰ لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً: فيرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5987) ـ كتاب الأدب ـ باب: مَنْ وصَلَ وَصَلَهُ الله.

(2) إسناده جيد. أخرجه الترمذي (1/ 357 ـ 358) ، والحاكم (4/ 161) ، وأحمد (2/ 374). وانظر للشاهد: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3662) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (276).

تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم: قِيْلَ وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال][1] .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن حسين بن علي مرفوعاً: [إن الله يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكرهُ سَفْسَافَها][2] .

وفي لفظ عند الحاكم من طريق سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عزَّ وجلَّ كريمٌ ، يُحِبُّ الكرم ومعالي الأخلاق ، وَيُبْغِضُ سَفْسَافَها][3] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: [أتىٰ رجلٌ من بني تميم إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إني ذو مالٍ كثير ، وذو أهل وَوَلدٍ وحاضِرَة ، فأخبرني: كيف أُنفِقُ وكيف أصنَعُ؟ فقال رسول الله ﷺ: تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طُهْرةٌ تُطَهِّرُك ، وتصِل أقرباءك ، وتعرف حقَّ السَّائل والجار والمسكين. فقال: يا رسول الله ، أقلل لي؟ قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ، فقال: حسبي يا رسول الله ، إذا أديتُ الزكاةَ إلى رسولك فقد برئتُ منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم ، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها ، فلك أجرها ، وإثمُها على من بدلها][4] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ .

قال ابن جريج ، قال عكرمة: (إن سألوك فلم يجدوا عندك ما تعطيهم ابتغاء رحمة ، قال: رزق تنتظره ترجوه ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ قال: عدهم عدة حسنة: إذا كان ذلك ، إذا جاءنا ذلك فعلنا ، أعطيناكم ، فهو القول الميسور). وقال الحسن: (قل لهم قولاً ليناً سهلاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1715).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» (1/ 140/ 1) ، وابن عدي (114/ 1) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (1886) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1378).

(3) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (1/ 48) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 255) ، (8/ 133) ، وانظر المرجع السابق ـ السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1378).

(4) أخرجه أحمد في المسند (3/ 136) ، والطبراني في الأوسط (8797) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (3/ 63) ، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح. وأورده الحافظ ابن كثير في «التفسير» (سورة الإسراء: آية: 26).

وخلاصة المعنىٰ: أي إن سألك أقرباؤك ومن أُمرت بإعطائهم وليس عندك شيءٌ، فعِدْهم بلين ورفق بالوصل إن شاء الله.

29 ـ 38. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآيات: وصية الله تعالىٰ عباده بالاقتصاد في العيش والبعد عن الإسراف أو البخل والله هو الرزاق الكريم. والتحذير من قتل الأولاد خشية الفقر فإن ذلك من سبيل الشيطان الرجيم. والنهي عن الاقتراب من الزنىٰ أو قتل النفس التي حرم الله أو أخذ مال اليتيم أوالغش واللعب بالميزان فكل ذلك يسخط الرحمان الرحيم. وكذلك القول في الدين بغير علم أو الاتباع بالتوهم والظن، وكذلك الكبر والعجب، كل ذلك محرم في الدين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. أَمْرٌ بالاقتصاد في العيش والبعد عن الإسراف أو البخل، وعبّر عن البخل بإمساك المغلولة يده إلى عنقه، فلا يستطيع بسطها، وعبّر عن الإسراف ببسط اليد فلا يبقىٰ فيها شيء.

قال الحسن: (لا تجعلها مغلولة عن النفقة، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾: تبذّر بسرف). وقال

ابن زيد: (﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: مغلولة لا تبسطها بخير ولا بعطية، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ في الحق والباطل، فينفد ما معك، وما في يديك، فيأتيك من يريد أن تعطيه فيحسر بك، فيلومك حين أعطيت هؤلاء، ولم تعطهم).

قال ابن عرفة: (﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾: يقول لا تسرف ولا تُتلف مالك فتبقىٰ محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به).

قلت: والحسير مأخوذ من الكَلال والإعياء. فإن العرب تقول: حَسَرَ البعير إذا أعْيا.

وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4]. أي كليل منقطع.

ومن كنوز السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [مَثَلُ البخيل والمُنْفِقِ كمثلِ رَجُليْنِ عَلَيْهما جُبَّتانِ مِنْ حديدٍ مِنْ ثُدِيِّهما إلى تَرَاقِيهما، فأما المُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَتْ أو وَفَرَتْ على جِلْدِه حتىٰ تُخْفِيَ بَنانَه، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وأما البخيل فلا يريد أن يُنْفِقَ شيئاً إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مكانَها فهو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ][1].

وفي لفظ: [ضرب رسول الله ﷺ مَثَلَ البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد قد اضْطَرّت أيديهما إلى ثُدِيِّهما وتراقِيهما، فجعل المتصدق كلما تصدَّق بصدقة انبسطت عنه حتىٰ تغشىٰ أنامِلَهُ وتَعْفُوَ أثره[2]، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حَلْقةٍ بمكانها. قال أبو هريرة: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جَيْبه فلو رَأيْتَه يُوَسِّعها ولا تتوسَّع].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن هشام بن عُروة، عن زوجته فاطمة بنتِ المنذر، عن جَدَّتها أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1443) ـ كتاب الزكاة ـ باب مثل البخيل والمتصدق، وأخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1021)، وأخرجه الشافعي (1/ 22)، وأحمد (2/ 256)، والنسائي (5/ 70)، وابن حبان (3313) من حديث أبي هريرة.

(2) أي تنتشر عنه الجبة حتىٰ تمحو أثر مشيه لسبوغها. وقوله: «قلصت» أي انضمت وارتفعت.

[أَنْفِقي هكذا وهكذا وهكذا ، ولا توعي فيوعِيَ الله عليك ، ولا توكي فيوكِيَ الله عليك][1] . وفي لفظ : [ولاتُحصِي فيحصيَ الله عليك]. وفي لفظ : [أنفقي ولا تحصي ، فيحصي الله عليك ، ولا توعي فيوعيَ الله عليك].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ومَلَكان يَنْزلان من السماء ، يقول أحدهما : اللهم أعطِ مُنْفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعْطِ ممسكاً تَلَفاً][2] .

الحديث الرابع : أخرج البزار بسند صحيح عن بلال ـ وعن أبي هريرة ـ أن النبي ﷺ قال : [أنْفِقْ يا بلالُ! ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً][3] .

وله شاهد في معناه عند الإمام مسلم من طريق مَعْمر ، عن همّام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : [إن الله قال لي : أَنْفِقْ أنفِقْ عليك][4] .

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: [إياكم والشُّحَ ، فإنه أهلكَ مَنْ كان قَبْلكم ، أمرهم بالبُخْل فَبَخِلوا ، وأمَرَهُم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور فَفَجَرُوا][5] .

الحديث السادس: أخرج البيهقي وأحمد بسند صحيح عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما يُخرج رجلٌ شيئاً من الصدقة ، حتى يفكَّ عنها لَحْيَيْ سبعين شيطاناً][6] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1433) ، ومسلم (1029) ، وأحمد (6/ 345) ، وابن حبان (3209) ، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (1442) ـ كتاب الزكاة ـ وأخرجه مسلم (1010).

(3) حديث صحيح. أخرجه البزار من حديث بلال وأبي هريرة ، وأخرجه الطبراني من طريق ابن مسعود ، انظر: تخريج «مشكاة المصابيح» (1885) ، وتخريج «الترغيب» (2/ 40) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1508).

(4) حديث صحيح . أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (993) ح (37).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1698) ، وأخرجه أحمد (2/ 195) ، والحاكم (1/ 11) ، وغيرهم ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 350) ، والبيهقي في «السنن» (4/ 187) ، وصححه الحاكم (1/ 417) على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1268).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾.

قال ابن زيد: (يقدر: يقلّ، وكل شيء في القرآن يَقْدِرُ كذلك، ثم أخبر عباده أنه لا يرزؤُه ولا يؤوده أن لو بسط عليهم، ولكن نظراً لهم منه، فقال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورىٰ: 27]. قال: والعرب إذ كان الخصب وبُسطَ عليهم أشِروا، وقتل بعضهم بعضاً، وجاء الفساد، فإذا كان السنة شُغِلوا عن ذلك).

وخلاصة المعنىٰ: إن ربك ـ يا محمد ـ يوسع رزقه على من يشاء ويُقَتِّر على من يشاء من عباده، فهو سبحانه ذو خِبْرة بهم، يعلم من تصلحه سعة الرزق ومن تفسده، فهو الحكيم في تصريف شؤون عباده وتدبير معايشهم وأرزاقهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾. قال مجاهد: (﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾: الفاقة والفقر). وقال قتادة: (أي خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فوعظهم الله في ذلك، وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله).

والآية تدل على رحمة الله بعباده أكثر من الوالد بولده، فقد كان أهل الجاهلية لا يوِّرثون البنات، وربما قتل أحدهم ابنته لئلا تكثر عيلته، فأخبر سبحانه أن هذا القتل ذنب كبير عند الله. فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي: إثماً عظيماً. وقرأ بعضهم ﴿كان خَطَأً كبيراً﴾، والمعنىٰ متقارب.

وفي سورة الأنعام آية مشابهة: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: 151].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولَدك خشية أن يَطْعَمَ معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارِك][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

نهي عن مقاربة الزنا ودواعيه، أو التماس أسبابه، فإنه كان ذنباً كبيراً وسَاءَ طريقاً

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477)، ومسلم (76)، وأحمد (1/ 434)، والترمذي (3183)، وغيرهم، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومسلكاً. قال القرطبي: (قال العلماء: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنىٰ). والزنىٰ يمد ويقصر، وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ قد نصب على التمييز، والتقدير: وساء سبيله سبيلاً.

قلت: وأول طريق الزنىٰ إطلاق البصر، فإن الاستهتار به يورث ما بعده، والشيطان يزين المعصية ولا يزال بالعبد يوسوس له بعدها، فَيُسَهِّل له اللمس والقبلة حتىٰ يقع في الفاحشة. ومن هنا جاء أمر الله تعالىٰ بغض البصر:

قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30].

ثم جاء تفصيل فساد ذلك الطريق في السنة المطهرة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [كُتِبَ على ابن آدم نصيبُه من الزِّنا مُدْرِكٌ ذلك لا محالة: فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسانُ زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِجل زناها الخُطا، والقلب يهوىٰ ويتمنىٰ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: [لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفْضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة قال: [إن فتىً شاباً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القومُ عليه فزجَرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: ادنُهْ. فدنا منه قريباً، فقال: اجْلس. فَجَلس، قال: أَفَتُحبُّه لأمّك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبُّه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبُّه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فِداك. قال: ولا الناس يُحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبُّه لِعَمَّتِك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ نحوه ـ (11/ 22)، وأخرجه مسلم ـ واللفظ له ـ (2657) (21)، وأخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2152).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (338) ـ كتاب الحيض ـ باب تحريم النظر إلى العورات. وفي رواية: عُرْية الرجل وعُرْية المرأة مكان ـ عورة ـ. ويقال أيضاً: عِرْيَة، بالكَسر.

لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتِك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبّونه لخالاتهم. قال: فوضعَ يَده عليه وقال: اللهم، اغفِر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحَصِّن فرجه. قال: فلم يكنْ بعد ذلك الفتىٰ يلتفتُ إلى شيء][1].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. نهيٌ عن قتل النفس بغير سبب شرعي. قال قتادة: (وإنا والله ما نعلم بحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث، إلا رجلاً قتل متعمداً، فعليه القَوَد، أو زنىٰ بعد إحصانه فعليه الرجم، أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل).

وفي التنزيل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

وفي الصحيحين ـ واللفظ للبخاري ـ عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مُسْلمٍ يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وأني رسولُ الله إلا بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّبُ الزاني، والمُفارِقُ لدينِهِ التارِكُ للجماعة][2].

وفي جامع الترمذي وسنن النسائي عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: [لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم][3].

ورواه ابن ماجة من حديث البراء بلفظ: [لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق].

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: فقد جعلنا لولي المقتول ظلماً سلطاناً على قاتل وليه، فإن شاء استقاد منه فقتله بوليه، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بذلك، وحدّدت فيها الدية الشرعية في القتل العمد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 257) من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي في «المجمع» (1/ 129): ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6878) ـ كتاب الديات. وأخرجه مسلم (1676) ـ في القسامة والمحاربين والقصاص والديات. باب ما يباح به دم المسلم.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (1395)، والنسائي في السنن (7/ 82)، وأخرجه ابن ماجة في السنن (2610) من حديث البراء.

فقد أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ قَتَلَ عَمْداً ، دُفِعَ إلى أولياء القتيل. فإن شاؤوا قَتَلوا ، وإنْ شاؤوا أخذوا الدية. وذلك ثلاثون حِقَّةً، وثلاثون جَذَعَةً ، وأربعونَ خَلِفَةً. وذلك عَقْلُ العَمْدِ. ما صُولِحوا عليه ، فهو لهم. وذلك تشديد العَقْلِ][1].

وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ ـ فيه ثلاثة أقوال متكاملة.

1 ـ لا يقتل غير قاتله. قاله الضحاك والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير.

2 ـ لا يقتل بدل وليّه اثنين كما كانت العرب تفعله. قال مجاهد: (لا يسرف القاتل في القتل). وقال الحسن: (كان الرجل يُقتل فيقول وليه: لا أرضىٰ حتىٰ أقتل به فلاناً وفلاناً من أشراف قبيلته). وقال سعيد بن جبير: (لا تقتل اثنين بواحد).

3 ـ لا يُمَثَّل بالقاتل. قال طلق بن حبيب: (﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾: لا تقتل غير قاتله ، ولا تُمَثِّلْ به). وقال قتادة: (لا تقتل غير قاتلك ، ولا تمثِّل به).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾. قال مجاهد: (إن المقتول كان منصوراً). وقيل المراد الولي وهو أقرب للسياق. قال ابن كثير: (أي: إن الولي منصورٌ على القاتل شرعاً ، وغالباً قَدَراً).

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. قال النسفي: (أي: بالخصلة والطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه وتثميره).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: 6].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ ، أن رسول الله ﷺ قال: [يا أبا ذَرٍّ! إني أراك

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (2626) ـ كتاب الديات. باب من قتل عمداً ، فرضوا بالدية. والحِقّة من الإبل ما طعن في السنة الرابعة ، والجذعة ما طعن في الخامسة ، والخَلِفَة: الحامل منها.

ضعيفاً ، وإني أحِبُّ لك ما أُحِبُّ لِنَفْسي ، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تولَّيَنَّ مال يتيم][1].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾. قال ابن جرير: (يقول: حتىٰ يبلغ وقت اشتداده في العقل ، وتدبير ماله ، وصلاح حاله في دينه).

وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾. قال الزجاج: (كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد). وقال القاسمي: (﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي العقد الذي تعاقدون به الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضاً. والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي مطلوباً. يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته. أو: صاحبه مسؤول عن نقضه إياه. والمعنىٰ: لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها).

وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾. أي: إذا كلتم للناس فأوفوهم حقوقهم ولا تبخسوهم شيئاً ، وزنوا بالميزان المستقيم ، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه. قال مجاهد: (القسطاس: العدل بالرومية). وقال الحسن: (القَبَّان).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قال قتادة: (أي خير ثواباً وعاقبة). قلت: ولا شك أن الوفاء بالكيل ، والوزن بالعدل والقسط ، يَعُمّ خيره معاش الناس ومعادهم ، فإن الغش والتلاعب في البيوع والتجارة يُفسد نفوس الناس وعلاقاتهم ، ويُثقل تبعات ذلك أوزارهم في أخراهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ـ فيه قولان متقاربان:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: لا تقل). وقال قتادة: (لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، (وعلمت ولم تعلم) ، فإن الله تبارك وتعالىٰ سائلك عن ذلك كله).

2 ـ قال ابن عباس: (يقول: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم). قال ابن جرير: (وأصل القفو: العضه والبهت. ومنه قول النبي ﷺ: «نحن بنو النَّضْر بن كِنانةَ لا نَقْفُو أمَّنا ولا نَنْتفي من أبينا»).

وخلاصة المعنىٰ: نهيٌ من الله تعالىٰ عباده عن القول بغير علم ، أو الاتباع بالتوهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1826) ـ كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

والظن والخيال ، بل لا بد من الحجة البالغة في صحة الأقوال والأفعال عند التماس الحق أو التحاكم.

وفي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: 12].

وفي صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [إياكم والظَّنَّ ، فإن الظَّنَ أكْذَبُ الحديث ، ولا تَحَسَّسُوا ، ولا تَجَسَّسُوا ، ولا تناجَشُوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً](1).

الحديث الثاني: أخرج أحمد والبخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً: [مَنْ تَحَلَّمَ حلماً كُلِّفَ يوم القيامة أن يَعْقِدَ بين شعيرتين ، وليس بفاعل](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ مِنْ أفرىٰ الفِرىٰ أن يُرِيَ عَيْنَهُ مالمْ تَرَ](3).

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي مسعود ، قال لأبي عبد الله ، أو قال أبو عبد الله لأبي مسعود: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في: «زعموا»؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَموا](4).

قال أبو داود: أبو عبد الله هذا: حذيفة.

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تقوّلَ عَلَيَّ مالَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأ مقعده من النار](5).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6066) ـ كتاب الأدب ، وأخرجه مسلم (6563) ، وأبو داود (4917) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 465) ، وكذلك ابن حبان (5687) من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7042) ، وأحمد (1/ 216) ، وأبو داود (5024) ، بأتم منه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7043) ـ كتاب التعبير ، باب من كذبَ في حُلمه.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4972) ـ في الأدب ـ باب قول الرجل: «زعموا» ، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4158).

(5) حديث حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (34) ـ باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (32) ، وتخريج «مشكاة المصابيح» (5940).

الحديث السادس: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، على هذا المنبر: [إياكم وَكَثْرَةَ الحديث عني. فمن قال عليَّ فليقُل حقّاً أو صِدْقاً. ومَنْ تقوَّلَ عليَّ مالم أَقُلْ، فليتبوأ مَقْعَدَهُ من النار][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. قال ابن جرير: (معناه: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، من أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق).

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾. أي: متبختراً متكبراً متمايلاً كتمايل أهل العُجُب والتجبُّر. وقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: إنك لن تقطع الأرض باختيالك. قال النسفي: (لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطأتك). وقوله: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. قال قتادة: (يعني بكبرك ومرحك). وقال: (لا تمش في الأرض فخراً وكبراً، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال، ولا تخرق الأرض بكبرك وفخرك). وقيل: بل المقصود لن تحاذي الجبال قوة.

وفي التنزيل: قول لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

وفي السنة المطهرة من آفاق مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر][2].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثقالُ ذرة من كِبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغمْطُ الناس][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (35) ـ في الباب السابق، وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (33).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 507 ـ 508)، (10/ 408)، وأخرجه مسلم (2853).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91)، وأخرجه أبو داود (4091)، وأخرجه الترمذي (1999).

[بينما رجل يمشي في حلة تُعْجِبُه نفسُه ، مُرَجِّلٌ رأسَه ، يختال في مِشْيَتِهِ ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة][1].

الحديث الرابع: أخرج البيهقي بسند حسن عن أنس ، أن النبي ﷺ قال: [لو لم تكونوا تذنبون ، لخِفت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العُجْبَ العجب][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

قال ابن كثير: (أما من قرأ «سيئةً» ، أي: فاحشة: فمعناه عنده: كُلُّ هذا الذي نهينا ، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلى هاهنا ، فهو سيّئة مُؤاخَذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله ، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة فمعناه عنده ، كُلُّ هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى هاهنا ، فسيئه ، أي: قبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير رحمه الله).

39 ـ 44. **قوله تعالىٰ**: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أَنَّ ما أَمَرَهُ به من تلك الأخلاق الجميلة وما نهاهُ عنه من الصفات الذميمة إنما هو وَحْيٌ ليبلغه الناس ، وأنَّ أخطر تلك النعوت السيئة هو الشرك بالله الذي يوقع صاحبه في جهنم ملوماً مدحوراً. وردٌ على مشركي العرب قولهم: الملائكة بنات الله. وأنَّ هذا القرآن مليء بالحجج والعبر والأمثال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (221/10)، (10/ 222)، وأخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2088).

(2) حديث حسن. أخرجه البيهقي من حديث أنس، وابن عدي (164/ 1) وسنده حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (658).

لينزجر الظالمون عن الشرك بالله. إن الله هو الواحد الأحد الذي تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن وهو الحليم الغفور.

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾. قال المهايمي: (أي من العلم المحكم الذي لا يتغير بشبهة). وقال القاسمي: (أي مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس بأسوته). قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونَهيناكَ عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحيناه إليك يا محمد، لتأمر به الناس).

وقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾. أي: ولا تشرك بالله في عبادتك فتلقىٰ في جهنم ملوماً ـ تلومك نفسك وعارفوك من الناس ـ مُبْعداً مقصياً في النار. والخطاب للأمة على لسان نبيها المعصوم ﷺ. قال ابن عباس: (﴿مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ يقول: مطروداً).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾.

رَدٌّ على مشركي العرب في قولهم: الملائكة بنات الله. قال ابن جرير: (يقول: أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدونهن، وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم). قال القاسمي: (﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ أي بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة المحدثات. ثم بإيثاركم أنفسكم عليه، حيث تجعلون له ما تكرهون).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾. أي: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من العبر والأمثال، والتذكير بالوعد والوعيد، لعلهم يذّكرون تلك الحجج والمواعظ فينزجروا عن تعظيم غير الله والشرك به والافتراء والظلم، ولكن الظالمين لا يزدادون بهذه الذكرىٰ إلا بعداً عن الحق وكبراً وكفراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾.

قال قتادة: (يقول: لو كان معه آلهة إذن لعرفوا فضله ومرتبته ومنزلته عليهم، فابتغوا ما يقرّبهم إليه). قال: (لا تبغوا القُرب إليه، مع أنه ليس كما يقولون). قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلـٰهاً آخر لو كان الأمر كما تقولون، من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون، إذن لابتغت تلك الآلهة القُربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزُّلفة إليه، والمرتبة منه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

قال القرطبي: (نزّه سبحانه نفسه وقدّسه ومجده عما لا يليق به).

وقوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾. أي تقدّسه السماوات السبع وتمجّده وتعظمه سبحانه، وكذا الأرض، ومن فيهن من سائر المخلوقات، والكل يشهد أنه الرب الواحد الأحد، الإلـه الحق الصمد.

وقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾. قال قتادة: (كل شيء فيه الروح يسبح، من شجر أو شيء فيه الروح). قلت: بل الحيوانات والنباتات والجمادات كلها تسبح الله العظيم، في لغات لا يعلمها إلا الله السميع العليم.

وفي التنزيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: 41].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: [كنا نسمَعُ تسبيح الطعام وهو يُؤكل][1]. وفي رواية: [كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه].

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن][2].

الحديث الثالث: يروي ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [المؤذن يُغْفَرُ له مَدىٰ صوته. ويستغفِرُ له كُلُّ رَطْبٍ ويابِسٍ. وشاهدُ الصلاة يُكتب له خمسٌ وعشرون حسنةً، ويُكَفَّرُ له ما بينهما][3].

الحديث الرابع: أخرج البخاري في صحيحه عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَةَ الأنصاري ثم المازني، عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري قال له: [إني أراك تُحِبُّ الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمِكَ أو

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3579)، والترمذي (3633)، وأخرجه ابن حبان (6493).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2277)، وأحمد(5/ 89)، والترمذي (3624)، وأخرجه الطيالسي (1907)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه(6482).

(3) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (724) ـ كتاب الأذان، باب فضل الأذان وثواب المؤذنين.

بادِيَتِكَ فأذَّنْتَ للصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدىٰ صوتِ المؤذِّن جِنٌّ ولا إِنْسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ][1].

ورواه ابن ماجة بلفظ: [إذا كنت في البوادي ، فارفع صوتك بالأذان. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يَسْمَعُه جِنٌّ ولا إِنْسٌ ولا شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلا شهِدَ له].

الحديث الخامس: أخرج أحمد ورجاله ثقات من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إن نبيَّ الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بـ «لا إله إلا الله» ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ووضعت لا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنَّ حَلْقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر] الحديث[2].

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾. أي: يحلم على عباده فلا يعاجل العصاة منهم بالعقوبة ، بل يؤجلهم ويُنْظرهم ويفسح لهم وقتاً للتوبة ، فإن تابوا غفر لهم.

45 ـ 48. قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: مكرُ الله تعالىٰ بالمشركين بجعل المانع الحائل بين القرآن وقلوبهم وآذانهم مقابل تكذيبهم واتهامهم النبي ﷺ بالرجل المسحور ، فلا يهتدون سبيلاً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (609) ـ كتاب الأذان. باب رفع الصوت بالنداء. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (591) ـ كتاب الأذان والسّنة فيها ، الباب السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 169 ـ 170)، والبخاري في «الأدب المفرد» (548)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (79)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (134).

فعن قتادة: (قوله: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ قال: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفِعُوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم).

والمقصود: أن الله تعالىٰ جعل مانعاً حائلاً بين القرآن والمشركين جزاء استهتارهم بالوحي العظيم. قيل: ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ بمعنىٰ ساتر. وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدىٰ.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾. ﴿ أَكِنَّةً ﴾: جمع كنان ، وهو ما ستر الشيء ، والمراد ما يغشىٰ القلب. ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ، أي: لئلا يفهموا هذا القرآن. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة عند قراءتك عليهم القرآن أكنة ، وهي جمع كنان ، وذلك ما يتغشّاها من خذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلىٰ عليهم).

وقوله: ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾. الوَقر في الأذن: الثقل. قال ابن كثير: (وهو الثِّقلُ الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به).

وقوله: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾. أي: إذا عظمت ربك وحده أثناء تلاوتك القرآن ـ يا محمد ـ وقلت موحداً: لا إله إلا الله أدبر المشركون راجعين. قال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله: (ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله ، ثم تلا: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾. وقال قتادة: (إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله» ، أنكر ذلك المشركون ، وكبُرت عليهم ، وَصَافَّها إبليس وجنودُه ، فأبىٰ الله إلا أن يُمْضِيَها وينصرَها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج ، ومن قاتَلَ بها نُصِرَ ، إنما يَعْرِفُها أهل هذه الجزيرة من المسلمين ، التي يقطعها الراكب في ليال قلائلَ ، ويسيرالدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها).

وقوله: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾. قال القرطبي: (قيل: الباء زائدة في قوله ﴿ بِهِۦٓ ﴾ أي يستمعونه. وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور ، كما أخبر الله تعالىٰ به عنهم ، قاله قتادة وغيره. ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي متناجون في أمرك). قال مجاهد: (هي مثل قيل الوليد بن المغيرة

ومن معه في دار الندوة). وقال قتادة: (ونجواهم أن زعموا أنه مجنون، وأنه ساحر، وقالوا: أساطير الأولين).

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. أي: إذ يقول الظالمون أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة للناس: إن تتبعون إلا رجلاً مَطْبوباً قد خبله السحر فاختلط عليه أمره، ومرادهم بذلك تنفير الناس عن النبي ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

قال مجاهد: (مخرجاً، الوليد بن المغيرة وأصحابه). قال القاسمي: (أي: مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي عن الحق والهداية بك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه. وأن الله قد خذلهم عن إصابته. أو المعنىٰ: فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد، بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد. كالمتحير في أمره لا يدري ماذا يصنع).

49 ـ 52. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الآيات: استهزاء الكافرين بأمر البعث بعد فناء العظام وزوال الأجسام، وتحدّي الله لهم بأنهم لو كانوا حجارة أو حديداً أو أكبر من ذلك فإنهم مدعُوّون للوقوف بين يديه مع جميع الأنام، ويظنون حين ذلك أنهم ما لبثوا في غرور الدنيا إلا القليل من الأيام.

فقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: غُباراً). وقال مجاهد: (رفاتاً: تراباً). قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره مخبراً عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش، وقالوا بِعَنَتِهِم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ لم نتحطم ولم نتكسّر بعد مماتنا وبلانا، ﴿وَرُفَٰتًا﴾ يعني تراباً في قبورنا).

وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ـ إنكار منهم للبعث بعد الموت.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 78 ـ 79].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات: 10 ـ 12].

وفي سنن الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول لَهُ: ألم أجعلْ لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولَداً، وسَخَّرْتُ لك الأنعامَ والحرثَ، وتركتُكَ ترأسُ وتَرْبَعُ، فكنتَ تَظُنُّ أنكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾.

قال القاسمي: (أي يعظم في نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم علىٰ الخالق إحياؤه. فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم. فكيف، إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد). وقال مجاهد: (ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله كما كنتم). وقال الضحاك: (كونوا الموت إن استطعتم، فإن الموت سيموت. وليس شيء أكبر في نفس ابن آدم من الموت).

وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾. أي: فسيقولون بعد إقامة الحجة عليهم ولزومها بهم: فمن يعيدنا؟! ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. قال قتادة: (﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال: السماء والأرض والجبال، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي خلقكم).

وقوله: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: سيحركونها إليك استهزاء). وقال قتادة: (أي يحركون رؤوسهم تكذيباً واستهزاء). وأصل النّغض في كلام العرب: حركة بارتفاع ثم انخفاض، أو بالعكس.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾. أي: يقولون لك ـ يا محمد ـ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2558) ـ أبواب صفة القيامة. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978).

فمتىٰ البعث الذي تخبرنا عنه ، ومتىٰ يعيدنا خلقاً جديداً! فقل لهم: إن الأمر قد يكون قريباً ، فكل آت قريب.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾. قال ابن عباس: (يقول: بأمره). قال قتادة: (أي بمعرفته وطاعته). قال ابن كثير: (أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته). وقال ابن جرير: (معناه: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته ، ودعائه إياكم ، ولله الحمد في كل حال).

قال القاضي: (استعار لهما الدعاء والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما. وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13 ـ 14].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض][1].

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال قتادة: (أي في الدنيا ، تحاقرت الدنيا في أنفسهم وقلَّت ، حين عاينوا يوم القيامة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: 102 ـ 104].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112 ـ 114].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: 55].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812) ، وأخرجه مسلم (2787) ، وغيرهما من أهل السنن.

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 46].

وفي سنن الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متىٰ يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][1].

53 ـ 57. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أن يأمر عباده اختيار الكلام الأحسن في مخاطباتهم ومحاوراتهم، وإلا نزغَ الشيطان بينهم وأوقعهم في شباك العداوة والبغضاء والاقتتال. إنّ ربكم أيها الناس أعلم من يستحق الهداية أو الخذلان، وأعلم بمن في السماوات والأرض لا يخفىٰ عليه شيء، وقد فضل بعض النبيين على بعض وآتىٰ داود زبوراً، فلا يُستبعد أن يؤتي محمداً قرآناً. إن آلهة المشركين لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويلاً. وكذلك فإن فئة الجن الذين كان بعض الإنس يعبدونهم أسلموا فهم يبتغون مرضاة ربهم ويخافون عذابه ـ وما زال أولئك الإنس يعبدونهم ـ وعذاب الله يحذره المؤمنون وسيحيط يوماً بالكافرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. قال الحسن: (التي هي أحسن، لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك). قال ابن كثير: (يأمر تبارك وتعالىٰ رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة،

(1) حديث حسن. انظر تخريج «المشكاة» (5527)، وصحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1980).

فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نَزَغَ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلامَ إلى الفعال ، ووقع الشرُّ والمخاصمة والمقاتلة ، فإنّ الشيطان عدوٌّ لآدم وذريته من حينَ امتنع من السجود لآدم ، فعداوتُهُ ظاهرة بينة ، ولهذا نهىٰ أن يُشير الرجلُ إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان يَنْزَغُ في يده ، فربما أصابه بها).

قلت: وقد حفلت النصوص القرآنية والنبوية بآفاق هذه المعاني السامية:

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: 96 ـ 98].

وفي صحيح السنة المطهرة:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ تَحابّوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلام بينكم](1).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والبيهقي بإسناد حسن عن شقيق قال: [لبّىٰ عبد الله رضي الله عنه على صفا ، ثم قال: يا لسان قل خيراً تغنم ، اسكت تسلم ، من قبل أن تندم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال: لا ، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: أكثر خطايا ابن آدم في لسانه](2).

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (54) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني (3/ 78/ 1 ـ 2)، والبيهقي كما في «الترغيب» (4/ 8)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (534). وقال الألباني: وهذا إسناد جيد ، وهو على شرط مسلم.

رسول الله ﷺ: [لا يُشيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يَدْري أحدُكم لعلَّ الشيطانَ أن يَنْزغ في يده ، فيقع في حفرة من نار][1].

وفي رواية لمسلم: [من أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يدَعه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه].

وقوله تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾. أي: ربكم أعلم بكم أيها الناس ، فمن استحق منكم الهداية وفّقَهُ سبحانه لطاعته ، ومن كان قاسي القلب عن الإخبات لربه عز وجل وأصرّ على معصيته خذله عن الهداية وطريق النجاة ، وأسْلمه للعذاب ، وإنما أنت ـ يا محمد ـ نذير ولست عليهم بوكيل. قال ابن جريج: (﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ قال: فتؤمنوا ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ ، فتموتوا على الشرك كما أنتم).

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. قال القاسمي: (أي فلا يخفىٰ عليه شيء فيهما. فهو أعلم بهؤلاء[2] ضرورة. وفيه إشارة إلى رحمته تعالىٰ ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها. وإلى مشيئته فيمن يصطفي لرسالته ، ويختار لنبوّتِه ، ويعلمه أهلاً لها).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾. قال النسفي: (فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ). قال ابن جريج: (كلم الله موسىٰ ، وأرسل محمداً إلى الناس كافة). وقال قتادة: (اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلّم موسىٰ تكليماً ، وجعل الله عيسىٰ كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، وهو عبد الله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ، وآتىٰ سليمان مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتىٰ داود زبوراً ، كنا نحدّث دعاء عُلِّمه داود ، تحميد وتمجيد ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر).

وفي التنزيل: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: 253].

قلت: ولا شك أن محمداً عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء والرسل صلوات الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7072)، ومسلم (2617)، وأحمد (2/ 317)، وابن حبان (5948) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) يعني المشركين من قريش الذين كانوا يعادون رسول الله ﷺ ويكفرون بالوحي والبعث بعد الموت.

وسلامه عليهم أجمعين ، وسيد ولد آدم ، وما جاء من النهي عن التفضيل بين الأنبياء ـ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً ـ: [لا تفضلوا بين أنبياء الله. . .] الحديث[1] ، فإن المقصود النهي عن التفضيل بينهم بمجرد التشهِّي والعصبية ، لا بمقتضىٰ الدليل ، وأما ما ثبت من ذلك في التنزيل أو في السنة الصحيحة فإن الأصل في ذلك الاتباع.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾. تنبيه على فضله وشرفه ـ ذكره ابن كثير. قال القرطبي: (الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد. أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتىٰ محمد القرآن. وهو في مُحاجّة اليهود).

وقال النسفي: (﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ دلالة على وجه تفضيله[2] ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب في زبور داود ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾. وهم محمد وأمته).

قلت: وكل ما سبق يدخل في مفهوم الآية ، فهي تشير إلى فضل نبينا محمد ﷺ وأمته ، وكذلك إلى فضل داود عليه السلام وتلاوته ، وقد روىٰ البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [خُفِّفَ على داود القرآنُ ، فكان يأمُرُ بِدابَّتِهِ لِتُسْرَجَ ، فكان يقرأ قبل أن يفرُغَ][3] ـ يعني القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾.

روىٰ مسلم في صحيحه عن عبد الله: [﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2373) ـ كتاب الفضائل ـ باب من فضائل موسىٰ ﷺ ، في أثناء حديث طويل.

(2) يعني النبي محمداً عليه الصلاة والسلام.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4713) ـ كتاب التفسير. باب قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

واستمسك الإنس بعبادتهم ، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾][1] .

ثم ساقه من طريق أخرىٰ إلىٰ ابن مسعود وفيه: (فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ، فنزلت).

ورواه الحاكم ـ على شرط مسلم ـ وفيه: [فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ وذكر الآيتين ، إلى قوله ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ﴾].

قال ابن عباس: (الوسيلة: القربة). وقال قتادة: (الوسيلة: القربة والزلفىٰ).

وخلاصة المعنىٰ كما قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ يقول: يبتغي المدعُوّون أرباباً إلى ربهم القُربة والزُّلفة ، لأنهم أهل إيمان به ، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرۡجُونَ﴾ بأفعالهم تلك ﴿رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ﴾ بخلافهم أمره ﴿عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ متقىٰ).

58 ـ 60. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٥٨ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾ .

في هذه الآيات: قضاءُ الله تعالىٰ بإهلاك أهل القرىٰ حالة عتوهم وبغيهم وتمردهم على دينه ورسله ، وإنّ كثيراً من الآيات والمعجزات لا تزيد الظالمين إلا عتواً وكبراً. وحضُّ الله نبيّه ﷺ على المضي في إبلاغ دعوته وهو سبحانه يعصمه من الأذىٰ ، وقد

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3030) ، وأخرجه البخاري (4715) ـ كتاب التفسير ـ عند هذه الآية من سورة الإسراء ، وأخرجه الواحدي (682) ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الإسراء ، آية (56 ـ 57).

أراه الله ليلة الإسراء عجائب قدرته ، وشجرة الزقوم التي هي طعام أهل الشرك الذين يزدادون طغياناً وعتواً ، وعذاب الله سيحيط بهم قريباً.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ . المعنىٰ: يقول جل ذكره: ما من قرية إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ـ أي الموت ـ فمبيدوهم استئصالاً قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء كقتل بالسيف أو غير من ذلك من صنوف العذاب عذاباً شديداً. قضاء الله وحكمه وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ.

قال قتادة: (قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ ، إما أن يهلكها بموت ، وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره وكذبوا رسله).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: 8 ـ 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

ومن صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظَهَرَ السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم قوم صالحون ، يصيبهم ما أصابَ الناسَ ، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته][(1)].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهر الزّنا والرّبا في قرية ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله][(2)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 41) ، والحاكم (4/ 523) ، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 441/ 2) ، عن عائشة مرفوعاً. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم عن ابن عباس. انظر صحيح الجامع (692) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ (2/ 1210) ـ لتفصيل مفهوم الآية وعلاقتها بالقدر.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك ، ورجاله رجال الصحيح ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : [سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزدرعوا ، فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن نُؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ مَنْ قبلهم. قال : لا ، بل أستأني بهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾][1] .

وفي رواية : [قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذَهَباً ، ونؤمِنُ بك . قال : وتفعلون؟ قالوا : نعم . قال : فدعا ، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : إنّ ربك يقرأ عليك السلامَ ويقول لك : إن شئت أصبحَ الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذَّبتُـهُ عذاباً لا أُعَذِّبهُ أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة . فقال : بل باب التوبة والرحمة . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾][2] .

وتأويل الآية : أي كما أن معجزة صالح ﷺ لم تنفع في جلب ثمود إلىٰ الإيمان، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم معجزة يعطيها الله لمحمد عليه الصلاة والسلام ، قياساً على عبر التاريخ والزمان ، وعلى سنة الأولين مع رسلهم عبر القرون والدهور والأيام .

وعن قتادة : (﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ : إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته ، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون) .

وقوله : ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ . قال الحسن : (يقول : أحاط بالناس ، عصمك من الناس) . وقال : (يقول : أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك ، فعرف أنه لا يُقتل) . وعن مجاهد : (﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ قال : فهم في قبضته) . وقال قتادة : (أي منعك من الناس حتىٰ تبلغ رسالة ربك) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (310) ، وأحمد (1/ 258) ، وأخرجه الطبري (2298) ، وصححه الحاكم (2/ 362) ووافقه الذهبي ، وانظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الإسراء ، آية (59) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (1/ 242 ـ 345) ، وإسناده جيد كما ذكر الحافظ ابن كثير ، السيرة النبوية (1/ 362) ، وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 258) .

والخلاصــة: يحض الله تعالىٰ نبيه ﷺ على المضي في إبلاغ دعوته، وله الضمان من الله بالعصمة من أذىٰ الناس ممن أراد به سوءاً وهلاكاً.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال: هي رؤيا عَيْنٍ أُرِيَها رسول الله ﷺ ليلة أسرِيَ به، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾: شجرة الزقوم][1].

قال القاسمي: (قال الأكثرون: يعني ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبي ﷺ للناس، أنكر بعضهم ذلك وكذّبوا. وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين. فكانت فتنة، أي اختباراً وامتحاناً).

يروي ابن جرير عن ابن عباس وقتادة: (أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم هذا ـ يعني النبي صلوات الله عليه ـ أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر! فكذبوا بذلك). وفي رواية: (أن أبا جهل قال: أيخوفني بشجر الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول: تزقموا، فما نعلم الزقوم غير هذا).

قال النسفي: (﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ معناه: والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة، لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾. فوصفت بلعن أهلها على المجاز، ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار: ملعون، ولأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة). وقيل: الملعون بمعنىٰ المؤذي، لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم. ومن ثمّ فوصفها بما سبق إما مجاز مرسل أو استعارة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: 62 ـ 65].

قال ابن جريج: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين، والشياطين ملعونون).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 43 ـ 46].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4716) ـ كتاب التفسير، سورة الإسراء، آية (60).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ . قال رسول الله ﷺ: [لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشَهم ، فكيف بمن يكون طعامه!؟][(1)] .

وقوله: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ . أي: ونخوف هؤلاء الكفار بالوعيد والعذاب، والشقاء والنكال، وطعام الزقوم الذي هو كالمهل يغلي في البطون، وما يزيدهم هذا التخويف إلا تمادياً في الكفر والضلال ، وعناداً وكبراً واستهزاءً بما يوصف لهم من سيِّئ الحال والمآل ، وذلك من خذلان الله لهم ومكره بهم.

61 ـ 65. قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله خبر سجود الملائكة لآدم بأمره ، واستكبار إبليس عن ذلك وتَعَهُّده بإغواء الذرية ، وتَعَهُّد الله إدخاله وأتباعه في نار جهنم ، وإطلاقه في هذه الحياة الدنيا يدعو إلى معصية الله ليستجيب له المبطلون ، وينجو بعون الله من كيده المؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ . تذكير من الله تعالىٰ عباده عداوة إبليس القديمة لأبيهم آدم وذريته ، ليحذروا من مكر هذا المستكبر اللعين ، الذي أظهر الحسد والبغضاء وأبىٰ أن يمتثل أمر الله بالسجود لآدم ، وتعزز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، وقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن عباس. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5126).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فيه إظهار إبليس الجراءة والكفر، والرب سبحانه يَحْلُم ويُنْظِر، يقول: أرأيت هذا الذي أمرتني بالسجود له، تكريماً منك إليه، لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ولأستميلنهم ولأضلنهم إلا قليلاً منهم. قال مجاهد: (﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، قال: لأحتوينهم). وقال ابن عباس: (يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً). وقال ابن زيد: (لأضِلّنهُم) ـ وكلها متقاربة في المعنىٰ متكاملة.

أخرج الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالىٰ: وعزتي وجلالي: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.

قال مجاهد: (موفوراً: وافراً). وقال ابن جرير: (يقول: ثوابا مكثوراً مكملاً). والمعنىٰ: توعد من الله تعالىٰ أتباع إبليس بالشقاء. قال قتادة: (عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء).

وقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال مجاهد: (اللعب واللهو). أو قال: (باللهو والغناء). والمعنىٰ: استخفف واستجهل من استطعت منهم بصوت الغناء واللعب لتشغلهم بفاحش القول ومزامير اللهو عن طاعة الله عز وجل. وفي كلام العرب: استفزه: استخفه. والفز الخفيف.

2 ـ وقال ابن عباس: (صوته كل داع دعا إلى معصية الله).

3 ـ وقال قتادة: (﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قال: بدعائك).

وكلها معان يحتملها التأويل وبيان الآية، ويشمل صوته الوسوسة والغناء الماجن والمزمار.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 261)، والبيهقي في «الأسماء» ص (134)، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 29)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (104).

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال قتادة: (إن له خيلاً ورجلاً من الجنّ والإنس، وهم الذين يطيعونه). وقال: (الرجال، المشاة). وقال مجاهد: (كل راكب وماشٍ في معاصي الله تعالىٰ).

2 ـ قال ابن عباس: (خيله: كل راكب في معصية الله، ورجله: كل راجل في معصية الله). وقال مجاهد: (ما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجال إبليس. الرَّجْل: جمع راجل، كما التَّجْر: جمع تاجر، والصَّحْب: جمع صاحب).

3 ـ قال النسفي: (﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ اجمع وصح بهم، من الجلبة وهو الصياح ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بكل راكب وماش من أهل العيث). وقال ابن كثير: (يقول: واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتهم ورجّالتهم).

وكلها معان متقاربة متكاملة في المعنىٰ، مفادها استفزاز إبليس اللعين بني آدم إلى معصية الله والكفر به وسوء الظن به تعالىٰ.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: [يقول الله عزَّ وجل: إني خلقت عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم](1).

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

أ ـ أما الأمـوال:

1 ـ قال مجاهد: (ما أكل من مال بغير طاعة الله). أو قال: (التي أصابوها من غير حلها).

2 ـ قال عطاء بن أبي رباح: (الشرك في أموال الربا).

3 ـ قال الحسن: (مرهم أن يكسبوها من خبيث، وينفقوها في حرام). وقال: (قد والله شاركهم في أموالهم، وأعطاهم الله أموالاً فأنفقوها في طاعة الشيطان في غير حق الله تبارك اسمه). وقال ابن عباس: (كل مال في معصية الله). وقال ابن زيد: (مشاركته إياهم في الأموال والأولاد، ما زَيَّنَ لهم فيها من معاصي الله حتىٰ ركبوها).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2865)، وأخرجه أحمد في مسنده (4/ 266)، وغيرهما، من حديث عياض بن حمار مرفوعاً.

4 ـ قال ابن عباس: (مشاركته في الأموال أن جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله). وقال الضحاك: (يعني ما كانوا يذبحون لآلهتهم). قال ابن جرير: (فكل ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصي الله فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس).

ب ـ وأما الأولاد:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ قال: أولاد الزنا). وقال الضحاك: (أولاد الزنا، يعني بذلك أهل الشرك).

2 ـ قال ابن عباس: (ما قتلوا من أولادهم، وأتوا فيهم الحرام). يعني وأدهم أولادهم وقتلهم.

3 ـ قال الحسن: (قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم، فمجسوا وهوّدوا ونصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشيطان). وقال قتادة: (قد فعل ذلك، أما في الأولاد فإنهم هوّدوهم ونصّروهم ومجّسُوهم).

4 ـ قال أبو صالح، عن ابن عباس: (مشاركته إياهم في الأولاد، سموا عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان).

قال ابن جرير: (وأولىٰ الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولود وَلَدته أنثىٰ عُصِيَ الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله. أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه مَنْ وُلِدَ ذلك الولدُ له أو منه).

قلت: ويدخل في ذلك ترك التسمية عند الجماع، والتهاون بمثل هذه الوصايا النبوية.

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جَنِّبْنا الشيطان وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشيطان أبداً][1].

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. قال النسفي: (وعِدْهم المواعيد

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (141)، (3271)، ومسلم (1434)، وأحمد (1/ 217)، وأبو داود (2161)، والترمذي (1092)، وابن ماجة (1919)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (983)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب).

وفي التنزيل: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: 22].

وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾. قال قتادة: (وعباده المؤمنون ، وقال الله في آية أخرىٰ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 100]).

قال ابن كثير: (إخبارٌ بتأييده تعالىٰ عباده المؤمنين ، وحِفْظه إياهم ، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 42].

ومن كنوز صحيح السُّنَّة في آفاق معنىٰ هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن سبرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام فقال: تُسْلِمُ وتذرُ دينك ودينَ آبائك؟! فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تُهاجِرُ وتدع أرضك وسماءك.. فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتُنْكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد...][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: [وآمركم أن تذكروا الله تعالىٰ ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتىٰ إذا أتىٰ على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 483) ، والنسائي في السنن (6/ 21 ـ 22) ، وابن حبان في صحيحه (4593) ، وسنده لا بأس به ، وانظر صحيح الجامع الصغير (1648).

لا يَحْرِزُ نفسَهُ من الشيطان إلا بذكر الله تعالىٰ][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ المؤمن لَيُنْضي شياطينه ، كما يُنْضي أحدُكم بعيرَه في السفر][2] . يُنْضي ، أي: يأخذُ بناصيته ويقهرُه.

66 ـ 70. **قوله تعالىٰ**: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالىٰ على عباده تسخيره الفلك لهم تسير في البحر لمنافعهم ، وإذا مسّهم الضر أثناء ركوبهم أفردوه تعالىٰ بالدعاء ثم ما لبثوا أن عادوا لشركهم بعدما أنجاهم. فهل أمنتم ـ أيها الناس ـ خسفه البرّ بكم أو إعادتكم في ظلمات البحر تعصف بكم الرياح لتهلككم. إنه تعالىٰ هو الذي كَرَّمَكُم وحَمَلَكُم في البر والبحر ورزقكم وفَضَّلكم على كثير من عباده ثم أكثركم يشركون.

فعن ابن عباس: (﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ يقول: يجري الفلك). وقال قتادة: (يسيرها في البحر). وقال ابن زيد: (يجريها). قال ابن جرير: (﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ لتوصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجاراتكم ومطالبكم ومعايشكم ،

(1) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند (4/ 202) ، ورواه الترمذي في السنن (2867) ، (2868) في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصيام والصلاة والصدقة. وهو حديث صحيح. وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

(2) إسناده حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 380) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3586).

وتلتمسون من رزقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾). قال القاسمي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث سهل لكم أسباب ذلك).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾. أي: إن أصابكم خوف الغرق في البحر والوقوع في الهلاك أفردتم الله تعالىٰ بالتوحيد والدعاء والتعظيم، فإذا ذهب الخوف عدتم إلى العصيان وجحود النعم وأغفلتم شكر المنعم سبحانه.

قال النسفي: (ذهب عن أوهامكم كل ما تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، أو ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص). قال ابن كثير: (﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، أي: سَجِيَّتُه هذا، يَنْسَىٰ النِّعم ويجحَدُها، إلا من عَصَم الله).

وقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ـ يعني ناحية البر. والمقصود: هل ظننتم إن نجاكم من أهوال البحر وأبلغكم البر ثم عدتم إلى كفر نعمه وعصيانه ألا ينتقم منكم ويرسل عليكم الزلازل والخسوف والدمار!؟.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾. قال قتادة: (حجارة من السماء). وقال ابن جريج: (مطر الحجارة إذا خرجتم من البحر). وعن مجاهد: (هو المطر الذي فيه حجارة). وأصل الحاصب: الريح تحصب بالحصباء، والحصباء: الأرض فيها الرمل والحصىٰ الصغار.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: 34].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 74].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 16 ـ 17].

وفي صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

ﷺ: [لا تقوم الساعة حتىٰ يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهَر الفتن ، ويكثر الهرج ـ وهو القتل][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال: [في هذه الأمة خَسْفٌ ، ومَسْخٌ ، وقَذْف ، إذا ظهرت القِيانُ والمعازِفُ ، وشُرِبَتِ الخمورُ][2].

وفي رواية من حديث ابن عمر بلفظ: [في هذه الأمة خسف ، ومسخ ، وقذفٌ ، في أهل القدر].

ورواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بلفظ: [في أمتي خسفٌ ومَسْخٌ وقذف].

ورواه ابن ماجة من طريق عبد الله ، عن النبي ﷺ ، بلفظ: [بين يدي الساعة مسخٌ ، وخَسْفٌ ، وقَذْف].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عائشة مرفوعاً: [يكون في آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومسْخٌ وقذْف. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبثُ][3].

ورواه من طريق عمران بن حصين وفيه: (فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتىٰ ذاك؟ قال: إذا ظهرت القَيْناتُ والمعازِفُ وشُرِبَت الخمور).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ـ أي ناصراً يمنعكم من بأس الله وعذابه ، أو ينقذكم من أهواله وآلامه.

وقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾. قال ابن عباس: (القاصفُ ريح البحار التي تكسِرُ المراكب وتُغرِقها). أي: أم هل أمنتم أن يعيدكم إلى البحر ـ بعد أن نجاكم إلى البر ـ فيرسل عليكم ريحاً شديدة فيغرقكم بها بكفركم. قال القرطبي: (القاصف: الريح الشديدة التي تكْسر بشدة ، من قصف الشيء يَقْصِفُه ، أي كسره بشدة. والقصف: الكسر ، يقال: قصفت الريح

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1036) ـ كتاب الاستسقاء. باب ما قيل في الزلازل والآيات.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (1801)، وصحيح الجامع (4149)، (4150)، (2853)، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1787).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1776) ، وصحيح الجامع (8012) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (987).

السفينة. وريح قاصف: شديدة). وقال ابن كثير: (﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ ، أي: يَقْصِف الصواري[1] ، ويُغرق المراكب).

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ . قال ابن عباس: (نصيراً). وقال مجاهد: (نصيراً ثائراً). أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: (ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

ردٌّ على من قصَرَ تكريم الله الإنسان على العقل، بل العقل جزء من هذا التكريم الشامل. وقد جاء في كلام المفسرين أكثر من تأويل لآفاق هذا التكريم:

التأويل الأول: قيل باليدين يأكل فيهما. قال ابن جُريج: (وفضلناهم في اليدين يأكل بهما، ويعمل بهما، وما سوىٰ الإنس يأكل بغير ذلك).

التأويل الثاني: بتسليط الإنسان على غيره وتسخير الخلق له. قال ابن جرير: (بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم. قال: ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق).

التأويل الثالث: قيل بل التكريم بالنطق والتمييز. قال الضحاك: (كرّمهم بالنطق والتمييز).

التأويل الرابع: قيل بل التكريم بامتداد القامة وانتصابها. قال عطاء: (كرمهم بتعديل القامة وامتدادها).

التأويل الخامس: قيل كرمهم بحسن الصورة. وقيل بل بالكلام والخط. وقيل بل بالفهم والتمييز. ذكره القرطبي.

التأويل السادس: قيل بل كرمهم بجعل محمد ﷺ منهم. قال محمد بن كعب: (بأن جعل محمداً ﷺ منهم).

التأويل السابع: قيل بل أكرم الرجال باللّحىٰ والنساء بالذوائب. ذكره بعض المفسرين.

---

(1) صواري السفينة: هي الأعمدة التي ينصب عليها الشراع.

التأويل الثامن: قيل بل كرمهم بالعقل وهو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله. قال القرطبي: (إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء).

ومن المفسرين من جمع بعض هذه الصفات في معنىٰ التكريم ، كما أفاد القاسمي رحمه الله حيث قال: (﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ : أي بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على ما في الأرض والتمتع به ، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ : أي يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي فنون المستلذات التي لم يرزقها غيرهم من المخلوقات ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي عظيماً ، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده).

وكذلك فيما قاله الإمام النسفي رحمه الله في التفسير: (﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل والنطق والخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد ، والاستيلاء وتسخير الأشياء ، وتناول الطعام بالأيدي).

وأشمل من ذلك ما ذكره الإمام القرطبي والحافظ ابن كثير رحمهما الله تعالىٰ. فقد قال القرطبي: (كرّمنا: تضعيف كرم ، أي جعلنا لهم كرماً أي شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوىٰ بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم ، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المركّبات من الأطعمة ، وغاية كل حيوان يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مركب. قال: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحَلْوىٰ ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفىٰ عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفِراسة).

وقال الحافظ ابن كثير: (يخبر تعالىٰ على تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه

لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، وكقوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أن يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه ، وجعل لهم سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم في البر أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال ، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات).

قلت : فالتكريم الذي امتن الله به سبحانه على الإنسان هو : أن خلقه مخلوقاً متكاملاً بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً وعقلاً وهيئة ، في أحسن تقويم من فضله ، ثم أسجد له ملائكته ، وسخَّر له كَوْناً واسعاً يتذلل له ولطاعته ، وهيأ له في الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض لتستقبل من قام بأمره.

فلو كان التكريم كما يزعم بعضهم بالعقل فقط للزم أن يكون إبليس مجنوناً ، لأنه قال : ﴿أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ ، ومن قال هذا فليراجع عقله. وللزم كذلك أن من سلبه سبحانه عقله فقد أهانه ، كلا ـ فالكل مُفْتَقِرٌ إلى رحمته ، والكل محفوف بما لا يبصر من نعمه ، ولا يعْدِل شيء في الدنيا دخولَ جنته ، والخلود في ظل رضوانه ونعيمه وكرمه.

خبر النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عتبة بن عبد ، عن النبي ﷺ قال : [لو أن رجلاً يُجَرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالىٰ لحقِره يوم القيامة](1).

فالكل تحت ألطافه ورحمته سبحانه ، والكل محتاج إلى فضله وآلائه.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (185/4)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (15/1/1). ورواه أبو نعيم في «الحلية» (15/2). وانظر صحيح الجامع (5125)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (675/1)، وكتابي: تحصيل السعادتين (94 ـ 101) لمزيد من تفصيل هذا البحث.

71 ـ 72. **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن توزيع الناس يوم الحشر خلف أئمة منهاجهم ودينهم، فمن أوتي كتابه بيمينه كان من أهل السعادة. ومن كان في الدنيا أعمىٰ عن حجج الله بُعِثَ يوم القيامة أعمىٰ وأضل طريقاً.

فقوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال مجاهد: (نبيّهم).

2 ـ وقال أبو العالية: (بأعمالهم).

3 ـ وقال الضحاك: (بكتابهم).

4 ـ وقال الحسن: (بكتابهم الذي فيه أعمالهم).

5 ـ وقال ابن عباس: (الإمام ما عمل وأملىٰ، فكتب عليه، فمن بعث متقياً لله جعل كتابه بيمينه، فقرأه واستبشر، ولم يظلم فتيلاً، وهو مثل قوله: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 79]. والإمام: ما أملىٰ وعمل).

قلت: والراجح ما اختاره شيخ المفسرين في معنىٰ الإمام ـ قال ابن جرير: (معنىٰ ذلك: يوم ندعو كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا، لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما اؤْتُمَّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولىٰ مالم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها).

قلت: ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: [يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كان يَعْبُدُ شيئاً فَلْيَتَّبِعْهُ، فيتَّبِعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، ويتَّبِعُ من كان يعبُدُ القمرَ القمرَ، ويتبعُ مَنْ كان يعبد الطواغيت الطواغيتَ..] الحديث[1].

وقوله: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7437) ـ كتاب التوحيد، وأخرجه مسلم (182) ـ كتاب الإيمان.

قال ابن كثير: (أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحبُّ قراءته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾).

وعن قتادة: (﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قال: الذي في شق النواة). فالفتيل هو الخيط المستطيل المنفتل في شق النواة، أي: والله تعالىٰ لا يظلم عبده ولا ينقصه من ثوابه أدنىٰ شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قال النسفي: (ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأعمىٰ أي أضل طريقاً).

أي: من كان في الدنيا أعمىٰ عن حجج الله وآياته بعثه الله يوم القيامة أعمىٰ، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 124 ـ 126] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ [الإسراء: 97].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه علىٰ وجهه يوم القيامة][1].

73 ـ 75. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن تأييده رسوله ﷺ وتثبيته وعصمته من كيد

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4760)، ومسلم (2806)، وأحمد (3/ 229)، وابن حبان (7323) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

المشركين ومحاولات الفجار الماكرين. وأنه تعالىٰ هو حافظه ومؤيده ومظهر دينه.

قال النسفي: (المعنىٰ: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ لتقول علينا مالم نقل، يعني ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلاً، ولكنت لهم ولياً، وخرجت من ولايتي ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ ركوناً قليلاً، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت ﴿إِذٗا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنىٰ ركنة ﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك، كما قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾، الآية. وأصل الكلام: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات، لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار).

76 ـ 81. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أنه إن كاد قومك ليستخفونك من الأرض ليخرجوك منها فليعلموا أنهم إن فعلوا لم يلبثوا بعدك إلا قليلاً. سنة الله في الأمم ورسلها ولا تغيير لسنته تعالى ولا تجد لها تحويلاً. فحافظ على الصلوات المفروضة وبادر إلى قيام الليل، فعسىٰ بذلك أن يُقَوِّيك ربك ويبعثك مقاماً محموداً. واسأل ربك فرجاً قريباً ومخرجاً إلى مكان تأمن فيه على دينك وعلى أصحابك، واستبشر بالحق يعلو قريباً ويزهق الباطل، فإن الباطل كان زهوقاً.

فقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ الآية. قال ابن جرير:

(يقول عز وجل: وإن كاد هؤلاء القوم ليستفزونك من الأرض: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتىٰ أهلكهم بعذاب عاجل). وقال قتادة: (ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتىٰ أهلكهم الله يوم البدر).

وقوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾. قال قتادة: (أي سنة الأمم والرسل كانت قبلك كذلك إذا كذبوا رسلهم وأخرجوهم، لم يناظروا أن الله أنزل عليهم عذابه).

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ـ فيه أقوال مختلفة:

1 ـ عن عبد الله قال: (هذا دلوك الشمس، وهذا غسق الليل، وأشار إلى المشرق والمغرب).

2 ـ قال ابن عباس: (دلوك الشمس: غروبها).

3 ـ وفي رواية عنه: (دلوكها: ميلها). أي: ميلها للزوال، والصلاة عند ذلك صلاة الظهر). وقال ابن عباس: (غسق الليل: بدوّ الليل). وقال مجاهد: (غسق الليل: غروب الشمس). وقال الضحاك: (يعني ظلام الليل).

والراجح في ذلك ما قاله ابن جرير: (عنىٰ بقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: صلاة الظهر، وذلك أن الدلوك في كلام العرب: الميل، يقال منه: دلك فلان إلى كذا: إذا مال إليه).

قلت: وعلى هذا فالآية يدخل فيها أوقات الصلوات الخمسة: الظهر من دلوك الشمس، ثم العصر، والمغرب والعشاء في غسق الليل: أي ظلامه. ثم قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، يعني: صلاة الفجر. قال قتادة: (وقرآن الفجر: صلاة الصبح).

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [فَضْلُ صلاةِ الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر. يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾][1].

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: [عن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (648)، وأخرجه مسلم (649) ح (246)، وغيرهما.

ـ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ـ قال: تشهده ملائكة الليل والنهار][1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فَيَعْرُج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون][2].

وعن قتادة: (وأما قوله ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ فإنه يقول: ملائكة الليل وملائكة النهار يشهدون تلك الصلاة). وقال: (كنا نحدث أن عندها يجتمع الحرسان من ملائكة الله: حرس الليل وحرسُ النهار).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. التهجد هو قيام الليل، وهو ما كان بعد نوم. وقد أمر الله تعالىٰ به رسوله بعد المكتوبات. قال علقمة: (التهجد بعد النوم). وقال الحجاج بن عمرو: (إنما التهجد بعد رقدة).

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: [أنه سُئِل: أيُّ الصلاةِ أفضلُ بعد المكتوبة؟ قال: صلاة الليل][3].

وفي سنن أبي داود بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: [إن كان رسول الله ﷺ ليوقظه الله عز وجل بالليل، فما يجيء السَّحَرُ حتىٰ يَفْرُغَ من حِزْبه][4].

وفي الصحيحين والسنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [يَنْزِلُ ربُّنا تبارك وتعالىٰ كُلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، حينَ يبقىٰ ثلثُ الليل الآخِرُ فيقولُ: مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ؟ مَنْ يسألُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فأغفِرَ له][5].

وفي تأويل قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قولان:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (670) ـ كتاب الصلاة، باب وقت صلاة الفجر، ورواه الترمذي (3135)، والنسائي في «التفسير» (313)، وأحمد في المسند (2/ 474).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (555)، ومسلم (632)، والنسائي (1/ 240)، وأحمد (2/ 486) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1163)، وأبو داود (2429)، والنسائي (3/ 207)، وأحمد (2/ 303) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1316) ـ أبواب قيام الليل. وانظر صحيح سنن أبي داود (1168).

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1880)، وسنن أبي داود (1315) ـ أبواب قيام الليل. باب أي الليل أفضل.

1 ـ يقول: نفلاً لك عن فرائضك التي فرضتها عليك. قال ابن عباس: (يعني بالنافلة أنها للنبي ﷺ خاصة، أُمر بقيام الليل وكُتب عليه). وهو أحد قولي الشافعي، واختاره ابن جرير وقال: (وذلك أن رسول الله ﷺ كان الله تعالىٰ قد خصه بما فرض عليه من قيام لله دون سائر أمته).

2 ـ قيل: بل المقصود أن قيام الليل نافلة للنبي ﷺ على الخصوص، فهي نافلة فضل، لأن الله تعالىٰ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال مجاهد: (النافلة للنبي ﷺ خاصة من أجل أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما عمل من عمل سوىٰ المكتوبة، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل ذلك في كفارة الذنوب، فهي نوافل وزيادة، والناس يعملون ما سوىٰ المكتوبة لذنوبهم في كفارتها، فليست للناس نوافل).

قلت: وكلا المعنيين حق، وتدل عليهما نصوص الكتاب والسنة.

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. قال ابن كثير: (أي: افعل هذا الذي أمرتُك به لِنُقيمك يوم القيامة مقاماً يحمدُك فيه الخلائق كُلُّهم وخالِقهم تبارك وتعالىٰ). وقال ابن جرير: (قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربُّهم من عظيم ما هم فيه من شدَّة ذلك اليوم).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد، عن أبي هريرة مرفوعاً: [المقامُ المَحْمودُ: الشفاعة][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن أبي عاصم في «السنة» ـ بسند حسن لشواهده ـ عن داود الأودي، عن أبيه، عن أبي هريرة: [عن النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. قال: الشفاعة][2]. وفي رواية غيره: (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي).

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح على شرط الشيخين عن كعب بن مالك مرفوعاً: [يُبْعثُ الناسُ يومَ القيامة، فأكونُ أنا وأمتي على تَلٍّ،

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 478)، وأبو نعيم في «الحلية» (8/ 372)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2369) ـ تفسير المقام المحمود.

(2) صحيح لغيره. أخرجه ابن أبي عاصم (784) ـ كتاب السنة ـ تحقيق الألباني، وانظر كتاب: «التوحيد» ـ ابن خزيمة ـ (ص 198)، وسنن الترمذي (2/ 193)، والمرجع السابق.

ويَكْسوني ربِّي حُلَّةً خَضْراء ، ثم يُؤْذنُ لي ، فأقولُ ما شاء الله أن أقولَ ، فذاك المقامُ المحمودُ][1] .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي في السنن ، وأحمد في المسند ، بسند حسن ، عن الطفيل بن أبي ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا كان يوم القيامة كنت إمامَ الناس وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر][2] .

الحديث الخامس: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: [إنّ الناس يعبرون يوم القيامة جُثاً ، كل أمة تَتْبَعُ نَبِيَّها ، يقولون: يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتىٰ تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثُه الله مقاماً محموداً][3] .

الحديث السادس: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: [مَنْ قال حينَ يسمعُ النِّداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثْه مَقاماً محموداً الذي وَعَدْتَهُ ، حَلّتْ له شفاعتي يوم القيامة][4] .

الحديث السابع: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [مازال الرَّجُلُ يسْأَلُ الناس حتىٰ يأتِيَ يَوْمَ القيامة ليسَ في وجهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ. وقال: إن الشمس تَدْنو يوم القيامة حتىٰ يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدمَ ، ثم بموسىٰ ، ثم بمحمّدٍ ﷺ ، وزاد عبد الله بن صالح: حَدَّثني اللَّيْثُ قال: حَدَّثني ابنُ أبي جَعْفَرٍ: «فَيَشْفَعُ لِيُقْضىٰ بَيْنَ الخلق ، فَيَمْشي حتىٰ يَأخُذَ بِحَلَقَةِ الباب فيومَئذٍ يَبْعَثُهُ مقاماً مَحْموداً ، يحمدُهُ أهلُ الجَمْعِ كُلُّهُم»][5] .

وقد ذكرت أحاديث الشفاعة بتفصيلها في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند

---

(1) أخرجه ابن حبان (6445) ، والحاكم (2/ 363) ، وأحمد (456) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني: وهو كما قالا. انظر الصحيحة (2370).

(2) إسناده حسن. أخرجه أحمد (5/ 137) ، والترمذي (2/ 282) ، وأخرجه ابن أبي عاصم ـ كتاب السنة ـ (787) ـ تحقيق الألباني.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4718) ـ كتاب التفسير ـ سورة الإسراء ـ آية 79 ـ.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4719) ـ كتاب التفسير ـ الباب السابق ، ورواه أكثر أهل السنن.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1474) ـ (1475) ، كتاب الزكاة ، باب من سأل الناس تكثُّراً.

الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ في بحث الإيمان باليوم الآخر ـ باب الشفاعة ، فلله الحمد والمنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾. قال قتادة: (مدخل صدق: المدينة ، ومخرج صدق: مكة). وقال ابن عباس: (كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمِرَ بالهجرة فأنزل الله تبارك وتعالىٰ اسمه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾). فلقد علم النبي ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل الله سلطاناً نصيراً فأعطاه.

قال الحسن: (كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يطردوه ، أو يوثقوه ، وأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله: ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾). ثم قال في قوله: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾: (يوعده لينزِعَنَّ مُلك فارس وعز فارس ، وليجعلنه له ، وعزَّ الروم وملكَ الروم ، وليجعلنه له).

وقال قتادة: (﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾: وإن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله عز وجل ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بين أظهر عباده ، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم).

وفي الأثر عن عمر وعن عثمان: (إن الله ليزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن). قال ابن كثير: (أي: ليمنعُ بالسلطان عن ارتكاب الفواحشِ والآثام ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾. قال قتادة: (الحق: القرآن. ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قال: هلك الباطل وهو الشيطان). وقال ابن جريج: (﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قال: دنا القتال ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قال: الشرك وما هم فيه).

والآية: تهديد ووعيد لكفار قريش بأن يوم نصر الحق قد اقترب ، وفيه يكون اندحار باطلهم وشركهم ، شأن الباطل أمام سلطان الحق على مدار الزمان.

وفي التنزيل: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: 18].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [دخل النبي ﷺ مكّة وحول البيت ستون وثلاث مئة نُصُبٍ ، فجعل يَطْعَنُها بِعُودٍ في يده ، ويقول: ﴿ جَاءَ

﴿ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ : 49]][1] .

وله شاهد عند أبي يَعْلىٰ من حديث جابر رضي الله عنه قال : [دخلنا مع النبي ﷺ مكة ، وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً يُعْبدون من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فَأُكِبَّتْ لوجهها ، وقال : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾][2] .

82 ـ 85 . **قوله تعالىٰ** : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ .

في هذه الآيات : إخبار عن عظمة هذا القرآن وما في آياته ووقعها على قلوب المؤمنين ، ونفوس المبتلين ، وتعب الحائرين ، فهو يُذهب ما في القلوب من أمراض ، من شك ونفاق ، وشرك وزيغ ، وضيق وسوء ظن ، ويملؤها بالحكمة والإيمان ، ورحيق الاطمئنان ، وحسن ظن بالله يوصل إلى مرتبة الإحسان ، ولا يزيد الظالمين إلا الحرمان والخسران . إنه إذا أنعم الله على الإنسان استكبر ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من رحم الله . فَأَخْبِر المشركين ـ يا محمد ـ أنه كُلٌّ يعمل على وجهته وطريقته ، والله أعلم بمن هو أهدىٰ طريقاً . ويسألك اليهود عن الروح ، فقل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

فقوله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾ الآية . قال قتادة : (إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين) . وقال النسفي : (﴿وَرَحْمَةٌ﴾ : وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2478) ، (4720) ، ومسلم (1781) ، والترمذي (3138) ، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 377) ، وابن حبان في صحيحه (5862) .

(2) إسناده صحيح ، ليس فيه إلا عنعنة أبي الزبير ، لكن يتأيد بما قبله ، فهو صحيح .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : 44].

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة : 124 ـ 125].

وفي صحيح السنة المطهرة في مفهوم هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضَعُ به آخرين][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّةِ ، ريحُها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثلُ التمرة ، لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مثلُ الرَّيْحانَةِ ، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح وطعمها مرٌّ][2] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن **أبي مسعود** قال: قال رسول الله ﷺ: [الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه][3] .

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ . قال مجاهد: (تباعد منا). قال ابن جرير: (يقول تبارك وتعالىٰ: وإذا أنعمنا على الإنسان ، فنجيناه من كرب ما هو فيه في البحر ، وهو ما قد أشرف فيه عليه من الهلاك بعصوف الريح عليه إلى البرّ ، وغير ذلك من نعمنا ، أعرض عن ذكرنا ، وقد كان بنا مستغيثاً دون كلّ أحد سوانا في حال الشدّة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (817) ـ كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها. ورواه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (218).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5427) ، (7560) ، وأخرجه مسلم (797) ـ في الكتاب السابق ـ باب فضيلة حافظ القرآن. ورواه أحمد وأصحاب السنن بألفاظ متقاربة. انظر صحيح الجامع (5715) ـ (5716).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5009) ، ومسلم (807) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 121).

التي كان فيها ﴿وَنَآ بِجَانِبِهِۦ﴾ يقول: وبعد منا بجانبه يعني نفسه، كأن لمْ يدعنا إلى ضرٍّ مسّه قبل ذلك).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: قنوطاً). وقال قتادة: (يقول: إذا مسه الشرّ أيِس وقَنِط).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 9 ـ 11].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

يروي الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأمْنُ من مكر الله][1].

وله شاهد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة.

قال ابن عباس: (على ناحيته). وقال مجاهد: (على حِدَتِهِ وطبيعته). وقال قتادة: (على نِيَّتِه). وقال ابن زيد: (الشاكلة: الدين). أي: (على دينه). وقال مقاتل: (جِبلته).

وقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾. تهديد للمشركين ووعيدٌ لهم. قال القرطبي: (والمعنىٰ: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألفها، وهذا ذمٌّ للكافر ومدحٌ للمؤمن. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي بالمؤمن والكافر

---

(1) إسناده صحيح. أخرجه الطبراني ورجاله ثقات. انظر تحقيق فتح المجيد (422)، وكذلك للشاهد بعده، وانظر تفصيل هذا البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 492).

وما سيحصل من كل واحد منهم. وقيل: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي أسرع قبولاً. وقيل: أحسن ديناً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أخرج أحمد والشيخان عن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله[1] قال: [بَيْنا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خَرِبِ المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمرّ بِنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح! وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسألنّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحىٰ إليه، فقمت، فلما انجلىٰ عنه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾][2]. وفي رواية: (لما نزل عليه الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾).

وأخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل! فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: نحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة فيها حكم الله، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾][3].

والسورة مكية، وقد يكون تكرر النزول بالمدينة، وعلى ذلك يكون الفهم لهذه الأحاديث. والآية تدل على أن الروح من أمر الله مما استأثر به تعالىٰ، وأن علم الناس في ذلك قليل.

86 ـ 89. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ قُل لَّئِنِ

(1) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4721)، ومسلم (2794)، وأخرجه الترمذي (3141).
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (3139)، وأحمد في المسند (1/ 255)، وأبو يعلىٰ (2501)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (2510).

ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله تعالىٰ فضله على نبيّه محمد ﷺ بهذا الوحي الكريم، وأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لعجزوا ولرجعوا صاغرين. والله تعالىٰ يُصَرِّفُ في هذا القرآن من كل مثل لِيَذَّكَّرَ العباد ويتعظوا فيأبىٰ أكثرهم إلا أن يعيشوا كافرين.

فقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. قال النسفي: (والمعنىٰ: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً). وقال القرطبي: (أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتىٰ ينساه الخلق. ويتصل هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه).

قلت: وذهاب العلم وفشو الجهل ورفع القرآن من الأرض من علامات الساعة، عقوبة من الله للمستهترين.

ففي صحيح سنن ابن ماجة عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: [يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ. حتىٰ لا يُدْرَىٰ ما صِيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صدقة. ولَيُسْرىٰ على كتاب الله، عزَّ وجل، في ليلة. فلا يبقىٰ في الأرض منه آية. وتَبْقَىٰ طوائفُ من الناس، الشيخ الكبير والعجوز. يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله. فنحن نقولها][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يتقارب الزمانُ، ويُقبض العلمُ، ويُلقىٰ الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قيل: وما الهرج؟ قال: القتل][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4049)، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3273).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 59). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1857)، كتاب العلم، باب: في رفع العلم وظهور الجهل. وكذلك ـ حديث رقم ـ (1856) من الكِتاب نفسه. باب: في قبض العلم. ورواه البخاري.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾. أي ناصراً يردّه إليه، ويعيده لك محفوظاً مسطوراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾. أي: إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، أو يحمل المعنىٰ على الاستثناء المنقطع، والتقدير: أي ولكن رحمة من ربك تركته ـ يا محمد ـ غير مذهوب به. قال النسفي: (وهذا امتنان من الله تعالىٰ ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

تكذيب من الله تعالىٰ لادعاء الكفار وزعمهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا. والمعنىٰ: لو اجتمع فصحاء الجن والإنس وكان بعضهم لبعض عوناً ونصيراً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فإنهم لا يستطيعون ذلك، وإن الله تعالىٰ سيخذلهم. قال ابن جريج: (ظهيراً: معيناً. يقول: لو برزت الجن وأعانهم الإنس فتظاهروا لم يأتوا بمثل هذا القرآن).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كل مثل، احتجاجاً بذلك كله عليهم، وتذكيراً لهم، وتنبيهاً على الحق ليتبعوه ويعملوا به ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يقول: فأبىٰ أكثر الناس إلى جحوداً للحقّ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته).

90 ـ 93. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تَنَطُّعُ المشركين في أمر الإيمان، بالمطالبة بالمعجزات والتحكم

بها على مرّ الأيام ، وما دفعهم إلى ذلك إلا الكبر والبغي ، ورسول الله بشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ .

هو من قيل المشركين للنبي ﷺ على وجه التنطع . قال قتادة : (أي حتىٰ تَفْجُر لنا من الأرض عيوناً : أي ببلدنا هذا) . والينبوع : العينُ الجارية .

وقوله تعالىٰ : ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ .

أي : أو يكون لك بستان من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلال النخيل والكروم . قال القاسمي : (وإنما قدموا في عنتهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يرِدون بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار) .

وقوله : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ . قال ابن عباس : (يعني قِطعاً) . قال ابن كثير : (أي : إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنْشَقُّ السماءُ وتَهِي ، وتُـدَلّىٰ أطرافها ، فعجّل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسَفاً ، أي : قطعاً) .

وفي التنزيل نحـو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال : 32] .

ولكن نبي الرحمة ـ ﷺ ـ سأل إنظارهم عسىٰ أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً .

2 ـ وقال تعالىٰ : ـ عن سؤال قوم شعيب نحو ذلك ـ : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء : 187] .

فعاقبهم الله تعالىٰ بعذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

وقوله : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ـ فيه تأويلان :

التأويل الأول : أي : حتىٰ يأتي الله والملائكة كلَّ قبيلة فيعاينونهم ، أي قبيلة قبيلة ، قال مجاهد : (قبائل على حدتها كلّ قبيلة) .

التأويل الثاني : معناه : أن تأتي بالله والملائكة عياناً نقابلهم مقابلة ، فنعاينهم معاينة . قال قتادة : (﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ نعاينهم معاينة) .

قلت: والتأويل الثاني أرجح من الأول، وأليق بكلام العرب، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول من ذهب).

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في درج السماء.

وقوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾. قال قتادة: (أي كتاباً خاصاً نؤمر فيه باتباعك). أي: لن نصدقك في أمر رقيك إلىٰ السماء حتىٰ تنزل لنا كتاباً منشوراً نقرأ فيه أمرنا باتباعك والإيمان بك.

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾. قال القاسمي: (أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. عَليَّ أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم. وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إليّ. وذلك ما تحدّيتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح. كما أمرني ربي. ولا أقترح عليه، سبحانه، ما لا يجوز أن يكون، أو ما يكون فعله عبثاً، لخلوّه عن الفائدة).

94 ـ 99. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (94) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)﴾.

في هذه الآيات: امتناع الناس عن الإيمان لِكَوْنِ الرسول من البشر، وإنما حملهم على هذا التنطع الكبر والبطر، فإنه لو كان في الأرض ملائكة لناسب إرسال الله إليهم ملكاً مثلهم، والله خبير بعباده بصير بأعمالهم. إنما أمر الهداية والضلال بيد الله، فمن

حرمه الله نور الهداية فقد أخزاه ، ومن كفر بالله واليوم الآخر فنار جهنم مأواه ، أَوَلَمْ يرَ الكفار أنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلقهم وإعادتهم بعد موتهم؟! ولكن الظالمين يجحدون ، وبقدرة الله يكفرون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾. قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أكثرهم ، ﴿ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ ويتابعوا الرسل ، إلا استعجابُهم من بَعْثَتِه البشر رسلاً).

وفي التنزيل نحو ذلك كثير:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [يونس: 2].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: 6].

3 ـ وقال تعالىٰ: ـ من قول فرعون وملئه ـ: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: 47].

4 ـ وقال تعالىٰ: ـ من قيل الأمم لرسلهم ـ: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: 10].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾. قال النسفي: (ردّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ حال ، أي ساكنين في الأرض قارين ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد).

والخلاصة: إن الله تعالىٰ يبعث الرسل إلى القوم من جنسهم ، ليفقهوا عنه ويَفْهموا منه ، ولو بعث إلى البشر رسولاً ملَكاً لما حصل ذلك ، ولا أمكنهم الأخذ عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المتنطعين في اقتراحاتهم: الله تعالىٰ نعم الكافي والحاكم ، وهو ذو خبرة وعلم بما يصلح لعباده من التدبير والتصريف ، ومن يستحق منهم الهداية أو الضلال.

وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: إن مَنْ ينعم بهداية الله له فلا مُضِلّ له، ومن يَشْقىٰ بضلاله إياه ـ نتيجة استحقاقه ذلك ـ فلا هادي له.

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: [أن ضِماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يديَّ، قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد. فقال: أعِدْ عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر. فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي..] الحديث[1].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾. كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 34].

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون، ﴿وَبُكْمًا﴾ أي: لا ينطقون، ﴿وَصُمًّا﴾، يعني: لا يسمعون. وذلك مقابلة لهم بالمثل من أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا تجاه الحق، فقد كانوا بكماً وعمياً وصماً عن هذا الوحي العظيم، فحشروا على ذلك أحوج ما يحتاجون إلى تلك الحواس. ثم إن منقلبهم ومصيرهم إلى جهنم.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرج مسلم في كتاب الجمعة ـ حديث رقم ـ (868).

(2) حدث صحيح. أخرجه البخاري (4760)، ومسلم (2806)، وأحمد (3/ 229)، وابن حبان (7323) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن ابن عباس: (في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال: سكنت). وقال مجاهد: (طفِئت). وعن قتادة: (قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ يقول: كلما احترقت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب). وقال الضحاك: (وذلك إسعارُ النار عليهم والتهابها فيهم وتأججها بعد خبوّها ، في أجسامهم). أي: كلما سكنت النار عليهم زادها الله لهباً ووَهجاً وجَمْراً ليذيقهم العذاب ، جزاء بما كانوا يكفرون بوحي الله العظيم ، ونبوة رسوله الكريم ، ويستبعدون البعث للحساب بعد الموت وفناء الأجساد والعظام مستهزئين. وهو قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ أي بالية نخرة.

وقوله: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

أي: إن الذي أبدع هذه السموات والأرض وخلقها من العدم قادر على إعادة خلقهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾. قال القرطبي: (والأجل: مدّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم). وقال ابن كثير: (أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدّرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: 104]).

وقوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: فأبىٰ الكافرون إلا جحوداً بحقيقة وعيده الذي أوعدهم وتكذيباً به).

100 ـ 104. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟

ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الله تعالىٰ بُخْلَ المشركين وإمساكهم عن الإنفاق في سبل الخير. وإمامهم من قبل فرعون الذي كفر بتسع آيات واتهم موسىٰ بالسحر، وحاول محاصرته ومن معه من المؤمنين حتىٰ أغرقه الله وجنوده أهل البغي والشرّ، واستخلف بني إسرائيل من بعدهم في الأرض ليكون الفصل بين الفريقين يوم الحشر.

فقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾.

قال ابن عباس: (الفقر). وقال قتادة: (أي خشية الفاقة). والخطاب للمشركين كما قال ابن جرير: (قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال. وعنىٰ بالرحمة في هذا الموضع: المال ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ يقول: إذن لَبَخِلْتُم به، فلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار).

وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾. قال ابن عباس: (يقول: بخيلاً). وقال قتادة: (بخيلاً، ممسكاً).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [يَدُ الله ملأىٰ لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهار. أرأيتم ما أنفق منذُ خلقَ السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده][1].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات).

2 ـ قال محمد بن كعب: (هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَة، والحجر).

3 ـ وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة: (هي يدُه، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (7411) ـ كتاب التوحيد، وانظر كذلك ـ حديث رقم ـ (4684)، ورواه مسلم في الصحيح (993).

قلت: وكلها أقوال متكاملة، ودلائل قاطعة على صحة نبوته وصِدْقه فيما أخبر به موسىٰ ﷺ عمن أرسله إلى فرعون.

وقوله: ﴿ فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾.

أي اسأل يا محمد بني إسرائيل[1] إذ جاءهم موسىٰ وذهب إلى فرعون وأظهر آياته ودعاه للإيمان بالله تعالىٰ فاتهمه فرعون بالسحر.

وقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾.

أي: قال موسىٰ: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات إلا خالق السماوات والأرض حُججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، وبينات مكشوفات تؤكد صحة قولي، ولكنك معاند جاحد. كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: 14].

وقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾. قال ابن عباس: (ملعوناً). أو قال: (يعني: مغلوباً). وقال مجاهد: (مثبوراً: أي هالكاً). وقال عطية: (مبدّلاً). وقال ابن زيد: (أظنك ليس لك عقل يا فرعون) ـ أي مخبولاً. وفي لغة العرب: رجل مثبور: أي محبوس عن الخيرات هالك. قال الرازي: (الثبور: الهلاك والخسران).

قلت: فالهالك يشمل كل ما سبق من المعاني والله تعالىٰ أعلم. قال النسفي: (كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً هالكاً، وظني أصح من ظنك، لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك فكذب بحت).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾.

أي: فأراد فرعون أن يُخرج موسىٰ وقومه من أرض مصر، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فاستفزه الله إلى البحر هو وجنوده وحاق به مكره، وكان فيه إغراقه مع قبطه.

قال ابن كثير: (وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، أي يُجْلِيَهم منها ويزيلهم عنها، ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن

(1) أي بما عندهم من التوراة حول ذلك. قال القاسمي: (فيظهر للمشركين صدقك، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب. لأن الأدلة إذا تظاهرت، كان ذلك أقوىٰ وأثبت).

هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء : 76 ـ 77]) .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ . أي قلنا من بعد فرعون لبني إسرائيل اسكنوا الأرض التي أراد فرعون أن يستفزكم منها فإذا كان يوم القيامة جئنا بكم وبعدوكم جميعاً . قال ابن عباس : (جميعاً) . وقال قتادة : (أي جميعاً ، أولكم وآخركم) . قال النسفي : (﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم ، ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم ، واللفيف الجماعات من قبائل شتىٰ) .

105 ـ 109 . قوله تعالىٰ : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝﴾ .

في هذه الآيات : ثناءُ الله تعالىٰ على القرآن ، وعلى مهمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى الذين أوتوا العلم الذين يخرون سجداً عند سماع آيات الرحمان .

فقوله : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وبالحق أنزلنا هذا القرآن ، يقول : أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة ، والأمور المستحسنة الحميدة ، وننهىٰ فيه عن الظلم والأمور القبيحة ، والأخلاق الردية ، والأفعال الذميمة . ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يقول : وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ) .

وفي التنزيل : ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء : 166] .

قال ابن كثير : (أي متضمناً ، علْمَ الله الذي أراد أن يُطْلِعَكُم عليه ، من أحكامه وأمره ونهيه) .

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن جبير قال : قال رسول الله ﷺ : [أبشروا

أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله؟ فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً][1] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ . أي : وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً برحمة الله ورضوانه وجنته لمن أطاعك ، ونذيراً بسخط الله وغضبه وناره لمن عصاك .

وقوله : ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ ﴾ ـ فيه قراءتان .

1 ـ «فَرَقْناه» ـ بالتخفيف . قال ابن عباس : (يقول : فصلناه) . أي فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مُفَرّقاً مُنَجّماً على الوقائعِ إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة .

2 ـ «فَرَّقْناه» ـ بالتشديد . قرأ بها ابن عباس : أي أنزلناه آية آية ، مُبَيَّناً مُفَسَّراً . قال ابن عباس : (يقول : أنزل آية آية) . وقال : (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة) . وقال ابن زيد : («وقرآناً فرَّقناه» : فرّقه ، لم ينزله جميعه) .

وقوله : ﴿ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾ . أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم على مَهَل .

قال ابن جريج : (في ترتيل) . وقال مجاهد : (على تؤدة) .

وقوله : ﴿ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ . أي : شيئاً بعد شيء ، حسب الحوادث والمناسبات .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾ . أي ـ قل يا محمد لكفار قومك الذين يعترضون على هذا الوحي العظيم : وسواء آمنتم به أم كفرتم لا يُغَيِّر شيئاً ، فهذا القرآن حق في نفسه ، عظيم في شأنه ، موصوف في كتب التنزيل ، والذين أوتوا العلم من أهل الكتاب المتمسكين بالحق المكتوب عنده إذا يتلىٰ عليهم يخرون تعظيماً لله ساجدين ، شكراً منهم لله على إدراكهم هذا الرسول الكريم . قال ابن عباس : (﴿ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾ يقول : للوجوه) . والأذقان جمع ذَقَن ، وهو أسفل الوجه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ .

قال ابن جرير : (ـ أي يقولون ـ تنزيهاً لربنا مما يضيف إليه المشركون به ، ما كان

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 77/ 1) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 165) ، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74) ـ انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (713) .

وعد ربنا من ثواب وعقاب ، إلا مفعولاً حقاً يقيناً ، إيمان بالقرآن وتصديق به).

واستدل الشافعي بقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ الآية ، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة ـ ذكره السيوطي في «الإكليل».

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في سجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي»][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴾.

قال القرطبي: (هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل).

وذكر ابن جرير بسنده إلى عبد الأعلى التيمي قوله: (من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه ، لأن الله نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية).

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعاً][2].

وفي الآية دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالىٰ أو بسبب المعاصي والزلل. وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن مطرف ، عن أبيه ، قال: [رأيت رسول الله ﷺ يصلي ، وفي صدره أزيزٌ كأزيز الرَّحىٰ من البكاء ﷺ][3].

110 ـ 111. قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الأسماء الحسنىٰ لله تعالىٰ ولو كره الكافرون. وحثُّ الله نبيّه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (484) ، ورواه غيره من أهل السنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «الكبير» ـ من حديث أبي الدرداء ـ انظر صحيح الجامع (2566) ، وصحيح الترغيب (1/ 187).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (904) ـ في الصلاة ـ باب البكاء في الصلاة. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (799).

على التوسط في رفع الصوت بالقرآن لئلا يناله المشركون. وخَتْمُ السورة بتنزيهه تعالىٰ عما يصفه به المبطلون.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: لا فرقَ بين دعائكم له باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ أو باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، فإنه ذو الأسماء الحسنىٰ).

وفي التنزيل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 22 ـ 24].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. له سبب للنزول أو أكثر في صحيح السنة:

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: [نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلىٰ بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾][1].

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قال: [أنزل ذلك في الدعاء].

وأخرج ابن جرير وابن إسحاق بسند حسن عن ابن عباس قال: [كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبَوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يُصلي، استرق السمع دونهم فَرَقاً منهم، فإن رأىٰ أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهَبَ خشيةَ أذاهم فلم يستمع. فإن خفضَ رسول الله ﷺ صوته لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرّقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمَعَها ممن يسترق

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4722)، ومسلم (446)، والترمذي (3146)، والنسائي في «التفسير» (320)، وأحمد (1/ 23)، (1/ 215)، والطبري (22825).

ذلك دونهم ، لعله يَرْعَوي إلى بعض ما يسمَع فينتفع به ، ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾][1] .

وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ .

تنزيهٌ من الله تعالىٰ لنفسه الكريمة عن النقائص ، بعد إثبات صفات الجمال والكمال والأسماء الحسنىٰ. قال ابن جرير: (لأن ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفاً ، ولا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفرداً بالمُلك والسلطان).

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ . قال مجاهد: (لم يُحالف أحداً ، ولا يبتغي نَصْر أحد). وقال ابن كثير: (أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وَلِيٌّ أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ ، بل هو تعالىٰ خالقُ الأشياء وحدَه ، لا شريكَ له ومقَدِّرها ومُدَبِّرها بمشيئته وحدَه ، لا شريك له).

وقوله: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾. أي: عظِّمه وأَجِلَّه تعظيماً يليق بجلاله ، وإجلالاً يليق بجماله وكماله.

وفي مسند الإمام أحمد وسيرة ابن هشام من حديث عدي بن حاتم ـ لما قدم على رسول الله ﷺ بعد أن فرّ منه ـ قال: [وجلست بين يديه ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال: ما يُفِرُّك!؟ أَيُفِرُّك أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوىٰ الله؟ قال: قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة ، ثم قال: إنما تَفِرُّ أن يُقال: الله أكبر ، وهل تعلم شيئاً أكبرُ من الله؟ قال: قلت: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارىٰ ضالون. قال: فقلت: إني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهَه ينبَسِطُ فرحاً. .]الحديث[2] .

تم تفسير سورة الإسراء
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حسن لشواهده. انظر تفسير ابن جرير الطبري (22830) ، والصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة الإسراء ، آية (110).

(2) أخرجه أحمد (4/ 378) ورجاله ثقات ، وانظر سيرة ابن هشام (2/ 578 ـ 581) ، وكتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ (3/ 1468 ـ 1472).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ الإسراء والمعراج تكريم الله لعبده ورسوله محمد لم ينله رسول قبله.

2 ـ الإسراء والمعراج لم يكن مناماً أو رؤيا، وإنما كان بالروح والجسد.

3 ـ في رحلة الإسراء والمعراج، كان لقاء نبينا بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وقد ارتقىٰ ﷺ سماء فسماء.

4 ـ في ليلة الإسراء فرضت الصلاة خمسين، ثم خففت إلى خمس.

5 ـ لم ير محمد ﷺ ربه، والذي دنا فتدلىٰ: جبريل عليه السلام.

6 ـ رفع الله لمحمد ﷺ المسجد الأقصىٰ وبدأ يصفه لقريش.

7 ـ القرآن يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل وبشرىٰ للمؤمنين.

8 ـ يجمع عمل الإنسان في كتاب فيكون عليه حسيباً.

9 ـ لا يعذب الله أحداً قبل إنذاره برسول، وأهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة الرسل، وإنما يكون امتحانهم يوم القيامة.

10 ـ التفاوت كائن يوم القيامة بين درجات أهل الجنة، وكذلك بين درجات أهل النار.

11 ـ قرن الله تعالىٰ عبادته ببرّ الوالدين، ليعرف عباده بحقهما الكبير.

12 ـ يوصي رسول الله ﷺ بالأب مرة وبالأم ثلاثاً لعظم حقها.

13 ـ النهي عن التبذير، والأمر بوصل الأقرب فالأقرب، والرفق بالمساكين.

14 ـ لا تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، ولا تقرب الزنىٰ ودواعيه.

15 ـ لا تقتل النفس ولا تقرب مال اليتيم، وأوف العهد والكيل، إن العهد كان مسؤولاً.

16 ـ لا تتكلم بما لا تعلم، ولا تتبختر بمشيتك، وتواضع لله يرفعك الله.

17 ـ كل السيئات مكروهة عند الله تعالىٰ ، فاحذروا فعل ما يكره .

18 ـ ما من شيء ـ حتىٰ الجماد ـ إلا ويسبح بحمد الله حقيقة ، كل قد علم صلاته وتسبيحه .

19 ـ إذا دلّ الدليل على شيء وجب اتباعه .

20 ـ لو سمّىٰ المؤمن عند الجماع ، وقدر له ولد ، لا يضره الشيطان .

21 ـ إن كان لا ينفع في البحر غير الله ، فإنه لا ينفع في البر غيره .

22 ـ الإمام : هو كتاب الأعمال الذي يعطاه العبد يوم القيامة .

23 ـ المقام المحمود هو الشفاعة العظمىٰ ، وهو للرسول الأعظم ـ سيدولد آدم ـ ﷺ .

24 ـ كل الرسل تقول يوم الحشر : نفسي نفسي ، إلا رسولنا ﷺ فيقول : أمتي أمتي .

25 ـ إن الله ليمنع بالسلطان عن الذنوب والآثام ، ما لا يمنع بالقرآن .

26 ـ القرآن شفاء للقلوب من الشك والشرك والنفاق والزيغ .

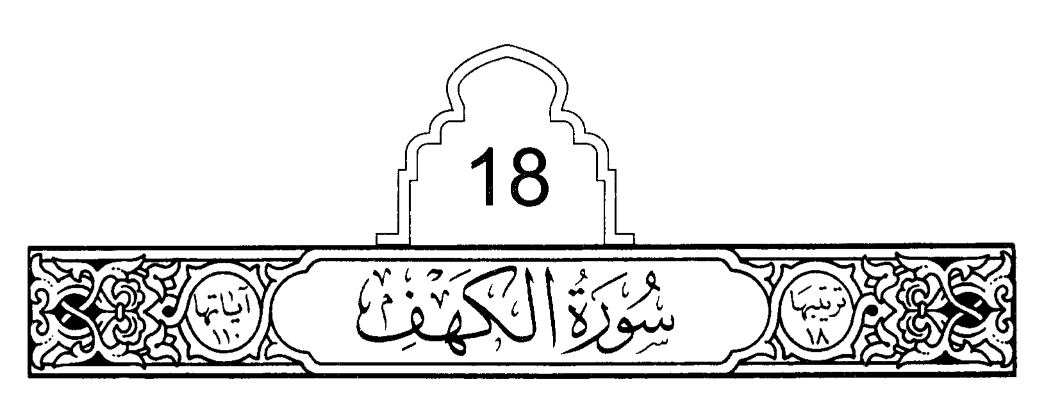
27 ـ استئثار الله تعالىٰ بعلم ماهية الروح ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

28 ـ يحشر الكفار على وجوههم عمياً بكماً صماً خالدين في النار .

29 ـ الآيات والمعجزات من الله خلقاً ، ويجريها على يد رسوله تأييداً .

30 ـ نزول القرآن بالحق ، وكل أسماء الله حسنىٰ ، وليس لله ولد ولا شريك ولا معين ، تعالىٰ سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .

❑ ❑ ❑



وهي سورةمكية ، وعدد آياتها (110).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في فضلها وفضل أولها وآخرها أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما يقول: [قرأ رجلٌ الكَهْفَ وفي الدّار الدّابةُ ، فَجَعلت تَنْفِرُ ، فَسَلَّمَ الرَّجل ، فإذا ضَبَابَةٌ ، أو سَحَابَةٌ غَشِيَتْه ، فذكره للنبي ﷺ فقال: اقرأ فُلانُ! فإنها السكينة نَزَلَتْ للقرآنِ أو تَنَزَّلتْ للقرآن][1].

وفي لفظ لمسلم: [قال البراء: كان رجل يقرأ سورة الكهف ، وإلىٰ جانبه حصان مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة ، فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفِر ، فلما أصبح أتىٰ النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال][3]. وفي لفظ عند الحاكم: [عصم من فتنة الدجال].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3614) ـ كتاب المناقب ، وأخرجه مسلم (795) ، وأحمد في المسند (4/ 281) ، والترمذي في الجامع (2885) ، وأخرجه ابن حبان (769).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2106) ، كتاب فضائل القرآن ، باب: تنزل السكينة لقراءة القرآن.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2098) ، وأخرجه أبو داود (4323) ، وأخرجه الترمذي (2886) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (951).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن معدان ، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: [من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدَّجال][1] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن النواس بن سمعان قال: [ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزىٰ بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته . .] الحديث[2] .

الحديث الخامس: أخرج النسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين][3] .

ورواه الدارمي موقوفاً على أبي سعيد بلفظ: [من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق] .

موضوع السورة

قصة أصحاب الكهف منهاج الفئة المؤمنة ، وسنن الله في أهل الإيمان والكفر وإهلاك القرىٰ الظالمة .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الحمد والثناء على الله منزل الكتاب ، نذيراً للعباد يوم الحساب ، وبشيراً للمؤمنين بالجنة والنجاة من العقاب ، وإنذاراً للذين نسبوا لله الولد من أهل الكتاب .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (6/ 446) ، ومسلم (809) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (10786) .
(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2048) ، كتاب الفتن .
(3) أخرجه الحاكم (2/ 368) ، والبيهقي في «السنن» (3/ 249) ، وأخرجه الدارمي (2/ 454) موقوفاً ، كما في الرواية بعده ، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (6347) .

2 ـ تثبيت الله تعالىٰ نبيّه ﷺ في جهاده قومه الذي تمردوا عن الإيمان ، وكذبوا بالنبوة والقرآن ، فهذه الدنيا دار فانية ، مزينة بزينة زائلة .

3 ـ قصة أهل الكهف قصة فتية مؤمنين ، فروا بدينهم من مكر الظالمين ، وقد ضرب الله عليهم النوم سنين طويلة ، ثم بعثهم لإظهار آية من آيات قدرته العجيبة .

4 ـ ذكر تقلب الشمس حول الكهف بأمر الله حفظاً على الفتية المؤمنين ، وكلبهم باسط ذراعيه بالباب ولو أبصرتهم لكنت من الهاربين .

5 ـ مجيء وقت إيقاظهم ، وإرسال بعضهم للمجيء بطعام لهم ، وأَمْرُهُ بالتلطف لئلا يفطن الطغاة إلى أمرهم .

6 ـ كشف الله أمرهم ، ليعلم من كذب بهذا الحديث أن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها .

7 ـ اتخاذ أهل النفوذ عليهم مسجداً ، وتنازع القوم في عددهم دون جدوىٰ .

8 ـ تنبيه الله العباد إلى ذكره وربط الأمور بمشيئته تعالىٰ ، فمشيئته قاهرة لكل مشيئة .

9 ـ إخباره تعالىٰ عن لبث أهل الكهف في كهفهم ثلاث مئة وتسع سنين ، والله هو العليم الحكيم لا يخفىٰ عليه شيء وله الحكم لا شريك له .

10 ـ أمْرُ الله رسوله بتلاوة القرآن ، والصبر في الحياة مع أهل الإيمان ، وعدم الافتتان بأهل الزينة أهل الكبر والحرمان .

11 ـ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والعاقبة للمتقين ، والعذاب على الكافرين .

12 ـ ذكر قصة الرجلين : لأحدهما جنتان فهو مستكبر مفتخر على صاحبه بالمال والثمر والنفر ، شاك بالبعث بعد الموت وأنه لو حصل لكان له حسن المنقلب والمستقر ، وصاحبه يحذره مغبة الشرك والكبر ، وهو يُصِرّ على كفره حتىٰ أرسل الله عليه الجوائح والمصائب وهلك المال والثمر ، وصار في الندم والبؤس وذاق عاقبة من كفر وما شكر .

13 ـ تمثيل بديع لهذه الحياة الدنيا الفانية ، والباقيات الصالحات هي البقية الباقية .

14 ـ وَصْفُ الله أحوال القيامة: تسيير الجبال وبروز الأرض وموقف الحشر وتوزيع الصحف والتحسر والندامة.

15 ـ أمْرُ الله الملائكة السجود لآدم، وقصة امتناع إبليس وعداوته، وتقريع المشركين في شركهم وذلهم يوم القيامة.

16 ـ تصريف الله الأمثال في هذا القرآن، وتكذيب الناس الرسل بطرق متوارثة عبر الزمان. قوامها العناد والفلسفة وسؤال المعجزات والاستهزاء بالرسل الكرام.

17 ـ التحذير من التغافل عن حجج الله وما يعقب ذلك من الختم والطبع على القلوب والإقفال على الآذان، ورحمته تعالىٰ بعدم معاجلة المذنبين.

18 ـ سنة الله في إهلاك القرىٰ الظالم أهلها في وقت وأجل مسمىٰ.

19 ـ قصة لقاء موسىٰ بالخضر، وبيان المشاهد والمواقف في ذلك.

20 ـ قصة ذي القرنين وسياحته في البلاد، يقيم الحق والميزان بين العباد، وخبر يأجوج ومأجوج.

21 ـ تفصيل إبراز جهنم يوم القيامة للكافرين، الذين كانوا في تغافل وتكذيب بيوم الدين.

22 ـ الأخسرون الأخسرون الذين بطل عملهم يوم القيامة وهم يظنون أنهم محسنون.

23 ـ تعظيم كلمات الله وآفاقها ومعانيها وروائع علومها، وعجز البحر أن يكفي مداداً لها.

24 ـ إثبات بشرية الرسول ﷺ، وتلقيه الوحي من الله رب السماوات والأرض.

25 ـ ذِكرُ سر النجاة وسعادة الدارين: إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، والتماس العمل الصالح على منهاج الوحيين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالى:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)﴾.

في هذه الآيات: كل الحمد والشكر لله منزل الكتاب عدلاً قيماً، نذيراً وبشيراً، ومحذراً الذين تطاولوا على الله ونسبوا له الولد كذباً وزوراً. فلا تهلك نفسك ـ يا محمد ـ بحزنك على قومك في تمردهم عن الإيمان، والتكذيب بالنبوة والقرآن، فإن هذه الدنيا دار فانية، مزينة بزينة زائلة، لا تستقيم لأحد لأنها دار اختبار، وليست بدار قرار، وستصير بعد الزينة إلى الخراب والدمار.

فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ﴾. حَمْدٌ وتقديس من الله لنفسه الكريمة على إنزاله هذا الكتاب العزيز.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: الحمد لله الذي خصّ برسالته محمداً وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خلقه نبياً مرسلاً، وأنزل عليه كتاباً قيماً، ولم يجعل له عِوَجاً).

وعن ابن عباس: (﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (1) قَيِّمًا﴾ يقول: أنزل الكتاب عَدلاً قيماً، ولم يجعل له عِوَجاً). وقال ابن إسحاق: (أي: معتدلاً لا اختلاف فيه). وعن الضحاك: (قيماً: قال: مستقيماً).

قال ابن كثير: (فإنه ـ أي القرآن ـ أعظم نعمةٍ أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا زيغَ، بل يَهدي إلى صراط مستقيم، بيِّناً واضِحاً جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زَيغاً ولا مَيْلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾، أي: مستقيماً).

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾. تهديد للكافرين بعذاب من عند الله في الدارين. قال محمد بن إسحاق: (عاجل عقوبة في الدنيا وعذاباً في الآخرة). وقال قتادة: (﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: أي: من عنده).

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾. بشارة للمؤمنين أهل العمل الصالح بالثواب الجزيل في جنات النعيم يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾. قال ابن إسحاق: (أي: في دار خلد لا يموتون فيها، الذين صدقوك بما جئت به عن الله، وعملوا بما أمرتهم).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملحُ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادىٰ: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾. أي: من مشركي قومه وغيرهم.

قال ابن إسحاق: (يعني قريشاً في قولهم: إنما نعبد الملائكة، وهنّ بنات الله). وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ أصبرَ على أذى سَمِعَهُ من الله، إنهم ليَدْعون له ولداً، وإنه ليُعافيهم ويرزقُهم][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6548) ـ كتاب الرقاق، وأخرجه مسلم (8/ 153)، وغيرهما.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6099) ـ كتاب الأدب، باب الصبر في الأذىٰ.

﴿إِلَّا كَذِبًا﴾. أي: لا حجة لهؤلاء القائلين هذا القول ولا لأسلافهم، وإنما يقولون كبيراً من الإثم ويفترون على الله أعظم الكذب.

قال محمد بن إسحاق: (ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ الله ولداً بقيلهم ذلك إلا كذباً وفرية افتروها على الله).

ونُصبت ﴿كَلِمَةً﴾ على التميز، والتقدير: كبرت كلمتُهم هذة كلمةً. وقيل: على التعجب، والتقدير: أعظِمْ بكلمتهم كلمة.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [قال الله: كَذَّبَني ابنُ آدم ولم يكنْ له ذلك، وشَتَمني ولم يكنْ له ذلك، فأما تكذيبُه إياي فزعَمَ أني لا أقْدرُ أن أُعِيدَهُ كما كان، وأما شَتْمُهُ إيّايَ فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أنْ أتَّخِذَ صاحِبَةً أوْ ولَداً][1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

أي: فلعلك يا محمد مهلك نفسك بحزنك على آثار قومك في تمردهم عن الإيمان بالنبوة والتصديق بهذا القرآن.

قال قتادة: (﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، يقول: قاتل نفسك). وقوله: ﴿أَسَفًا﴾ قال: (غضباً). وقال مجاهد: (جزعاً). وقال قتادة أيضاً: (حزناً عليهم).

والآية تسلية من الله تعالى لنبيّه الكريم، على حزنه على إصرار المشركين، على عقائد الجاهلية ومحاربة هذا الدين، وترك التصديق بالقرآن الكريم، وهو مفهوم قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 70].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4482) ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة، آية (116).

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالى ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته][1] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

إخبار من الله جل ذكره أن هذه الدنيا دار فانية ، مزينة بزينة زائلة ، لا تستقيم لأحد لأنها دار اختبار وليست بدار قرار .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكم فيها فينظرُ كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإنّ أول فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء][2] .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة][3] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة .

1 ـ قال ابن عباس: (يهلك كل شيء عليها ويبيد). وقال مجاهد: (﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ : بلقعاً) .

2 ـ قال قتادة: (الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات) .

3 ـ قال ابن إسحاق: (يعني: الأرض ، إن ما عليها لفانٍ وبائد ، وإن المرجع لإليّ ، فلا تأس ، ولا يحزنك ما تسمع وترىٰ فيها) .

4 ـ قال ابن زيد: (الجُرز: الأرض التي ليس فيها شيء ، ألا ترىٰ أنه يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ [السجدة: 27]. قال: والجرز: لا شيء فيها ، لا نبات ولا منفعة. والصعيد: المستوي) .

وخلاصة المعنى: هذه الدنيا ستصير بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، وإلى الفناء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، والبيهقي (6/ 94) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2742) ، وقوله: «مستخلفكم» أي: جاعلكم ذرية تخلفون القرون الذين قبلكم .

(3) إسناده حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2401) ، وقال: حديث حسن صحيح .

والزوال ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ عمّا يلقاه من قومه : أن لا عليك أن سيهلكوا جميعاً ، فلا تحزن عليهم ولا تضيق من مكرهم وعنادهم .

9 ـ 12 . **قوله تعالى :** ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وما فيها من العبر والآيات والمعجزات. يقول: وليس ـ يا محمد ـ أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وتعاقب الليل والنهار ، وخلق الجبال الشواهق والأنهار والبحار ، أكبر من ذلك. لقد أوى الفتية المؤمنون إلى الكهف فراراً بدينهم ، راجين رحمة ربهم ، فضرب عليهم النوم سنين طويلة ، ثم بعثهم سبحانه لإظهار آية من آيات قدرته العجيبة ، وليستفيد من بعدهم في تعظيم الله والمثابرة على عبادته والتوكل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة :

1 ـ قال مجاهد : (يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك) .

2 ـ قال ابن عباس : (يقول : الذي آتيتُكَ من العلم والسُّنَّة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم) .

3 ـ وقال محمد بن إسحاق : (ما أظهرتُ من حُججي على العباد أعجبُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم) .

قال النسفي : (والكهف : الغار الواسع في الجبل ، والرقيم : اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف) .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

إخبار عن قلة مؤمنة فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فلجؤوا إلى غار في جبل متضرعين إلى ربهم عز وجل: أن يبسط عليهم حمايته ورحمته ويجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وفي عاقبة صبرهم ستراً ورشداً.

وقوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

قال ابن كثير: (أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

أي: ثم بعثنا هؤلاء الفتية من رقدتهم لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع، من اختلاف الطائفتين من مدة مكثهم. قال مجاهد: (أمداً: عدداً). وقال ابن عباس: (﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ يقول: بعيداً). وقال ابن جرير: (ويعني بالأمد: الغاية).

وخلاصة المعنىٰ كما قال القاسمي: (أي لنعلم واقعاً ما، علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم، أشد إحصاءً، أي إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب، وأمنهم من العدوّ، فيتمّ لهم رشدهم في شكره، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته).

13 ـ 16. قوله تعالىٰ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى نبيّه ﷺ أنّ ما يقصه عليه من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين، إنما هو بالصدق واليقين، وقد زادهم إيماناً إلى إيمانهم، وربط على

قلوبهم ، إذ صبروا على هجران الديار ، إلى كهف بأحد الجبال ، حفاظاً على دينهم ، وخلاصاً من شرك قومهم ، فآواهم سبحانه وأيدهم برحمته وجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً.

فقوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ : نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف بالحق ، يعني : بالصدق واليقين الذي لا شك فيه . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ يقول : إن الفتية الذين أوَوا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك ، فتية آمنوا بربهم ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ يقول : وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً وبصيرة بدينهم ، حتى صبروا على هجران دار قومهم ، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله ، وفراق ما كانوا فيه ، من خفض العيش ولينه ، إلى خشونة المكث في كهف الجبل) .

وفي الآية فائدتان جليلتان :

الفائدة الأولىٰ : أهمية الشباب لحمل هذا الدين والبذل من أجله .

وهذا جلي في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، فالشباب قوة الإسلام ومستقبله القادم . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالىٰ ولرسوله شباباً . وقد لاحظ العباس عمّ النبي ﷺ أن معظم رجال بيعة العقبة كانوا من الشباب فقال لابن أخيه : (ما أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب . هؤلاء قوم لا أعرفهم ، هؤلاء أحداث)[1] .

إن الشباب مصدر قوة الأمة ومحل طاقتها الكامنة ، فَإنْ صَلَحَ الشباب فإن ذلك يُبَشِّرُ بأمة قوية تريد أن تشغل مكانها تحت الشمس ، وإن فسد الشباب وتعلقت قلوبهم بالفواحش والآثام ، أو سُلِّطَت عليهم عوامل الهدم والشد إلى الخلف ، كان ذلك نذير سوء ومصدر قلق وتهديد لتلك الأمة .

ومن هنا حرص الإسلام على تربية الشباب على روح الجهاد والشهادة في سبيل الله ، فإنه لا أعلىٰ من ذلك ولا أرفع ، فإذا ارتبط قلب الفتىٰ بحب الله ونصرة دينه كان ذلك جامعاً لخيري الدنيا والآخرة .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (3/ 339 ـ 340) ـ في أثناء حديث بيعة العقبة ، ورجاله ثقات .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله ، . . .][1].

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [اغتنم خمساً قبل خمس: حياتكَ قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغَك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك][2].

الفائدة الثانية: الإيمان يزيد وينقص.

وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾. وفي القرآن آيات كثيرة نحو ذلك ، منها:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: 76].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: 4].

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين][3].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس مرفوعاً: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه][4]. وفي صحيح مسلم: [لا تؤمنوا حتىٰ تحابوا]. [من حمل علينا السلاح فليس منا].

الحديث الثالث: رورىٰ البخاري عن ابن مسعود قال: (اليقين: الإيمان كله)[5]. وعن معاذ كان يقول: (اجلس بنا نؤمن ساعة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1423) ـ كتاب الزكاة ، وأخرجه مسلم (1031) ـ كتاب الزكاة.

(2) حديث صحيح. رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وروَاه أحمد في «الزهد» ، وأبو نعيم من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1088).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (15) ـ كتاب الإيمان ، وانظر مختصر صحيح مسلم (23).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (13) ـ كتاب الإيمان. وانظر مختصر صحيح البخاري (13) ، ومختصر صحيح مسلم (42) (1235) لما بعده.

(5) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري (ص 6 ـ 7) ـ تحقيق الألباني. وكذلك لما بعده.

وقد فصلت ذلك في كتابي: أصل الدين والإيمان، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. أي: ثبتناها. قال قتادة: (يقول: بالإيمان). أي: ألهمناهم الصبر وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتىٰ عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش.

وقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: حين قاموا بين يدي الجبار دقينوس فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادة آلهته: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾). قال ابن كثير: (﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾. ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً).

وعن قتادة: (قوله: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ يقول: كذباً). وقال ابن زيد: (قال: لقد قلنا إذن خطأ، قال: الشطط: الخطأ من القول).

وقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾.

هو من قيل الفتية أصحاب الكهف عن قومهم: أنهم اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، فلولا يأتون على عبادتها بسلطان بين. قال قتادة: (يقول: بعذر بين). وقال ابن جرير: (يقول: هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة بينة).

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

قال قتادة: (ومن أشد اعتداءً وإشراكاً بالله، ممن اختلق، فتخرّص على الله كذباً، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه، ويتخذه إلـٰهاً).

وقوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وإذ فارقتُموهم وخالفتُموهم بأديانكم في عبادتهم غيرَ الله، ففارقُوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾، الذي أنتم فيه، ﴿مِّرْفَقًا﴾، أي: أمراً ترتفِقُون به. فعند ذلك خَرَجوا هُرَّاباً إلى الكهف، فأوَوْا إليه، ففَقَدهم قومهم

من بين أظهرهم، وتَطلَّبهم الملك ، فيقال: إنه لم يظفر بهم ، وعَمَّىٰ الله عليه خبرهم).

قلت: والهروب من الفتن والفرار بالدين إلى حيث الأمن على الإيمان هو عمل منهجي صحيح عند اختلاط الرايات وظهور الدعاة على أبواب جهنم.

ففي التنزيل: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 20].

وفي صحيح السنة المطهرة في مفهوم ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يوشِكُ أن يكون خَيرَ مالِ المسلمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال ، ومواقِعَ القَطْرِ ، يَفِرُّ بدينه من الفتن](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، من حديث حذيفة مرفوعاً: [تكون دعاة على أبواب جهنم ، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها. فقلت: يا رسول الله! صِفْهم لنا ، قال: نَعَمْ ، هُمْ قومٌ مِنْ جِلْدَتِنا ، ويتكلَّمون بألسنتنا. قلت: يا رسول الله! فما ترىٰ إن أدركني ذلك؟ قال: تلزَمُ جماعة المسلمين وإمامهم. فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تِلكَ الفِرَق كُلَّها ، ولو أن تَعَضَّ على أصلِ شجرة ، حتىٰ يدركَكَ الموتُ ، وأنت على ذلك](2).

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [كيف بكم وَبِزَمانٍ يوشِكُ أن يأتيَ ، يُغَرْبَلُ الناسُ فيه غَرْبَلَةً ، وتَبْقَىٰ حُثالةٌ مِنَ الناس ، قَدْ مَرِجَتْ عُهودُهُمْ وأماناتُهم ، فاختلفوا ، وكانوا هكذا؟ (وشبَّك بين أصابعه) قالوا: كيف بنا يا رسول الله! إذا كان ذلك؟ قال: تأخذون بما تَعْرِفون. وتدعون ما تُنكرون. وتقبلون على خاصَّتِكم. وتذرون أمْرَ عَوَامِّكُمْ](3).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (19) ـ كتاب الإيمان ، باب: من الدين الفِرار من الفتن. وأخرجه أيضاً برقم (3300) ، (3600) ، ورواه أبو داود (4237) ، والنسائي (8/ 123 ـ 124) ، وأحمد (3/ 43).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1847) ـ كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وفي كل حال. . ، وذلك في أثناء حديث طويل ، ورواه الترمذي وغيره من أهل السنن.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3957) ـ كتاب الفتن. باب التثبت في الفتنة. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3196).

17 ـ 18. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تَقَلُّبُ الشمسِ حول الكهف بأمر الله حفظاً على الفتية المؤمنين، فهم في نوم عميق وكلبهم باسط ذراعيه بالباب فلو أبصرتهم لوليت منهم وكنت من الهاربين.

فعن ابن عباس: (﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾. يقول: تميل عن كهفهم يميناً وشمالاً). وقال: (لو أن الشمس تطلق عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يقلبون لأكلتهم الأرض). وقال سعيد بن جبير: (﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تتركهم ذات الشمال).

قال ابن جرير: (وإنما معنىٰ الكلام: وترىٰ الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم. وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم).

وهناك قراءتان مشهورتان لقوله: ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾. فهي بالتخفيف ﴿تَزَاور﴾ في قراءة الكوفيين، وهي بالتشديد ﴿تَزّاور﴾ في قراءة قراء المدينة ومكة والبصرة. وهما متقاربتان في المعنىٰ.

قال ابن عباس: (تزاور: تميل). قال ابن كثير: (هذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال، لأن الله تعالىٰ أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزْوَرّ عنه ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾، أي: يتقلّص الفيءُ يمنة. قال: وذلك أنها كلّما ارتفعت في الأفق تقلَّصَ شعاعُها بارتفاعها حتىٰ لا يبقىٰ منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق).

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال سعيد بن جبير: (في مكان داخل).

أي: هم في متسع منه داخلاً، بحيث لا يَمسّهم حر الشمس الذي لو أصابهم لأحرق ثيابهم وأجسامهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. قال النسفي: (أي ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله). وقال ابن كثير: (﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، حيث أرشدهم تعالىٰ إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقىٰ أبدانُهم).

وقوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

أي: من يهد الله إلى الحق فيوفقه لسلوك سبيله فهو المهتدي حقاً، شأن هؤلاء الفتية الذين أرشدهم سبحانه إلى طريق الهداية والنجاة من بين قومهم، ومن يضلل الله عن سبيله ممن أهملوا سبيل الحق والتماسه من الله تعالىٰ بالرجاء والدعاء، فلن تجد له ناصراً ومؤيداً وهادياً ومعيناً.

وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. قال القاسمي: (خطاب لكل أحد. أي: تظنهم، يا مخاطب، أيقاظاً لانفتاح أعينهم، وهم رقود مستغرقون في النوم، بحيث لا ينبههم الصوت).

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾. أي: نقلبهم أثناء نومهم مرة للجنب الأيمن، ومرة للجنب الأيسر. قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (لو أنهم لا يقلّبون لأكلتهم الأرض).

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾. قال ابن هشام: (الوصيد الباب).

قال القرطبي: (والوصيد أيضاً الفناء). وعن ابن عباس: (﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال: بالباب، وقالوا بالفناء).

وقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

أي: لو نظر إليهم أحد وهم في أثناء رقدتهم لولّى هارباً من هيبة المنظر، ولاعتراه من الذعر والرعب الكثير، لما ألبسوا من الحال المهيب لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتىٰ يقضي الله بحكمته أجلاً ضربه لذلك.

19 ـ 20. **قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إيقاظُ الله أهل الكهف ليسأل بعضهم بعضاً عما صُنِع بهم ويستدلوا بذلك على قدرة ربهم عزَّ وجل فيشكروه على ما أنعم عليهم. وإرسالُ الفتية أحدهم ببعض الفضة والدراهم التي كانت معهم إلى مدينتهم التي خرجوا منها ليتخيّر لهم من الطعام الطيب الحلال، مع الوصية له بأخذ الحذر والتلطف عند الدخول والخروج لئلا يفطن الطغاة إلى أمرهم فينالوا منهم.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾. قال النسفي: (أي: وكما أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقيناً ويشكروا ما أنعم الله به عليهم).

وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾. أي: كم مدة ما رقدتم، وهذا يدل على عدم استنكارهم لهيئاتهم وأحوالهم وأبشارهم وأشعارهم وصحة أبدانهم.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ـ إجابة منهم عما هو طبيعي في حياة الناس عند الرقود. قال المهايمي: (فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية، ظن أنهم لبثوا يوماً، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم).

وقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. قال القاسمي: (إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم. كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة، أو بإلهام من الله، أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم، فأحالوا تعيينها على ربهم).

وقوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾. أي: فأرسلوا واحداً منكم ببعض ما استصحبتم من الفضة والدراهم إلى مدينتكم التي خرجتم منها، ليتخيَّر لكم من الطعام الطيب الحلال فيأتيكم به لتطعموه وتسدوا به الجوع بعد النوم.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وليترفق في شرائه ما يشتري، وفي طريقه ودخوله المدينة. يقول: ولا يعلمن بكم أحداً من الناس).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾. سنة عظيمة بين أهل الحق والباطل، فإن الباطل يتبعه الطغاة والمتكبرون، وهم يرون في أهل الحق والصدق خصومهم، فيهمّون بهم بكل وسيلة ليثنوهم عما هم فيه من التمسك بالحق وتعظيم الله وحده لا شريك له، فإن تابعوهم على مرادهم فلا فلاح لهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن جريج: (﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال: يشتموكم بالقول، يؤذوكم).

وقال الزجاج: (﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل) ـ وهذا المعنىٰ أقوىٰ وأرجح، لوجود العزم على قتلهم من قبل.

قال القرطبي: (والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله عقوبة مخالفة دين الناس إذ هي أشفىٰ لجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها).

قلت: وهذه الآية الكريمة تشكل منهجاً في الحذر والتهيؤ للتصدي لمحاولات أهل الباطل، فإن أهل الحق أهل ذكاء وفطنة، أهل وعي وحنكة، يفهمون الواقع الذي يعيشون فيه، ويدركون طبيعة الأعداء وما يخططون، وليسوا بالسذج ولا البسطاء الذين يسهل الضحك عليهم، أو يكون من السهل خداعهم.

وفي التنزيل: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. قال القرطبي: (هذا وصاة بالحذر... لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته).

ومنه قول عمر رضي الله عنه: (لست بالخِبِّ ولا الخِبُّ يخدعني).

فدعا الإسلام العظيم إلى الحذر والدقة ومنع الطيش والغباء، وأخرج رجالاً هم مثال البشرية في الدقة والعلم والإتقان.

أخرج البيهقي بسند حسن عن كليب ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يُحْسِن][1].

ورواه من طريق عائشة بلفظ : [إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه].

وله شاهد عن ابن سعد في الطبقات بلفظ : [وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه].

21 ـ 24. **قوله تعالى** : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات : إخبارُ الله تعالىٰ عن كشفه خبر أهل الكهف ليعلم من كذب بهذا الحديث أنَّ وعد الله حق والساعة آتية لا ريب فيها ، وإعلامُه تعالىٰ عن اتخاذ أهل النفوذ عليهم مسجداً ، وتنازع القوم في عددهم دون جدوىٰ. وتنبيه الله العباد إلى ذكره وربط الأمور بمشيئته تعالىٰ ، فإنه لا يكون أمر إلا بإرادته وقضائه عز وجل.

فعن قتادة : (﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول : أطلعنا عليهم ليعلم من كذب بهذا الحديث ، أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها).

وقوله : ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ ـ ردٌّ على من أنكر البعث

---

(1) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «الشعب» ، ورواه الطبراني في الكبير كما في المجمع (4/ 98) ، وله شاهد عند ابن سعد في «الطبقات» (8/ 155) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1113) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1876).

وأمر القيامة من أهل ذلك الزمان. قال عكرمة: (كان منهم طائفة قد قالوا: تُبْعَثُ الأرواح ولا تُبْعث الأجساد).

وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ـ يعني: الذين أعثروا على الفتية في تنازعهم في أمر القيامة. قال ابن كثير: (فمن مُثْبت لها ومِنْ مُنْكر، فجعل الله ظهورَهم على أصحاب الكهف حُجَّة لهم وعليهم).

وقوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾. أي: سُدّوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه، وذروهم على حالهم.

قيل: لما استغرب الرجل الذي أرسلوه ليشتري لهم طعاماً تغير الأحوال، عمد إلى رجلٍ ممن يبيع الطعام فأنكر ضرْب تلك النقود، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها، حتىٰ حملوه إلى ولي الأمر، فلما أرشدهم إلى الكهف دخل وأخفىٰ الله أمرهم، وقيل بل سلّم عليهم الملك وفطن أمرهم وكان مسلماً، ثم ودَّعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل، والله أعلم بحقيقة ذلك. فهنالك قال أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم كما حكى الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. قال النسفي: (يصلي فيه المسلمون، ويتبركون بمكانهم).

قلت: وليس في الذي صنعوه حجة على دفن الصالحين في المساجد أو اتخاذ القبور فيها أو بناء المساجد عليها. فإن ذلك لم يكن تصرف أهل العلم في ذلك الزمان بل أهل النفوذ، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن شريعتنا ناسخة لما قبلها. وقد جاءت رسالة النبي ﷺ بالوعيد الشديد على من فعل ذلك.

ففي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18].

وفي صحيح السنة المطهرة في الترهيب من ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: [لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفِقَ يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال: ـ وهو كذلك ـ لعنة الله على اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرِزَ قبره، غير أنه خَشِيَ أن يُتَّخَذَ مسجداً][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1/ 444) في الصلاة، ومسلم (531) في المساجد ومواضع الصلاة، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن أبي عبيدة قال: [كانَ آخِرُ ما تكلمَ به أن قال: قاتل الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ، لا يبقَيَنَّ دينان بأرض العرب][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في المسند، عن أبي هريرة مرفوعاً: [اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد][2]. هذا لفظ أحمد. ولفظ مالك: [اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ عن اختلاف الناس في عِدّة أهل الكهف على ثلاثة أقوال. ويبدو من إشارة الآية ضعف القولين الأولين. قال قتادة: (﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾: أي قذفاً بالغيب). أو قال: (قذفاً بالظن). والمراد محاولة للقول بلا علم قد يصيب وقد يخطئ.

وأما **القول الثالث**: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فقد جاء الأثر عن ابن عباس في قوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: (أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة) ـ وفي روايات ذلك أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وإنما الأحسن من كل هذا ما أرشد الله تعالىٰ إليه بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ إذ العبرة بمعاني القصة ومنهاجها لا بِعدّة أصحابها وأسمائهم وصفاتهم.

وعن ابن زيد: (﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ قال: لا تمار في عدتهم). وعن مجاهد: (﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾: أي حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ من يهود، قال: ولا تسأل يهود عن أمر أصحاب الكهف، إلا ما قد أخبرتك من أمرهم). وعن ابن عباس: (﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ قال: هم أهل الكتاب).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

---

(1) إسناده صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 195)، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (3/ 1771) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 246) من حديث أبي هريرة، ومالك (85) في الصلاة، وانظر المرجع السابق (3/ 1771).

إرشادٌ من الله سبحانه لرسوله ﷺ ـ وأمته من باب الأولىٰ ـ الأدب فيما يُعزم عليه من الفعل في المستقبل، وذلك برد المشيئة دوماً إلى علام الغيوب تبارك وتعالىٰ. قال القرطبي: (فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً، وإذا قال: لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقاً للمخبر عنه).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال سليمانُ بن داودَ عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلة بمئة امرأة، تَلِدُ كُلُّ امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله. فقال له المَلَكُ: قُلْ: إنْ شاءَ الله، فلم يقل ونسِيَ، فأطافَ بِهنَّ، ولم تَلِدْ مِنْهُنَّ إلا امرأةٌ نِصْفَ إنسان. قال النبي ﷺ: لو قال إنْ شاءَ الله، لمْ يحنَثْ، وكانَ أرْجَىٰ لحاجته][1].

وفي لفظ مسلم: [فلم تحمِلْ منهن إلا امرأة واحدة، فجاءت بشق رجل، وَايْمُ الذي نفس محمد بيده! لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فُرْسَاناً أجمعون].

وفي لفظ آخر: [فقال رسول الله ﷺ: لو كان استثنىٰ، لولدت كُلُّ واحدةٍ منهن غلاماً فارساً، يُقاتِل في سبيل الله].

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عمر، يبلغ به النبي ﷺ، قال: [مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فقال: إن شاء الله فقد استثنىٰ][2].

وله شاهد عنده عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ حَلَفَ فاستثنىٰ، فإن شاء رَجَعَ، وإن شاء ترك غيرَ حِنْثٍ].

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ـ أمر بالذكر بعد النسيان.

قال الحسن: (إذا ذكر أنه لم يقل: إن شاء الله، فليقل: إن شاء الله).

وقال عكرمة: (اذكر ربك إذا عصيت).

قلت: فإن صح تفسير الحسن فهو خاص بالنبي ﷺ، وإلا فالاستثناء المفيد لا يصح إلا متصلاً في مجلس الذكر. والأولىٰ حمل الآية على ذكر الله تعالىٰ الذي يطرد الشيطان، وذلك أن منشأ النسيان من الشيطان، كما في التنزيل: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5242) ـ واللفظ له ـ كتاب النكاح. ورواه مسلم (1654) بروايات كثيرة، ورواه النسائي (7/ 31)، وأحمد (2/ 275)، وأبو يعلىٰ (6244).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3261) ـ (3262) ـ كتاب الأيمان والنذور، باب الاستثناء في اليمين. ورواه ابن ماجة (2105)، وانظر صحيح سنن أبي داود (2794) ـ (2795).

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ . ومن ثم فالخطاب يعمّ جميع الأمة .

وفي الحديث : [إذا نسيَ أحدُكم اسمَ الله على طعامه فليقل إذا ذكر : باسم الله أولَه وآخره][1] .

وقوله : ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ .

قال ابن كثير : (أي : إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله تعالىٰ فيه ، وتوجَّه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك . وقيل غير ذلك في تفسيره ، والله أعلم) .

25 ـ 26. قوله تعالىٰ : ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات : إخبارُ الله تعالىٰ عن لبث أهل الكهف في كهفهم ثلاث مئة وتسع سنين ، وأنه تعالىٰ الأعلم بذلك والأبصر بكل موجود والأسمع لكل مسموع ، ولا يخفىٰ عليه شيء ، وأنّه الحكم لا يشاركه أحد في قضائه وحكمه عز وجل .

فقوله تعالىٰ : ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ .

قال النسفي : (الجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالىٰ أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدة) . وفي الآية إشارة إلى تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين الهلالية ، فإن الفرق بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية هو ثلاث سنين . ومن ثمّ فقوله : ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ تفصيل ثلاث مئة سنة بالشمسية أنها ثلاث مئة سنة وتسع سنين بالهلالية ، والله تعالىٰ أعلم .

وقوله : ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

أي : لا يعلم مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم إلا الله علام الغيوب ، فسلموا له علم ما غاب عنكم ولا تخوضوا به دون علم ، ولا تتكلفوا علم ما لا يفيدكم .

وقوله : ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ـ مبالغة في المدح .

قال قتادة : (﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع ، تبارك

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده . انظر الإرواء (1965) ، وصحيح الجامع (818) .

وتعالىٰ). وقال ابن زيد: (يرىٰ أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً). قال القاسمي: (أي ما أبصره لكل موجود! وأسمعه لكل مسموع، لا يخفىٰ عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء).

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول جلّ ثناؤه: مَا لِخَلْقِهِ دون ربهم الذي خلقهم ولي، يلي أمرهم وتدبيرهم، وصرفهم فيما هم فيه مُصَرَّفون، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يقول: ولا يجعل الله في قضائه، وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبّ).

27 ـ 28. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ رسوله ﷺ بتلاوة كتابه وإحكام الصلة به، فإنه لا مُغَيِّر لما أوعد بكلماته، ولا ملجأ منه إلا إليه. وكذلك أَمْرُه بالصبر في الحياة مع المؤمنين المستضعفين الذين يرجون رحمته تعالىٰ ويخشون عذابه، وعدم الافتتان بأهل الزينة والمتاع ممن اتبع هواه وكان أمره باطلاً.

فقوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ ـ أَمْرٌ من الله تعالىٰ رسولَه ﷺ بتلاوة كتابه الكريم وزيادة الصلة به لإبلاغه إلى الناس.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ ـ قال ابن جرير: (يقول: لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك). وقال ابن كثير: (﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، أي: غير مُغَيَّر لها ولا محرف ولا مؤوّل).

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾. قال مجاهد: (ملجأ). وقال قتادة: (موئلاً). وقال ابن زيد: (لا يجدون ملتحداً يلتحدونه، ولا يجدون من دونه ملجأ ولا أحداً يمنعهم). وأصل الملتحد من اللحد، يقال: لحدت إلى كذا، إذا ملت إليه. ومنه اللحد يكون في القبر.

وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾.

أي: اصبر نفسك يا محمد على مجالسة أصحابك الذين يتضرعون إلى الله تعالىٰ بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير صباح مساء يبتغون نصره ورضاه، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء.

وقد كان بعض أشراف قريش يتكبرون عن مجالسة النبي ﷺ والسماع منه طالما جلس معه ضعفاء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، فحدّث نفسه بشيء من ذلك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: 52].

ففي صحيح مسلم عن سعد رضي الله عنه قال: [فيَّ نزلت: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾، قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا: تدْني هؤلاء][1].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي الكَنود، عن خباب. في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾.. إلى قوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: 52]. قال: [جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حِصْنٍ الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صُهيب وبلال وعمار وخباب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم. فأتوه فَخَلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعلَ لنا منك مجلساً، تَعْرِفُ لنا به العرب فضلنا. فإن وفود العرب تأتيك فنسْتحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد. فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك. فإذا نحن فرغنا، فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: 52]. ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: 53]. ثم قال: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: 54].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (4/ 1878) ـ حديث رقم ـ (2413).

قال: فدنونا منه حتىٰ وضعنا رُكَبَنا على ركبته. وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا. فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا. فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (ولا تجالس الأشراف) ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ (يعني عيينة والأقرع) ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾. (قال: هلاكاً)، قال: أمْرُ عيينة والأقرع. ثم ضرَب لهم مثلَ الرجلين ومثلَ الحياة الدنيا.

قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ. فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتىٰ يقوم][1].

وفي سنن ابن ماجة أيضاً بإسناد صحيح عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾][2].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾. قال ابن عباس: (لا تجاوزهم إلى غيرهم). أي: لا تتعدهم إلى غيرهم تبغي بمجالستهم الشرف والفخر. وعَن ابن زيد: (﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ قال: تريد أشراف الدنيا).

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

أي: ولا تطع يا محمد من غلب الشقاء على قلبه ممن يسألونك طرد المؤمنين ليقبلوا مجالستك، وممن يؤثرون اتباع هوىٰ نفوسهم على طاعة ربهم وعبادته.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

قال مجاهد: (ضياعاً). وقال عباد بن راشد عن داود: (ندامة). وقال أبو الكنود، عن خباب: (﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: هلاكاً). وقال ابن زيد: (مخالفاً للحق، ذلك الفُرُط). واختار ابن جرير أن يكون المعنىٰ: (ضياعاً وهلاكاً). وقال ابن كثير: (﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفَهٌ وتفريطٌ وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا مُحِبّاً لطريقته، ولا تَغْبطه بما هو فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3329) ـ كتاب الزهد ـ باب مجالسة الفقراء.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة (2/ 1383)، ورواه أحمد والحاكم من حديث سعد رضي الله عنه. انظر كتابي: السيرة النبوية (1/ 243) لتفصيل البحث والروايات.

بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131]).

29 ـ 31. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيهُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ إلى الأسلوب الأمثل في مواجهة قومه بوضعهم أمام اختيار أحد السبيلين: سبيل الهدىٰ والإيمان، وسبيل الكفر والطغيان. فالسبيل الأول مآل أهله إلى الجنان، حيث الأنهار وأساور الذهب وأنعم الثياب وأسعد الأيام. والسبيل الثاني مآل أهله إلى صلي النيران، حيث الأغلال والحريق وماء المهل وأتعس الأزمان.

فقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ـ إرشادٌ من الله تعالىٰ لنبيّه كيف يواجه هؤلاء المتكبرين من قومه. قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: الحق أيها الناس من عند ربكم، وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدىٰ والضلال يهدي من يشاء منكم للرشاد، فيؤمن، ويضل من يشاء عن الهدىٰ فيكفر، ليس إليّ من ذلك شيء، ولست بطارد لهواكم من كان للحق متبعاً).

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. أي: فإن شئتم فاختاروا الإيمان وطريق الجنان، وإن أبيتهم إلا الكفر فقد اخترتم طريق الهلاك والخسران. ولا شك أن مشيئتكم مقهورة بمشيئة الله العزيز الحكيم.

قال ابن عباس: (من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر. قال: وإنما هو تهديد ووعيد).

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. أي: سورها وجدارها.

قال ابن عباس: (هي حائط من نار). وقال ابن زيد: (يقول: أحاط سرادق النار

التي أعدّها الله للكافرين بربهم ، وذلك فيما قيل : حائط من نار يطيف بهم كسرادق الفسطاط).

وقوله : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ .

المهل : سائل أسود مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ ، يشوي وجه الكافر إذا قرّبه من وجهه ليشرب منه . قال ابن عباس : (المهل : ماء غليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت). وقال مجاهد : (هو كالدم والقيح). وقال عكرمة : (هو الشيء الذي انتهىٰ حَرُّه). وقال الضحاك : (ماء جهنم أسود ، وهي سوداء ، وشجرها أسود ، وأهلها سود). وكلها أقوال متكاملة .

والمعنىٰ : هذا غياث الظالمين في نار جهنم من شدة العطش ، فإنه إذا طلبوا الماء يغاثون بماء المُهْل الذي يشوي الوجوه ويسقط ما عليها من لحم وجلد من شدة حرّه .

وقوله : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

أي : بئس الشراب هذا الماء الملتهب الذي يغاث به أهل جهنم ، وساءت النار لهم متكأ ومنزلاً ومقيلاً . قال مجاهد : (﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ : أي مجتمعاً). والارتفاق لغة من المرفق أو الرفق . قال الرازي : (مُرتَفِقاً : أي مُتَّكِئاً على مِرْفق يده). والعرب تقول : ارتفق فلان أي : اتكأ . أو بات على مرفقه لا يأتيه نوم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

بيان لحال السعداء بعد ذكر حال الأشقياء ، فالمؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا على منهاج النبوة أولئك يحفظ الله لهم أجور أعمالهم ليوافيهم بها .

وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ . أي : جنات إقامة . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ . أي : من تحت غرفهم ومنازلهم في صور بديعة وسعادة كبيرة .

وقوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ .

أي : يلبسون فيها من الحلي أساور من ذهب ، ومن الثياب الديباج والحرير الأخضر اللون .

قال ابن كثير : (فالسندس : ثياب رِفاعٌ رِقاقٌ كالقمصان وما جَرَىٰ مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق).

وقوله : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

قال قتادة : (﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ : هي الحجال . قال معمر ، وقال غيره : السُّرُرُ في

الحجال). قال النسفي: (خَصَّ الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم).
وقال القاسمي: (﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: الجنات المذكورة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي متكأً.
وقيل المرتفق المنزل والمستقر، لآية: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66]،
وآية: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 76]).

32 ـ 36. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

في هذه الآيات: خطاب الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: واضرب ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين المستكبرين من قومك، الذي يترفعون عن مجالسة ضعفاء المسلمين ومساكينهم ويفتخرون عليهم بالأموال والأحساب، مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين محفوفتين بالنخل، ممتلئتين بالزرع، تجري خلالهما الأنهار، فافتخر صاحبهما على صاحبه بالمال والثمر والنفر، ودخل جنته في هيئة الكبر، مستبعداً هلاك الأرض وقيام الساعة، ظاناً ـ إن حصلت القيامة ـ حسن المنقلب، وأسعد المستقر.

فقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

قال القرطبي: (قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾). قال ابن كثير: (فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفَتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزُروع، وكُلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مُقبِلٌ في غاية الجودة).

وقوله تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

أي: كلتا الجنتين أخرجت ثمارها بوفاء دون نقصان، والأنهار تتخرَّق في

أرجائهما. قال قتادة: (﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾: أي لم تنقص منه شيئاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

قرأ أهل الحجاز والعراق: ﴿ثُمُرٌ﴾. وقرأها غيرهم: ﴿ثُمْرٌ﴾، وقرأها آخرون: ﴿ثَمَرٌ﴾. فعلىٰ القراءة الأولىٰ قيل المراد المال. قال مجاهد: (﴿وكان له ثُمُرٌ﴾ قال: ذهب وفضة). وقال ابن عباس: (يعني أنواع المال). وقيل بل يدخل في المراد الثمار. قال قتادة: (الثمر من المال كله يعني الثمر، وغيره من المال كله).

وعلى القراءة الثانية: ﴿ثُمْرٌ﴾ جمع ثَمَرَة. والمقصود الثمار.

والقراءة الثالثة: ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم. وهي قراءة مشهورة. قرأها عاصم وشيبة ويعقوب وأبو جعفر وابن أبي إسحاق. والمقصود بالثمر جمع ثمرة.

قلت: والقراءة الثالثة: ﴿ثَمَرٌ﴾ أحبُّ إلي، وينصرف المعنىٰ إلى الثمار وهو أنسب للسياق، لقوله تعالىٰ بعدها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

وعن قتادة: (﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: وتلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزّة النفر).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

قال النسفي: (﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ إحدىٰ جنتيه، أو سماها جنة لاتحاد الحائط، وجنتين للنهر الجاري بينهما ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضار لها بالكفر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي أن تهلك هذه الجنة، شك في بيدودة جنته لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة، وترىٰ أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك).

والخلاصة: هذه صورة غفلة المتكبر المتجبر إذا رأىٰ المال والزروع والثمار والأنهار يتملك منها، فيحمله اغتراره على المبالغة في الكبر والعجب والكفر بالله ونعمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

هو تتمة طغيان المتكبر الغافل، يحمله غروره وما هو عليه من العجب على الكفر بالمعاد والحساب، وإن آمن به على سبيل الشك فيفترض لنفسه خير المنقلب عند ربه، قياساً على ما هو فيه من الفتنة في الدنيا.

قال قتادة: (﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كفور لنعم ربه، مكذّب بلقائه، متمنّ على

الله). وقال ابن زيد: (﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ شكّ، ثم قال: ﴿ وَلَئِن ﴾ كان ذلك ثم ﴿ رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ما أعطاني هذه إلا ولي عنده خير من ذلك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: 77].

أي: في الدار الآخرة، فهو يتألىٰ على ربه عز وجل.

وفي المسند بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالىٰ يُعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج][(1)].

37 ـ 41. **قوله تعالىٰ:** ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ الصاحب المؤمن صاحبه المستكبر من مغبة الجحود والكفر، مذكراً له مراحل خلقه حتىٰ صار رجلاً يتكلم بالقوة والكبر، ناصحاً له التواضع لله ونسب القوة له تعالىٰ والقهر، فلربما انتقم الجبار وأحال الجنة إلى أرض قفر، وأغار الماء في الأرض فلا سبيل لبلوغه ولا حيلة في ذلك ولا أمر.

فقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ ـ هو قول صاحب ذلك الرجل صاحب الجنتين، الأقل منه مالاً وولداً، يخاطبه ويكلمه كيف تكفر بالله خالق أبيك آدم من تراب، ثم أنشأك من نطفة أبيك في رحم

(1) أخرجه أحمد في المسند (4/ 145)، وابن جرير في «التفسير» (7/ 115)، وسنده قوي. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (414).

أمك ، ثم عدّلك بشراً سوياً ، رجلاً قوياً. قال ابن جرير : (يقول : أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقاً جديداً بعد ما تصير رفاتاً).

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ .

هو قول ذلك الصاحب المؤمن يعترف لربه تعالىٰ بالربوبية ولا يشرك به في الألوهية ، بل يعبده وحده لا شريك له. قال ابن كثير : (أي : أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ، ﴿ وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ ، أي : بل هو الله المعبود وحده لا شريك له).

وقوله : ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ .

ردٌّ من المؤمن على الكافر وتوبيخ ووصية له ، ويُحْمَلُ المعنىٰ في قوله : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ على تأويلين :

التأويل الأول: ﴿ مَا ﴾ في موضع رفع ، والتقدير : هذه الجنة هي ما شاء الله. قال الزجاج والفراء : (الأمر ما شاء الله ، أو هو ما شاء الله ، أي الأمر مشيئة الله تعالىٰ). وقال النسفي : (ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر ما شاء الله. . .).

التأويل الثاني: قيل بل الجواب محذوف ، والتقدير : ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون.

قال ابن جرير : (يقول عز ذكره : وهلا إذ دخلت بستانك ، فأعجبك ما رأيت منه ، قلت ما شاء الله كان). وذكر النسفي أيضاً هذا التأويل فقال عن ﴿ما﴾ في قوله تعالىٰ ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ : (أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، يعني : أي شيء شاء الله كان. والمعنىٰ : هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله اعترافاً بأنها وكل ما فيها إنماحصل بمشيئة الله ، وأن أمرها بيده ، إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها).

وتأول الحافظ ابن كثير المعنىٰ أنه حَضٌّ على هذا النوع من الذكر عند رؤية النعم من المال والولد فقال : (هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك ، أي : هلا إذ أعجبتك جَنَّتُك حين دَخَلْتَها وَنَظَرْتَ إليها حَمِدْتَ الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعْطِ غيرك ، وقلت : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه

شيء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ . وهذا مأخوذٌ من هذه الآية الكريمة).

قلت: والسياق في الآيات لا يدل على هذا التأويل ، فإن الآية في موضع الردّ من المؤمن على تنطع الكافر وغروره وعجبه ، حيث دخل جنته وهو ظالم لنفسه بكبره وكفره وقوله ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ، فأجابه المؤمن بأن الأصل في ذلك الإخبات لله الخالق الأحد الصمد ، ونَسْبُ كل وجود إلى مشيئته وإرادته سبحانه ، فكان الأَوْلىٰ إذ دخلت جنتك أقررت بأن وجودها وبقاءها ما كان إلا بمشيئة الله ، وأن ما اجتمع لك من المال والثمر والبناء والإعمار فهو بتوفيق الله وقوته وتأييده. وأما خشية العين عند النظر إلى بديع المال والجمال فقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى التبريك ، وهو الدعاء بالبركة. وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه: [أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة ، حتىٰ إذا كانوا بشعب الخرّار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة[1] ، فلبط سهل ، فَأُتِيَ رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل! والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ، قال: هل تتهمون فيه من أحد؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة ، فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه وقال: علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟ ـ ثم قال ـ اغتسل له. فغَسَل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ، ثم صب ذلك الماء عليه فصبّه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ القدح وراءه ، ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس][2].

وفي لفظ في الموطأ: [علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ ألا برّكت إن العين حق. توضأ له ، فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس].

---

(1) المخبأة: العروس العذراء التي لا تظهر على الناس ، وفي لفظ عند مالك في الموطأ: «ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء».

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند ، ومالك في الموطأ ، انظر تخريج المشكاة (4562) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3908) ، وتفصيل هذا البحث في كتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن (335).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن عامر بن ربيعة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأىٰ أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة ، فإن العين حق][1] . وفي رواية أنه قال لعامر بن ربيعة: [ألا برّكتَ؟].

وفي لفظ لأحمد: [إذا رأىٰ أحدكم ما يعجبه في نفسه أو ماله فليُبَرِّك عليه ، فإن العين حق]. وفي لفظ آخر: [إذا رأىٰ أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله ما يعجبه فليبرك فإن العين حق].

وأما قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ . أي: ما اجتمع هذا المال والخير إلا بقوة الله وقدرته.

قال القرطبي: (أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالىٰ وقوته لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع). وقال النسفي: (﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده).

وفي كنوزالسنة الصحيحة من آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه: [قال له رسول الله ﷺ: يا عبد الله بن قيس ، ألا أعَلِّمُكَ كلِمةً هي من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله][2] .

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال له: [ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنزِ الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم][3] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن قيس بن عبادة: [أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه ، قال: فمرّ بي النبي ﷺ وقد صليت ، فضربني برجله وقال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم بإسناد صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (570) ، وتخريج الكلم الطيب (243) ، والمرجع السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6610) ، ومسلم (2704) ، وأبو داود (1526) ، والترمذي (3461) ، وابن ماجة (3824) ، وأحمد (4/ 418) ، وابن حبان (804).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 469) (2/ 535) من حديث أبي هريرة ، ورواه الحاكم ، وذكره الهيثمي في المجمع (10/ 99).

ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله][1] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود والترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، يُقال: كُفيت وَوُقيتَ وتنحىٰ عنه الشيطان][2] .

وقوله: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ .

هو قول المؤمن للكافر: إن ترن أيها الرجل أقل منك مالاً وولداً. فعسىٰ ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا ، وما ذلك على الله بعزيز. قال النسفي: (في الدنيا أو في العقبىٰ).

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾. قال قتادة: (عذاباً). وعن ابن عباس ، قال: (الحسبان: العذاب). قال ابن كثير: (والظاهر أنه مَطَرٌ عظيم مزعج ، يقلعُ زَرْعَها وأشجارها).

وقوله: ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾. قال ابن عباس: (مثل الجُرُز). وقال ابن زيد: (صعيداً زلقا وصعيداً جُرُزاً واحد ليس فيها شيء من النبات). وقال قتادة: (أي قد حُصِدَ ما فيها فلم يُترك فيها شيء).

والمقصود: يحولها الحسبان من السماء إلى أرض ملساء بلاقع ، فتعود خراباً ﴿ زَلَقًا ﴾ أي لا يثبت في أرضها قدم لامْلِسَاسِها ودروس ما كان نابتاً فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾. الغَوْر مصدر بمعنىٰ غائر. أي: أو يصبح ماؤها غائراً في طبقات الأرض لا وسيلة لإخراجه والاستفادة منه. قال قتادة: (﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾: أي ذاهباً قد غار في الأرض. وقوله: ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ يقول: فلن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غوْره ، بطلبك إياه).

والغائر ضدّ النابع ، فالنابع يندفع إلى وجه الأرض ويراه الناس ، وأما الغائر فيطلب أسفل الأرض ويغيب. وفي التنزيل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ ، أي: جار وسائح.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (4/ 284) ، والحاكم (4/ 290) ، وأحمد (3/ 422) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1746).

(2) حسن لشواهده. أخرجه الترمذي (3426) ، وأبو داود (5095) ، والنسائي في الكبرىٰ (9917) ، وأخرجه ابن حبان (822) من حديث أنس ، وله شواهد كثيرة.

42 ـ 44. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إهلاكُ الله أرض المستكبر وإرسال الجوائح على المال والثمر، فإذا بالرجل يقلب كفيه ويندم على الشرك والكفر، ولكن بعد ضياع الفرصة والوقوع في العجز حيث لا نصير من أهل ولا نفر.

فقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أحاط الهلاك والجوائح بأمواله وثماره، ووقع ما كان يحذر، وصدق حدس المؤمن فيه، من حلول الدمار ونزول المصيبة به، وبما ألهاه عن طاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾. أي: يضرب إحدىٰ يديه على الأخرىٰ ندماً وحسرة.

قال قتادة: (أي يصفق كفّيه متأسفاً مُتَلهِّفاً على الأموال التي أذهبها عليها).

وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وهي خالية على نباتها وبيوتها).

وقوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾. قال قتادة: (يقول: يتمنىٰ هذا الكافر بعدما أصيب بجنته أنه لم يكن كان أشرك بربه أحداً، يعني بذلك: هذا الكافر إذا هلك وزالت عنه دنياه وانفرد بعمله، ودّ أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئاً).

وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال مجاهد: (عشيرته). وقال قتادة: (أي جند ينصرونه. يقول: يمنعونه من عقاب الله وعذاب الله إذا عاقبه وعذّبه).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً. أي لم يكن ممتنعاً من نزول العذاب به. وقيل: لم يكن مسترِدّاً بدل ما ذهب منه.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل حسب القراءة.

قرأ قراء الكوفة: ﴿الوِلاية﴾ ـ أي: هنالك الحكمُ لله الحق. فالوِلاية بكسر الواو: من الملك والسلطان. واختار ابن جرير هذه القراءة.

وقرأ قراء من المدينة والبصرة وبعض الكوفيين ﴿الوَلاية﴾ بفتح الواو، أي: هنالك المُوالاة لله. قال ابن كثير: (أي: هنالك كلُّ أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب).

وأما لفظ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ فمن رفعه كان صفة للولاية، ومن كسر القاف كان نعتاً لله عز جل، ومثال الرفع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: 26]. ومثال الكسر قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 62].

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول عزّ ذكره: خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، يقول: وخيرهم عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له، العامل بما أمره الله، والمنتهي عما نهاه الله عنه، والعقب هو العاقبة).

وهناك قراءتان لقوله تعالىٰ: ﴿عقباً﴾ بضم العين والقاف، أو ضم العين وتسكين القاف، وهما مشهورتان في قراء الأمصار ولهما المعنىٰ نفسه.

45 ـ 46. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تمثيل الله تعالىٰ هذه الحياة بماء نزل من السماء فاختلط بالحب في الأرض فخرج النبات والزرع ثم يبس وكسرته الرياح والله على كل شيء قدير. وتقريره تعالىٰ أن المال والبنين زينة هذه الحياة الدنيا وأن الباقيات من الأعمال الصالحات هي الخير المستمر نفعه، المضمون ثوابه.

فقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

أي: صف يا محمد لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مثلَ الحياة الدنيا ليفهموها على صورتها الحقيقية: إنها كالماء النازل من السماء اختلط به نبات الأرض من الحبِّ الذي هو مدفون في التراب حتىٰ استوىٰ النبات فالتف وتكاثف، وخالط بعضه بعضاً.

قال القاسمي: (فشبَّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: بعد ذلك الزَّهو ﴿هَشِيمًا﴾ أي: جافاً يابساً مكسوراً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النموّ، ثم يزولون زوال النبات).

قلت: والتشبيه لتقلب أحوال الدنيا على الناس بالماء وحركته تشبيه بليغ، فإن الماء لا يستقيم على حالة واحدة وكذلك الدنيا، فالماء لا يبقىٰ ويذهب وكذلك تفنىٰ هذه الدنيا، والماء إذا جاوز مقداره حداً معيناً أصبح مهلكاً، وكذلك الدنيا إذا أسرف الإنسان في تحصيلها وجمع حطامها انقلبت عليه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 21].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: [قد أفلح مَنْ أسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافاً ، وَقَنَّعَهُ الله بما آتاه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها ، فينظُرُ كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سهل بن سعد ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحُلَيْفَةِ. فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها. فقال: [أَتُرَوْنَ هذِهِ هَيِّنَةً على صاحِبِها؟ فوالذي نفسي بيده! للدنياأهْوَنُ على الله ، من هذهِ على صاحِبِها. ولو كانت الدنيا تَزِنُ عِنْدَ الله جناحَ بعوضَةٍ ، ما سقىٰ كافِراً مِنْها قَطْرَةً أبداً][3].

وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾. قال القرطبي: (من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه!).

وقوله: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

ردٌّ على عُيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس وأمثالهما لما افتخرا على سلمان وصهيب وخباب وتكبرا على مجالستهم. ومن ثمَّ فهي عامة في شأن كل المستكبرين في الأرض المفتخرين بما فتنهم الله به من المال والولد. قال النسفي: (﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ لا زاد القبر وعدة العقبىٰ).

قلت: وفي المال جمال ونفع ، وفي البنين قوةٌ ودفع ، فإن استفاد العبد من ذلك في طاعة الله كان ذلك زينة له في الدنيا وثواباً في الآخرة. ولكن أغلب الناس يُفتنون بالمال والولد في دنياهم ولا يقيمون بهما ما يصلحون أخراهم. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1054) ـ كتاب الزكاة. باب في الكفاف والقناعة. وأخرجه أحمد (2/ 173) ، والترمذي (2348) ، وابن ماجة (4138) ، وابن حبان (670) ، والبيهقي (4/ 296).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2742) ـ كتاب الذكر والدعاء ، أو كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4110) ـ كتاب الزهد. باب مثل الدنيا. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3318).

وفي هذه الآية أكثر من تأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس).

2 ـ وقال سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

وكذلك رواه ابن جرير عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

3 ـ وقيل: الباقيات الصالحات النيات والهمات، لأن بها تقبل الأعمال وترفع. قاله الحسن.

4 ـ وقيل: الباقيات الصالحات: الأعمال الصالحة، والكلم الطيب، والولد الصالح.

قلت: وأكثر ما ذكر يدخل في مفهوم الباقيات الصالحات. وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: 14].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15].

وفي صحيح السنة المطهرة ما يدل أنّ «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» هي عنوان الباقيات الصالحات:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند جيد من حديث الحارث مولىٰ عثمان رضي الله عنه قال: [جلس عثمانُ يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء في إناء، أظنّهُ أنه سيكون فيه مُدٌّ، فتوضأ ثم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يتوضأ وُضوئي هذا، ثم قال: مَنْ توضأ وُضوئي هذا، ثم قام فصلىٰ صلاة الظهر، غفرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّىٰ العصر غُفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غُفِرَ له ما بينها وبين العصر، ثم صلّى العشاء غُفِرَ له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيتُ يتمرَّغُ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلىٰ صلاة الصبح غُفِرَ له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات. قالوا: هذه الحسناتُ، فما الباقيات الصالحات

يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله][1].

الحديث الثاني: أخرج النسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [خذوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النار ، قولوا: سبحان الله ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يومَ القيامة مُقَدِّماتٍ ، ومُعَقِّباتٍ ، ومُجَنِّباتٍ ، وهنَّ الباقيات الصالحات][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سمرة بن جندب ، عن النبي ﷺ قال: [أَرْبَعٌ ، أفضلُ الكلامِ. لا يَضُرُّكَ بأيِّهِنَّ بدأتَ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر][3].

وأما ما ورد في بقية الأعمال الصالحة مما يستمر أجره:

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي أمامة مرفوعاً: [أربعة تجري عليهم أجورهم بعدَ الموت: مَنْ ماتَ مرابطاً في سبيل الله ، ومَنْ عَلَّمَ علماً أُجريَ لهُ عملُه ما عملَ به ، ومَنْ تصدَّق بصدقة فأجرُها يجري له ما وجدتْ ، ورجل ترك ولداً صالحاً فهو يدعو له][4].

وله شاهد عن ابن ماجة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إنَّ مما يلحقُ المؤمنَ من عمله وحسناته بعدَ موته: عِلماً نشره ، وولداً صالحاً تركهُ ، ومُصْحفاً وَرَّثَهُ ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته ، تلحقُه من بعد موته].

الحديث الخامس: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن

(1) رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (1/ 71) من حديث الحارث مولىٰ عثمان ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (1/ 297) وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي والحاكم عن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3209) ، وتخريج الترغيب (2/ 248).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (3811) ـ في فضل التسبيح ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3073) ، وأصله في صحيح الإمام مسلم.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً. انظر تخريج الترغيب (1/ 71) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (890). وانظر للشاهد كذلك صحيح الجامع (2227) ، والإرواء (1079) ، وأحكام الجنائز (176) ـ الألباني.

رسول الله ﷺ قال: [إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عنه عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثةٍ: إلا مِنْ صَدَقَةٍ جارِيَةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به ، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له][(1)].

قال القرطبي: (﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير).

47 ـ 49. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله الأحوال قرب القيامة: من تسيير الجبال ، وبروز الأرض ، ثم موقف الحشر ، ثم العرض في صفوف ، ثم توزيع الصحف ، وما يعقب ذلك من الخزي على المجرمين ، والتحسر والتندم على الخوض في سبيل الكافرين ، ولا يظلم الله أحداً من العالمين.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ عن الأرض ، فَنَبُسُّها بَسّاً ، ونجعلها هباء منبثاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة ، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها). وعن مجاهد: (﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال: لا خمَرَ فيها ولا غيابة ولا بناء ، ولا حجر فيها). وقال قتادة: (ليس عليها بناء ولا شجر).

وتسيير الجبال عن أماكنها هو من الأمور العظام وعظيم أهوال يوم القيامة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: 9 ـ 10].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1631) ـ كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: 88].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 105 ـ 107]. قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: إنه تذهب الجبالُ، وتتساوىٰ المهادُ، وتبقىٰ الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: سطحاً مستوياً لا عِوجَ فيه، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾، أي: لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: باديةً ظاهرة، ليس فيها مَعْلم لأحد ولا مكان يوارِي أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفىٰ عليه منهم خافية).

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. أي: جمعناهم لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم تحت الأرض صغيراً ولا كبيراً، ذكراً ولا أنثىٰ.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 94 ـ 95].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49 ـ 50].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً. قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض][1].

وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. قال النسفي: (مصطفين ظاهرين ترىٰ جماعتهم كما ترىٰ كل واحد لا يحجب أحد أحداً، شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان).

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ـ تقريع بالمشركين المنكرين لهذا المشهد على رؤوس الأشهاد، وتوبيخ لكل من كفر بالمعاد.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1950)، وقوله: «غُرْلاً» ـ أي: دون ختان كما خلقهم الله، ورواه البخاري.

وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

ظاهر الخطاب لعموم الناس، وإنما المراد به الخصوص، وهم المنكرون للبعث وقيام الساعة.

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بالعبد يومَ القيامة فيقول له: ألَمْ أجعلْ لك سمعاً وبَصَراً، ومالاً وولداً، وسخّرتُ لك الأنعام والحرثَ، وتركتك ترأسُ وتَرْبعُ، فكنتَ تظُنُّ أنك مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساكَ كما نسيتني][1].

قال أبو عيسىٰ: ومعنىٰ قوله: «اليوم أنساكَ كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

أي: يضع الله تعالىٰ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فمن آخذٍ كتابه بيمينه، ومن آخذِهِ بشماله، وحينئذ ترىٰ المجرمين المشركين خائفين مما تضمنته كتبهم من جرائم أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

قال السدي: (الصغيرة ما دون الشرك، والكبيرة الشرك). وقال سعيد بن جبير: (إنَّ الصغائر اللَّمَمُ كالمسيس والقُبَل، والكبيرة المواقعة والزِّنىٰ).

والمعنىٰ: يتحسر المجرمون يوم الحساب عند استلام كتب أعمالهم، وقد اشتملت على الجليل والحقير، والفتيل والقِطمير، والصغير والكبير، أحصاها الله عليهم فضبطها وحفظها وضمّنها كتبهم.

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

قال القرطبي: (أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً).

وفي التنزيل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2558) ـ أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي (1978)، ورواه مسلم بنحوه في أثناء حديث طويل.

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولا يجازي ربك أحداً يا محمد بغير ما هو أهله، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان، ولا بالسيئة إلا أهل السيئة، وذلك هو العدل).

وعن الضحاك: (أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله). وقيل: (لا ينقص طائعاً من ثوابه، ولا يزيد عاصياً في عقابه).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو **قال:** قال رسول الله ﷺ: [يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعةٌ وتسعون سجِلاً، كل سجل مَدُّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ: هل تُنْكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، ثم يقول: ألك عذرٌ، ألك حسنةٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، فيقول: بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظُلمَ عليك اليوم، فَتُخرجُ له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4300) ـ كتاب الزهد. باب ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3469)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7951). ورواه الحاكم وغيره.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند جيد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، أنه سَمِعَ جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديثٌ عن رَجُلٍ سَمِعَه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شَدَدْتُ عليه رحلي، فَسِرْتُ عليه شهراً، حتىٰ قدمت عليه الشام، فإذا عبدُ الله بن أُنَيسٍ. فقلت للبواب: قل له: جابرٌ على الباب. فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج يَطَأُ ثوبه، فاعتَنَقني واعتنقته، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمِعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص، فَخَشيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمَعَه. فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [يَحشُر الله ـ عزَّ وجل ـ الناسَ يومَ القيامة، أو قال: العبادَ، عُراةً غُرْلاً بُهْماً ـ قلتُ: وما بُهْماً؟ قال: ليس معهم شيء ـ ثم يناديهم بصوت يسمَعُه من بَعُدَ، كما يسمَعُه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الدَّيان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ، حتىٰ أُقِصَّهُ منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند أحدٍ من أهل النار حقٌّ حتىٰ أُقِصَّهُ منه حتىٰ اللَّطمةُ. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عُراةً غُرْلاً بُهْماً؟ قال: بالحسنات والسيئات][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالىٰ: يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] الحديث[2].

50 ـ 53. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ الملائكة السجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس ـ وهو

(1) أخرجه أحمد في المسند (3/ 495)، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 345): ورجاله وثقوا.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 17)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

من الجن ـ اعترته الحمية ، واستكبر عن أمر ربه ، فحذّر سبحانه من عداوته. وتوبيخ للمشركين في اتخاذهم الشياطين أولياء وهم خلق من خلق أمثالهم ، وتقريعٌ لهم يوم الحشر حين يُدعون لمناداة الشركاء الذين أشركوا فيهم بالله لينصرونهم وينقذونهم من الخزي والهلاك الذين هم مقبلون عليه ، فإذا بينهم وبين آلهتهم المزعومة مهلك وهَوْل عظيم وأمر كبير ، وكلاهما في نار السعير.

فقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾. أي: سجود تكريم ، والخطاب لجميع الملائكة.

قال النسفي: (سجود تحية أو سجود انقياد). وقد كان هذا السجود فيما احتج به موسىٰ على آدم عليهما السلام.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [احتجّ آدم وموسىٰ عليهما السلام عند ربهما. فحجّ آدمُ موسىٰ. قال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسْجَدَ لَكَ ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض. قال آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالته ، وبكلامه ، وأعطاكَ الألواح فيها تبيان كل شيء وقرّبكَ نَجِيّاً ، فبكم وجدتَ اللهَ كتب التوراة قبلَ أن أُخلق؟ قال موسىٰ: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عَمِلْتُ عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلُقَني بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ آدم موسىٰ][1].

وقوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أي: فسجد الملائكة ممتثلين أمر ربهم ، إلا إبليس ـ وهو من الجن ، كان يعيش مع الملائكة فجاء اللفظ للتغليب ـ فقد أبىٰ أن يسجد لآدم عداوة وحسداً ، وغروراً وكبراً ، وتعزّز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [خُلِقَت الملائكة من نور ، وخُلِقَ إبليس من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم][2].

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. أي: خرج عن طاعته. والفسق في كلام العرب:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 50). وانظر مختصر صحيح مسلم (1842) ـ كتاب القدر. باب: في إثبات القدر ، وتحاجّ آدم وموسىٰ عليهما السلام.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2996) ـ كتاب الزهد. وفي لفظ: «وخلق الجان من مارج من نار».

الخروج ، يقال: فسقت الرُّطبة: إذا خرجت من أكمامها. «وفسقت الفأرة من جُحرها» إذا خرجت منه للعَيْث والفساد.

وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

قال القاسمي: (أي فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدوٌّ يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتّباعه وإطاعته. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الواضعين الشيء في غير موضعه ﴿بَدَلًا﴾ بئس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته).

قلت: وعداوة إبليس لذرية آدم عميقة وكبيرة ، حتىٰ إنه يبعث كل يوم سراياه ليخربوا بيوت بني آدم بكفر أو قتل أو طلاق أو نشر للرذيلة والفواحش وغير ذلك.

ففي صحيح مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا ، فيقول ما صنعتَ شيئاً ، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين أهله ، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت][1].

وله شاهد عند ابن حبان من حديث أبي موسىٰ الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده ، فيقول: من أضَلَّ اليوم مسلماً ألبستُه التاج ، فيخرجُ هذا فيقول: لم أزل به حتى طلَّقَ امرأته فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ عقّ والديه فيقول: يوشك أن يَبَرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ أشرك ، فيقول أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ قتل ، فيقول: أنت أنت ويُلبِسُه التاج][2].

وقوله: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾.

توبيخ للمشركين في اتخاذهم الشياطين أولياء وهم خلق من خلق أمثالهم ، وردٌّ على المتعالمين الذين يريدون أن يجزموا بنظرياتهم العلمية المتأرجحة فيقرّروا حقائق في الخلق لا يعلمها إلا الله. قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عَبيدٌ أمثالكُم ، لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خَلقِي للسماوات

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2813) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 314) من حديث جابر.
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (65) ، ورجاله ثقات رجال البخاري. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1280).

والأرض ، ولا كانوا إذْ ذاك موجودين ، يقول تعالىٰ: أنا المستقل بخلق الأشياء كُلِّها ، ومُدَبِّرُها ومُقَدِّرها وَحْدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير ، كما قال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ الآية [سبأ: 22]).

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾. قال قتادة: (أي: أعواناً).

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾. تقريع وتوبيخ آخر للمشركين. أي: ادعوا اليوم الذين كنتم تزعمون في دار الدنيا أنهم شركائي في العبادة لينصروكم وينقذوكم مما أنتم مقبلون عليه من الخزي والهلاك.

وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾. أي: فاستغاثوا فلم يغيثوهم.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾. قال ابن عباس: (مَهْلِكاً). وقال ابن زيد: (الموبق: المهلك ، الذي أهلك بعضهم بعضاً فيه). وقال مجاهد: (وادياً في النار).

قال القاسمي: (﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ أي بين الكفار وآلهتهم ﴿ مَّوْبِقًا ﴾ أي مهلكاً يشتركون فيه ، وهو النار. أو عداوة في الشدة نفس الهلاك).

وخلاصة المعنىٰ: أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين إلى نصرة يوم القيامة ، بل بينهم وبين آلهتهم المزعومة مهلك وهوْلٌ عظيم وأمر كبير ، وكلاهما في نار السعير.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: 64].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: 5 ـ 6].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: 94].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2985) ـ كتاب الزهد ـ باب: تحريم الرياء. ورواه ابن ماجة وغيره.

وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾. قال قتادة: (علموا).

أي: لما رأىٰ المجرمون النار يوم القيامة علموا أنهم داخلوها، وأيقنوا لا محالة أنهم مستقرون فيها، ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلاً يعدلون عنها إليه، يقول: لم يجدوا من مواقعتها بدّاً، لأن الله قد حتم عليهم ذلك).

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن في الشواهد، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [يُنْصَب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا. وإن الكافر ليرىٰ جهنم، ويظنُّ أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة][1].

وله شاهد عن ابن جرير في التفسير قال: حدثني يونس، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [إن الكافر ليرىٰ جهنَّم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة][2].

54 ـ 56. **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تصريفُ الله الأمثال في هذا القرآن، وتكذيب الناس الرسل بطرق

(1) أخرجه أحمد (3/ 75)، وأبو يعلىٰ (1385)، والحاكم (4/ 597)، وحسّنه الهيثمي (10/ 336) في «المجمع»، مع أنه من رواية درّاج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف، لكن ورد من طريق آخر عن دراج عن ابن حجيرة، وهو ثقة، عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه ابن حبان (7352)، ودراج حسن الحديث في روايته عن غير أبي الهيثم. وقد حسّن إسناده الشيخ شعيب، وانظر تفسير ابن كثير (4405) ـ تحقيق المهدي.

(2) أخرجه الطبري في «التفسير» (23154) بهذا الإسناد، وانظر الحديث السابق.

متوارثة عبر الزمان ، قوامها العناد والجدل وسؤال المعجزات والاستهزاء بالرسل الكرام.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾. أي: ولقد وضحنا في هذا القرآن للناس وفصلنا أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل ، يحب التقلل من التكاليف الشرعية التي هي سرّ سعادته وسرّ منزلته عند ربه ، ولا ينجو من ذلك إلا من نوّر الله قلبه وهدى بصيرته. قال ابن زيد: (الجدل: الخصومة ، خصومة القوم لأنبيائهم ، وردّهم عليهم ما جاؤوا به). قلت: بل وكثير من المسلمين اليوم واقعون في مرض الجدل بدل الإخبات للحق.

وفي الصحيحين والمسند عن عَليّ بِن حُسين ، أن حُسَيْنَ بنَ عليٍّ أخبره: أَنَّ عليَّ بنِ أبي طالب أخبره: [أن رسول الله ﷺ طَرَقَهُ وفاطِمةَ بنتَ النبي ﷺ ليلةً فقال: ألا تُصلِّيان؟ فقلت: يا رسولَ الله ، أنفسنا بيدِ الله ، فإذا شاء أن يَبْعَثَنا بَعَثَنا ، فانصرف حين قلتُ ذلك ولم يَرْجِعْ إليَّ شيئاً ، ثم سَمِعْتهُ وهو مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَه وهو يقولُ: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾](1).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾. قال مجاهد: (فجأة). وقال ابن زيد: (قبلاً معاينة ذلك القبل) ـ وهو أرجح. قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن تَمَرُّد الكفرة في قديم الزمان وحديثِه ، وتكذيبهم بالحق البيِّن الظاهر ، مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهِدُوا العذابَ الذي وُعِدُوا به عِياناً ، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: 187] ، وآخرون قالوا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: 29]. وقالت قريش: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32] ، ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: 6 ـ 7] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. ثم قال عز وجل: ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1127) ، كتاب التهجد ، وكذلك (4724) ، وأخرجه مسلم (775) ، والنسائي في «التفسير» (325) ، وأخرجه أحمد (1/ 91) ، وابن حبان (2568).

﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ، مِنْ غِشْيانهم بالعذاب ، وأَخْذِهم عن آخرهم ، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ أي : يَرَوْنَهُ عياناً مواجهة ومقابلة) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ .

قال القاسمي : (أي وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشير من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ كاقتراح الآيات ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . قال : ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي وإنذارهم . أو والذي أنذروا به من العقاب ﴿هُزُوٗا﴾ أي استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة) .

وأصل الإدحاض في كلام العرب إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . قال الرازي : (دَحَضَتْ رِجْله : زَلِقَتْ) . فاستعير ذلك المفهوم من زلل القدم إلى زلل العقل والمنهج والتفكير .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعاً : [ثم يُضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة . . قيل يا رسول الله ! وما الجِسْرُ؟ قال : دَحْضٌ مَزِلَّةٌ][(1)] .

57 ـ 59 . **قوله تعالى :** ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا (٥٨) وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا (٥٩)﴾ .

في هذه الآيات : التحذيرمن التغافل عن آيات الله وحججه وقوارعه وما يعقب ذلك من الختم والطبع على القلوب وإقفال الآذان عن سماع الحق ، وأنه تعالى برحمته لا يعاجل بالعذاب بل يحلم ويستر والموعد للحساب يوم القيامة . وإنّ من سننه تعالى

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (183) ـ كتاب الإيمان ـ في أثناء حديث الشفاعة ، وفي رواية : «دَحْضٌ مَزْلقة» أي تزلَقُ فيه القدم . انظر صحيح البخاري (4581) ، ومسند أحمد (3/ 56) .

إهلاك القرى الظالم أهلها في وقت مكتوب وأجل مسمّى.

فقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾. أي: لا أحد أشد ظلماً ممن تغافل عن آيات الله وسننه وحججه ولم يلق لها بالاً. قال قتادة: (﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾: أي نسيَ ما سلف من الذنوب). وقال ابن جرير: (يقول: ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب).

وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾. أي: لقد جعلنا على قلوب هؤلاء المعاندين للحق أغطية وفي آذانهم ثقلاً عن استماع هذا الوحي وفهمه. قال القرطبي: (بسبب كفرهم، أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم).

وقوله: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾.

قال النسفي: (﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ إلى الإيمان ﴿ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ ﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ﴿ إِذًا أَبَدًا ﴾ مدة التكليف كلها).

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ الآية.

أي: وربك ـ يا محمد ـ غفور ذو رحمة واسعة، لو أخذ هؤلاء المسرفين المستكبرين المعرضين عن الحق وعاجلهم بنقمته وعقابه لما ترك لهم من أثر، ولكنه يحلُم على عباده ويسترُ ويغفر. قال ابن كثير: (وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمرّ منهم فله يومٌ يشيب فيه الوليد، وتضَعُ كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي: ليس لهم عنه محيدٌ ولا مَحيصٌ ولا مَعْدِلٌ). وعن ابن عباس: (﴿ مَوْئِلًا ﴾ يقول: ملجأ). وقال مجاهد: (محرزاً). وقال قتادة: (أي لن يَجِدوا من دونه ولياً ولا ملجأ). وعن ابن زيد: (ليس من دونه ملجأ يلجؤون إليه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: 45].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: 61].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحَدٌ ـ أو ليس شيْءٌ ـ أصْبَرَ على أذًى سمِعَهُ من الله ، إنهم ليَدْعونَ له ولداً ، وإنه ليعافيهم ويرزُقُهم][1].

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وبعض أهل السنن عن أبي بُردة ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][2].

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

قال القاسمي: (﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ أي قرى عاد وثمود وأضرابهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بالكفر والطغيان ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي وقتاً مُعَيَّناً لا محيدَ لهم عنه).

قلت: والخطاب وإن كان لقريش وهي تكذب أشرف رسول وأعظم نبي ، إلا أنه ينسحب إلى جميع الأمم التي تحيد عن الحق وتتكبر عليه ، فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة.

60 ـ 65. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (6099) ـ كتاب الأدب ـ باب الصبر في الأذىٰ. وكذلك أخرجه برقم (7378) ـ كتاب التوحيد ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ، آية (102). ورواه مسلم.

ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ قصة لقاء موسى عليه الصلاة والسلام بالخضر، وما كان من ترتيب لذلك اللقاء بإذن الله، وإنما دفع موسى لهذا اللقاء حرصه على جمع خصال الخير والسبق إلى المعالي، وطلب العلم، والله هو العليم الحكيم.

أخرج الحاكم بسند صحيح على شرط مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبي بن كعب، أن النبي ﷺ قال: [لما لقِيَ موسى الخَضِرَ عليهما السلام، جاء طَيْرٌ، فألقى مِنْقارَهُ في الماء، فقال الخَضِرُ لموسى: تَدْري ما يقولُ هذا الطَّيْر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما عِلْمُكَ وعلمُ موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء][1].

فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

قال ابن زيد: (لا أبرح: لا أنتهي). وقال قتادة: (والبحران: بحر فارس وبحر الروم. وبحر الروم مما يلي المغرب، وبحر فارس مما يلي المشرق). وقال محمد بن كعب القُرَظي: (مجمع البحرين عند طنجَةَ). أي في أقصى بلاد المغرب، والله تعالى أعلم.

وإنما مفهوم الآية: أن موسى عليه السلام قال لفتاه ـ يوشع بن نون ـ: لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، فقد ذُكِرَ لموسى أن فيه عبداً عنده من العلم ما ليس عند موسى.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾. قال ابن عباس: (دهراً). وقال قتادة: (الحقب: زمان). وقال ابن زيد: (الحقب: الزمان). وقيل: الحقب سبعون سنة أو ثمانون سنة. والمقصود: أي لا أزال أسير حتى أبلغ ذلك المكان، ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال القاسمي: (أي لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. أي المكان الذي فيه ملتقى البحرين. فأجد فيه الخضر. أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة، فأتيقن فوات المطلب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 369) بإسناد على شرط مسلم. وانظر: «الصحيحة» (2467).

قلت: وإنما دفع موسى عليه السلام إلى تلك الرحلة الشاقة حرصه على جمع خصال الخير وسبقه إلى المعالي بين أهل زمانه.

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه بإسناد حسن عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: [سأل موسى ربّه عن ست خصال، كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبُّها:

1 ـ قال يا رب! أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكرُ ولا يَنْسى.

2 ـ قال: فأيُّ عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى.

3 ـ قال: فأيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكُمُ لنفسه.

4 ـ قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي لا يشبع من العلم، يجمع عِلْمَ الناس إلى علمه.

5 ـ قال: فأيُّ عبادك أعزّ؟ قال: الذي إذا قَدَرَ غَفَر.

6 ـ قال: فأيُّ عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى.

7 ـ قال: فأيُّ عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص(1).

قال رسول الله ﷺ: ليس الغِنى عنْ ظَهْر، إنما الغنى غنى النفس، وإذا أراد الله بعبد خيراً، جعل غناه في نفسه، وتُقاه في قلبه، وإذا أراد الله بعبد شراً جعل فقره بين عينيه](2).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

أي: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين أضلا حوتهما الذي سلك في البحر مسلكاً. قال مجاهد: (يعني بالسرب: المسلك والمذهب، يَسْرب فيه: يذهب فيه ويسلكه).

قال ابن كثير: (وذلك أنه كان قد أُمِرَ بحمل حُوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهنالك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصابَ الحوتَ من رَشَاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في

(1) أي فقير النفس، يحب لنفسه ولا يحب لغيره.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (50/ 86 ـ موارد)، والديلمي (1/ 1/ 92)، وكذلك (2/ 102/ 2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3350).

مِكْتَلٍ مع يُوشَع ، وطَفَرَ[1] من المِكْتلِ إلى البحر ، فاستيقظ يُوشَع ـ عليه السلام ـ وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه ، والماءُ له مثل الطاق لا يلتئم بعده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي : مثل السَّرَبِ في الأرض) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ .

أي فلما تركا حدود المكان الذي نسيا فيه الحوت وغادراه ، قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعباً .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .

أي : أجاب الفتى موسى بقوله : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فهنالك نسيت الحوت وما كان ذلك النسيان إلا من الشيطان ، فاتخذ الحوت طريقه إلى البحر سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً . قال قتادة : (فكان موسى لما اتخذ سبيله في البحر عجباً ، يعجب من سرب الحوت) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

أي : قال موسى لفتاه ـ حينئذ ـ هذا الذي نطلب فرجعا أدراجهما يشقان طريقهما ويَقُصّان أثر مشيهما ، ويقفُوان أثرهما ، ليصلا إلى مرادهما .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

أي : فلما انتهيا إلى الصخرة قافلين إذا رجل مُسَجّى بثوب فسلم عليه موسى ، فإذا هو الخَضِرُ عليه السلام ، قد وهبه الله رحمة من عنده ، وعلّمه من عنده علماً .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إنما سُمِّيَ الخَضِرُ لأنَّه جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فإذا هيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْراءَ][2] .

قال القرطبي : (الفروة هنا وجه الأرض ، قاله الخطابي وغيره . والخضر نبيّ عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبيّ ، والآية تشهد بنبوّته ، لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي . وأيضاً فإن الإنسان لا يتعلم ولا يَتَّبع إلا من فوقه ، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي) .

---

(1) طفر : أي وثب ، والمِكتل : زنبيل يُعمل من خوص .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3402) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، ورواه الترمذي (3151) .

66 ـ 78. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تفصيلُ الحوار الذي دار بين موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ، وتفصيل المشاهد والمواقف التي أتيا عليها والتي تحمل الآيات والدروس والعبر عبر الأيام.

أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: [إنا لَعِنْدَ ابنِ عَبّاسٍ في بَيْتِه. إذْ قالَ: سَلوني، قلتُ: أيْ أبا عَبّاسٍ، جعلني الله فِداءَكَ، إنَّ بالكوفة رَجُلاً قاصّاً يُقالُ له: نَوْفٌ، يَزْعُمُ أنَّهُ ليس بموسى بني إسرائيل ـ وفي لفظ: إنَّ نَوْفاً البَكاليَّ يَزْعُمُ: أن موسى نبي الله ليس بموسى الخَضِر ـ، فقال ابن عباس: كذَبَ عَدُوُّ الله، حَدّثني أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

موسى رسول الله ﷺ، قال: ذَكَّرَ الناس يوماً حتى إذا فاضَتِ العيونُ وَرَقَّتِ القُلوبُ، ولّى فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا، (وفي لفظ: فقيل له: أي الناس أعلم؟ قال: أنا)، فَعُتِبَ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إلى الله. (وفي لفظ: فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه)، وأوحى الله إليه: بلى

عَبْدٌ من عبادي بِمجْمع البَحْرين هو أعْلمُ منك ، قال: أي رَبِّ ، كيف السبيل إليه؟ قال: تأخُذُ حُوتاً في مِكْتَلٍ فَحَيْثُما فَقَدْتَ الحوتَ فاتّبِعه. (وفي لفظ: خُذْ حوتاً مَيّتاً حيثُ يُنْفَخُ فيه الروح). قال: فخرج موسى ومعه فتاه يُوشَعُ بن نُونٍ ، ومعهما الحوت ، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها. (وفي لفظ: فقال موسى لفتاه: لا أكلّفُكَ إلا أن تُخبرني بِحيث يفارقك الحوت ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيراً ، فذلك قوله جلّ ذِكْرهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾).

قال: فوضع موسى رأسه فنام. وفي أصل الصَّخرة عَينٌ يُقالُ لها: الحَياةُ ، لا يُصيبُ منْ مائها شَيْءٌ إلا حَيِيَ ، فأصابَ الحوتَ مِنْ ماءِ تلك العين ، قال: فتحرّك وانسلَّ مِنَ المِكْتَلِ فدخل البحر ، فلما استيقظ ﴿قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ الآية ، قال: ولم يجد النّصَبَ حتى جاوزَ ما أُمِرَ به ، قال له فتاه يوشعُ بنُ نون: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ الآية.

قال: فرجعا يَقُصّان في آثارِهما فوجدا في البحر كالطّاقِ ـ مَمَرَّ الحوت ـ ، فكان لفتاه عجباً وللحوت سَربا. وفي لفظ: (فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً. فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾).

فَلَمَّا انتهيا إلى الصخرة ، إذا هُما برجلٍ مُسَجّىً بثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عليه موسى ، قال: وأنّى بأرْضِكَ السّلامُ!؟ فقال: أنا موسى ، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم[1]. قال: هَلْ أَتّبِعُكَ على أن تُعَلّمني مما عُلِّمْتَ رشداً؟ قال له الخَضِرُ: يا موسى إنَّكَ على عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله عَلَّمَكَهُ الله لا أعْلَمُهُ ، وأنا على عِلْمٍ مِنْ عِلمِ الله عَلَّمَنِيهِ الله لا تعلَمُه ، قالَ: بلْ أَتّبِعُكَ ، قال: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يَمْشيان على السّاحِلِ ، فَمرَّت بهما سَفينةٌ فَعُرِفَ الخَضِرُ ، فَحملوهم في سفينتهم بغَير نَوْلٍ ـ يقول: بِغَير أجْرٍ ـ فرَكِبا السفينة.

قال: ووقَعَ عُصْفورٌ على حَرْفِ السَّفينة فَغَمَسَ مِنْقارَهُ في البحر ، فقال الخَضِرُ لموسى: ما عِلْمُكَ وعِلْمي وعِلْمُ الخلائقِ في علمِ الله إلا مقدارُ ما غَمَسَ هذا العصفور مِنْقَارَهُ.

---

(1) وفي رواية: قال فما شأنك؟ قال: جئتُ لتعلمني مما علمت رشدا. قال: أما يكفيك أن التوراة بيديْكَ وأن الوحي يأتيك يا موسى؟ إن لي علماً لا ينبغي أن تعلمَهُ وإنّ لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه.

قال: فلم يَفْجأْ موسى إلاّ إذْ عَمَدَ الخَضِرُ إلى قَدُوم فخرق السفينة ، فقال له موسى: قَوْمٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها. (وفي لفظ: قال موسى: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ـ قال مجاهد: مُنْكراً ـ قال: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ كانت الأولى نِسياناً ، والوُسْطى شَرْطاً ، والثالثةُ عَمْداً).

فانطلقا إذا هما بغلام يلعبُ مع الغِلمان ، فأخذ الخَضِرُ برأسه فقطعه ، (وفي لفظ: قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً ، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين) ، قال له موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ فقال بيده هكذا ، فأقامه ، فقال له موسى: إنا دخلنا هذه القرية فلم يُضَيِّفونا ولم يُطْعِمُونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. فقال رسول الله ﷺ: وَدِدْنا أنَّ موسى صَبَرَ حتى يُقصَّ علينا من أمْرِهما[1]. قال: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً». وأما الغلام فكان كافراً][2].

وقوله: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾. أي: مما هو رشاد إلى الحق ودليل على هدى.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾. قال ابن جرير: (يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي تستنكرها أذكرها لك وأبين لك شأنها ، وأبتدئك الخبر عنها).

وقوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾. قال قتادة: (نكراً). أو قال: (عجباً). وقال مجاهد: (منكراً). وعن ابن عباس: (﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي: بما تركت من عهدك). وقوله: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ أي: لا تضيق عليّ أمري معك ، وصحبتي إياك.

وعن ابن عباس: (﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ قال: والزكية التائبة). وفي قراءة أهل الحجاز والبصرة: (زاكية). قال سعيد بن جبير: (مسلمة). وقيل: (﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ أي صغيرة لم تعمل الخبث ، ولا حملت إثماً بعد فقتلتَه).

---

(1) وفي لفظ: «وَدِدْنا أنّ موسىٰ كان صَبَرَ حتى يَقُصَّ الله علينا من خبرهما».

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «كتاب التفسير» ـ حديث رقم (4725) ، (4726) (4727) ـ في روايات متقاربة. وأخرجه أحمد (5/ 117 ـ 118) ، ومسلم (2380) ، وأخرجه أبو داود (4707) ، والترمذي (3149) ، وابن حبان (6220) من طريق عن سفيان به.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾. قال ابن جرير: (يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها). وقال ابن كثير: (أي: بغير مُسْتند لقتله).

وعن قتادة: (﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ والنُّكْرُ أشدّ من الإمر). والمعنى: لقد جئت أمراً منكراً، وأقدمت على فعل ليس من المعروف في شيء. وقال البخاري: (نكراً: داهية).

وقوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾. أي: قد بلغت العذر في شأني، أو قد أعذرت إليَّ مرة بعد مرة.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: [كان رسول الله ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه، وقال: رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لرأى من صاحبه العجب، ولكنه قال: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ مثقَّلَةً][1].

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾. أي: يسقط ويقع. أي وجدا في القرية حائطاً يوشك على الانهيار فأقامه وأصلحه رغم أنهم لم يطعموهم. قال قتادة: (﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ وتلا إلى قوله ﴿لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ شرّ القرى التي لا تُضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقه). وفي الحديث: (حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً)[2]، أي بخلاء. وعن سعيد بن جبير: (﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ﴾ قال: رفع الجدار بيده فاستقام). قال ابن كثير: (إسْنادُ الإرادة هاهنا إلى الجِدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدَثات بمعنى الميل. والانقضاض هو السقوط).

وفي النهاية قال الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ ـ لأنك شرطت ذلك على نفسك عند قتل الغلام ألا تسألني عن شيء بعدها وإلا ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، فهذا أوان فراق بيني وبينك، وسأنبئك بتفسير ما لم تستطع عليه صبراً.

79 ـ 82. قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3984)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11310)، وابن جرير (23232)، وابن حبان (989)، وأخرجه مسلم (2380) ح (172)، في أثناء حديث طويل.

(2) جاء في رواية مسلم (2380) ح (172)، دون البخاري.

أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

في هـذه الآيات: تأويل الخضر المواقف التي لم يصبر عليها موسى ـ عليهما السلام ـ، فَخَرْقُهُ السفينة كان لحمايتها لأصحابها من ملك ظالم غاصب، وقتلُ الغلام كان رحمة بأبويه من مستقبل فاسد، وصلاحُ الأبوين كان سبباً في حماية الله كنزهما لذريتهما من بعدهما، وكل ذلك من وحي الله العليم الحكيم.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس: [﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾: وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: «أمامهم ملك». قال البخاري: يزعمون عَنْ غير سعيد: أنهُ هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول، يزعمون: اسمُه حَيْسُورُ، ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فأردت إذا هي مَرَّت به أن يَدَعَها لِعَيْبِها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها ـ ومنهم من يقول: سدّوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار، ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافراً. ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أن يحملهما حبّه على أن يتابعاه على دينه، ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ لقوله: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾: هما به أرحَمُ منهما بالأول الذي قتل خَضِرٌ. وزعم غيرُ سعيد أنهما أبدِلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال: عن غير واحد: إنَّها جارية][(1)].

وفي صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ قال: [الغلامُ الذي قتلهُ الخَضِرُ طُبِعَ يومَ طبع كافراً][(2)].

والخلاصـة: كان خرق الخضر عليه السلام للسفينة عن حكمة غير ظاهرة، وهذا ما حمل موسى عليه السلام على الإنكار، فقد خرق السفينة ليعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة لنفسه، فأراد بعيبها أن يرده عن أخذها لينتفع بها أصحابها المساكين. وأما الغلام الذي قتله الخضر فإنه كان طُبِعَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4726) ـ كتاب التفسير ـ سورة الكهف، الآية (61) وما بعدها.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2380) ح (172)، والترمذي (3148) في أثناء حديث طويل. وأخرجه أبو داود (4705)، (4706)، وابن جرير (23247)، وابن حبان (6222).

ـ بعلم الله ـ كافراً. فخشي أن يحملهما حُبُّهُ على متابعته على الكفر.

قال قتادة: (قد فَرِح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب).

وأما الجدار فإنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة[1]، وكان تحته كنز مدفون لهما، فأراد الله ببركة صلاح والدهما أن يحفظ ذريته من بعده. قال ابن عباس: (حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح). قال ابن كثير: (﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله. وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فالله أعلم).

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. أي: إنما كان ما فعلته في الأحوال الثلاثة رحمة من الله بأصحاب السفينة ووالدي الغلام ووَلدي الرجل الصالح.

وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ـ دلالة على نبوة الخضر عليه السلام، أي إنما أمرت بفعل ما أمرت به وَوُقِفْتُ عليه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. أي: ذلك تفسير ما ضقت به ذرعاً ولم تعلم حكمته. وفيه مقابلة كل مقام بما يقابله، فإن قوله: ﴿تَسْطِع﴾ جاء بعد حل الإشكال وتوضيح ما وراء الستار، وقبل ذلك كان الأمر مُحَيِّراً ثقيلاً فناسب القول: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

83 ـ 85. قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يسألك يا محمد بعض مشركي قومك عن خبر ذي القرنين فقل سأقص عليكم من أمره خبراً موثوقاً. إنه رجل صالح من عباد الله الصالحين، دانت له

(1) في الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة. فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أتبع بقوله: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾. وفي التنزيل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31] والمراد مكة والطائف.

البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وتحرك بأمر الله في أرجاء هذه المعمورة ، شرقاً وغرباً ، وآتاه الله تعالى مثل ما يؤتىٰ الملوك ، ومن الأسباب والطرق والوسائل القوية لفتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكَسْر الأعادي ، وكبْتِ ملوك الظلم وإذلال أهل الشرك ، ومن كل شيء يُحتاج إليه لإقامة الحق ومنهاج العدل في الأرض. فتابع المسير في أرجاء هذه المعمورة شرقاً وغرباً.

فقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ويسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن ذي القرنين ما كان شأنه ، وما كانت قصته ، فقل لهم: سأتلو عليكم من خبره ذكراً).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾. قال ابن عباس: (سبباً: يعني علماً). وقال قتادة: (منازلَ الأرض وأعلامها). وقال ابن زيد: (تعليم الألسنة ، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلَّمهم بلسانهم).

قال ابن كثير: (أي: أعطيناه مُلكاً عظيماً متمكناً ، فيه له من جميع ما تُؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصَارات. ولهذا مَلكَ المشارِقَ والمغارِبَ من الأرض ، ودانت له البلادُ ، وخَضَعت له ملوك العِباد ، وخَدَمته الأمم ، من العَرَب والعَجم. ولهذا ذكر بعضُهم أنه سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بلغ قَرْني الشمس مشرقها ومغربها).

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾. قال ابن عباس: (يعني بالسبب المنزل). وقال مجاهد: (منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب). وقال مجاهد أيضاً: (﴿سَبَبًا﴾: طرَفي الأرض). وقال قتادة: (أي اتَّبع منازِلَ الأرض ومعالمها).

قال النسفي: (والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة ، فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً ، يوصله إليه حتى بلغ. وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً ، وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً).

قلت: والذي يظهر من عجائب ما صنع ذو القرنين ومن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أنه نبيٌّ يوحى إليه ، وقد تحرك في الأرض بأمر الله.

أخرج أبو داود والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أدْرِي تُبَّعٌ ألعيناً كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنَبِيّاً كان أم لا؟ وما أدري الحُدود كفاراتٌ أم لا؟][1].

قال ابن عساكر[2]: (وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلماً، وذاك فيما أخبرنا. . . ثم ساق الحديث: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»[3]).

وبنحوه قال الهيثمي: (يحتمل أنه ﷺ قاله في وقت لم يأته فيه العلم عن الله، ثم لما أتاه قال ما رويناه في حديث عبادة وغيره). يعني قوله ﷺ: «. . . ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له. .» أخرجه الشيخان وغيرهما.

وقال القشيري أبو نصر: (قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ـ إن كان نبياً فهو وحي، وإن لم يكن نبياً فهو إلهام من الله تعالى).

قلت: والراجح عندي من هذه الآية والحديث السابق أنه نبيٌّ، والله تعالى أعلم.

86 ـ 88. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات: وصولُ ذي القرنين إلى أقصى الغرب من الأرض، ورؤيته الشمس تغرب في البحر المحيط، وعندها قوم من الناس فعرفوا قَدْرَه وتحاكموا إليه، فحَكَمَ على المشرك بربه المفسد في الأرض بالقتل، ثم يُرَدُّ إلى ربه ليحكم بأمره يوم القيامة. وأما المؤمن العامل بالصالحات فله التوقير في الدنيا وحسن المنقلب في الآخرة.

فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾. قال ابن كثير: (أي: فسلك طريقاً حتى وصل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4674) ـ دون الجملة الثالثة ـ والحاكم في «المستدرك» (1/ 36)، وعنه البيهقي (8/ 329)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2217).

(2) انظر: تاريخ ابن عساكر (3/ 251/ 1)، (6/ 57/ 1)، (11/ 302/ 1)، (16/ 66/ 2).

(3) حسن لشواهده. أخرجه أحمد (5/ 340)، ورواه ابن عساكر ـ انظر المرجع السابق.

إلى أقصى ما يُسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض).

وقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ . قال ابن عباس : (ذات حَمْأة) وهو الطين الأسود. وقال كعب الأحبار : (أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء). وهناك قراءة لابن عباس : ﴿في عين حامية﴾[1] يعني حارة. ولا منافاة بين القولين ـ كما ذكر ابن كثير والقاسمي ـ: إذ قد تكون حارَّةً لمجاورتها وَهجَ الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. قال ابن كثير : (أي : رأى الشمس في منظره تغربُ في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرُبُ فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مُثْبَتَة فيه لا تُفارِقُهُ).

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

أي : إنه رأى عندها أمة من الأمم. قال القاسمي : (ثم أشار تعالى إلى أنه مكَّنَهُ منهم ، وأظهره بهم ، وحكَّمَهُ فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ أي بالقتل وغيره ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالعفو. ثم بَيّنَ عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه).

وقوله : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ . قال قتادة : (بالقتل).

أي : أما من استمر على الكفر والشرك بربه والإفساد والظلم في الأرض فسوف نعاقبه بالقتل.

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ . قال النسفي : (في القيامة، يعني أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب في الدارين).

وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . أي : وأما من تابعنا على الإيمان بالله والعمل الصالح فإن جزاءه الجنة في الدار الآخرة.

وقوله : ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ . قال مجاهد : (معروفاً).

قال ابن جرير : (يقول : وسنعلمه نحن في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى الله ويلين له من القول).

---

(1) قلت : وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، عن أُبي بن كعب : [أَنَّ النبي ﷺ قرأ : «في عَيْنٍ حَمِئَةٍ»]. صحيح الترمذي (2337).

89 ـ 91. **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

في هذه الآيات: يتابع ذو القرنين مسيره من مغرب الشمس إلى مطلعها، يقيم الحق وميزان العدل في الأرض، وكلما مَرَّ بأمَّةٍ قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزَّ وجل، فإن دانو له بالطاعة تركهم، وإلا أذلهم وأرغم أنوفهم وكسر شوكتهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، وربما استخدم من كل أمة ما يستعين به في جيوشه على قهر القرى المتاخمة لهم، فلما بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لا بناء يحجب الشمس عنهم، ولا مضارب أحد من الناس تكون بينهم وبين الشمس، فإذا اشتدت عليهم الشمس دخلوا في أسراب لهم، فإذا ذهبت حِدّتها أو زالت خرجوا من أسرابهم إلى أعمالهم في حروثهم ومعايشهم. والله تعالى عليم بكل أحوال هذا الرجل القائم بأمره وبكل شؤون جيشه ومسيرهم وأحوال الأقوام التي يقيم فيهم حكم الله عز وجل.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾. قال القرطبي: (أي سلك طريقاً ومنازل).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾. قال قتادة: (ذكرَ لنا أنهم بأرض لا تُنْبِتُ لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشَمس خرجوا إلى حُروثهم ومعايشهم).

وقال الجوهري: (المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس. والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة).

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾. قال مجاهد: (عِلْماً).

قال ابن كثير: (أي: نحن مُطَّلِعونَ على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرّقَت أُمَمهم وتقطَّعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]).

92 ـ 99. **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: وصول ذي القرنين إلى منطقة بين السدين، وقصة استجارة القوم به من فساد يأجوج ومأجوج، وتفصيل بنائه السد الذي يحجبهم عن الناس إلى يوم ميعاد خروجهم آخر الزمان بإذن الله.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾. أي: ثم سار ذو القرنين فسلك طرقاً ومنازل من مشارق الأرض حتى بلغ بين السدين. قال ابن كثير: (وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرَةٌ يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويُهلكون الحرث والنسل). وعن قتادة: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان). قال ابن جرير: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ يقول عز ذكره: وجد من دون السدّين قوماً لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

قرأ عاصم والأعرج ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾، وأما قراء الحجاز والعراق فقرؤوا: «ياجوج وماجوج» بغير همز. وهما قراءتان معروفتان في الأمصار. ويأجوج ومأجوج قوم من نسل نوح عليه الصلاة والسلام من أولاد يافث، تُركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين.

والخلاصة: إنه لما وصل ذو القرنين ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ ـ وهما جبلان بينهما ثغرة، يخرج منهما يأجوج ومأجوج فيعيثون فيها فساداً ـ وجد العبد الصالح في رحلته في تلك الأرجاء قوماً لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام لسانهم وبعدهم عن الناس، وشكوا إليه أمر فساد هؤلاء القوم يأجوج ومأجوج، فقالوا له: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ ـ قال ابن عباس: (أجراً عظيماً) ـ ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فتحجبهم عنا وتخلصنا من سوئهم وشرورهم، وكان الله سبحانه قد أعطى

ذا القرنين قوة وسلطاناً ، فكان ـ كما مضىٰ ـ يقيم الحق والعدل ويحكم بين الناس.

فأجابهم ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. أي: ما أعطاني سبحانه وتعالى من الملك والتمكين في الأرض خير لي من الذي تجمعونه وتفكرون بإهدائه لي. وهذا كقول سليمان عليه الصلاة والسلام لوفد بلقيس الذين حاولوا حجب نفوذه وسلطانه بهداياهم فقال لهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وقال لهم ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. أي: ساعدوني بقوة بعملكم وبآلات البناء. قال مجاهد: (﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردماً. والردم: حاجز الحائط والسد، إلا أنه أمنع منه وأشد). وعن ابن عباس قال: (﴿رَدْمًا﴾: هو كأشدّ الحجاب).

وقوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾. أي: قطع الحديد ـ قاله ابن عباس ومجاهد، فإن الزبر جمع زبرة وهي القطعة منه. قال مجاهد: (وهي كاللبنة)، يقال كل لبنة زنة قنطار.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾. قال مجاهد: (رؤوس الجبلين). أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي أجِّجَ عليه النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي صار كله ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾. قال مجاهد وقتادة: (هو النحاس المذاب).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

قال قتادة: (﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ من فوقه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي من أسفله). أي: فما قدروا أن يصعدوا ويرتقوا فوق هذا السد المنيع ولا قدروا على نقبه من أسفله، فقد صنعه ذو القرنين بأحدث وسائل زمانه واستخدم في بنائه أشد وأمتن مَواد البناء، فقد دخل في إنشائه الحديد والحجارة والنار والنحاس، فياله من سد متين ذي مقاومة حدية عالية.

قال الحافظ بن كثير: (ولما كان الظهور عليه أسهلَ من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾).

لقد حجب ذو القرنين عليه السلام بهذا البنيان العظيم أشدَّ الناس شروراً وفاحشة في الأرض، فإن يأجوج ومأجوج قوم مفسدون، خَبَّأهم الله فتنة في آخر الزمان لمن ضل أو من كفر، وجعل خروجهم من علامات يوم القيامة، وجعل نهايتهم من الأرض من

أشد أيام الفرح بهجة في الدنيا ، ليضيفها إلى فرحة التخلص من مكر اليهود في الأرض وجنسهم ، ليفرح بها عيسى بن مريم ومن سيكون معه في الطور من المؤمنين.

إن يأجوج ومأجوج قوم أحياء يحفرون في كل يوم في محاولة منهم للخروج من ذلك السجن الذي كتبه الله عليهم قسطاً وعدلاً ، إلا أنهم يمكرون ويمكر الله بهم وهو خير الماكرين ، إلى أن يأذن الله بخروجهم.

وفي التنزيل: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾. قال ابن عباس: (أي يسرعون في المشي إلى الفساد). والحدب المرتفع من الأرض.

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن يأجوج ومأجوج يحفرون كُلَّ يوم ، حتى إذا كادوا يَرَوْن شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً ، فيعيده الله أشَدَّ ما كان ، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ويتحصَّنُ الناس منهم في حصونهم. فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدمُ الذي احفَظَّ ، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله نغفاً في أقفائهم فيقتلون بها. قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ، إن دواب الأرض لتَسْمَنُ وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم][1].

وقد فُصِّلَ ذلك الحدث تفصيلاً رائعاً في حديث الإمام مسلم عن النواس بن سمعان ، حيث قال رسول الله ﷺ: ـ بعد أن يقتل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام المسيح الدجال ـ: [ثم يأتي عيسى إلى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فَحَرِّز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾. فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم ويقول: لقد كان بهذه مرة ماء. ثم يسيرون إلى جبل

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 510 ـ 511) ، والترمذي في الجامع (3153) ، وابن ماجة (4199) في السنن ، والحاكم (4/ 488) ، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1735) ، وصحيح الجامع (2272).

الخَمَر (وهو جبل بيت المقدس) فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هَلُمَّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه، فيرسِلُ الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونتنُهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله][1].

وفي رواية: [تطرحهم بالنهبل ـ اسم موضع ـ، ويستوقد المسلمون من قُسِيِّهم ونُشَّابِهم وجعابهم سبع سنين، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه ـ أي لا يمنع من نزوله ـ بيتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركَها كالزَّلفة ـ أي كالمرآة ـ ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك ورُدّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرّمانة، ويستظلون بِقِحْفِها ويبارك في الرِسْلِ، حتى إنَّ اللِّقْحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللِّقْحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخْذَ من الناس، فبيناهم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبِضُ روحَ كُلِّ مؤمن وكُلِّ مسلم، ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارجَ الحُمُرفعليهم تقوم الساعة].

وأما قوله: «ثم يأتي عيسى إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم». قال النووي في شرح صحيح مسلم: (قال القاضي: يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره فيمسح على وجوههم تبركاً وبراً، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف).

وقوله: «لا يدان لأحد بقتالهم» ـ أي لا طاقة لأحد على حربهم. قال النووي: (يقال ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان، لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد).

وقوله: «فحرّز عبادي إلى الطور». أي: اجعل الطور لهم حرزاً بأن ينضموا إليه من هؤلاء القوم الذين هم من كل حدب ينسلون، أي من كل نشز يمشون مسرعين. والخَمَر: الشجر الملتف، والمراد بالحديث جبل بيت المقدس. وأما النَغَفَ فهو دود

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 197 ـ 198) من حديث النواس بن سمعان. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2048)، كتاب الفتن.

يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدته نغفة ، وقوله «فرسى»: أي قتلى ، واللّقحة: بكسر اللام وفتحها لغتان معروفتان ، والكسر أشهرها ، وهي القريبة العهد بالولادة ، واللقوح ذات اللبن. وأما الفئام فهم الجماعة من الناس ، وكذا الفخذ في اللغة الجماعة من الأقارب. قال النووي: (وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة).

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: [سيوقِدُ المسلمون من قِسِيِّ يأجوج ومأجوج ونُشَّابهم وأتْرِسَتِهم سبعَ سنين][1].

لقد حذّرَ النبي ﷺ من هذه الفتنة ـ فتنة يأجوج ومأجوج ـ تحذيراً كثيراً ، وخاف منها على أمته خوفاً كبيراً ، واستيقظ يوماً فزعاً لذلك كأنه يرى أمامه شراً مستطيراً.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن زينب بنتِ جحش رضي الله عنها أنها قالت: [استيقظ النبي ﷺ من النوم مُحْمَراً وَجْهُهُ يقول: لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوجَ مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مئة. قيل: أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ][2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

قال ابن جرير: (قال: هذا الذي بنيته وسوّيته حاجزاً بين هذه الأمة ومن دون الردم رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس ، فأعانني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم... فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء الردم لهم ، جعله دكاء ، يقول: سوّاه بالأرض).

قال قتادة: (﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: لا أدري الجبلين يعني به ، أو ما بينهما). وكان وعد الله ، في دكّ هذا الردم وخروج هؤلاء القوم فتنة للناس عند استهتارهم بدينهم ، وعداً حقاً والله لا يخلف الميعاد.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ـ فيه تأويلان:

1 ـ أن يعود الضمير على يأجوج ومأجوج. والمعنى كما ذكر السدي ، قال: (ذاك حين يخرجون على الناس). قال ابن كثير: (أي: يوم يُدَكُّ هذا السَّدُ ويخرجُ هؤلاء

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3295) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1056 ـ 1062)ـ لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (13/ 9 ـ 10) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (8/ 165 ـ 166).

فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم).

2 ـ أن يكون الوصف لحالة الخلق قبيل النفخ في الصور لقيام الساعة. واختاره ابن جرير.

قال ابن زيد: (هذا أول القيامة، ثم نفخ في الصور، على أثر ذلك فجمعناهم جمعاً).

قلت: وكلا المعنيين حق، فإن خروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم من علامات اقتراب الساعة، والساعة لا تقوم إلا على شرار القوم وهم يتهارجون فيها تهارج الحمر. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [تفتحُ يأجوجُ ومأجوجُ. فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمُّون الأرض، وينحازُ منهم المسلمون، حتى تصيرَ بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، حتى أنهم ليمرون بالنَّهر فيشربونه، حتى ما يذرون فيه شيئاً فيمرُّ آخِرُهُمْ على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان، مرة، ماءٌ. ويَظْهَرون على الأرض. فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا مِنْهم، ولَنُنَازِلَنَّ أهلَ السماء..] الحديث (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس](2).

قلت: فإذا نفخ في الصور واجتمع الجن والإنس جميعاً بين يدي ربهم، نادى الله آدم أن أخرج بعث النار، فتمتلئ جهنم من يأجوج ومأجوج. وتفصيله في:

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عزَّ وجلَّ: يا آدمُ! فيقول: لبيكَ وسَعْديكَ! والخيرُ في يديك! قال: يقول: أخرج بَعْثَ النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: مِنْ كل ألف تِسْعَ مئة وتِسْعَةً وتسعين، قال: فذاك حين يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول الله أيُّنا

---

(1) حسن صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3307)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1061) ـ لتفصيل البحث في علامات الساعة، وصفات يأجوج ومأجوج.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 208). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2022)، والمرجع السابق (2/ 1064) ـ شهود شرار الناس لقيام الساعة.

ذاكَ الرجل؟ فقال: أبشروا. فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألْفٌ ، ومنكم رجلٌ. قال: ثم قال رسول الله: «والذي نفسي بيده! إني لأطْمَعُ أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة» فحمدنا الله وكبّرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة» فحمدنا الله وكبّرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا شَطْرَ أهلِ الجنة». إنَّ مَثَلَكم في الأمم كمثلِ الشَّعْرَةِ البيضاء في جِلدِ الثَّوْرِ الأسودِ أو كالرَّقْمَةِ[1] في ذراع الحمار][2].

100 ـ 106. **قوله تعالى**: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تفصيلُ إبراز جهنم يوم القيامة للكافرين ، الذين كانوا في غفلة وعناد وتكذيب بيوم الدين. فهل ظنوا أن اتخاذهم عباد الله ـ كالملائكة وعيسى عليهم السلام ـ أولياء نافعهم أو صارف عنهم العذاب المهين. إنّ الأخسرين الذين بطل عملهم وهم يحسبون أنهم من المحسنين. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ووعده ووعيده المبين ، فاستحقوا جهنم يصلونها مع المستهزئين.

فقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾. أي: أبرزناها للكافرين أمام أعينهم قبل أن يدخلوها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والضيق في نفوسهم والهلع في قلوبهم ، ولها يومئذ سبعة أبواب لكل باب أهله في صليها وولوجها.

(1) كالرقمة: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضديه. وقيل: هي الدائرة في ذراعيه. وقيل: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من الداخل.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6530) ، وأخرجه مسلم (222) ـ واللفظ له ـ كتاب الإيمان ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 32 ـ 33) من حديث أبي سعيد الخدري.

وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال قتادة: (هي والله منازلهم بأعمالهم).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، معَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها](1).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله، فيتفكَّرُون فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد الله، وينقادون لأمره ونهيه، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، يقول: وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكَّرَهم به، وبيانه الذي بَيَّنَهُ لهم في آي كتابه، بخذلان الله إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشُغْلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان، فيتعظون به، ويتدبرونه، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان).

والمقصود: إنه لما تعامى هؤلاء الكفار وتغافلوا وتصامّوا عن سماع الحق وإبصار الهدى واتباع سبيل المرسلين، أصَمَّ الله أسماعهم عن سماع الحق فخذلهم عن فهمه وعقله. قال مجاهد: (﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لا يعقلون). أو قال: (لا يعلمون).

وفي التنزيل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

قلت: والاستطاعة الواردة في الآية بمفهوم خلق القدرة على ذلك العمل، وتأتي بمعنى التوفيق. والمعنى: إن الله يخذل الكافرين نتيجة استهزائهم بالحق وتماديهم بالباطل فلا يستفيدون من سمعهم في الحق، وكذلك يخذل المنافقين عن السجود له في أرض المحشر. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: 42 ـ 43].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً](2).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2842)، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1975).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4919) ـ كتاب التفسير ـ سورة القلم. وانظر كذلك ـ حديث رقم ـ (22) منه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾. قال النسفي: (أي أفظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ما ظنوا). وقال القاسمي: (﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أي هيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و«النزل» ما يقام للنزيل أي الضيف. وفيه استعارة تهكمية. إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين، ضيافة لهم).

وفي التنزيل: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: 81 ـ 82].

وفي صحيح ابن ماجة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عملَ عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَهُ][1].

وفي لفظ: [قال الله عزَّ وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشِّرك. فَمَنْ عَمِلَ لي عَمَلاً أشْركَ فيه غَيْري، فأنا منه بريءٌ. وهو للذي أشرك].

وفي الباب عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة، قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخرين، يومَ القيامة، لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيه، نادى مُناد: مَنْ كان أشْرَكَ في عملٍ لَهُ لله، فليطلب ثوابَهُ من عِنْدِ غير الله. فإن الله أغنى الشركاء عن الشِّرك][2].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

أي: هل أخبركم بالأخسرين من الخلق؟ إنهم الذين سلكوا مناهج غير مشروعة وعملوا أعمالاً باطلة غير مرضية في ميزان الشريعة، وهم يظنون أنهم مقبولون مرضيون محبوبون، وإنما يفاجؤون ببوارها يوم القيامة. وهي آية عامة تشمل كل من ضل عن منهاج النبوة، ولو أخلص لأي منهاج آخر.

قال البخاري في صحيحه: حَدَّثني محمدُ بنُ بَشّار: حَدَّثنا محمدُ بن جَعْفَر: حَدَّثنا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرٍو، عن مُصْعَب قال: [سألت أبي ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ هم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4202) ـ كتاب الزهد. باب الرياء والسمعة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3387) ـ وأصله في صحيح الإمام مسلم.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4203)، الباب السابق. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3388).

الحَرُورِيَّة؟ قال: لا ، هم اليهودُ والنصارى ، أما اليَهودُ فكذَّبُوا محمداً ﷺ ، وأمّاالنَّصارى كَفَروا بالجنة وقالوا: لا طعامَ فيها ولا شرابَ ، والحَرُورِيَّةُ الذين يَنْقُضُون عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ ميثاقه ، وكان سَعْدٌ يُسَمِّيهم الفاسقين][1] .

قال الحافظ ابن كثير: (فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وُجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامَّة في كل من عبدَ الله على غير طريقة مَرْضِيّة يَحْسب أنه مصيبٌ فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئٌ وعملهُ مردودٌ ، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: 2 ـ 4] ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: 23] ، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: 39]).

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ .

أي: إنهم الذين جحدوا التنزيل وحجج الله التي تدعوهم إلى إفراده تعالى بالتعظيم والعبادة ، وكفروا بلقائه في يوم يضع سبحانه فيه أعمال العباد على الميزان ، فما وافق الحق رجح وما كان على غير ميزان الشريعة جعله هباء منثوراً.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: [إنه لَيأتي الرَّجُلُ العظيم السمينُ يَوْمَ القيامة ، لا يَزِنُ عِند الله جَناحَ بعوضة ـ وقال ـ: اقرؤوا: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾][2] .

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله ، واتخاذهم آيات كتابه ، وحجج رسله سخرياً ، واستهزائهم برسله).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4728) ـ كتاب التفسير ـ سورة الكهف ـ آية (103).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4729) ـ كتاب التفسير ـ سورة الكهف ـ آية (105) ، ورواه الإمام مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4678).

107 ـ 108. **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ۝١٠٨﴾.

في هذه الآيات: إخبار عن الصورة المقابلة لأصحاب الجحيم، صورة السعداء في جنات النعيم، في الفردوس سرّ الجنة وأعلاها ووسطها تحت عرش الرحمن الكريم، ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة لهم خاصة بهم من ربهم العلي العظيم. وهم فيها مقيمون لا يظعنون عنها أبداً ولا يرحلون.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [من آمنَ بالله ورسوله، وأقام الصلاةَ، وصامَ رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلسَ في أرضه التي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رسول الله، أفلا نُنَبِّئُ الناسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنة مئةَ درجةٍ أعَدَّها الله للمجاهدين في سبيله، كُلُّ درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فَسَلوه الفِردوس، فإنهُ أوسطُ الجنة وأعلى الجنة، وفوقَه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة][1].

وله شاهد عند الطبراني من حديث العرباض، عن النبي ﷺ قال: [إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه سرّ الجنة].

قال القاسمي في «التفسير»: (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾: أي تحولاً، لبلوغهم الكمال في نعيمها. فلا شوق لهم فيما وراءها. وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها، وحبهم لها. مع أنه قد يتوهم، فيمن هو مقيم في مكان دائماً، أنه يسأمه أو يمله. فأخبر أنهم، مع هذا الدوام والخلود السرمديّ، لا يختارون عن مقامهم متحوَّلاً).

109 ـ 110. **قوله تعالى**: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7423) ـ كتاب التوحيد، وكذلك (2790)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 335)، وابن حبان (4611). وانظر للشاهد صحيح الجامع (606).

تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: تعظيمُ كلمات الله وآفاق معانيها وروائع علومها ، وإثبات بشرية الرسول ﷺ وتلقيه الوحي من الله رب السماوات والأرض وباريها ، وذِكْرُ سرّ النجاة وسعادة الدارين: إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، والتماس العمل الصالح على منهاج الوحيين.

فعن مجاهد: (﴿ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ للقلم). قال قتادة: (يقول: إذاً لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات الله وحكمه).

والمقصود: قل ـ يا محمد ـ مخبراً عن عظمة كلمات ربك وصفاته وآياته وحكمه: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات الله وحكمه وما يخبر عن آياته ومعاني أسمائه وصفاته لنفد البحر قبل الفراغ من ذلك ، ولو رفدته بحور الدنيا ومحيطاتها.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: 27].

قال الربيع بن أنس: (إن مثلَ علم العباد كُلِّهم في علم الله كَقَطْرَةٍ من ماء البحور كُلِّها ، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ يقول: لو كان البحر مِداداً ، والشجر كُلُّها أقلامٌ ، لانكسرت الأقلام وفنيَ ماءُ البحر ، وبَقِيت كلماتُ اللهقائمةً لا يُفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يَقْدُرَ قدرها وَلا يُثني عليه كما ينبغي ، حتى يكونَ هو الذي يُثني على نفسه ، إن رَبَّنا كما يقول وفوق ما نقول ، إنَّ مَثَلَ نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبَّةٍ من خَرْدَلٍ في خلال الأرض).

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾. قال القرطبي: (أي لا أعلم إلا ما يعلِّمني الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله).

وقال ابن كثير: (يقول تعالى لرسوله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ فمن يَزْعُمُ أني كاذب

فَلْيَأْتِ بمثلِ ما جئتُ به ، فإني لا أعلمُ الغيب فيما أخبرتُكم به من الماضي ، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخَبَر ذي القرنين ، مما هو مطابق في نفس الأمر ، لو لا ما أطلعَني الله عليه. وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ، ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له).

وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

أي: فمن كان يرجو لقاء الله فيخاف الموقف بين يديه ، ويأمل الفوز بثوابه وجناته ، والظفر بلذة النظر إلى وجهه ، فليعمل عملاً خالصاً لوجهه موافقاً لشريعته ، ولا يشرك بعبادته أحداً.

والآية دليل على ركني العمل الصالح المتقبل:

الركن الأول: أن يكون العمل خالصاً لوجه الله العظيم.

الركن الثاني: أن يكون موافقاً للشريعة المطهرة ، كما جاء في التنزيل وهدي الرسول الكريم.

قال الفضيل بن عياض: (فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله ، والصواب: أن يكون على السنة).

وقال شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ: (وإذا كانت جميع الحسنات ، لا بد فيها من شيئين: أن يراد بها وجه الله ، وأن تكون موافقة للشريعة ، فهذا في الأقوال والأفعال. في الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، في الأمور العلمية ، والأمور العملية العبادية).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 29].

3 ـ وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37].

ومن كنوز السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام مسلم في الصحيح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربِّه عز وجل ، أنه قال: [أنا خيرُ الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا منه بريءٌ ، وهو للذي أشرك][2] .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي سعيد بن أبي فَضَالَةَ الأنصاري ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادىٰ منادٍ: من كان أشركَ في عملٍ عملهُ لله أحداً فليطلبْ ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك][3] .

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند جيد عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله به ، ومن راءى راءى الله به][4] .

وفي رواية من طريق ابن عمرو: [من سَمَّعَ الناس بعمله ، سَمَّعَ الله به مسامعَ خلقه وصغّره وحقّره] .

وعن سفيان: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: لا يرائي) ـ رواه ابن جرير .

تم تفسير سورة الكهف
بعون الله وتوفيقه ، وواسع مَنِّه وكرمه



(1) حديث صحيح . رواه مسلم (2564) (33) ، وكذلك رقم (34) .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (4/ 2289) ، وأحمد (2/ 301 ـ 435) ، والطيالسي (2559) ، وأخرجه ابن ماجة (4202) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (395) .
(3) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3154) ، وابن ماجة (420) ، وأحمد (3/ 466) ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (6817) ، وله شواهد كثيرة .
(4) إسناده جيد . أخرجه أحمد (5/ 45) ، والبزار (3563) ، والطبراني كما في «المجمع» (10/ 222) ، وقال الهيثمي: وأسانيدهم حسنة . وأصل معناه في صحيح مسلم .

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ القرآن نذارة للكافرين ، وبشارة للمؤمنين العاملين .
2 ـ الشباب أقبل للحق من الشيوخ الذين انغمسوا في الباطل وشابوا على ذلك .
3 ـ تعارف أصحاب الكهف بالإيمان الذي جمع قلوبهم على الهدى .
4 ـ لا تشرع العزلة إلا عند وقوع الفتن والخشية على الدين .
5 ـ قصة أهل الكهف دليل على البعث والنشور .
6 ـ حذر الرسول ﷺ من اتخاذ القبور مساجد ، ولعن فاعل ذلك .
7 ـ يغاث الكافرون يوم القيامة بالمهل ، ويرفل المؤمنون في حلل السندس .
8 ـ استدراج الله الكافر بكثرة الرزق لا يعني أن ذلك كرامة .
9 ـ مردود حسن ظن المؤمن بربه ، خير من المال والولد .
10 ـ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير هن الباقيات الصالحات .
11 ـ الذنوب تجمع على الرجل يوم القيامة كما يجمع ركام الحطب .
12 ـ ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن .
13 ـ يفرق الله بين المشركين وآلهتهم يوم القيامة .
14 ـ إن توقع العذاب والخوف من أهواله قبل وقوعه عذاب ناجز .
15 ـ جزاء الإعراض عن الحق الحيلولة دون فهمه جزاء وفاقاً .
16 مشروعية السفر المتعب لطلب العلم ، ويؤجر المؤمن على جهاده .
17 ـ عتب الله تعالى على موسى ـ عليه السلام ـ لأنه لم يرد العلم إليه تعالى .
18 ـ إن موسى صاحب الخضر ، هوموسى صاحب بني إسرائيل .
19 ـ لم يصبر موسى على كل ما فعله الخضر ، فحصلت المفارقة .

20 ـ الخضر نبي ـ ﷺ ـ وتوفاه الله في حينه ، وأخبار حياته موضوعة .

21 ـ ذو القرنين ملك مؤمن موحد ، آتاه الله ملكاً وسلطاناً عظيماً .

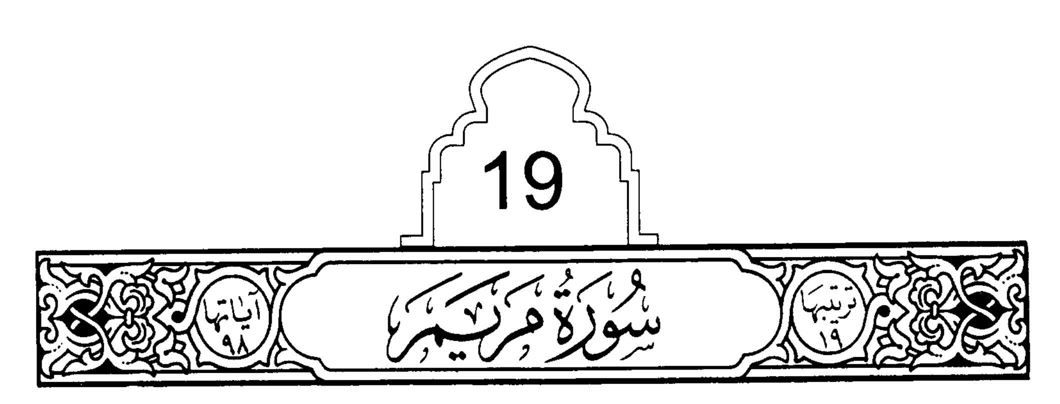
22 ـ يأجوج ومأجوج أكبر فتنة بعد الدجال ، ولكن الله يصرعهم دون قتال .

23 ـ التقم إسرافيل الصور وحنى جبهته واستمع متى يؤمر .

24 ـ الضالون هم الأخسرون أعمالاً ، ويحسبون أنهم على حق .

25 ـ كلام الله أجلّ وأعلىٰ وأمنع من أن يحصىٰ ، ومن كان يؤمن بالله ولقائه فليعمل صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (98).

أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي اللهُ عَنْها ـ في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ـ [فقال له النجاشي ـ أي لجعفر بن أبي طالب رضي اللهُ عَنْهُ ـ: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأهُ عليّ. فقرأ عليهِ صَدْراً من كهيعص. قالت: فبكىٰ واللهِ النجاشي حتىٰ أخْضَلَ لحيتَهُ ، وبكت أساقفتُهُ حتىٰ أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة][1].

موضوع السورة

قصة مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام ، وخبر الأنبياء والرسل الكرام ، ومصير المكذبين ، ومستقر المتقين.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ مناجاة زكريا ربه يشكو إليهِ الضعف ويسأله الوريث لحمل الأمانة ومنهاج النبوة.

2 ـ نزول البشارة على زكريا يبشره الله بغلام اسمه يحيىٰ ، وتَعَجُّبُه من ذلكَ وقد كبر وامرأتهُ لم تلد ، واللهُ على كل شيء قدير.

(1) رواه أحمد (5/ 290) ، (1/ 202 ـ 292) بسند صحيح عن زوجة رسول الله ﷺ ، وصححه أحمد شاكر في التعليق على المسند ، حديث رقم (1740) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 311 ـ 315).

3 ـ سؤال زكريا ربه آية على البشارة ، فَحُبِسَ لسانه عن الكلام ثلاث ليالٍ إلا رمزاً.

4 ـ أمْرُ الله تعالى يحيىٰ حمل الكتاب بقوة ، وإنعامهُ تعالى عليهِ بالعلم والفهم والعمل الصالح وبر الوالدين والأمان في المواطن الثلاث: يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً.

5 ـ قصة مريم عليها السلام ، وإيجاد الله ولدها ـ من غير أب ـ عيسىٰ عليهِ السلام.

6 ـ اعتزال مريم بحملها مكاناً نائياً ، وتحرك المخاض ، ومناداة الصبي تحتها ، وامتنان الله عليها بالطعام والشراب وقرة العين ، ونذرها الإمساك عن الكلام.

7 ـ مجيء مريم قومها تحملُ وليدها أمام تعجبهم من أمرها ، وتكلم الصبي في المهد.

8 ـ تبيان الله خبر عيسىٰ على الحقيقة ، وتنزيه نفسه تعالى عن الولد ، وأن أمرهُ تعالى كن فيكون ، ودعوة عيسىٰ قومه إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والتعظيم.

9 ـ ذِكْرُ اختلاف الناس في شأن عيسىٰ عليه السلام ، وتوعّد الله الكافرين مشهد يوم عظيم.

10 ـ ذِكْرُ استماع الكفار وإبصارهم يوم القيامةِ بعد فوات الأوان ، وإنذار النبي ﷺ مشركي قومه يوم التحسر والندم وشدة الزحام ، وإخبار الله سبحانه أنه الخالق المتصرف وإليهِ مرجعُ جميع الأنام.

11 ـ حوار إبراهيم ﷺ مع أبيهِ يدعوه إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والتعظيم ، ويحذره مغبة اتباع منهاج الشيطان الرجيم ، ثم اعتزاله قومه وشركهم ، ومؤانسة الله لهم بإسحاق ويعقوب في المرسلين.

12 ـ ذكر خبر موسىٰ وهارون ، وخبر إسماعيل وإدريس ، وثناء الله على المرسلين.

13 ـ ذكر حال الأشقياء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وما ينتظرهم من العذاب ، إلا من تدارك نفسه بالتوبة واستغفر ربه وأناب.

14 ـ إعلانُ جبريل عليه السلام ، أن تَنَزُّلَهُ بأمر الله رب السماوات والأرض ، وشد عزيمة النبي ﷺ في الصبر على مشاق الطريق.

15 ـ تكذيب الكافر بالبعث والحساب ، وقد خلقه الله من العدم ووعدهُ على كفره العذاب ، فالنار حق والصراط على جهنم يسقط فيها المجرمون ، وينجو بإذن الله المتقون.

16 ـ إخبار عن سلوك الكفار حين تُتلىٰ عليهم آيات الرحمان ، وقد أهلك الله من قبلهم من المستهزئين وكانوا أشد قوة وأصحاب صروح وبنيان ، فالله يمهل الكافرين ، ويثبت ويهدي المؤمنين .

17 ـ تهديد ووعيد لذلك الكافر الذي يزعم أن له عند الله مالاً وولداً .

18 ـ اتخاذ الكافرين آلهة من دون الله سيكفرون بها يوم الدين ، والله تعالى يرسل الشياطين تؤز الكافرين .

19 ـ نَعْتُ الله حال المتقين كيفَ يردون إليهِ وفداً ، في حين يساق المجرمون إلى جهنم ورداً ، ولا شفيعَ لهم فإن الشفاعة تنال من اتخذ عند الله عهداً : شهادة أن لا إله إلا الله ينال بها العبد سعادة ومَجداً . وأما من زعم لله ولداً فإن السماوات والأرض والجبال تكاد تتمزق لفريته هدّاً . فكل ما في السماوات والأرض يأتي يوم القيامة عبداً ، واللهُ أحصاهم جميعاً وعدّهم عدّاً .

20 ـ ضمان من الله تعالى لعبادهِ المؤمنين ، بجعل المودة لهم في الأرض وحسن الذكر في الصالحين ، وهذا القرآنُ بشارة للمتقين ، ونذارة للفجار الآثمين .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن مناجاة عبده زكريا، يشكو إلى ربه الوهن والضعف والمشيب المنذر بالرحيل، ولا وريث يحمل أمانة هذا الدين، فهو يسأل الله تعالى وريثاً على منهاج النبوة.

فقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ـ هو على مفهوم الحروف المقطعة السابقة في أوائل السور. ومفاده الإعجاز لهذا الكتاب العظيم، المؤلف من هذه الحروف المعروفة، والتحدي قائم إلى قيام الساعة أن يأتي أحد بمثل هذا النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: هذا ذكر رحمة ربكَ بعبده زكريا).

وزكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وكان يأكل من عمل يديهِ في النِّجارة. وقد صنّف الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باباً سماهُ: «بابُ من فضائل زكرياء، ﷺ». روىٰ فيهِ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [كان زَكَرِيَّاءُ نَجّاراً][1]. ورواه ابن ماجة بلفظ: [كانَ زَكرِيَّا نَجّاراً].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾. قال ابن جريج: (لا يريدُ رياء).

(1) حديث صحيح. أخرج مسلم (2379)، كتاب الفضائل، وأخرجه أحمد (2/ 296 ـ 405 ـ 485)، وأخرجه ابن ماجة (2150)، وأبو يعلىٰ (6426).

وقال قتادة: (أي سرّاً، وإن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

قال السدي: (فكان نداؤه الخفي الذي نادىٰ بِهِ ربه أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ يعني بقوله: ﴿وَهَنَ﴾ ضعف ورقّ من الكبر). وقال مجاهد: (نحَلَ العظم). وقال قتادة: (أي ضعف العظم مني). وقال الثوري: (وبلغني أن زكريا كانَ ابن سبعين سنة).

والمقصود: أنه يشكو إلى الله عز وجل الضعف وقد خارت القوىٰ. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾. قال النسفي: (تمييز، أي فشا في رأسي الشيب، واشتعلت النارُ إذا تفرقت في التهابها وصارت شعلاً، فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار).

وعن ابن جريج: (﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يقول: قد كنتُ تعرّفني الإجابة فيما مضىٰ).

أي: لم أعهد منكَ ربّ إلا الإجابةَ في الدعاء، وما خيبتني قط عند الرجاء، بل كنتَ تجيبني وتقضي حاجتي ما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾.

الموالي هنا الأقارب وبني العم والعصبة الذين يلونه في النسب. والعرب تسمي بني العم الموالي.

قال مجاهد: (أرادَ بالموالي العصبة). وقال أبو صالح: (الكلالة). وروي عن عثمان بن عفان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين: أنهم كانوا يقرؤونها: ﴿وإني خَفَّت الموالي من روائي﴾ أي: قلّت عصباتي من بعدي. ومن ثمَّ قال للآية تأويلان:

التأويل الأول: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: (خاف أن يرثوا مالهُ وأن ترثهُ الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد).

التأويل الثاني: قال الزجاج وغيره: (إنما كان مواليهِ مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين، فطلب ولياً يقوم بالدين بعده).

والراجح التأويل الثاني لثلاثة أسباب:

1 ـ الأنبياء أعظم قدراً ومنزلة من الإشفاق على أموالهم ودنياهم من بعدهم.

2 ـ لم يذكر أن زكريا كان كثير المال ، بل كان نجاراً يأكلُ من عمل يدهِ.

3 ـ لقد ثبتَ في الصحيحين وبعض السنن من حديث أبي بكر مرفوعاً: [إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة][(1)]. وكذلكَ في سنن أبي داود وابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: [وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورَّثوا العلمَ فمن أخذه أخذ بحظ وافر][(2)].

وهذا التأويل هو اختيار القرطبي وابن كثير والقاسمي وغيرهم من المفسرين. قال القاسمي: (﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين. والتمسك بهديه المتين).

وقوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وكانت امرأتي لا تلد).

وقوله: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾. أي: فارزقني من عندكَ ولداً يكون لي وارثاً ومعيناً.

وقوله: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾. قال الحسن: (نبوّته وعلمه). وقال السُّدي: (يرث نبوته ونبوة آل يعقوب). وقال مجاهد: (كان وراثتُه عِلْماً ، وكان زكريا من ذرية يعقوب).

وقال أبو صالح: (يكون نبياً ، كما كانت آباؤه أنبياء).

وقوله: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. أي: مرضياً في أخلاقه وأفعاله ، راضياً بقضائكَ وقدرك ، تحبّهُ وتحبّبه إلى خلقك.

7 ـ 11. قوله تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ البخاري (2904) ، (4885) ومسلم (1757) و أبو داود (2963) ، وأحمد (1/ 25) ، وابن حبان (6608) من حديث عمر ، وفي الباب عن أبي بكر وعائشة وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3641) ، كتاب العلم ، باب فضل العلم ، وكذلكَ ابن ماجة في السنن (223) ، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3096).

تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾.

في هذه الآيات: نزولُ البشارة من الله على زكريا بغلام يولد له اسمه يحيىٰ يُفرد بتسميته. وتعجُّب زكريا من حصول ذلكَ وامرأتهُ لم تلد وقد كبر هو وعَسَا عَظْمُه ونحُل. وتثبيتُ الله إياه بذكر عجائب قدرته في خلقه قبل يحيىٰ وقد كان عدماً. وسؤال زكريا ربه آية على البشارة فقال آيتك أن يُحْبسَ لسانُكَ عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنتَ صحيح سوي. فخرج على قومهِ فأشار إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً.

فقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ـ فيه إجابةُ الله تعالى ذلكَ الدعاء.

قال القرطبي: (في الكلام حذف، أي فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فتضمنت هذه البشرىٰ ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث: أن يفرد بتسميته).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 38 ـ 39].

وعن قتادةَ: (قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ عبدٌ أحياه الله للإيمان). أي: إنما سماه الله يحيىٰ لإحيائه إياه بالإيمان، واللهُ تعالى أعلم.

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾. فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: لم تلد العواقر مثله ولداً قط).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال: شبيهاً. وبنحوه قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، أي شبيهاً.

3 ـ وقال قتادة: (لم يسمّ يحيىٰ أحد قبله). وقال ابن زيد: (لم يسمّ أحد قبله بهذا الاسم). واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

قال ابن زيد: (العتي: الذي قد عتا عن الولد فيما يرىٰ نفسه لا يولد له). وعن ابن عباس قال: (يعني بالعتي: الكبر). وقال مجاهد: (نُحول العظم).

قال ابن كثير: (هذا تعجُّبٌ من زكريا ـ عليه السلام ـ حين أُجيبَ إلى ما سأل، وَبُشِّرَ بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يُولَدُ له، والوجهُ الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأتهُ عاقرٌ لم تَلد من أول عمرها مع كِبَرِها، ومع أنه قد كبر وعَتا، أي: عسَا عَظْمُهُ ونحُل، ولم يبق فيه لقاحٌ ولا جماع).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

أي: قال الملكُ مجيباً لزكريا فيما تَعَجَّبَ منه: هذا قضاء الله في إيجاد الولد منكَ ومن زوجتك، وهو أمر يسير سَهْل على الله تعالى وأعجبُ من ذلك أن أوجدتكَ من قبل يحيىٰ ولم تك شيئاً بل كنتَ عدماً. قال القرطبي: (أي كما خلقكَ اللهُ تعالى بعد العدم ولم تك شيئاً موجوداً، فهو القادر على خلق يحيىٰ وإيجاده).

وفي التنزيل نحو ذلك: قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

قال ابن زيد: (قال: قال رب اجعل لي آية أن هذا منك). يعني: اجعل لي علامةً ودليلاً على ما بشرتني به ملائكتكَ من قدوم هذا الغلام عن أمرك ورسالتك، ليطمئن قلبي وتسكن نفسي إلى ما وعدتني. قال: آيتكَ أن يُحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنتَ صحيح سوي من غير مرض ولا علة.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾. قال: ثلاث ليال متتابعات).

قال السدي: (يقول من غير خَرَس إلا رمزاً، فاعتُقل لسانهُ ثلاثة أيام وثلاث ليال).

وقال ابن زيد: (فحبس لسانه، فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو في ذلكَ يسبح، ويقرأ التوراة ويقرأ الإنجيل، فإذا أرادَ كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم).

قلت: والذي ذهب إليه ابن زيد هو الراجح في فهم الآية، لموافقة ذلكَ لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

قال ابن جريج: (أشرف على قومِهِ من المحراب). أي: الذي بُشِّرَ فيه بالولد. وقال ابن زيد: (المحراب: مُصلاه، وقرأ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]). وعن مجاهد: (﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إليهم. وفي رواية كتب لهم في الأرض). وقال قتادة: (أومىٰ إليهم). قال ابن زيد: (ما أدري كتاباً كتبهُ لهم، أو إشارة أشارها، واللهُ أعلم، قال: أمرهم ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وهو لا يكلمهم).

12 ـ 15. **قوله تعالى**: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى يحيىٰ أخذ التوراة بقوة وعزيمة، وإنعامُه تعالى عليه بالعلم والفهم والرحمة والعمل الصالح الزكي، وبر الوالدين ولين الجانب، وأتبع ذلكَ سبحانهُ بأمان عليه في المواطن الثلاثة: يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً.

فقوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: (بجدّ). وقال ابن زيد: (القوة أن يعمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله). والخطاب ليحيىٰ بن زكريا بعدما ولد وصار صبياً مُهَيَّأً لحمل الأمانة. والمقصود بالكتاب: التوراة، أي يقول الله له: يا يحيىٰ خذ هذا الكتاب الذي أنزله الله على موسىٰ، وهو التوراة بجدٍّ وعزيمة، وأقم أمر الله في الأرض.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. قال ابن كثير: (أي الفهم والعلم والجدَّ والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السِّن).

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾. قال ابن عباس: (يقول: ورحمة من عندنا). وقال مجاهد: (وتعطّفاً من ربه عليه). وقال عكرمة: (محبّةً عليه). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ورحمة منا ومحبّة له آتيناه الحكم صبياً). وقيل: هي رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق. قلت: وكلا المعنيين حق.

وقوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾. معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾. والزكاة هنا: الطهارة من الذنوب والعمل بطاعة الله.

قال قتادة: (الزكاة: العمل الصالح). وقال ابن جريج: (العمل الصالح الزكيّ).

قال النسفي: (﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي طهارة وصلاحاً فلم يعمد بذنب).

وقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾. أي: مسلماً مطيعاً. قال ابن عباس: (طهر فلم يعمل بذنب).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. أي: كما أقام دينهُ وقام بطاعة ربه عز وجل، فإنه جَمَعَ إلى ذلك بِرَّ الوالدين ومجانبة عقوقهما. قال القرطبي: (و﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً. وهذا وصف ليحيىٰ عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح). وقال القاسمي (﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي: متكبراً عاقّاً لهما، أو عاصياً لربه).

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: وأمان عليهِ من الله في هذه المواطن الثلاثة، وهي أدقّ الأحوال في تاريخ الإنسان.

يروي ابن جرير بسندهِ عن سفيان بن عيينة يقول: (أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرىٰ نفسهُ خارجاً مما كانَ فيهِ، ويوم يموت فيرىٰ قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعثُ فيرىٰ نفسهُ في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيىٰ بن زكريا، فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾).

16 ـ 21. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

في هذه الآيات: عَطْفٌ على قصة زكريا ـ عليه السلام ـ وإيجاد الله منه الولد ـ الزكي الطاهر ـ حال كبره وعقم زوجته، بقصة مشابهة مناسبة للقران والمماثلة، وهي قصة مريم في إيجاده تعالى منها ولدها عيسىٰ ـ عليهما السلام ـ من غير أب.

فقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾.

أي: اذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزلهُ عليكَ بالحق مريم ابنة عمران ـ عليها السلام ـ حين اعتزلت من أهلها فاتخذت موضعاً قبل مشرق الشمس دون مغربها.

قال قتادة: (﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾. أي انفردت من أهلها). وعن ابن عباس: (﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ قال: خرجت مكاناً شرقياً). قال السدي: (خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، وهو قوله: فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً: في شرقيّ المحراب).

قال ابن عباس: (إني لأعلم خلق الله لأيّ شيء اتخذت النصارىٰ المشرق قبلة، لقول الله: فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذوا ميلاد عيسىٰ قبلة). وفي رواية عنه قال: (إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت، والحجّ لله، وما صرفهم عنهما إلا قيل ربك: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ فصلوا قبل مطلع الشمس). وقال قتادة: (﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾: شاسعاً متنحياً).

ومريم بنت عمران ـ كما ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير ـ من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بَيْتٍ طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادةِ أمِّها لها في ﴿آل عمران﴾، وأنها نذرتها مُحَرَّرة، أي: لخدمة بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلكَ، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: 37]. ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدىٰ العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتّل والدُّؤوب، وكانت في كفالةِ زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبيُّ بني إسرائيل إذْ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأىٰ لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بَهرَهُ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، فذكر أنه كانَ يجد عندها ثَمَرَ الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء. فلما أرادَ الله تعالى ـ وله الحكمة والحجّة البالغة ـ أن يوجد منها عبده ورسوله عيسىٰ عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، أي: اعتزلتهم وتنحَّت عنهم، وذهبت إلى شرقيّ المسجد المقدس.

وقوله: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾. أي: توارت عنهم واستترت بستر يحجبها عنهم.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. قال وهب بن منبه: (وجدت عندها جبريل قد مثله الله بشراً سوياً). أي أرسل اللهُ إليها جبريل في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قال ابن جريج: (خشيت أن يكون إنما يريدها على نفسها). والمقصود: أنها فزعت منه حين رأته فاستجارت بالرحمن لدفعه عنها إن كان أرادها بسوء. قال السدي: (تقول: أستجير بالرحمن منكَ أن تنال مني ما حرّمه عليك إن كنت ذا تقوىٰ له تتقي محارمه، وتجتنب معاصيه). قال ابن كثير: (أي: إن كنت تخاف الله، تذكيرٌ لهُ بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكونَ بالأسهلِ فالأسهل، فخَوَّفته أولاً باللهِ عزَّ وجل).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

أي: فأجابها الملك مطمئناً لها ليزيل عنها الخوف الذي اعتراها على نفسها: ما الأمر كما تظنين، ولكني رسول ربكِ، بعثني إليكِ ليهب الله لك غلاماً زكياً.

قال ابن جرير: (والغلام الزكي: هو الطاهر من الذنوب).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

أي: فأجابت متعجبة ـ كيف يكون مني غلامٌ ولست بذات زوج، ولا يُتصور مني الفجور. قال النسفي: (﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغي الرجال أي تطلب الشهوة من أي رجل كان، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين).

والبَغِيّ: هي الزانية، وقد جاء هذا اللفظ في السنة كذلك، كما جاء في القرآن. ففي الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال: [نهىٰ رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن][1].

وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾.

قال السدي: (قال لها جبريل: هكذا الأمر كما تصفين، من أنك لم يمسسكِ بشر ولم تكوني بغياً، ولكن ربك قال: هو علي هين: أي خَلْقُ الغلام الذي قلتِ، أن أهبه لك عليَّ هين، لا يتعذّر عليّ خلقه، وهبته لك من غير فحل يفتحلك).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2237)، ومسلم (1567)، وأبو داود (3481) والترمذي (1276)، وابن ماجة (2159)، وأحمد (4/ 119 ـ 120)، وابن حبان (5157).

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾. قال القاسمي: (أي برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم. فخلق أباهم آدمَ من غير ذكر ولا أنثىٰ. وخلق حواء من ذكر بلا أنثىٰ. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثىٰ، إلا عيسىٰ فإنه أوجدهُ من أنثىٰ بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه).

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّآ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ورحمة منّا لك، ولمن آمن به وصدّقه أخلقه منكِ).

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. قال وهب بن منبه: (أي إن الله قد عزم على ذلك، فليسَ منه بدّ).

ويحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل لمريم، أو هو خبر الله لرسوله محمد ﷺ.

22 ـ 26. **قوله تعالى**: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: اعتزال مريم عليها السلام بحملها مكاناً نائياً عن الناس، وتحرك المخاض عليها فألجأها إلى جذع النخلة وتمنيها أن لو كان نُسِي أثرها، ومناداة الصبي من تحتها يطمئنها، وامتنان الله تعالى عليها بالطعام والشراب وقرة العين، وإخبارها قومها بالإشارة نذرها الصيام وهو الإمساك عن الكلام.

فقوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. قال ابن عباس: (مكاناً نائياً). وقال مجاهد: (قاصياً).

قال ابن جرير: (يقول: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسىٰ، وتَنَحَّت به عن الناس مكاناً قصياً. يقول: مكاناً نائياً قاصياً عن الناس).

وعن ابن جريج: (يقولون: إنه إنما نفخ في جيب درعها وكمها). يعني الملك، فحملت بإذن الله، ثم انصرف عنها.

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾. قال مجاهد: (ألجأها المخاض). قال ابن جريج: وقال ابن عباس: (ألجأها المخاض إلى جذع النخلة). وقال قتادة: (اضطرّها المخاض إلى جذع النخلة). وهي نخلة في المكان الذي تَنَحَّتْ إليه، ولا دليل على موقعهِ الدقيق من بيت المقدس، فالأولىٰ عدمُ الخوض بذلك. وإنما المقصود أنه ألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بذلكَ الجذع لتعتمد عليه وتستتر به.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾. أي: كما قال ابن عباس: (لم أخلق، ولم أكُ شيئاً). وقال السدي: (نسياً. نُسي ذكري. ومنسياً: تقول: نسي أثري، فلا يُرىٰ لي أثرٌ ولا عين). وعن قتادة: (أي شيئاً لا يعرفُ ولا يذكر).

قال القاسمي: (وإنما قالت ذلك، لما عرفت أنها ستبتلىٰ وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد. فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام).

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

أي ناداها الملك جبريل عليه السلام مطمئناً لها ألا تحزني ولا تهتمي بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس فها قد جعل ربك بقربك نهراً صغيراً.

فعن ابن عباس: (﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسىٰ حتىٰ أتت به قومها).

وعن قتادة: (إنه المَلَكُ جبريل عليه الصلاة والسلام، أي ناداها من أسفل الوادي).

وقيل: ناداها ابنها عيسىٰ، والأول أرجح.

قال القرطبي: (وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ تفسير النداء، و«أَنْ» مفسّرة بمعنىٰ أي، المعنىٰ: فلا تحزني بولادتك. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني عيسىٰ. والسريّ من الرجال العظيم الخصال السّيد). وعن ابن عباس: (السري: النهر). وبه قال عمرو بن ميمون: (نهر تَشْربُ منه). وقال الضحاك: (هو النهر الصغير بالسريانية). وقال وهب ابن منبه: (هو ربيع الماء). وقال السدي: (هو النهر) ـ واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

قال ابن عباس: (كان جذعاً يابساً، فقال لها: هزّيه «تساقط عليك رطباً جنياً»). قال القاسمي: (أي حضر أوانُ اجتنائه). والمقصود أن الله تعالى قد امتن عليها بأن جعل عندها طعاماً وشراباً.

قال الزمخشري: (فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتىٰ تسلّىٰ بالسريّ والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعامٌ وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان الناس أنها من أهل العصمةِ، والبعد من الريبة، وأنَّ مثلها، مما قرفوها به، بمعزل. وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات، خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتىٰ يتبيّن لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها).

قلت: بل لا مانع من كون التسيلة بالسري والرطب من بابِ الاطمئنان، والأنس بالطعام والشراب في تلك الوحدةِ إضافة لكون ذلكَ معجزة تميزها وتشهد لبراءتها واختصاصها من الله تعالى.

وقوله: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أي: كلي واشربي وطيبي نفساً ولا تغتمي. وقيل: جمعنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر، لكونهما معجزتين. وكان عمرو بن ميمون يقول: (ما من شيء خير للنُّفَساءِ مِنْ التَّمر والرُّطَب) ـ ويتلو هذه الآية.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

أي: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولي: إني نذرتُ للرحمن صمتاً وإمساكاً عن الكلام. قال ابن عباس: (يعني بالصوم: الصمت). وقال أنس بن مالك: (صوماً: صمتاً) ـ رواه ابن جرير. قال النسفي: (وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقد تسمىٰ الإشارةُ كلاماً وقولاً: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ آدمياً).

27 ـ 33. قوله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

في هذه الآيات: مجيء مريم قومها تحمل وليدها، وتعجب قومها من أمرها، وتكلُّم الصبي في المهد منزهاً ربه تعالى ومبرئاً أمهُ مما نسب إليها، ومثبتاً لنفسه النبوة من الله له والوصية بالصلاة والزكاة وبر الوالدة وحمايته من الشقاء، والسلام عليهِ في هذه المواطن الثلاثة: يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حَيّاً.

فقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾. قال وهب بن منبه: (أنساها يعني مريم كرب البلاء وخوف الناس ما كانت تسمعُ من الملائكة من البشارة بعيسىٰ، حتىٰ إذا كَلَّمها، يعني عيسىٰ، وجاءها مصداقُ ما كان الله وعدها احتملته ثم أقبلت به إلى قومها).

وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾. قال مجاهد: (أي: أمراً عظيماً).

أي: فلما رأوها والطفل بيدها أنكروا ذلكَ عليها واستعظموه وقالوا لها: يا مريم لقد أحدثت حدثاً عظيماً، جئت بأمر عجيب.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

أي: يا شبيهة هارون في العبادة والزهادة، لقد كنت من أهل بيت يعرفون بالصلاح والعفاف، فكيف صدر منكِ هذا؟ وفيه تأويلان محتملان:

1 ـ قال السدي: (قيل لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، أي: أخي موسىٰ، وكانت من نَسْلِهِ، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر).

2 ـ قال قتادة: (كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل يسمىٰ هارون، فشبَّهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح). وقال أيضاً: (كانت من أهل بيتٍ يُعرفون بالصلاح، ولا يُعرفون بالفساد، ومن الناسِ من يُعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسىٰ، ولكنه هارون آخر).

وأما ما ذُكِرَ عَن القرظي من أنها أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسىٰ أخي

هارون التي قصت أثر موسىٰ ، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 11] ، فقول خطأ محض بعيد كل البعد عن الصحة.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [أنا أولىٰ الناس بابن مريم ، والأنبياءُ أولاد علاّت ، ليْسَ بيني وبينهُ نبيّ][1].

وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: [لما قَدِمْتُ نَجْرانَ سألوني ، فقالوا: إنكم تقرؤون: «﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا ، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ: سألته عن ذلك ، فقال: «إنهم كانوا يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»][2].

قال النسفي: (﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بني إسرائيل ، أو هو أخو موسىٰ عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة ، وهذا كما يقالُ: يا أخا همدان أي يا واحداً منهم). وقال ابن جرير: (وقوله: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ يقول: ما كانَ أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ يقول: وما كانت أمك زانية).

وقوله: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾. قال قتادة: (أمرتهم بكلامه). وقال وهب بن منبه: (أشارت إليه أن كلموه).

وقوله: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾. أي كيف يتكلم ويفصح من كان في مهده في الصغر؟!.

قال ابن كثير: (أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قصَّتَها ، وقالوا لها ما قالوا معرّضين بقذفها ورَمْيها بالفرية ، وقد كانت يومَها ذلكَ صائمةً صامتةً ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامِهِ ، فقالوا: مُتَهَكِّمين بها ، ظانِّين أنها تَزْدري بهم وتلعب بهم: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾).

وقوله: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾.

هو أول كلام نطق به عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فنزَّه جناب ربه تعالى ، وبرّأ الله سبحانهُ عن الولد ، وأثبت لنفسِهِ العبودية لربه عز وجل. قال القرطبي: (فكان أوّل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3442) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر حديث (3443) منه.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2135) كتاب الآداب ، والترمذي في الجامع (3155) ، وأحمد في المسند (4/ 252) ، وغيرهم.

ما نطقَ به الاعترافُ بعبوديتِهِ لله تعالى وربوبيته ، ردّاً على من غلا من بعده في شأنه).

وقوله: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾. الكتاب: الإنجيل ، قال عكرمة: (أي: قضىٰ أن يؤتيني الكتاب فيما قضىٰ).

والآية كما قال ابن كثير: (تبرئة لأمِّهِ مما نسبت إليه من الفاحشة).

والمقصود: أن اللهَ تباركَ وتعالى كتبه نبياً قبل أن يخلقهُ ، وقضىٰ بإنزالِ الإنجيل عليه يوم يقوم بمنهاج النبوة ودعوة الخلق إلى توحيد الله العظيم.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾. أي: بشرف العلم والدعوةِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفع في وجوه الخير. قال مجاهد وسفيان: (معلماً للخير حيثما كنت).

وقال مجاهد: (نفّاعاً). وذكر ابن جرير بسنده عن وُهيب بن الورد مولىٰ بني مخزوم ، قال: (لقي عالم عالماً لما هو فوقه في العلم ، فقال له: يرحمكَ الله ، ما الذي أعلن من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد اجتمع الفقهاء على قول الله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان).

وقوله: ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وقضىٰ أن يوصيني بالصلاة والزكاة ، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضَها عليَّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب ، فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي).

والآية شبيهة بوصية الله تعالى لخاتم الرسل محمد ﷺ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾. وكذلكَ أوصىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بإقامة الدين: وعنوان ذلكَ الصلاة والزكاة ، ما دام حياً.

وقوله: ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾. أي: وكذلكَ أمرني ببرِّ والدتي. وقد ورد ذلكَ القِران كثيراً في القرآن الكريم ، فإن طاعة الله يعقبها بر الوالدين وصلة الرحم ، ومن ذلك:

1 ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: 23].

2 ـ وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

3 ـ وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: 36].

وكذلكَ فإن السنة الصحيحة قد حفلت بآفاق هذا القران في أحاديث، منها:

الحديث الأول: في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العملِ أحَبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاةُ على وقتها. قلتُ: ثم أيّ؟ قال: بِـرُّ الوالدين. قلتُ: ثم أيّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله](1).

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي اللهُ عَنْهُما قال: [أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ، فقال: أُبايِعُكَ على الهجرةِ والجهاد أَبْتَغي الأجرَ مِنْ الله تعالى. قال: فهل لكَ مِنْ والِدَيكَ أحدٌ حَيٌّ؟ قال: نَعَمْ بل كلاهُما. قال: فتبتغي الأَجْرَ من الله تعالى؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديكَ، فأَحسن صُحْبَتَهُما](2).

وفي رواية لهما: [جاء رجلٌ فاستأذنه في الجهاد فقال: أحيٌّ والِداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد].

والمقصود ـ كما ذكر أهل العلم ـ جهاد النفس في وصول البر إليهما، والتلطف بهما، وحسن الصحبة، والطاعة في غير ذلك. وفي الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين، وأنه آكد من الجهاد، إذا كان فرض كفاية، فيحرم عليه أن يجاهد إلا بإذنهما، أما إذا تعين فلا إذن ـ كما أفاد الفقهاء.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي أيوبَ الأنصاري رضي اللهُ عَنْهُ أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. فقال النبي ﷺ: [تَعْبُدُ الله، ولا تشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزكاة، وتَصِلُ الرحم](3).

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾. أي: حفظني من الفسق والعقوق.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (10/ 336) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه مسلم كذلكَ ـ حديث رقم ـ (85).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 97 ـ 98)، (10/ 338)، ومسلم (2549)، وأخرجه أبو داود (2529)، وأخرجه النسائي (6/ 10) ـ (7/ 143).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3/ 208)، وكذلكَ أخرجه مسلم (13)، وغيرهما.

قال ابن كثير: (أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبرِّ والدتي، فأشقىٰ بذلك).

قال سفيان الثوري: (الجبّار الشقي: الذي يُقبل على الغضب). وقال بعض السلف: (لا تجدُ أحداً عاقّاً لوالديه إلا وجدته جبَّاراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال: ولا تجدُ سَيِّئَ الملكة إلا وَجدْتَهُ مُختالاً فَخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36]) ـ ذكره ابن جرير في «التفسير».

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

فيه إثبات العبودية ـ من عيسىٰ عليه السلام ـ مرة أخرىٰ لله العظيم، تأكيداً ودحضاً لما سيكون من الاعتداء في ذلكَ من بعده، فهو مخلوق كغيره له ثلاثة أيام من دهره: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه من قبره ليقومَ بين يدي ربه، وهو يرجو رحمة الله تعالى وسلامته وأمنه في هذه الأحوال الثلاثة.

34 ـ 37. **قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تبيانُ الله خبر عيسىٰ على الحقيقة، وتنزيه نفسه تعالى عن الولد، وبيانُ أنّ أمرَه إذا أرادَ شيئاً أن يقول له كن فيكون، وإثباتٌ من عيسىٰ عليهِ السلام الربوبية والألوهية لله وحده، ودعوة قومه إلى إفراده تعالى بالعبادة وذلكَ هو الصراط المستقيم.

وذِكرُ اختلاف الناس في شأنه، وتوعّد للكافرين، مشهد يوم عظيم.

فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ـ أي يختصمون ويختلفون.

قال القرطبي: (أي ذلكَ الذي ذكرناه عيسىٰ ابن مريم فكذلك اعتقدوه). وقال

أبو حاتم: (﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾: المعنىٰ هو قول الحق). وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. وقال الكسائي: (﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نعت لعيسىٰ) ـ أي كما سمي كلمة الله.

وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر ﴿قولَ الحق﴾ بالنصب على الحال، أي أقول قولاً حقاً. وقرأ الأكثرون ﴿قولُ الحق﴾ بضم اللام. والتقدير: هو قول الحق.

وعن قتادة: (﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ امترت فيه اليهود والنصارىٰ، فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذّاب، وأما النصارىٰ فزعموا أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلهم، ولكنه عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه).

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: ما ينبغي لله أن يتخذ ولداً، فهو يتنزه وينزه ذاته عن ذلك، وما أمره إذا أراد شيئاً إلا أن يقول له كن فيكون.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 59 ـ 60].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي اللهُ عَنهما عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدمَ ولمْ يَكُنْ له ذلك، وشتمني ولمْ يكُنْ له ذلكَ، فأما تكذيبُه إيّايَ فزعَمَ أني لا أَقْدِرُ أَنْ أعيدَهُ كما كان، وأما شَتْمُه إيّايَ فقوله: لي وَلَدٌ فَسُبْحَاني أَنْ أَتَّخِذَ صاحِبةً أوْ ولداً][1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

إثبات من عيسىٰ عليه الصلاة والسلام الربوبية والألوهية لله وحده، فإنه عبد لله كغيره، وإرشادٌ منهُ إلى إفرادِهِ تعالى بالعبادة، وذلكَ طريق الهداية والاستقامة والرشاد.

قال وهب بن منبه: (عَهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ومولده وموته وبعثه أنَّ «الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم». أي إني وإياكم عبيد الله، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4482)، كتاب التفسير، سورة البقرة، عند آية (116).

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: (اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً). ثم قال: (﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ شهدوا هولاً إذن عظيماً).

قال ابن كثير: (أي: واختلفت أقوالُ أهل الكتاب في عيسىٰ بعد بيان أمرِه ووضوح حاله، وأنه عبدُه ورسوله وكَلِمتُه ألقاها إلى مَرْيمَ وروحٌ منه، فَصَمَّمتْ طائفة ـ وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله ـ على أنه ولدُ زنْيَة، وقالوا: كلامهُ هذا سِحْرٌ.

وقالت طائفة أخرىٰ: إنما تكَلَّم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قولُ الحقِّ، الذي أرشد الله إليه المؤمنين).

وفي الصحيحين ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ليسَ أحدٌ ـ أو ليس شيءٌ ـ أصْبَرَ على أذىً سمِعَه من الله، إنهم ليَدْعونَ له ولَداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم][(1)].

ورواه مسلم بلفظ: [ما أحدٌ أصبرَ على أذىً يسمعهُ، من الله عزَّ وجل، إنهم يجعلون له نِدّاً، ويجعلون لهُ ولداً، وهو مع ذلكَ يرزقُهم، ويعافيهم، ويعطيهم].

وإنَّما النجاة من عذاب الله يوم القيامة بإقامة التوحيد لله وإثبات الرسالة للمرسلين، وقد صنف الإمام مسلم في صحيحه باباً سمّاه: «باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً» ـ روىٰ فيه عن عبادة بن الصامت رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ [من شهدَ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] ورواه البخاري[(2)].

38 ـ 40. قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6099)، كتاب الأدب. باب الصبر في الأذىٰ، وأخرجه مسلم (8/ 134) وانظر: مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1928)، كتاب التوبة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (6/ 342)، كتاب الأنبياء، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وأخرجه مسلم(28) في الإيمان.

مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ استماع الكفار وإبصارهم يوم القيامة بعد فوات الأوان ، وإنذارٌ من النبي ﷺ لمشركي قومه يوم التحسر والندم وشدة الزحام ، وإخبارٌ من الله سبحانه أنه الخالق المالك المتصرف وإليه مرجعُ جميع الأنام.

فقوله : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . قال قتادة : (أسمع قوم وأبصرهم) . وقال : (ذاكَ واللهِ يوم القيامة ، سمعوا حين لا ينفعهم السمع ، وأبصروا حين لا ينفعهم البصر) . والآية : إخبارٌ من الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة أنهم يكونون يومئذ أسمع شيء وأبصره ، وقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ . مبالغة في حضور السمع والبصر ، والمعنىٰ: ما أسمعهم وأبصرهم ، ولكن ذلك كان منهم حين فات الأوان.

كما في التنزيل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 12].

وقوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أي: لكن الكافرون اليوم ـ في الدنيا ـ في ذهاب عن سبيل الحق ، وضياع في متاهات الضلال يبين لمن تأمله أنهم لا يبتغون الهدىٰ ولا يبحثون عن الرشاد وسبيل النجاة.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي: وأنذر ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين وجميع الخلائق يوم التحسر والندم ، إذ فصل الله بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل فريق إلى ما قُضِيَ له من الخلود في ذلك ، وهم اليوم في حياتهم الدنيا يخوضون في الغي والشهوات غافلين عما أنذروا به ، بل ولا يوقنون به ولا يصدقون.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالموت كَهَيْئَة كَبْشٍ أَمْلَحَ فَينادي مُناد: يا أهل الجنة ، فيَشْرَئِبُّون ويَنْظُرون فيقول: هل تَعْرِفون هذا؟ فيقولون: نَعَمْ ، هذا الموتُ ، وكُلُّهم قد رآه ، ثم ينادي: يا أهل النار ، فيَشْرَئِبُّون ويَنْظُرون فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فيقولون: نَعَمْ ، هذا الموتُ ، وكُلُّهُمْ قد رآه ، فيُذْبَحُ ، ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا مَوْتَ ،

ويا أهل النار خلودٌ فلا مَوْتَ ، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ ـ وهؤلاء في غفلةٍ أهلُ الدنيا ـ وهم لا يؤمنون][1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

إخبارٌ من الله سبحانهُ أنه الخالق المالك المتصرف الباقي ، وجميع الخلق يهلكون ويفنون ، وهو الحي القيوم لا تأخذهُ سنة ولا نوم ، وهو يرث الأرض ومن عليها وإليه يُرجعون.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس ، بفنائهم منها ، وبقائها لا مالك لها غيرنا ، ثم علينا جزاء كل عامل منهم بعمله ، عند مرجعه إلينا ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته).

41 ـ 50. **قوله تعالى**: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: حوار نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه يدعوه لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، ويحذره اتباع الشيطان الرجيم ، ما يعقب ذلكَ يوم القيامة من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4730) ـ كتاب التفسير ـ سورة كهيعص ، عند هذه الآية ، ورواه مسلم (2849) ، وأحمد (3/ 9) ، والبيهقي في «البعث» (584) ، وله شواهد بروايات كثيرة ـ من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي اللهُ عَنْهما.

العذاب الأليم ، وتمرد آزر على الحق واعتزال إبراهيم ، وإكرام الله له بإسحاق ويعقوب في الأنبياء والمرسلين ، وإعلاؤه تعالى في الأرض ذكر خليله إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾.

قال القرطبي: (ومعنىٰ الآية: اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفاً مسلماً وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد؟! وهو كما قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: 130]).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: اذكره حين قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ يقول: ما تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع ﴿ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ شيئاً ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ يقول: ولا يدفعُ عنكَ ضرّ شيء ، إنما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع. يقول: ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءكَ ، وإذا أحيط بك أبصركَ فنصرك ، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾.

قال ابن كثير: (يقول: فإنْ كنتُ من صُلْبِكَ وترىٰ أني أصغر منكَ ، لأني ولدُكَ، فاعلم أني قد اطّلعتُ من العلم من الله على ما لم تَعْلَمهُ أنتَ ولا اطّلعتَ عليهِ ولا جاءكَ بعد، ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب).

وقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.

قال النسفي: (﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ لا تطعه فيما سوّل من عبادة الصنم ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ عاصياً). والعصي هو ذو العصيان ، كما العليم هو ذو العلم ـ كذا في كلام العرب.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾.

هو نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، أنْ أصغ إلى الوحي تنجُ ولا تكن للشيطان ولياً. إني أخافُ أن تنال عذاب النار كما ينتظر إبليس فإنه كان للرحمن عصياً.

قال ابن جرير: (والخوف في هذا الموضع بمعنىٰ العلم ، كما الخشيةُ بمعنىٰ العلم في قوله: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾).

فيكون المعنىٰ: يا أبتِ إني أعلم أنكَ إن متّ على عبادة الشيطان أنه يمسكَ عذاب من عذاب الله فتكون ولياً للشيطان دون الله فتهلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾.

قال ابن كثير: (يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها؟ فانته عن سَبِّها وشَتْمِها وعَيْبها، فإنك إن لم تنتهِ عن ذلك اقتصصتُ منكَ وشتمتُكَ وسَبَبْتُكَ وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾).

وعن السدي: (﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال: بالشتيمة والقول). وقال ابن جريج: (بالقول، لأشتمنّكَ) وقال له: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ فيه معنيان محتملان:

المعنىٰ الأول: قال الحسن: (واهجرني زماناً طويلاً). أي: اهجرني حيناً طويلاً ودهراً.

المعنىُ الثاني: قال ابن عباس: (اجتنبني سوياً). وفي رواية: (اجتنبني سالماً قبل أن يصيبكَ مني عقوبة).

فيكون المعنىٰ على هذا التأويل: واهجرني سوياً سالماً من عقوبتي إياك، ووَجَّهوا معنىٰ المليّ إلى الاضطلاع والغنىٰ، فإن العرب تقول: فلان مليّ في هذا الأمر: إذا كان مضطلعاً به غنياً فيه. والتقدير: واهجرني وعرضُك وافر من عقوبتي وجسمكَ معافىٰ من أذاي.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (لطيفاً). والحفي في لغة العرب اللطيف.

والمعنىٰ: أجاب إبراهيم ﷺ والده آزر: أما أنا فستكون في سلام مني لشرف الأبوة وحرمةِ بِرِّ الوالدين، فلا ينالكَ مني أذىٰ أو مكروه، وسأسأل الله العظيم أن يَهْديكَ ويغفر لك، إنه كانَ بي رحيماً لطيفاً أن هداني للحق وإخلاص العبادة له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾.

هو مدح من الله سبحانهُ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ وقف على ثوابت المنهج الصائب منهج الحق، فقال لأبيه وقومه المستهزئين المستكبرين المعاندين المصرّين على الشرك والظلم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وأعتزلكم وشرككم

﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: فأخلص له العبادة والدعاء كي لا أشقىٰ شقاء المشركين به وبعبادته ، فإليه تعالى يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ومن ثم فلا ملجأ ولا منجىٰ منه إلا إليه.

وهذا التبرؤ كان بعد الاستغفار من إبراهيم لأبيه والدعوة له ولقومه ، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: 41]. وكذلكَ فإن المسلمين استغفروا لقراباتهم من المشركين حتىٰ أنزل اللهُ الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام: فقال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة: 4].

يعني: إلا في هذا القول الذي كان من إبراهيم بداية الأمر ثم أقلع عنه ، فلا تتأسوا به في ما كان قبل إقلاعه ، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 113 ـ 114].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

أي: فلما اعتزل قومه وهم على شركهم وإصرارهم آنسنا وحشته من فراقهم ، وأبدلناهُ خيراً منهم ، ومن هو أفضل وأحسن منهم وأكرم ، فوهبنا له ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب بن إسحاق ، وجعلناهم أنبياء ورزقناهم الثناء الحسن.

وخلاصة القول: لما اعتزل فاسد بني البشر ، أبدلهُ اللهُ بخير بني البشر ، فجعل النبوة والرسالة في ذريته.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [الكريمُ ابنُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم](1).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3390) وكذلكَ (4688) ، ورواهُ أحمد في المسند (2/ 96).

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (يعني الثناء الحسن). قال ابن جرير: (وكان الذي وهب لهم من رحمته، ما بسط لهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه، وأغناهم بفضله. وإنما وصف جلّ ثناؤه اللسان الذي جعل لهم بالعلوّ، لأن جميع أهل الملل تحسن الثناء عليهم)

51 ـ 53. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكرُ الله تعالى خبر عبده موسىٰ وكان رسولاً نبياً، وناداه من جانب الطور الأيمن وقربه ووهب له أخاه هارون نبياً.

فقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

أي: واذكر يا محمد في القرآن المنزل إليكَ من ربكَ موسىٰ بن عمران، واقصص على قومكَ أنه كانَ مخلصاً ورسولاً نبياً.

وقرأ عامة قراء المدينة والبصرة ﴿مُخْلِصاً﴾ أي يخلص لله في العبادة ولا يشرك به.

وقرأها عامة قراء الكوفة خلا عاصم ﴿مُخْلَصًا﴾ أي أخلصه الله واصطفاه لرسالته وجعله نبياً مرسلاً إلى بني إسرائيل. وهما قراءتان مشهورتان.

قال ابن جرير: (كان ﷺ مُخْلِصاً عبادة الله، مُخْلَصاً للرسالة والنبوّة، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب).

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

قال قتادة: (قوله: ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ قال: جانب الجبل الأيمن).

قال ابن كثير: (أي: من جانبِهِ الأيمن من موسىٰ، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوةً، رآها تلوح فقصدها، فوجدها جانب الطور الأيمن منه، غَرْبيّه عند شاطئ الوادي. فكلمه الله تعالى، وناداه وقربه فناجاه).

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (كان هارونُ أكبر من موسىٰ، ولكن أراد وهب له نبوّته).

والمعنىٰ: ووهبنا لموسىٰ رحمة منا أخاه هارون ، أيّدناه بنبوته وأعنّاه بها ، فكان نعم العون لأخيهِ.

وفي التنزيل ما يفسّر ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: 34].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 36].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: 13 ـ 14].

قال بعض السلف: ما شَفَعَ أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظمَ من شفاعة موسىٰ في هارون أن يكونَ نبياً.

54 ـ 55. قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾.

في هذه الآيات: ذكرُ الله خبر عبده إسماعيل وكان صادقاً رسولاً نبياً، وثناؤه تعالى عليه إذ كان يأمر أهلهُ بالصلاة والزكاة، وكان عند الله مرضياً.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

ثناء عطرٌ من الله تعالى على إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما السلام، هو والد العرب. والمعنىٰ: واذكر يا محمد ـ كذلك ـ في هذا القرآن إسماعيل واقصص خبره على قومك، إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف عهده، وكان رسولاً نبياً.

قال ابن جريج: (﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ قال: لم يَعِدْ ربه عِدةً إلا أنجزها).

وقيل: إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح وعلى قضاء الله وأمره فصبر حتىٰ فدي.

قال القرطبي: (﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قيل: أرسل إسماعيل إلى جُرْهُم. وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخصّ إسماعيل بالذكر تشريفاً له. واللهُ أعلم).

وقال ابن كثير: (﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وُصِفَ بالنبوة والرسالة).

وفي صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع رضي اللهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفىٰ من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفىٰ من بني كنانة قريشاً ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾.

متابعة في الثناء الطيب على إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، حيث وُصف بالمثابرة في العبادة ، وعنايته بأهله في المسارعة بالطاعة ، وأهمها الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتىٰ نال درجة الرضا عند ربه عز وجل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: 132].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم: 6].

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [رَحِمَ اللهُ رجلاً قام من الليل فصلّىٰ وأيقظ امرأتَه ، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رَحِمَ اللهُ امرأة قامت من الليل فصَلَّت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبىٰ نَضَحَتْ في وجههِ الماء][(2)].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته ، فَصَلَّيا ركعتين ، كُتِبَا مِنْ الذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات][(3)].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2276)، والترمذي (3610)، وأحمد (4/ 107)، وأبو يعلىٰ (7485).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1308)، والنسائي (3/ 205)، وأحمد (2/ 250)، وابن حبان (2567) ، وصححه الحاكم (1/ 309) ووافقه الذهبي ، وإسنادهُ قوي.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1309)، والنسائي في «الكبرىٰ» (1310)، وابن ماجة (1335)، وابن حبان (2568) ، والبيهقي (2/ 501) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (1161).

56 ـ 57. قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

في هذه الآيات: ثناء من الله تعالى على إدريس عليه الصلاة والسلام، وأنه كان صديقاً نبياً، ورفعه الله تعالىٰ مكاناً علياً.

قال النسفي: (﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوة والزلفىٰ عند الله، وقيل معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج فيها).

وفي صحيح مسلم من حديث أنس ـ حديث الإسراء والمعراج ـ قال رسول الله ﷺ: [ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾][1].

58. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨﴾.

في هذه الآية: ثناءُ الله تعالى على المرسلين، من ذرية آدم وممن حمل مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هداهم واصطفاهم للنبوة والكرامة وإقامة الدين، في تعظيمهم لأمر ربهم وخرورهم عند سماع آياته ساجدين باكين.

قال القاسمي: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام، وما فيه من معنىٰ البعد، للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل).

وقال ابن كثير: (يقول تعالى: هؤلاء النبيّون ـ وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ـ).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (162) ـ كتاب الإيمان، من حديث أنس بن مالك. ورواه البخاري وأكثر أهل السنن.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾. أي: بفنون النعم الدينية والدنيوية، وضروب الاختصاص في الذكر والنصر.

وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

قال السدي وابن جرير: (فالذي عُني به من ذُرِّيةِ مَنْ حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عُني به ذُرِّية إبراهيم إسحاقُ ويعقوب وإسماعيل، والذي عُني به من ذرية إسرائيل موسىٰ، وهارون، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ ابنُ مريم).

قال ابن جرير: (ولذلكَ فَرَّق أنسابهم، وإن كان يجمَعُ جميعهم آدمُ، لأنَّ فيهم من ليس من وَلَدِ مَنْ كان مع نوح في السفينة، وهو إدريسُ، فإنه جَدُّ نُوح).

قال ابن كثير: (قلت: هذا هو الأظهر أن إدريسَ في عَمود نسب نوح عليهما السلام).

وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾. أي: هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وإقامة الدين.

وقوله: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾.

قال القاسمي: (أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، مع مالهم من علوّ الرتبة، وسمو الزلفىٰ عنده تعالى. وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة).

قال ابن كثير: (أجمع العلماء على مشروعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم).

59 ـ 63. قوله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: عطفٌ على ذكر حال السعداء، بذكر حال الأشقياء، الذين

أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون العذاب ، إلا من آمن وعمل صالحاً وتداركَ نفسه بالتوبة إلى الله وأناب ، فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب.

فقوله: ﴿ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي قرون أُخر ، خلفوا زمان الأنبياء في الأرض وقوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه تأويلان:

1 ـ قال القاسم بن مخيمرة: (إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركاً كان كفراً). وقال مسروق: (لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين ، وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهنَّ: إضاعتهن عن وقتهن).

2 ـ وقال القرظي: (يقول: تركوا الصلاة). واختاره ابن جرير.

قلت: بل مفهوم الإضاعة يشمل التأويلين معاً ، فهو إضاعة من أركانها وواجباتها وحدودها وخشوعها ومواقيتها أو ترك لها بالكلية فترة من الزمن أو نحو ذلك.

وتفصيل ذلك:

1 ـ أما تركها بالكلية جحوداً فهو كفر وخروج عن الملة ، وهو مذهب الجمهور من العلماء.

وفي ذلكَ أدلة من الحديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة][1].

وفي لفظ: [بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيهِ ، قال: قال رسول الله ﷺ: [العَهْدُ الذي بَيْنَنا وبَيْنَهم الصلاةُ فمن تركها فقد كفرَ][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. رواه مسلم وأصحاب السنن. انظر صحيح مسلم (82)، وسنن أبي داود (2620)، وسنن الترمذي (2618 ـ 2620)، وسنن النسائي (1/ 232) ، وسنن ابن ماجة (1078) ، ورواه أحمد في المسند (3/ 370) من طرق من حديث جابر.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2621) ، وابن ماجة (1079) ، والنسائي (1/ 231) ، وأحمد (5/ 346) ، من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعاً.

قال: [ليس بين العبد والشِّرك إلا تركُ الصلاة. فإذا تركها فقد أشرك][1].

2 ـ وأما تركها تكاسلاً وانشغالاً مع الإقرار بها وبوجوبها فهو كفر دون كفر.

أي: هو كفر غير مخرج عن الملة، وهو مذهب ابن عباس وغيره من الصحابة وأهل العلم.

وقد جاء لفظ الكفر في السنة بهذا المعنىٰ في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر][2].

الحديث الثاني: أخرجَ الترمذي عن عمر، عن النبي ﷺ قال: [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك] وسنده صحيح[3].

قال الترمذي: (وتفسير هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله: فقد كفر أو أشرك على التغليظ. والحجة في ذلكَ حديث ابن عمر أن النبي ﷺ سمع عمر يقول: وأبي وأبي، فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تَحْلفوا بآبائكم». وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في حِلفه: واللات والعزَّىٰ فَليقل: لا إله إلا الله». وهذا مثل ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرياء شرك»).

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرةَ، أن رسول الله ﷺ قال: [اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت][4].

3 ـ والآية في تتمتها وصف لمعالجة ما فات من الصلاة وغيرها من الفرائض والواجبات سواء من انقطاع أو انتقاص. وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

أي: أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها في طريق الحرام، ورضوا بالحياة الفانية وفضلوها على دار المقام، فهؤلاء سيلقون غياً: أي خساراً يوم القيامة. إلا من تدارك

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (1080)، كتاب الصلاة. باب ما جاء فيمن ترك الصلاة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (885).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (66)، ورواه البخاري وأكثر أهل السنن.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1590). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1241).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 58). انظر مختصر صحيح مسلم (55)، كتاب الإيمان، باب: الطعن في النسب والنياحة من الكفر.

نفسهُ بالتوبة والإيمان والعمل الصالح قبل فوات الأوان ، فهؤلاء يدخلون الجنة ويتجاوز الله عما سلف منهم ببركة الصدق وصحيح العمل والإيمان.

ومن ثمَّ فإن تعويض ما فات من الصلوات ليس بما يسمونه قضاءها ، فإن الصلاة التي فاتت قد فات وقتها لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ . وإنما كما صرحت هذه الآية بالإكثار من النوافل والعمل الصالح بعد التوبة وتصحيح الإيمان.

وفي ذلكَ جاءت السنة العطرة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة وأبو داود والترمذي بسند صحيح عن أنس بن حكيم الضبِّي قال: قال لي أبو هريرة: إذا أتيت أهل مصرك فأخبرهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أَوَّل ما يُحاسَبُ به العَبْدُ المسلِمُ يوم القيامة ، الصلاة المكتوبة. فإن أتمَّها ، وإلا قيلَ: انظروا هَلْ له من تطوُّع؟ فإن كان له تطوُّعٌ أكْمِلَت الفريضة من تطوعه ثم يُفْعَلُ بسائر الأعمال المفروضة مِثْلُ ذلك][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [إنَّ أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال: يقول ربنا جل وعزَّ لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمّها أم نقصها ، فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتمّوا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم][2] .

الحديث الثالث: روىٰ أبو داود كذلك في الباب عن تميم الداري ، عن النبي ﷺ ـ بهذا المعنىٰ ـ قال: [ثم الزكاة مثل ذلكَ ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك][3] .

وقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ .

أي: سيدخل التائبون المغفور لهم بذنوبهم وتقصيرهم جنات إقامة التي أخبر بها

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (1425)، في الصلاة. باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة. وانظر صحيح ابن ماجة (1172) ، وصحيح سنن أبي داود (770) ، وصحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (337).

(2) حديث صحيح. أخرجهُ أبو داود في السنن (864) ، وهو في حكم المرفوع ، كما يدل عليه الحديث الذي قبله. وذكره أبو داود في باب: «قول النبي ﷺ: كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه».

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (866) وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (771).

تعالى عباده ووعدهم بها بظهر الغيب ، ولا مخلف لوعده سبحانه. قال النسفي: (﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة ، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها). وقال ابن كثير: (﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ ، تأكيد لحصول ذلكَ وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدّله ، كقوله: ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ ، أي: كائن لا محالة. وقوله ها هنا: ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ أي: العباد صائرون إليه ، وسيأتونه). وقيل: مأتياً أي آتياً ، وكلا المعنيين حق.

وقوله: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾.

أي: لا يسمعون في الجنة ساقط الكلام ولغوه وتافهه وسفسافه ، بل يسمعون سلاماً من الملائكة أو من بعضهم على بعض ، ويحتمل أن يكون التقدير: لا يسمعون إلا ما فيه السلامة من النقص والعيوب. فهو استثناء منقطع عند الجمهور. كقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾. أي: في أوقات تتعاقب ، يعرفون مُضيَّها بأضواء وأنوار.

قال مجاهد: (ليس بكرة ولا عَشِيّاً ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا).

وعن قتادة قال: (فيها ساعتان بكرة وعشيّ ، فإن ذلكَ لهم ليس ثَمَّ ليل ، إنما هو ضوء ونور).

والمقصود: تعاقب الرزق عليهم في مثل وقت البُكرات ووقت العشيات ، لا أن هناكَ ليلاً ونهاراً. قال النسفي: (أي يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثَمَّ لأنهم في النور أبداً ، وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها ، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك.

وقيل: أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشياً تريد الدوام).

قلت: وهذا من بديع التفسير ، وأبدع منه ما جاء في صحيح السنة المطهرة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: [أَوّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجنَّةَ على صورةِ القمَرِ لَيْلَةَ البدر ، والذين على إثْرِهم كأشدّ

كَوْكَبٍ إضَاءَةٍ ، قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ لا اختلاف بينهم ولا تباغُضَ ، لكل امرئٍ منهم زوجتان ، كُلُّ واحدةٍ مِنْهُما يُرىٰ مُخُّ ساقِها من وراء اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ ، يُسَبِّحونَ اللهَ بُكْرَةً وعَشِيّاً ، لا يَسْقَمُونَ ولا يَمْتَخِطونَ ، ولا يَبْصُقون ، آنيتُهم الذَّهبُ والفِضَّةُ ، وأمشاطُهم الذَّهب ، ووَقودُ مجامِرِهم الألُوَّةُ ـ قال أبو اليمان: يعني العُودَ ورَشْحُهُمْ المِسْكُ. وقال مجاهد: الإبكَارُ: أوَّلُ الفجر ، والعَشِيُّ: مَيْلُ الشَّمس إلى أنْ ـ أُرَاهُ ـ تَغْرُبَ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمامُ أحمد بسند رجاله ثقات عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [الشهداء على بارِق نهرٍ ببابِ الجنَّةِ ، في قبَّةٍ خضراءَ ، يخرُجُ عليهم رزقُهم من الجنة بكرة وعشياً][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمن إذا اشتهىٰ الولدَ في الجنةِ ، كانَ حَمْلُهُ وَوَضعُهُ في ساعةٍ واحدةٍ ، كما يشتهي][3].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

أي: هذه الصفات العالية البديعة للجنة هي منازل المؤمنين الأتقياء يوم القيامة.

وفي التنزيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10 ـ 11]. وقد بدأها سبحانه بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي مسند البزار بسند جيد عن عدي بن الفضل عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفاً ومرفوعاً: [خلق الله تبارك وتعالى الجنة ، لبنة من ذهب ، ولبنةٌ من فضةٍ ، ومِلاطُها المسكُ ، فقال لها: تكلّمي ، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، فقالت الملائكة: طوبىٰ لك ، منزل الملوك][4]. وفي رواية: [منازل الملوك].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3246)، كتاب بدء الخلق. وانظر صحيح مسلم (2834)، ومسند أحمد (2/ 316) ، وجامع الترمذي (2537) ، وصحيح ابن حبان (7436).

(2) رجاله ثقات. أخرجه أحمد (1/ 266) ، والطبري (8213) ، والطبراني (10825) ، وابن حبان (4658) ، وصححه الحاكم (2/ 74) ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في «المجمع» (5/ 298): ورجال أحمد ثقات. وانظر صحيح الجامع (3636).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4338)، والترمذي وابن حبان. انظر صحيح الجامع (6525).

(4) حديث صحيح. أخرجه البزار من حديث أبي سعيد. انظر: «زوائد البزار» (317)، ومجمع الزوائد (10/ 397) ، وسلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2662).

64 ـ 65. **قوله تعالى:** ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ جبريل عليه السلام لنبينا ﷺ أن تَنَزُّلَهُ بأمر الله العظيم ، له الأمر كله وهو السميع العليم ، رب السماوات والأرض وما بينهما ـ فاعبده يا محمد واصطبر على مشاق الطريق ـ فهو الأحد الصمد لا شبيه له ، وله المثل الأعلىٰ وهو العزيز الحكيم.

أخرج البخاري والترمذي والنسائي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: [قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمنعكَ أن تزورنا أكثرَ مما تزورُنا؟ قال: فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ الآية][(1)].

وقوله: ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ـ فيه أقوال محتملة:

1 ـ قال الربيع: (﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ يعني الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ الآخرة ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ النفختين).

2 ـ وعن قتادة: (﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ما بين الدنيا والآخرة. أو قال: ما بين النفختين). وروي نحوه عن ابن عباس.

3 ـ وقال ابن جريج: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما مضىٰ أمامنا من الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ قال: ما بينَ ما مضىٰ أمامهم ، وبين ما يكونُ بعدهم).

قلت: وكلها أقوال محتملة في تفسير المراد من الآية ، واللهُ تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾. قال مجاهد: (ما نسيك ربك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3218) ـ كتاب بدء الخلق ـ وكذلكَ (4731)، (7455)، وأخرجه الترمذي (3158) ، والنسائي في «التفسير» (339).

وفي التنزيل نحوه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: 1 ـ 3].

أخرج البزار بسند جيد عن أبي الدرداء يرفعه ـ قال: [ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سكتَ عنهُ فهو عافية، فاقبلوا من الله عافِيَتَه، فإن الله لم يكن لينسىٰ شيئاً. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾][1].

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾.

أي: ربك ـ يا محمد ـ رب السماوات والأرض وما بينهما، خالق كل شيء والمتصرف في كل شيء، فهو الحاكم لا معقبَ لحكمه، فاثبت على عبادته. قال النسفي: (﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر على مكافأة الحسود، لعبادة المعبود، واصبر على المشاق، لأجل عبادة الخلاق، أي: لتتمكن من الإتيان بها).

وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾. أي: شبيهاً.

قال ابن عباس: (هل تعلم للرب مِثْلاً أو شِبهاً). وقال أيضاً: (ليسَ أحدٌ يُسَمَّىٰ الرحمنَ غيره). وقال ابن جريج: (لا شريكَ لهُ ولا مثل). وعن قتادة: (قوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ لا سميّ لله ولا عِدل له، كلّ خلقهِ يقرّ له، ويعترف أنه خالقه، ويعرف ذلكَ، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]).

66 ـ 72. **قوله تعالى**: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾.

في هذه الآيات: تكذيبُ الكافر بالبعث والحساب، وقد خلقهُ الله من العدم ووعده

(1) أخرجه البزار (123) (2231)، وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 55): ورجاله ثقات.

على كفره العذاب ، فالنارُ حق والصراط على جهنم يسقط فيها المجرمون ، وينجو بإذن الله المتقون.

فقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ـ إنكار وتعجب واستبعاد للإعادة بعد الممات.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت: أخرج حياً فأبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء! إنكاراً منه ذلك). قال القاسمي: (أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: أأخرج حيّاً بعدما لبثتُ في القبر مدة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد: 5].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 77 ـ 79].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [فيلقىٰ العبدَ ـ أي يوم القيامة ـ فيقول: أي: فُلْ ـ معناه يا فلان ـ! ألم أكرِمْكَ وأُسَوِّدكَ وأزوجْكَ وأسخِّر لك الخيل والإبل وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتربعُ؟ فيقول: بلىٰ أي ربِّ ، قال: فيقول: أفَظَنَنْتَ أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساكَ كما نسيتني] الحديث[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾.

استدلال من الله جل ثناؤه بالبدأةِ على الإعادة ، وهذا من حجج الله تعالى البالغة.

كما في التنزيل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: 27].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ أنه قال: [قال الله تعالى: كذّبني ابنُ آدمَ ، ولم يكنُ له ذلك ، وشتمني ولم يكن لهُ ذلك ، فأما تكذيبهُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (216/8) من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1932) ـ كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلكَ ـ باب: تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق ـ في أثناء حديث طويل.

إيّايَ فقوله: لَنْ يُعيدني كما بدأني ، وليسَ أوَّلُ الخَلْقِ بأَهْوَنَ عَلَيَّ من إعادتِهِ ، وأما شتمهُ إيّايَ فقوله: اتَّخَذَ اللهُ ولداً ، وأنا الأحد الصَّمدُ ، لمْ أَلِدْ ولم أُولَدْ ، ولم يَكُنْ لِي كُفُواً أَحَدٌ][1] .

وأخرج البخاري نحوه عن ابن عباس رضي اللهُ عَنهما ، عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدمَ ولم يَكُنْ لهُ ذلك ، وشتمني ولمْ يكُنْ له ذلكَ ، فأما تكذيبهُ إيَّايَ فزعَمَ أني لا أقدرُ أن أُعيدَهُ كما كانَ ، وأما شَتْمُهُ إيّايَ فقولُه: لي وَلَدٌ ، فسبحاني أن أتخِذَ صاحبةً أو ولداً] .

وقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ .

قسمٌ عظيم من الله سبحانه ، إذ أقسم بنفسه الكريمةِ أنه لا بد ـ يا محمد ـ أن يَحْشُرَ هؤلاء المستنكرين البعث والمعاد ، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ثم ليحضرنهم قعوداً حول جهنم .

قال النسفي: (﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أي الكفار المنكرين للبعث ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ الواو للعطف ، وبمعنىٰ مع أوقع ، أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة ، وفي إقسام الله باسمهِ مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله) .

والجثي جمع الجاثي. قال ابن عباس: (﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ يعني القعود ، وهو مثل قوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: 28]). وعن السدي: (﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، قال: يعني قياماً) .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ثم لنأخذن من كل جماعة منهم أشدّهم على الله عتواً وتمرّداً فلنبدأنّ بهم). والشيعة هم الجماعة المتعاونون على أمر .

قال مجاهد: (﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾: أمة. وقوله: ﴿ عِتِيًّا ﴾ قال: كفراً). قال ابن عباس: (يقول: أيهم أشدّ للرحمن معصية ، وهي معصيته في الشرك). وعن أبي الأحوص قال: (نبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً). وعن قتادة قال: (ثم لننزعنَّ من أهل كلِّ دين قادتهم ورؤوسهم في الشر) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4974) ـ كتاب التفسير ـ وانظر (4428) ـ للرواية الأخرىٰ.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾.

قال ابن كثير: (ثمّ هاهنا لعطف الخبر على الخبر، والمرادُ أنه تعالى أعلمُ بمن يستحقُ من العباد أن يَصْلَىٰ بنار جهنم ويخلد فيها ومَنْ يستحقّ تَضعِيفَ العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾.

هو من ذكر الصراط يوم القيامة. والصراط: جسر على جهنم، يُوَجَّه الناس إليه بعد مفارقتهم مكانَ الموقف إلى الظلمةِ التي دون الصراط حيث يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم الوصول إليهم.

ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي اللهُ عَنْها قالت: [إن رسول الله ﷺ سُئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: هم في الظلمة دون الجسر].

وفي رواية قالت: [سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: على الصراط][1].

وعن قتادة: (﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ قال: هو المرّ عليها). أي المرور على الصراط.

وعن أبي الأحوص عن عبد الله: في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ قال: (الصراط على جهنم مثلُ حد السيف، فتمر الطبقة الأولىٰ كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلِّم سلِّم).

وفي صحيح سنن الترمذي عن عبد الله قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾، قال: [يردونها ثم يصدرون بأعمالهم][2].

وكذلك روى الترمذي بسند صحيح عن السدي قال: سألت مُرَّة الهمداني عن قول الله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾، فحدثني: أن عبد الله بن مسعود حدثهم قال: قال رسول الله ﷺ: [يَرِدُ الناسُ النارَ، ثم يَصْدُرُونَ عنها بأعمالهم، فأوّلهُم كلَمْحِ البَرْقِ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2791)، ورواه أحمد في المسند ـ حديث رقم ـ (3516).
(2) صحيح موقوف، وهو في حكم المرفوع. أخرجه الترمذي في السنن (3382) ـ عند تفسير سورة مريم ـ آية ـ (71). وانظر صحيح سنن الترمذي (2527).

ثم كالريح ، ثم كحضْرِ الفَرس ، ثم كالراكب في رحلهِ ، ثم كَشَدِّ الرَّجُلِ ، ثم كَمَشْيِهِ](1) .

وأما قوله : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ، قال مجاهد : (قضاء) ـ أي : قضاء مقضياً . وقال قتادة : (قسماً واجباً) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

قال قتادة : (على ركبهم . قال : إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة ، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم فأُنْجُوا منها ، وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم واحتبسوا بذنوبهم) .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن أم مُبَشِّر عن النبي ﷺ قال : [والذي نفسي بيدهِ ، لا يلج النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة . قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، أليسَ اللهُ يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال : ألا تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾](2) .

فأخبرها عليه الصلاة والسلام أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نَجّاه الله منهم ، كما قال سبحانهُ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ ولم يكن العذاب أصابهم بل أصاب غيرهم(3) .

يروي الحاكم والبيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال : (يجمع الله الناس يوم القيامة ، إلى أن قال : فَيُعْطَوْن نورهم على قدر أعمالهم ، وقال : فمنهم من يُعطىٰ نورَهُ مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطىٰ نورهُ فوق ذلكَ ، ومنهم من يُعطىٰ نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطىٰ دون ذلكَ بيمينه حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدّم قدمه ، وإذا طفىء قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دَحضٌ ، مَزَلّة ، فيقال لهم : امضوا

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3381) ، كتاب التفسير ، سورة مريم ، آية (71) . انظر صحيح سنن الترمذي (2526) .

(2) حديث صحيح . أخرجهُ مسلم في صحيحه (2496) ، وأخرجهُ أحمد في مسنده (6/ 420) .

(3) انظر شرح العقيدة الطحاوية ـ لابن أبي العز الحنفي ـ مسألة الصراط . وكتابي : أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/ 752) ـ بحث الصراط على جهنم والشفاعة .

على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدِّ الرَّجل ، يَرْمُلُ رَمَلاً ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتىٰ يمر الذي نوره على إبهام قدمه ، تخرّ يدٌ ، وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمدُ لله الذي نجّانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يُعطَ أحدٌ)[1].

فصفة الصراط كحدّ الموسىٰ في دقتِهِ، لا ينفع في المرور عليه إلا توفيق الله ورحمته.

يروي الحاكم بسند صحيح عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة السلام، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكةُ: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول اللهُ تعالى: لمن شئتُ من خلقي ، فتقول الملائكةُ: سبحانكَ ما عبدناكَ حق عبادتكَ ، ويوضع الصراط مثل حد الموسىٰ فتقول الملائكةُ: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانكَ ما عبدناكَ حق عبادتك][2].

كما لا يستطيعُ أن يتدخلَ في الموقف ويشفع ، إلا من أذن الله له بالكلام وأكرمه بالشفاعة ، وإنما يُضرب الجسر على جهنم ثم تحل الشفاعة.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي اللهُ عنه: [أن ناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم ، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدرِ صَحْواً ليسَ فيها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: ما تضارّون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن: ليَتَّبع كلُ أمة ما كانت تعبد. فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتىٰ إذا لم يبقَ إلا من كان يعبُدُ الله من بَرٍّ وفاجرٍ ، أتاهم رب العالمين ، قال: فماذا تنظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا فارَقنا الناس في الدنيا أفقرَ ما كنا إليهم ولم نصاحبهم.

وفي رواية: فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقىٰ من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقىٰ من

(1) انظر تفصيل ذلكَ في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 753 ـ 754).

(2) حديث صحيح. رواه الحاكم (4/ 586) بسند صحيح من حديث سلمان رضي الله عنه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة. كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سَلِّم سَلِّم، فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مُسَلَّم[1]، ومخدوش مرسَل[2]، ومكدوس في نار جهنم[3]، حتىٰ إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة في الحق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار..] الحديث[4].

73 ـ 76. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن سلوك الكفار حين تُتلىٰ عليهم آيات الله واضحة بينة ظاهرة الدلالة والحجّة كيف يصدون ويعرضون ويفتخرون على الذين آمنوا كذباً أنهم خير منازل وأرفع مكانة وأعمر نادياً، والله قد أهلك من قبلهم أقواماً كانوا أشد قوة وأكثر متاعاً. إن الله يمهل الكافرين حتىٰ يوقعهم في شباك العذاب، ويزيد المؤمنين هدىٰ وعند الله لهم خير الثواب.

فعن ابن عباس: (﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ قال: المقام: المسكن، والنديّ: المجلس والنّعمة والبهجة التي كانوا فيها. أو قال: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه).

وعن مجاهد: (في قول الله: ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ قال: قريش تقولها لأصحاب

(1) أي: نجاة وسلامة.
(2) أي: خدش ولكن صاحبه ينطلق ويصل مع الإرهاق.
(3) أي: متراكم بعضه فوق بعض في جهنم.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 118)، وانظر الحديث بتمامه مع تفصيل بحث الصراط والشفاعة في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 755 ـ 759).

محمد ﷺ ، ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ قال: مجالسهم ، يقولونه أيضاً). قال قتادة: (رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة ، فَعَرَّض أهل الشرك بما تسمعون قوله ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ يقول: مجلساً). وقال أيضاً: (الندي: المجلس ، وقرأ قول الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ [العلق: 17] قال: مجلسه).

قال ابن كثير: (﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ، أي: أحسنُ منازل وأرفعُ دُوراً وأحسنُ ندياً ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أي: ناديهم أعمرُ وأكثر وارداً وطارقاً ، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟ كما قال تعالىٰ مخبراً عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: 11]. وقال قومُ نوح: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: 111] ، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: 53]).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ .

أي: كم أهلكنا قبلهم من أمم كانوا على رَغَدٍ من العيش أكبر ، وأموال وأمتعة أكثر ، وأشكال ومناظر أجمل. وكلام المفسرين متقارب حول هذا المعنىٰ.

قال ابن عباس: (﴿ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ ، الرئي: المنظر ، والأثاث: المتاع).

وعن الحسن: (الأثاث: أحسن المتاع ، والرئي: المال). وعن قتادة: (﴿ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ قال: أحسن صوراً ، وأكثر أموالاً). وقال: (أي أكثر متاعاً وأحسن منزلة ومستقراً ، فأهلك الله أموالهم ، وأفسد صورهم عليهم تبارك وتعالىٰ).

وقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ . أي: قل يا محمد لمن أصر على الكفر: إنّ الله يمد له ليمكر به.

قال مجاهد: (فَلْيَدَعْهُ الله في طغيانه). قال النسفي: (وهذا الأمر بمعنىٰ الخبر ، أي من كفر مدّ له الرحمن يعني أمهله وأملىٰ له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً ، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ .

أي: حتى إذا باغتهم وعد الله بالعذاب في الدنيا بالقتل والأسر على أيدي المسلمين، أو قامت القيامة لينالهم فيها من الخزي والنكال، فهنالك يعلمون أن المؤمنين هم كانوا خيراً مقاماً وأحسن ندياً لا الكفار.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾.

قال القرطبي: (أي ويثبت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم في النّصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم). قال: (﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي جزاء، ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي في الآخرة مما افْتَخَرَ به الكفار في الدنيا). قيل: ﴿خَيْرٌ مَرَدًّا﴾ من الردّ، أي خيرٌ رداً على عاملها بالثواب. وقيل: أي خيرٌ مرجعاً فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله.

قلت: وهذه الهداية المذكورة في الآية على نوعين:

النوع الأول: قوله: ﴿ الَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ ـ أي قبلوا بهداية الرسل وصدقوا بها وتابعوهم على الحق. وهي الهداية المسماة: هداية الدلالة والإرشاد.

النوع الثاني: قوله ﴿ هُدًى﴾ ـ أي يزيد الله أصحاب الهداية السابقة ـ هداية الدلالة والإرشاد ـ هداية خاصة، وهي هداية التوفيق والإلهام، نتيجة لصدقهم في قبول هداية المرسلين، ورسوخهم في ما يقتضيه ذلك من الإيمان واليقين(1).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15 ـ 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته

(1) انظر بحث ـ مراتب الهداية والضلال ـ في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 893).

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينَّه ، وإن استعاذني لأعيذنَّه ، وما تردّدتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1] .

وأما الباقيات الصالحات فهي جميع أعمال الآخرة ، وقد جاء تخصيص عطر لشيء من ذلك في السنة الصحيحة :

فقد أخرج النسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [خُذوا جُنَّتكم من النار ، قولوا: سُبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يومَ القيامة مُقدِّماتٍ ، ومُعَقِّباتٍ ، ومُجَنِّباتٍ ، وهُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ][2] .

77 ـ 80. **قوله تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: تهديد شديدٌ ووعيد أكيد لذلك الكافر الذي يظن أنّ له عند الله مالاً وولداً ، وكأنه اطلع على الغيب أو اتخذ عند الله عهداً ، كلا سيحيق المكر به ويحرمه الله المال والولد فيأتي يوم القيامة فرداً .

أخرج البخاري ومسلم عن خَبَّاب قال: [كنتُ قَيْناً في الجاهليةِ وكان لي على العاصي بن وائل دَيْنٌ فأتَيْتُه أتقاضاه. فقال: لا أُعطيكَ حتىٰ تكْفُرَ بمحمد ، فقلت: لا أكْفُرُ حتىٰ يميتَكَ الله ثم تُبْعَثَ. قال: دَعْني حتىٰ أموتَ وأُبْعَثَ فَسأُوتىٰ مالاً وولداً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4/ 231) ، والبغوي في «شرح السنة» (1/ 142/ 2) ، ويشهد له ما في مسند أحمد (6/ 256).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انظر تخريج الترغيب (2/ 248) ، وصحيح الجامع (3209).

فأقضيك ، فنزلتْ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾][1] .

ورواه أحمد وفي لفظه : [قال : فإني إذا مِتُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ ، فأعطيتك . فأنزل الله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾] .

وعن مجاهد : (﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ قال : العاص بن وائل يقوله) .

وقوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ ـ إنكار على هذا المدّعي الكاذب ، أي : هل علم الغيب أم اتخذ عند الله مَوْثِقاً . قال البخاري : (﴿ عَهْدًا ﴾ : موثِقاً) .

وعن ابن عباس : (﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : لا إله إلا الله ، فيرجوه بها) .

وقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ . قال ابن كثير : (هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ .

قال ابن جرير : (أي سنكتب ما يقول هذا الكافر بربه ، القائل ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ يقول : ونزيده من العذاب في جهنم بقيله الكذب والباطل في الدنيا ، زيادة على عذابه بكفره بالله) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

أي : نسلبه المال والولد ـ عكس ما ادّعىٰ ـ ويأتينا يوم القيامة فرداً من المال والولد .

قال قتادة : (﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ : لا مال له ولا ولد) . وقال ابن زيد : (﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ما جمع من الدنيا وما عمل فيها . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال : فرداً من ذلك ، لا يتبعه قليل ولا كثير) .

81 ـ 84 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2091) ، كتاب البيوع ، وأخرجه مسلم (2795) ، والترمذي (3162) ، وانظر مسند أحمد (5/ 111) ، وصحيح ابن حبان (4885) .

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

في هذه الآيات: اتخاذُ الكافرين آلهة من دون الله سيكفرون بها يوم يلقون الخزي والعذاب، وسوء الحساب، فالله تعالى يرسل الشياطين على الكافرين ليزدادوا غيّاً، وإنما هم صائرون في وقت محدود إلى عذاب الله ليذوقوا نكالاً.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾. يعني مشركي قريش.

قال القرطبي: (وظاهر الكلام أن ﴿عِزًّا﴾ راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله. ووحّد لأنه بمعنىٰ المصدر، أي لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. قال ابن عباس: (يقول: أعواناً).

وقال مجاهد: (عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم). وقال ابن زيد: (الضد: البلاء). وقال عكرمة: (الضدّ: الحسرة).

وعن السدي: (﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف مارَجَوْا منهم). وقال: (الخصماء الأشداء في الخصومة).

والمعنىٰ: يجيبهم الله تعالىٰ بقوله: كلاّ ـ: أي ليس الأمر كما تظنون وتتوهمون، بل سيكفرون بعبادة هذه الأصنام أو ينكرون أنهم عبدوها، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

قال ابن عباس: (﴿أَزًّا﴾ يقول: تغريهم إغراء. قال: تؤزّ الكافرين إغراء في الشرك، امض امض في هذا الأمر حتىٰ توقعهم في النار، امضوا في الغيّ امضوا).

وقال قتادة: (تزعجهم إزعاجاً في معصية الله). أو قال: (تزعجهم إلى معاصي الله إزعاجاً).

وقال السدي: (تطغيهم طُغياناً).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

قال ابن زيد: (نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس).

وفي المسند بإسناد حسن عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الشيطان قال: وعِزَّتك يارب لا أبرحُ أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][1].

قلت: وإنما يتابع الشيطان زحفه على الكفار ما دام انعدم منهم الاستغفار، فيحملهم بأزّه على محاربة دين الله في الأرض ونشر الفواحش والمعاصي والآثام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾. قال ابن عباس: (نعدّ أنفاسهم في الدنيا). وقال السدي: (السنين، والشهور، والأيام، والساعات).

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في حلول نقمة الله بهم، فإن لهم أجلاً هم بالغوه ثم هم صائرون بحلوله إلى عذاب الله وسخطه ونكاله.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 42].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ [آل عمران: 178].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية، حديثان:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لَيُملي للظالم حتىٰ إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(1) حديث حسن. رواه الحاكم (4/ 261)، وأحمد (3/ 29/ 41)، والبيهقي في «الأسماء» (ص 134)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (104).

﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والطبراني بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][2].

85 ـ 87. قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله تعالىٰ حال المتقين كيف يردون إليه وفداً، في حين يساق المجرمون إلى جهنم ورداً، لا شفيع لهم فإن الشفاعة تنال من اتخذ عند الله عهداً: شهادة أن لا إله إلا الله ينال بها العبد سعادة ومَجْداً.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ـ إشارة إلى حسن الاستقبال والتكريم كما يستقبل الوفود. قال القاسمي: (﴿وَفْدًا﴾ أي وافدين عليه. وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد. ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم، المزورِ والزائرِ).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾. أي: عِطاشاً. قال قتادة: (ظماءً إلىٰ النار). والوِرْد جمع وارد، وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمىٰ به الواردون. وفي ذكرهم بالسَّوق إشعار بإهانتهم واستخفافهم.

قال النسفي: (أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف. أي اذكر يوم نحشر. ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم. والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء استخفافاً بهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، كتاب التفسير، سورة هود، آية (102)، ورواه مسلم.

(2) أخرجه أحمد (4/ 145)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾. أي: لا تنال الشفاعة إلا أهل الإيمان والعمل الصالح.

قال ابن كثير: (أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالىٰ مخبراً عنهم: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: 100 ـ 101]. وقوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾، هذا استثناء منقطع، بمعنىٰ: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقِّها).

وعن ابن عباس: (العهدُ شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأُ من الحَوْل والقُوَّة، ولا يرجو إلا الله عز وجل). وقال ابن جريج: (المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾. قال: عملاً صالحاً).

88 ـ 95. قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾.

في هذه الآيات: إنكار وتهديد، ووعيد شديد، لمن زعم أن للرحمن ولداً، فالسماوات تتصدع والأرض تتشقق والجبال تخرّ لهذا الافتراء هدّاً، فكل ما في السماوات والأرض يقدم يوم القيامة عبداً، والله أحصاهم جميعاً وعدّهم عداً، وكل عبد يأتي يوم القيامة فقيراً إلى ربه متذللاً فرداً.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾.

إنكار شديد على من زعم أنه لله ولداً، تعالىٰ الله وتقدس عما يقولون علواً كبيراً، وذلك بعد تقريره سبحانه في أرجاء هذه السورة عبودية عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وخَلْقِه من مريم بلا أب. قال ابن عباس: (﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ يقول: قولاً عظيماً). وقال: (يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً وهو المنكر من القول). وفي لغة العرب: أدّ فهو آد والاسم الإدّ، إذا جاء بشيء عظيم منكر. قال الجوهري: (الإدّ والإدّة الداهية والأمر الفظيع).

وقراءة العامة ﴿إِدًّا﴾ بالكسر ، وقراءة أبي عبد الرحمن السُّلمي ﴿أَدًّا﴾ بالفتح ، وأما بالمدِّ «آدٌّ» فهي لغة لبعض العرب .

وقوله : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ . أي : يتشققن . قال الضحاك : (أي : يتشققن فرقاً من عظمة الله) .

وقوله : ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ . أي : تتصدع ، قال ابن زيد : (أي : غضباً لله عز وجل) .

وقوله : ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ . قال ابن عباس : (هدماً أي تسقط بصوت شديد) . وقال سعيد بن جبير : (﴿هَدًّا﴾ : ينكسر بعضها على بعض متتابعات) .

وقوله تعالىٰ : ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ .

قال ابن كثير : (أي : يكاد ذلك يكون عند سماعِهنّ هذه المقالة من فَجَرة بني آدم ، إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومُؤَسَّساتٌ على توحيده ، وأنَّه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبةَ له ، ولا كُفْءَ له ، بل هو الأحد الصمد) .

وعن ابن عباس قال : (إن الشِّرك فَزِعت منه السماوات والأرض والجبال ، وجميع الخلائق إلا الثَّقلين ، فكادت أن تزولَ منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسانُ المشرك ، كذلك نَرْجُو أن يغفر الله ذنوب الموحِّدين) .

وفي التنزيل :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء : 48] .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ الأشعري قال : قال النبي ﷺ : [ما أَحَدٌ أَصْبَرَ على أذىً سمعه من الله ، يَدَّعون له الولدَ ثم يعافيهم وَيَرْزُقُهم][1] .

ورواه مسلم عنه بلفظ : [ما أَحَدٌ أَصْبَرَ على أَذَىً يَسْمعه من الله تعالىٰ ، إنهم يجعلون له نِدّاً ، ويجعلون له وَلداً ، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويُعطيهم][2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7378) ـ كتاب التوحيد ، وكذلك (6099) ـ كتاب الأدب .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2804) (49 ـ 50) ـ كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبي موسىٰ مرفوعاً . وانظر مسند أحمد (4/ 395) .

قال القرطبي: (أي لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز في حقه، لأنه لا يكون ولدٌ إلا من والد يكون له والد وأصل، والله سبحانه يتعالىٰ عن ذلك ويتقدس).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

قال القاسمي: (أي مملوكاً له يأوي إليه بالعبودية والذل).

و﴿إِنْ﴾: نافية بمعنىٰ ما. والتقدير: ما كل من في السماوات والأرض إلا سيأتي يوم القيامة خاضعاً لله مقرّاً له بالعبودية والذل.

وفي التنزيل:

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: 87] ـ أي صَاغرين أذلاء.

والآية ردٌّ آخر على من نسب لله الولد، بل الكل عبيد لله لا نسب بينه وبينه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: لقد أحصىٰ الرحمن خلقه كلهم، وعدّهم عداً، فلا يخفىٰ عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يعزب عنه منهم أحد. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾. يقول: وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيداً لا ناصر له من الله، ولا دافع عنه، فيقضي الله فيه ما هو قاضٍ، ويصنع به ما هو صانع).

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الإمام النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلاّ أن تُخْبِرَنا يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنىٰ، هذا كتاب من ربّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم، فلا يُزادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعَملُ إن كان هذا أمْراً قد فُرِغَ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل، ثم قام بيده فقبضها، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل

من العباد ، ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرىٰ فقال: فريق في السعير][1] .

96 ـ 98. **قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ .**

في هذه الآيات: ضمانٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين ، بجعل المودة في الأرض وحسن الذكر في الصالحين ، وهذا القرآن قد يَسَّر ذكره لك ربك ـ يا محمد ـ لتبشر به المتقين ، وتنذر الفجار الآثمين ، أن يصيروا كما صار قبلهم من كفر من الأمم فأصبحوا خامدين .

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ ـ بشارة عاجلة للمؤمن في الحياة الدنيا .

فعن ابن عباس: (﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا). أو قال: (حبّا) .

وقال: (الودّ من المسلمين في الدنيا ، والرزق الحسن ، واللسان الصادق) .

وقال مجاهد: (يحبهم ويحببهم إلى خلقه). أو قال: (يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين) .

وقال قتادة: (ما أقبل عبدٌ إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه ، وزاده من عنده) .

وفي الأثر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يقول: (ما من الناس عبد يعمل خيراً ولا شراً ، إلا كساه الله رداء عمله). ذكره ابن جرير من طريق قتادة .

وفي المسند وصحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ ، إني أحبُّ فلاناً فأحِبَّه. قال: فيحبُّه جبريل. قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلاناً. قال: فَيحِبُّه أهل السماء ، ثم يُوضَعُ له القبولُ في الأرض. وإنّ الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريلُ ، إني أبغضُ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 167) ، والنسائي في الكبرىٰ (11473) ، والترمذي (2141) .

فلاناً فأبغضْهُ. قال: فيبغضُهُ جبريلُ. ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يُبْغِضُ فلاناً فأبغِضُوه. قال: فَيُبْغِضُه أهلُ السماء، ثم توضَعُ له البغضاء في الأرض][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا أحَبَّ الله عَبْداً نادىٰ جِبْرَئيلَ: إني قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاناً فأحِبَّهُ. قال: «فينادي في السماء، ثم تُنْزَلُ لهُ المحبّةُ في أهل الأرض، فذلك قوله الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾. وإذا أبْغَضَ الله عبداً نادىٰ جِبْرَئيلَ: إني قدْ أبْغَضتُ فلاناً، فينادي في السماء، ثم تُنْزَلُ له البغضاء في الأرض][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

أي: إنما يسرنا هذا القرآن بلسانك يا محمد، وهو اللسانُ العربي المبين الفصيح الكامل، لتبشر به المؤمنين المخبتين لربهم بشائر الظفر والفوز في الدنيا والآخرة، وتنذر به قوماً مالوا عن الحق واختاروا طريقاً عوجا باطلاً. قال ابن عباس: (﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: فجّاراً).

قال مجاهد: (﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: لا يستقيمون). وقال السدي عن أبي صالح: (عُوجاً عن الحق). وقال الحسن: (صُمّاً عن الحق) وقال غيره: (صُمٌّ آذان القلوب). وقال الضحاك: (الألدّ: الخصم). وقال القُرظي: (الألدّ: الكذاب).

وقال ابن زيد: (الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]).

قلت: وأصل اللَّد: شدة الخصومة. قال الرازي: رجُل «أَلَدُّ» بَيِّنُ «اللَّدَد» أي شديد الخصومة). وقوم لُدٌّ. أي أهل لدَد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق، والخطاب وإن كان لكفار قريش فإنه ينسحب على جميع الطغاة والكفرة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أي: كم مضىٰ من سنتنا في إهلاك أمم الكفر والطغيان، لما كذبوا الله والرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام، هل ترىٰ منهم أحداً يا محمد أو تسمع لهم صوتاً؟!

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3209)، (7485)، وأخرجه مسلم (2637)، وأحمد (2/ 267)، وكذلك (2/ 509)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (364) من طرق عن أبي هريرة به.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3384)، كتاب التفسير، سورة مريم، آية (96). وانظر صحيح سنن الترمذي (2528)، وأصله في الصحيحين والمسند كما مضىٰ.

أم إنهم بادوا جميعاً وأهلكوا ، وخلت ديارهم وأوحشت منازلهم ، وصاروا عبرة لمن يعتبر.

وعن قتادة: (﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال: هل ترىٰ عيناً ، أو تسمع صوتاً). وعن ابن عباس: (﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال: صوتاً). وقال: (رِكْزُ الناس أصواتهم). وعن ابن زيد: (﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال: أو تسمع لهم حِسّاً. قال: والركز: الحسّ).

قلت: والرِّكز في كلام العرب الصَّوْت الخفي. والمعنىٰ: هل تسمع لأولئك الهلكىٰ همساً أو صوتاً خفياً ! أم سكنوا لمصرعهم وغاب حسهم وانقرضوا وبادوا عن آخرهم.

تم تفسير سورة مريم
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الذي خلق من العدم ، قادر أن يهب مولوداً رغم الهرم .

2 ـ وجود الرزق عند مريم عليها السلام ، إثبات للكرامات التي يختص الله بها أهل الإيمان .

3 ـ هين على الله أن يخلق مولوداً بلا أب ، ومثل عيسىٰ كمثل آدم في الخلق .

4 ـ ليس عيسىٰ الله ولا ابنه ، ولا ثالث ثلاثة ، بل هو عبد الله ورسوله .

5 ـ يموت يوم القيامة الموت ، فالحياة خالدة في الجنة والنار .

6 ـ الأنبياء عليهم السلام ، قدوة في منهاجهم لجميع الأنام .

7 ـ من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع ، ومن إضاعتها إضاعة مواقيتها .

8 ـ التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن تاب وأناب فله الجنة بإذن الله .

9 ـ الجنة منازل الأتقياء ، سلام ونور ونعيم خالد جزاء الصدق والوفاء .

10 ـ من خلق الخلق من عدم ، ألا يعيده من وجود ؟!

11 ـ تعبر الخلائق على الصراط النار ، فتكون برداً على المؤمنين ، وجحيماً على الكافرين .

12 ـ يخرج من النار من كان في قلبه أدنىٰ ذرة من إيمان .

13 ـ سيعلم الكفار في الآخرة أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ، والمؤمنون يحشرون إلى ربهم وفداً ، ويساق المجرمون إلى جهنم ورداً .

14 ـ إذا أحبّ الله عبداً أمر جبريل بحبه ، وأن ينادي الملائكة أحبوه ، ثم يوضع له القبول والمحبة في الأرض .

15 ـ يسّر الله القرآن باللسان العربي المبين ، وفيه بشرىٰ للمتقين ، وإنذار ووعيد للكافرين .



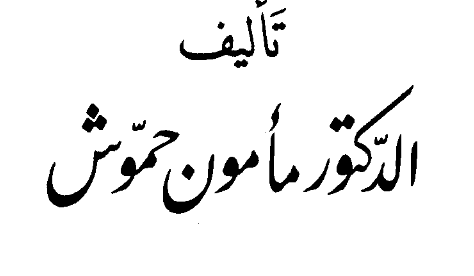
عَلَى منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة

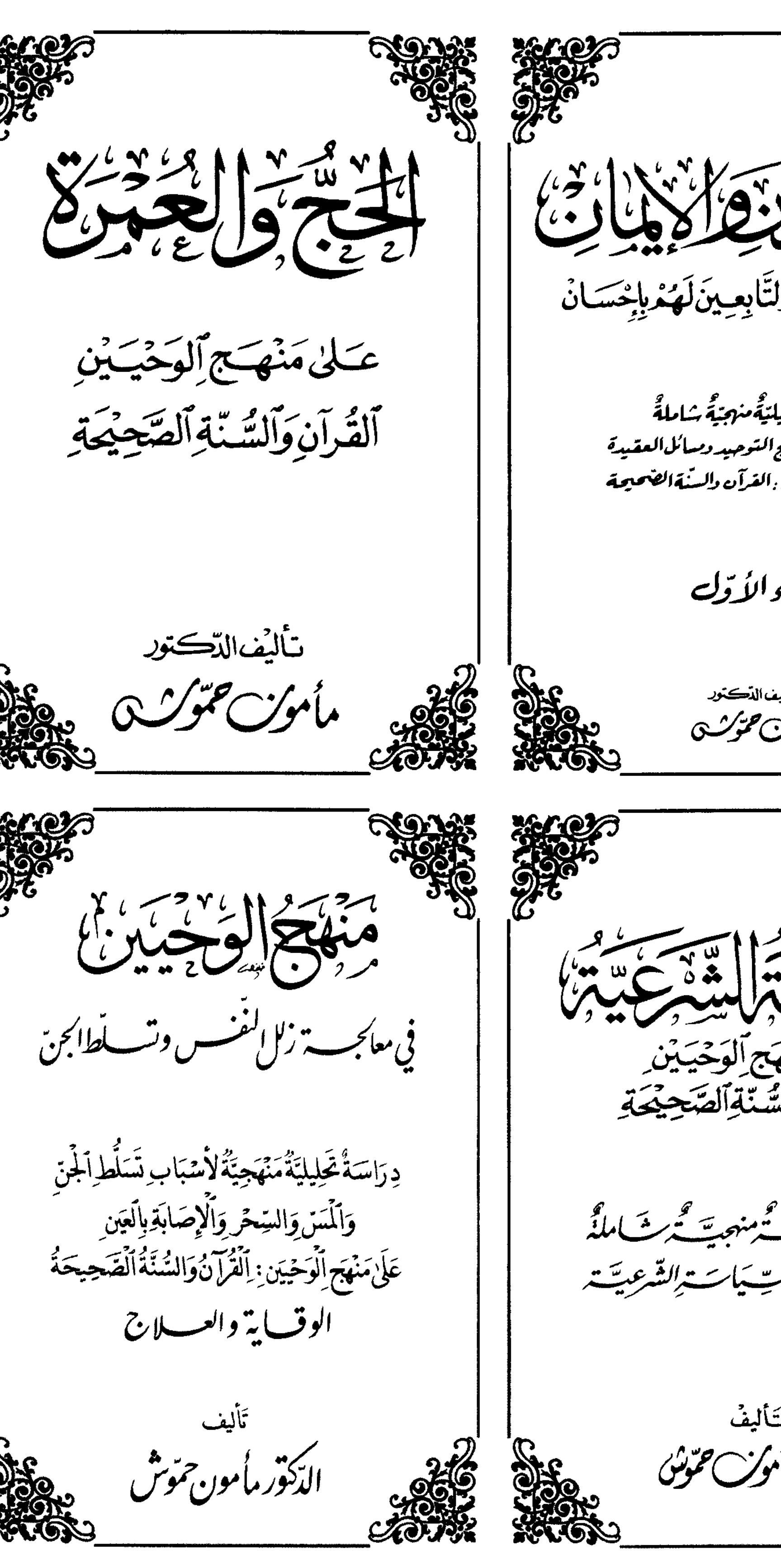
دراسة تحليلية منهجية فقهية شاملة

في محاولة لإسقاطها على الواقع المعاصر

المجلد الثالث

تأليف




أصل الدين والإيمان
عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان
دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول الإيمان ومنهج التوحيد ومسائل العقيدة
على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة
الجزء الأول
تأليف الدكتور
مأمون حموش
الحج والعمرة
على منهج الوحيين
القرآن والسنة الصحيحة
تأليف الدكتور
مأمون حموش
السياسة الشرعية
على منهج الوحيين
القرآن والسنة الصحيحة
دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول وضوابط السياسة الشرعية
تأليف
الدكتور مأمون حموش
منهج الوحيين
في معالجة زلل النفس وتسلط الجن
دراسة تحليلية منهجية لأسباب تسلط الجن
والمس والسحر والإصابة بالعين
على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة
الوقاية والعلاج
تأليف
الدكتور مأمون حموش

عُلُومُ الحَدِيثِ

وَتَرَاجِمُ أَعْلَامِهِ وَفُرْسَانِهِ

دراسة تحليلية منهجية شاملة
لعلوم الحديث ومصطلحاته وتراجم رجاله

تأليف

الدكتور مأمون حموش

تَحْصِيلُ السَّعَادَتَيْنِ عَلَى مَنْهَجِ الوَحْيَيْنِ

دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مَنْهَجِيَّةٌ شَامِلَةٌ
لِتَفْصِيلِ النَّشْأَتَيْنِ وَطَرِيقِ السَّعَادَتَيْنِ
عَلَى مَنْهَجِ الوَحْيَيْنِ: القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ

تأليف

الدكتور مأمون حموش

الأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ

وَعَوَامِلُ الشَّدِّ إِلَى الخَلْفِ

دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ
عَلَى مَنْهَجِ الوَحْيَيْنِ: القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ

تأليف

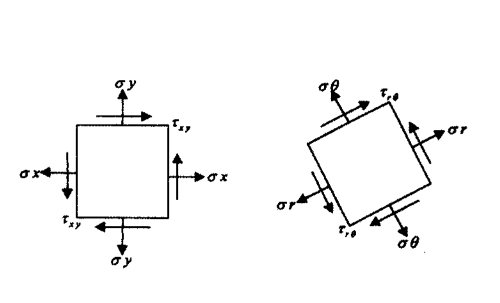
الدكتور مأمون حموش



نظرية المرونة

THEORY OF ELASTICITY

(دراسة تحليلية و تطبيقات هندسية)



الدكتور المهندس : مأمون حموش
كلية الهندسة المدنية
جامعة دمشق